AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٦٥ - السنة ٤٩ - شوال ١٤٣١ هـ - تشرين الأول ٢٠١٠م



الأرض - للفنانة سهام إبراهيم

الفنون السورية القديمة

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا

وزير الثقافة

كلمة العدد

سمك القرش والنورس البحري

د. علي القيّم رئيس التحرير

الأجاريتية من خلال النصوص السمارية

د. علي أبو عساف

التصنيف السماعي في مدونات الشعوب

د. عمر الدقاق

حقوق الإنسان في التراث العربي

أحمد عمران الزاوي

اللغة الحثية - دراسات ومختارات

فايز مقدسي

وحدة التشريع - ضرورة وطنية ملحة

هائل منيب اليوسفي

الكتاب الأخير

د. عبد الكريم الأشتر

الجامعات الإلكترونية ومفهوم التعليم عن بعد

د. فايز حداد

الإبداع

موجات قصيرة - شعر: سليمان العيسى

محطات للشاعر - شعر: عبد الكريم الناعم

نور الآخر - قصة: عزيز نصار

سيد الشمس - قصة: خالد عبيد

العلمانية في المشرق العربي

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد **مع الفنان التشكيلي العالمي عمر حمدي**



المعرفة

AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٦٥ السنة ٤٩ - شوال ١٤٣١ هـ - تشرين الأول ٢٠١٠ م

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

دعوة إلى الكتّاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠-٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠-٦٠٠٠ كلمة
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها
- تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها. ولا تُعاد لأصحابها
- يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة على العنوان التالي:

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلة المعرفة - تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي : مطابع وزارة الثقافة

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرةُ البريد خارجَ القطر

في هذا العدد

كلمة الوزارة

كلمة العدد

الدراسات والبحوث

الإبداع

شعر :

قصة :

آفاق المعرفة

حوار العدد

متابعات

كتاب الشهر

آخر الكلام

كلمة الوزارة

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

اللغات السورية القديمة

مع كل موسم تنقيب أثري تكبر ثروتنا من المكتشفات الهامة التي تلقي المزيد من الضوء على تاريخ بلادنا، ويتضاعف تراث أمتنا غنى وثراء، وفي الأشهر الماضية تمَّ اكتشاف العديد من النصب والرقيمات التي تقدم شواهد جديدة على عظمة الحضارة التي بناها أجدادنا الأوائل الذين كانوا أوّل من

اخترع الكتابة، وقد شاقني هذا الاكتشاف المطرد وحفّزني (وأنا غير متخصص في علوم الآثار) إلى تأمل السيرة اللغوية في سورية، فأما الكشف الأخير فهو نصب تأسيس الكتلة الحمراء من قصر ماري (رقم من الطين) يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وماري من أهم المواقع الأثرية على ضفاف نهر الفرات (وهي قرب مدينة البوكمال) بقيت منسية أربعة آلاف عام، حتى تمَّ اكتشافها عام ١٩٣٣ وكان أهم ما اكتشف فيها هو القصر الملكي وهو أهم قصر أثري في الشرق، وها هي ذي تتوالى الاكتشافات في ماري وفي أرض سورية، وقد زاد عدد الرقيمات المكتشفة في ماري وحدها على اثنين وعشرين ألف رقيم مكتوب عليها ما يكشف تاريخها، فضلاً عن الحلي النادرة التي قدمنا نماذج منها في معرض خاص أقمناه في متحف دمشق الوطني بعنوان (بحر من الحلي) وأما حديث اللغات في سورية فهو عندي حديث حضارة البشرية الأولى، ولا ينكر أحد من الباحثين أن بلادنا عرفت أقدم اللغات الإنسانية وأن شعبنا السوري الكنعاني الفينيقي هو الذي اخترع الأبجدية الأولى، وتأتي اللغة الكنعانية في فروع اللغات السامية الأقدم، يربطها نسب عريق مع كل اللغات التي ظهرت في المنطقة، وهي سلسلة متواصلة في شجرة عائلة اللغات السامية كما يرى الباحثون المتخصصون في اللغات القديمة، وهم يقسمون اللغة السامية في أبحاثهم إلى قسمين، قسم يسمونه السامية الشرقية وتضم اللغة الأكادية التي خرجت من معطفها اللغات البابلية والآشورية وقسم يسمونه السامية الغربية وتضم لغة أوغاريت وتصطف معها لغات شهيرة

مثل الأمورية والآرامية والكنعانية التي هي أم العربية، وفي القسم الجنوبي للسامية نجد العربية الحميرية والسواحيلية الأفريقية، ويجد الباحثون أن من أهم صلات القربى بين هذه اللغات المفردات المتشابهات وحروف الجر والصوامت، وهناك فريق من الباحثين لا يهتمون بشجرة النسب اللغوي، وإنما يقولون بما يسمونه نظرية الأمواج اللغوية أو الصوتية، وهم يقولون إن اللغات المتفرّعة هي مجرد لهجات وأهم ما في التاريخ من هذه اللغات أو اللهجات الكنعانية، وقد تعددت اللهجات فزادت على ستين لغة أو لهجة، وبقيت المجموعة الأكادية قيد الاستخدام الشعبي والرسمي نحو أربعة آلاف سنة، وهي المدونة بالخط المسماري على الألواح الفخارية، وكانت الكتابة الهيروغليفية تشكل مع الكتابة السومرية أشهر لغتين دوليتين، ولكنهما ليستا أبجديتين بل تعتمدان الأشكال التي تصل إلى آلاف، مما يجعلها لغة صعبة تماماً كما ننظر اليوم إلى اللغة اليابانية أو الصينية، ولابد من التنبيه إلى الفارق بين الاستخدامات المصطلحية بين اللغة والكتابة والأبجدية (كما يشير الباحث الصديق سجيع قرقماز في بحث لطيف له بعنوان الأبجدية والتعليم في أوغاريت).

لقد اخترعت الكتابة بالتأكيد قبل أوغاريت، ولكن العالم عرف الأبجدية عبر اختراع شعب أوغاريت لها اختراعاً محلياً غير مطور عن أبجدية أخرى، ففي أوغاريت رتبت الحروف لأول مرة لاستخدامها وفق أسس محددة، وقد حدث ذلك في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، ويبدو لطيفاً أن نتذكر هنا

تعليق صديقنا الباحث الكبير الراحل جبرائيل سعادة على أبجدية أوغاريت حين قال: (إنه أمر يبعث على التأثر أن نفكر بأن الأطفال اليوم في عدد من بلدان المعمورة يتعلمون استظهار الأبجدية بالترتيب الذي اختاره لها كاتب من أوغاريت منذ أربعة وثلاثين قرناً من الزمن).

وأعود إلى اللغة الأكادية لأذكر القارئ بأن كثيراً من الآثار التي عرفتنا إلى تاريخنا القديم مكتوب بها بخط مسماري ومن أهم المدونات التي باتت شهيرة قوانين حمورابي في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وملحمة جلجامش في القرن السادس عشر ق.م ورسائل العمارنة في الرابع عشر ق.م ولقد خاطب ملوك سورية أقرانهم المصريين بهذه اللغة، وفي أرشيف تل العمارنة أكثر من خمسمئة رسالة كثير منها مكتوب بالأكادية على ألواح الفخار.

ويجد الباحثون في اللغة الأكادية سمات وخصائص واضحة منها كون جذر الكلمة ثلاثة حروف (وأحياناً تكون أربعة) وهذا مشترك مع لغتنا العربية، وهي لغة تقبل الحركات على الأواخر كما أنها تعتمد على المد، ويجد اللغويون الاشتقاق فيها بتغيير الحركات، أو بإضافة الحروف الصامتة، ولكن الفعل فيها يأتي في نهاية الجملة.

ولقد وصلت الآكادية المسمارية البابلية إلى ذروة انتشارها في عصر قوة المملكة الآشورية، ويرى بعض الباحثين الغربيين أن الأكادية هي أم اللغة العبرية التي لم تعمر طويلاً، وقد اكتشفت مؤخراً اللغة العمونية عبر أختام ورسائل وبدت قريبة من العبرية التي هي لغة العهد القديم، ويذكر الباحثون أن النبي أشعيا سمى العبرية لغة كنعانية؟

لقد ماتت اللغة قروناً واستخدم اليهود لغات عديدة محلها مثل اليدش واللادينو إلى أن تمَّ إحياؤها في القرن الماضي، والعارفون باللغة العبرية يقولون إن الفينيقية (الكنعانية) شديدة التأثير في العبرية وبينهما سمات مشتركة ومفردات وألفاظ كثيرة، ومع ظهور المسيحية ظهرت الآرامية لغة رسمية وأدبية، وثمة آرامية حديثة هي التي تكلم بها السيد المسيح، وهي ذاتها اللغة التي يتحدث بها أهلنا في مدينة معلولا الأثرية، وقريتان جوارها، وقد حرصنا في وزارة الثقافة السورية على دعم تعليم اللغة الآرامية في معهد متخصص في معلولا، وهي من أجمل المصايف والمواقع الأثرية قرب دمشق، مبنية على سفوح هضاب تحيط بها، ويعود تاريخ هذه القرية (المدينة) إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وفيها دير مار سركيس ودير مار تقلا، وأضرحة بيزنطية منحوتة في الصخر، ويقال إن اسمها (معلى) أي المكان العالي، وهذا الاسم يكشف الصلة العائلية الحميمة بين الآرامية والعربية التي هي كنعانية الأصل، ويبدو واضحاً أن المثقفين في ذاك الزمن كانوا يعرفون اللغات المجاورة، ولدينا في متحف دمشق نص لمعاهدة تجارية تذكرنا بطريق الحرير من الألف الثالث مكتوبة بثلاث لغات، ولابد أن كنعانيي أوغاريت كانوا يجيدون قراءة المسمارية، وهي على الغالب كما ذكرنا لهجة سامية قريبة من العربية أو مشتركة معها بنسختها ما قبل الفصحى التي نعرفها اليوم، وقد أكد هذا الفهم العالم الفرنسي أندريه كاكو الذي تخصص بهذه اللغة فقال: (إن الأبجدية الأوغاريتية كما هو الحال في الفينيقية والآرامية

والعبرية والعربية لهجة تابعة لأسرة اللغات السامية) وتبدو آثار اللغة الأوغاريتية حيّة إلى الآن، فثلثا المفردات الأوغاريتية مستخدمة في العربية إلى اليوم، والطريف أن كثيراً من هذه المفردات مايزال يستخدم في اللغة العامية الدارجة في اللاذقية.

كلمة العدد



سمك القرش والنورس البحري

د.علي القيّم
رئيس التحرير

من أجمل وأهم الكتب التي توقفت عندها، وعدت إليها مرات عديدة، كتاب «سمك القرش والنورس البحري» تأليف: الوزير الشاعر الفرنسي «دومينيك دو فيلبان» وترجمة: د.هاشم صالح ود.محمد مخلوف/ وإصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر.

الكتاب من الكتب الحديثة، التي تمثّل روح الحاضر والمستقبل، ويستجيب

للاهتمامات الثقافية والاجتماعية والتحولات العالمية، ويحمل منظوراً معرفياً مُعافى ورؤية مستقبلية، وعمق في النظرة وانفتاح على الأفق الإنساني وطريقة عرض بسيطة ، وأسلوب شفاف ولغة مكتنزة بالطاقات الإيحائية، وعرض جريء لمشكلات الإنسانية في العالم المعاصر..

لقد دبِّج الكتاب في عام ٢٠٠٤ وطبع في عام ٢٠٠٦ على إثر الأزمة العراقية واحتلال أمريكا لهذا البلد العربي العريق، وبدلاً من صدام الحضارات الذي نظّر له «صموئيل هنتنغتون» نجد الوزير الشاعر الفرنسي «دوفيلبان» يدعو إلى حوار الحضارات والثقافات، وبالأخص بين الحضارة العربية الإسلامية من جهة، والحضارة الغربية العلمانية أو المسيحية من جهة أخرى».

من خيبات الأمل ينطلق المؤلف في بحثه، فعالمنا مليء بالآلام، وينزف من ألف جرح وجرح.. إنه عالم في حالة انصهار، عالم مجروف من قبل إعصار من الأهواء الهائجة، ولكنه عالم سائر إلى حتفه دون بوصلة تهديه ودون تماسك.. إنه عالم هائج، سكران، عالم مهووس بالسرعة، ولكنه ينضح بالحمّى.. إنه عالم محروم من الفكر الجديد، ومن المثل العليا التي تشحن البشر وتدفع بهم إلى اجتراح المعجزات..

إن عصرنا خاضع للعقلانية التقنية الزائدة عن الحد، وهو منخرط في تصعيد تكنولوجي جهنمي لا يبدو أن شيئاً قادراً على إيقافه.. لقد آن الأوان لكي نبذل كل ما في وسعنا من أجل استكشاف الطريق مرة أخرى، من أجل استعادة التجارب الأولى الطازجة، من أجل أن نمتلك مرة أخرى إمكانية الدهشة أمام ظواهر العالم، فهي وحدها تجعلنا قادرين على أن نستبصر حقيقة الواقع اليوم..

إن البشرية المبهورة باختراعاتها لا تتمكن من السيطرة على هذه الاختراعات، والحداثة التي تشبه «قفصاً من حديد» حسب تعبير «ماكس فيبر» والذي اعتقدنا أنه

انكسر، راح ينغلق على نفسه.. وهكذا أصبح الإنسان يجد نفسه سجين حاضر أبدي، وأصبحت «ديكتاتورية السرعة» واللحظة المباشرة، أو اللحظة المتزامنة تهيمن على الجميع، وأصبحت ديكتاتورية الأسواق الرأسمالية والشركات الكبرى تفرض قوانينها على الدول والحكومات أياً تكن.. وأصبحت ديكتاتورية الافتراضية الإعلامية إن لم نقل الوهمية الإعلامية تحوّل القضايا العامة إلى مشاهد مسرحية واسعة تسيطر فيها الصورة على الواقع، ثم تجيء أخيراً ديكتاتورية التقنية والتكنولوجيا التي تشمل وتهيمن على كل الديكتاتوريات السابقة لكي تفرض إيقاعها على الإنسان وتضيّق باستمرار من فضاء الخيار الحر، وبالتالي من الفضاء الأخلاقي..

❀ ❀ ❀

لقد فضّلت البشرية أن تغرق في الحياة الاستهلاكية العابرة لكي تنسى خطورة الأشياء المحيطة بها والكثافة التي تنطوي عليها، وفعلت كالنعامة التي دفنت رأسها في الرمال متجاهلة كل الأخطار، ولا ريب في أن الاغتراب عن الوطن يقدم آفاقاً جديدة للحرية، ولكنه يكشف أيضاً عن الانسدادات والمآزق التي يقود إليها الفراغ.. وهكذا وجد الإنسان نفسه أمام الوضع الحالي: المستقبل يخيفنا، والماضي يثير فينا الحنين الاسترجاعي إلى الذكريات والأشياء المبهمة الغامضة، والحاضر مشغول بالأنانية والنزعة الضيقة.. إن القلق الذي نشعر به في بداية الألفية الثالثة دليل على التيه والضياع أكثر مما هو دليل على نهاية التاريخ كما توهم بعضهم.. إنه دليل على عطل طرأ على صيرورة الحداثة أكثر مما هو دليل على اكتمالها ووصولها إلى نهايتها..

إننا نلهث وراء الإيقاع المتسارع لحضارة الصورة، فالزمن الذي تلتهمه الآلات لايستطيع الإنسان أن يواكبه.. نحن نركض لاهثين وراء استنفار دائم يفرض نفسه علينا حتى في الفعاليات البشرية التي كانت منظّمة سابقاً من قبل عوامل أساسية كالسيطرة على الوقت وإيقاع التاريخ..

نحن جميعاً مشاهدون قلقون لما يجري أمامنا على مسرح التاريخ من سباق محموم ومتسارع بين قوى النظام وقوى الفوضى أو التفكك والانحلال، ونتيجة هذه المعركة لم تكن في أي يوم من الأيام غامضة أو مترددة، مثلما هو عليه الحال الآن، فلا أحد يعرف من الذي سينتصر في النهاية، وهذا الكلام ينطبق على الصعيد السياسي والاستراتيجي، كما على صعيد القيم والمبادئ العليا، ولكن البحث عن نظام قادر على تأمين العدالة والأمن في العالم يقتضي الاتفاق على الأفكار التي نرغب في الدفاع عنها، وكذلك الاتفاق على قواعد هذا البنيان المشترك للعالم.

النزعة الكونية لم تعد تحظى بالإجماع في أوساط المفكرين، وقد تراجع عنها الكثيرون، إما بحجة السأم واليأس من إمكانية تعميمها على الشعوب الأخرى غير الأوروبية أو الأمريكية الشمالية، وإما لأن البعض يشتبه بها ويرى فيها قناعاً يخبئ الغرب وراءه إرادته الإمبريالية في الهيمنة على العالم..

«دوفيلبان» في بحثه عن روح العالم يطالب أوروبة بأن تتعلم كيف تقبل بالاختلافات البشرية بشكل كامل، حتى تحافظ على الطابع الكوني لحقوق الإنسان، وهذا هو التحدي الذي يواجهه المجتمع الفرنسي حالياً.. روح العالم ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار ما يدعى بـ«الغيريّة» أي اختلاف البشر فيما بينهم وكذلك اختلاف ثقافاتهم وأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم..

في الماضي كانت هيمنة الإنسان على الطبيعة تشكل شعار «ديكارت» والحضارة الأوروبية بمجملها والآن بعد أن تحققت، حلّ محلها شعار آخر مفاده: تحقيق المصالحة بين البشر وثقافاتهم، فالحضارة الغربية بالغت في السيطرة على الطبيعة إلى حد أن منطق الربح والفائدة هو الذي أصبح يسيطر عليها، ولذلك فإنه ينبغي أن تحل محل العقل البارد أو العقل الأدواتي المنفعي المرتكز على التحليل والتقسيم الحسابي،

عقليّة أخرى قائمة على التبادل والتضامن الإنساني وتشاطر المنافع بين البشر كلهم، وبدلاً من منطق الأنانية الذي سقطت فيه الحضارة الغربية، ينبغي أن يحل منطق الكرم والنزعة الإنسانية والإحساس بآلام البشرية وفقرها وأوجاعها، وإلا فإن الحضارة سوف تفقد مبرر وجودها بل وتنقلب إلى عكسها.. ينبغي العلم بأن الحوار بين البشر والثقافات المختلفة هو الذي يجعل التاريخ يتقدم إلى الأمام في كل مرة، وذلك لأن كل ثقافة تقدم للآخرين جزءاً من الحقيقة البشرية، ولأن أياً منها لا يمتلك هذه الحقيقة بكليتها.. لهذا السبب بالذات يبدو الحوار ضرورياً وإجبارياً وليس الصدام كما يدعي «صموئيل هنتنغتون» والواقع أن كل شعب بحاجة إلى الاحتكاك بالشعوب الأخرى لكي يشعر بذاتيته وكيانه ويزدهر ويبني نفسه..

❀ ❀ ❀

لاشيء يثبت ضرورة الحوار بين الشعوب، أكثر من العلاقات التي لا حصر لها بين ضفتي البحر المتوسط، أي بين العالم الأوروبي والوطن العربي، فشعوب الضفتين على مدار التاريخ طالما استعارت بعضها مع بعض.. الأفكار والتقنيات والخبرات.. وطالما تحاورت فيما بينها وتصارعت وشكّلت هويتنا الحالية أو قدرنا ومصيرنا.. إن ضفتي المتوسط تشبهان شفتين لفم واحد، والفم لا يمكن أن يتكلم بشفة واحدة وإنما بتعاون الشفتين وانسجامهما..

يقول «دوفيلبان»: نحن نمتلك تراثاً متوسطياً رائعاً في كلتا الجهتين وعلى مدار حوض هذا البحر الجميل الهادئ، وقد كان دائماً بحر التجارة والتبادلات والتفاعلات، وكان الزيت ينقل في الجرار، وأما نسيج القماش فكان ينقل في صناديق تحملها القوارب والسفن..

إليكم الآن المهمة الكبرى التي تفوق التصور لعصرنا.. إنها تكمن فيما يلي: تغيير

نظرتنا إلى الآخر، وإعادة التفكير فيه عن طريق الرفع من قيمته.. إنها تكمن في إعادة تشكيل علاقتنا بالغيريّة عن طريق الأخذ بعين الاعتبار حجم التحديات الجديدة، وذلك لأن المثال التجريدي للتسامح لم يعد يكفي في الوقت الذي أخذت فيه الهويات تطالب لنفسها بمكانة جديدة تحت الشمس..

ينبغي العلم بأن الثقافات تمثّل صلات وصل دائمة التفاعل فيما بينها.. إنها أداة أكثر جرأة ومقدرة من القوة ذاتها.. دور الثقافة أصبح يتمثل في إقامة جسور التفاهم بين الشعوب وبالتالي فنحن إذ ندافع عن ثقافتنا اليوم لا يعني أننا نبحث عن الفرادة والحقيقة اللتين تشكلان التمهيد المبدئي لأي لقاء.. واللقاء المثمر يكون بين الخصوصيات المختلفة، بل حتى داخل تراثنا الخاص ينبغي أن نعرف كيف نفرّق بين الصالح والطالح، وينبغي أن نخلع على عتبة الاختلاف بساطة الالتقاء.. ينبغي العلم بأن الثقافة في معناها الأكثر غنى وكرماً تصبح أفضل سلاح ضد الخوف.. الثقافة تشكل دعماً ضرورياً جداً من أجل السير نحو السلام والديمقراطية، وبغير الثقافة لا يمكن بناء أي شيء صلب وقابل للاستمرارية والحياة.

❀ ❀ ❀

في البحث عن عالمنا الجديد، يرى «دوفيلبان» في بحثه المنفتح على الآخر، أن أكبر خطأ يمكن أن نقترفه هو الانتظار والتردد وإرجاء الإصلاحات الكبرى في النظام الدولي، والترقّب الذي لا طائل منه، لأن تستعيد الدول هوامش مناورتها، فهل ستعرف الإنسانية اقتناص الفرصة المتاحة أمامها أم أنها سوف تستمر بعناد في ولوج طريق مسدود؟! بإمكاننا اليوم أن نقرر المستقبل الذي نريد بناءه وعلى أية مبادئ وحسب أية قيم ومن أجل تحقيق أي هدف.

لقد ولّى زمن الاكتشافات الجغرافية منذ فترة طويلة، وانفتح زمن الاضطرابات

الكونية الكبرى، وبأقل من عقدين عرفت الجغرافية البشرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من التبدلات أكثر مما عرفته خلال قرون عديدة.. إن المستقبل لم يعد يتحدد اليوم في لندن أو برلين أو باريس أو نيويورك، ولم يعد الغرب هو المعلم الوحيد، كما أن البلدان الصاعدة حديثاً ليست مجرد قوى اقتصادية تجد ما يلبي حاجتها في قبولها كأحد الكبار في السوق الدولية.. إنها تريد أن يكون لها صوتها الخاص، ووجهات نظرها المختلفة، ثم إن الدول التي تدخل اليوم إلى مسرح العالم لا تنوي إظهار أي ولاء حيال القوى التقليدية، وذلك على قاعدة إدراكها للسرعة التي تتطور بها موازين القوى، وبوساطة ثورة امتلاك مفاتيح القوة، انطلقت شعوب هذه المناطق الواقعة على حدود عالم بين عصرين في مجال متعدد الأقطاب، ولا سيما أنها كانت غالباً في منزلة الشهود الأكثر حذاقة لتلك الثورة.. إن دورة رياح جديدة ترسم في الأفق وتحجب مفهومنا القديم..

إن بروز قوى جديدة على المسرح الدولي، يحتوي، مثل الولادة على مخاطر وتساؤلات عديدة مرتبطة بحالات اهتزاز اليقين السياسية المستجدة، فحسب أي إيقاع سوف تسير الصين، نحو ليبرالية نظامها السياسي، ونحو الاحترام الحقيقي لحقوق الإنسان؟ وهل تنوي الهند أن تشارك في التنظيم الإقليمي لجنوب آسيا أم ستسلك طريق الهيمنة؟!.. إن أفضل إجابة على هذين السؤالين هي في العمل والمسؤولية الجماعيين، فليس هناك ما هو أسوأ من تفتيت المنظومة الدولية.. ينبغي أن تكون هناك هيئة دولية قادرة على دفع شعوب العالم وبلدانه ومناطقه للعيش المشترك، ولا سيما أن مخاطر التصادم تتردد أكثر فأكثر بين النوّى (جمع نواة) المختلفة التي تشكل جغرافية العالم الجديدة..

المطلوب هو تجميعها حول هيكلية عالمية حقيقية، وهناك مسؤولية خاصة تقع على عاتق القوة القديمة مثل أوروبة والولايات المتحدة التي عرفت إرادة تأكيد الذات

والإشعاع نفسها، وعاشت الإغراءات القومية وميول الهيمنة نفسها، وبالتالي تعرف جيداً انحرافاتها..

إن الحلم الكوني ذا النزعة الإنسانية لن يكون مفهوماً إلا إذا رفض مفهوم وجود غرب لا يهمّه سوى تلبية رغباته مع استعداده الدائم لتعيين «كبش فداء».. على الغرب معانقة الواقع بكل تنوعه وتعقيده، وأن يلعب دوره التاريخي.. «دوفيلبان» يحمل في دراسته الضخمة رسالة أمل ورسالة إخاء بين البشر، وكل ما نرجوه أن يكون هذا الكتاب دعوة عالمية للحوار المستمر بين الشرق والغرب من أجل أن نتقدم بخطى أكثر ثباتاً على طريق المستقبل.



الدراسات والبحوث



الدراسات والبحوث



الألف باء الأجاريتية من خلال النصوص المسمارية

د. علي أبو عساف ❋

فـرح الآثاريون وعلماء لغات بلادنا القديمـة باكتشاف البعثة الفرنسية العاملـة في رأس الشمـرا أجاريت عام ١٩٢٩رقمـاً مسطرة بخط مسماري مألـوف لديهم من ماري مثلاً، إلا أن حروفه تغايـر المألوف، أي إن حروف الكلمة في نصوص أجاريت سطرت بالخط المسماري الذي ألفوه في نصوص مـاري وبابل..إلخ إلا أنها لاتتطابق من حيث عدد المسامير التي يتألف منها الحرف مع أقرانها في ماري وبابل وآشور..إلخ وحالما نشر نبأ هذا الاكتشاف

❋❋ باحث وآثاري سوري (مدير عام للآثار والمتاحف سابقاً).

في مجلة Syriaواطلع الباحثون اللغويون على تفاصيله انصرفوا إلى التعرف على اللغة التي سطرت بها النصوص، وكان أبرزهم الباحث الألماني هانس بَوَرْ Hans Bauer المختص باللغات الفينيقية والعبرية والآرامية التي كان عماد كلماتها الأبجدية والذي خاض تجربة رائدة في قراءة النصوص التي اكتشفت في سيناء(1) زادت من إيمانه في قدرته على قراءة نصوص أجاريت الجديدة وراقت له المهمة فتصدى لها مزوداً بتجربته السابقة وأحب أن يطلع عليها القراء.

لقد أذاع النبأ عضو البعثة الفرنسية في رأس الشمرا Ch. Virolleoud الذي أدهشته الرقم التي كانت منضدة في كوة بجناح المحفوظات ببيت كبير الكهنة، فهزه المنظر واعتنى بتنظيف الرقم وحفظها. وانكب على دراستها وتقليبها بين يديه وهو يتصور في مخيلته ويستعيد إلى ذاكرته صور الرقم المسمارية العمورية والبابلية والآشورية فأدرك من خلال ذلك كله أن رقم أجاريت قد كتبت بالخط المسماري إنما بحروف لاتشبه حروف اللغة البابلية الآشورية وتعود إلى لغة ألف بائية كلغاتنا التي نتكلم بها الآن.

قدَّم عام ١٩٢٩تقريراً إلى أكاديمية الكتابات الجميلة: Académe des Insicription et Belles -Lettres في باريس أرفقه بصور عن الرقم التي استنسخها بخط يده وقدم النسخ مع التقرير وملاحظاته وتعليقاته أيضاً(2) وهنا لابد أن نسجل التقدير والاحترام لهذا العالم الذي نسخ الرقم بدقة قدر المستطاع وأعفى بعمله هذا الباحثين من مهمة النسخ التي تقترن بعناء السفر إلى دمشق حيث تحفظ الرقم بمتحفها البعيدة عن منازل الباحثين والإجراءات المتحفية اللازمة للاطلاع عليها.

جعل فيرولو المادة الدسمة المغرية بمتناول الباحثين. وكانوا وقتذاك أي في عام ١٩٢٩قلة قد لايتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة ولما وصل عدد مجلة Syria العاشر إلى الباحث بَوَرْ بتاريخ ٢٢نيسان ١٩٣٠ احتضنه وقرأ بشغف ونهم ماكتبه فيرولو عن النصوص. وتفحص الصور وحروفها في النُّسَخِ التي أعدها فيرولو فأعجب بالعمل والدقة التي نفذ بها. وأدرك بعض الأخطاء في النسّخ من خلال تدقيقه صور النصوص ونسخها. وكان أول شيء لفت نظره أن كلمات النص قد فصلت عن بعضها بوساطة خطوط شاقولية مستقيمة كما في قصة أحيرام حسب قوله فتيقن أنها

ألف بائية. غير أنه وجد الخطوط الفاصلة قد وضعت أحياناً في الموقع غير المناسب أو لم توضع. ومن خلال هذه الحالة أدرك هو وغيره من الباحثين حجم كل كلمة وعدد حروفها. وعرفوا أن معظم الكلمات ثلاثية الحروف ومنها رباعية وقلة نادرة خماسية. وإذا كانت هناك كلمات عددها أكثر من ذلك استغني عن وضع الفواصل المعتمدة هنا وهي الخطوط المستقيمة الشاقولية. وقد رأى أيضاً كلمات بحرفين وأخرى بحرف واحد[٣].

دفعت هذه الظواهر العالم الألماني الذي كان يتقن العبرية والآرامية والفينيقية ويلم بالعربية أن يضع قدمه على أول الطريق ليقرأ الكلمات ويدرك بقوة حدسه أن هذه النصوص قد سطرت بلغة تنتسب إلى أسرة لغاتنا القديمة. وقد تذكر نصوص سيناء التي تعامل معها وتغلب على كثير من المصاعب، وانطلاقاً من افتراضه أن هذه اللغة هي من أرومة لغاتنا القديمة التي يتقن بعضها .جمع الأشكال أي الحروف التي تقع في أول كل كلمة فوجد أن عددها خمسة وتمثل الحروف:الألف والباء والميم والنون والتاء وربما تمثل حروف الياء والهاء والكاف واللام انظر الأرقام: (١و١٧) و(١٦و٨) و(٢٧و٤) و(٣و١٥) في اللوحة المرفقة ثم تحول إلى تحديد الأشكال أي الحروف المضافة إلى آخر الكلمات فوجد أنها خمسة تمثل حروف:الهاء والكاف والميم والنون والتاء وربما أيضاً الواو والياء انظر الأرقام (٢٩و١٧) و(١٦و٨) و(٢٧و٣) في اللوحة المرفقة أما الكلمات التي تتألف من حرف واحد ،فكان عددها أربعة وتمثل حروف اللام والميم وربما أيضاً الياء والكاف والواو انظر الأرقام: (٨ و٢٧) و(٤ و١٥) في اللوحة المرفقة.

وبما أنه كان قد افترض أن هذه اللغة التي يجهد في التعرف على حروفها قد كتبت بالأبجدية كالعبرية والفينيقية والآرامية، مال إلى الاعتقاد أن الحروف التي زيدت في أول الكلمات هي حروف المضارعة:الألف والياء والميم والنون والتاء. وبما أنه كان مازال يجهل أية كلمة هي فعل أو اسم وضع احتمالاً آخر وهو أن تمثل هذه الأشكال الحروف:حرف الجر الباء،وحرف الهاء الذي يضاف إلى فعل المضارع كما في صيغة هَفْعِلُ وحرف العطف الواو وحرف التشبيه الكاف وحرف الجر اللام. أما الحروف التي زيدت أو اتصلت بآخر الكلمة فرجح أن تكون ضمائر:الهاء والكاف والميم والنون والتاء.أو ربما أيضاً الواو والياء بينما رجح أن تكون الكلمات التي تحوي حرفاً

واحداً فقط هي اللام والميم أو حروف الياء والكاف والواو.

واستناداً إلى هذه النظرية التي وضعها نجح نسبياً في التعرف على أسماء عدد لابأس به من الحروف مكنته من المتابعة على هذا النحو من التحليل والتفكيك . فقد لاحظ أن شكلين من الحروف يتكرران في الفئات الثلاث التي بيناها أعلاه والتي زيدت على أول الكلمة أو أضيفت إلى آخرها أو سطرت منفصلة قبل الكلمة أوبعدها (انظر الرقم ٨ و١٦في الشكل المرفق) فافترض أنها هي حروف الواو والكاف والميم وبذلك يكون قد حصر شكلين من الحروف في حروف الواو والكاف والميم .ثم جزم أن يمثل الشكلان فقط حرفي الواو والميم اللذان يتكرران في الآرامية والفينيقية والعبرية أكثر من الكاف في مثل هذه الحالات.

وبعد هذه السلسلة من الترجيحات وضع نفسه وجهاً لوجه أمام السؤال الهام أي من الشكلين هو الميم أو الواو؟تابع التدقيق والدراسة والتمعن في أشكال الحروف ومواقعها في الكلمات فلاحظ أن الشكلين ٢٩ و١٧يتكرران أكثر من الشكلين ١٦ و١٣(انظر اللوحة المرفقة) ونجدهما فقط في أول أو آخر الكلمة ولا نجدهما كشكلين منفصلين. وعلى صعيد التواتر يعرف أن حروف الكاف والنون والتاء وعلى الأخص الحرفين الأخيرين هي أكثر شيوعاً في لغات بلادنا القديمة من الكاف، فافترض أن الشكلين ٢٩ و١٧ في اللوحة المرفقة يمثلان حرفي النون والتاء. وهنا أيضاً وضع نفسه أمام السؤال الهام الثاني أي شكل هو النون وأي شكل هو التاء؟.وتأسيساً على ذلك أصبح عليه تحديد أسماء أربعة حروف لكل واحد شكلان: الواو=رقم٨ أو ١٦ والميم= الرقم ١٦أو ٨ والنون= الرقم ٢٩ أو١٧ والتاء= الرقم ١٧أو ٢٩.

ومن خلال هذا التحليل وحصر أربعة حروف في الأشكال التي ذكرناها (انظر اللوحة)، اندفع نحو تحليلات واستنتاجات أخرى فكان معلوم لديه أن السيد فيرولوكان قد أعطى اسماً للشكل رقم ١٥(انظر اللوحة) وهو اللام. وفي هذه اللحظة تذكر الأشكال المنقوشة في فأس عثر عليه في أجاريت وعددها ستة تقابل ستة حروف وجدها في بداية النص رقم ١٨ الذي يتعامل معه[٤] ويسبقها الحرف رقم ١٥ الذي هو اللام. فافترض أن الحروف في الكلمة التي تتوج النص الذي بين يديه هي اسم شخص يسبقه حرف اللام بمعنى لفلان وعليه فإن النص هو رسالة موجهة لفلان؟ وتأسيساً على كل هذا أصبح حرف اللام معروفاً لديه.

إن تحديـد حـرف اللام بشـكل قاطع والافتراض من قبـل هانس بور أن الشكلين ١٦أو ٨ يمثـلان حـرف الميم، أغـراه بأن يفتش على كلمـة ملك التي جزم بأنها لابد موجودة في النصوص التي بين يديه وهي تتألف من ثلاثة حروف يقع اللام في وسطها والميم في أولهـا الذي يمثله الشكلان ١٦ أو ٨. لقد عثر على ثـلاث كلمات اثنتان منها تتألـف من ثلاثة حروف وثالثـة من أربعة، الحرفان الأخيران فيها متشابهان ويتوسطها جميعاً حرف اللام فلابـد أن يكون الأخير هو الـكاف رقم ١٦وهو من أصل كلمة ملك والآخر ضمير الكاف فتصبح الكلمة ملكك. وبما أنـه أعطى الرقـم ١٦ لحرف الكاف أعطـى رقم ٨ لحرف الـواو وحكماً حسب فرضيته أعلاه. استطرد في تحليلاته. تمعن في الحرف الأول من الكلمات الثلاث فوجد أنه متشابـه فيها كلها فجـزم أن يكون هو حرف الميـم الذي افترض سابقـاً أن يمثله الشكلان ٨ و١٦فتوقع أن يكون الشكل ١٦هو الميم والثامن هو الواو كما سبق وأعلن.

هزت الفرحة نفسه وأصبح على يقين أن اللغة التي يقلب نصوصها المسطرة في الرقم التي بين يديه هـي من فصيلة لغات بلادنا القديمـة كنعانية-آرامية وأن الطريقة التي اتبعهـا في التفتيش على الحـروف مناسبة ومجدية،لذلـك اندفـع يبحـث عـن كلمة أخـرى فاختار كلمة(بن) التـي تتكرر كثيراً في الكنعانيـة والآرامية على شكل فلان بن فلان مثلاً .فهي تقع بين اسمين قد يعرفهما من حيث الشكل علـى الأقل.تفحص صور النصوص التي بين يديـه فوجد أن النص المسطر في أحد الرقم يشبه نصوص جداول الأسمـاء وإن الشكلين ٤و١٧يتكرران خمس عشرة مـرة (١٥) ويتبعهما أشكال مسمارية متنوعـة أي كلمات دون أن يكونا مفصولين عنها بخط فاصل كالمعتاد. وكان قد افترض أن الشكلـين ٢٩ و١٧أحدهما لحرف النون فحدد الآن الشكل ١٧لحرف النون.وتأسيساً على ذلك عين الشكل ٤ لحرف الباء، وتعويلاً على كل هذا بقـي الشكل ٢٩ لحرف التاء كما افترض في البداية.

وحـين تأكـد أنه حـدد أشـكال سبعة حـروف، وهي الباء والـواو والكاف واللام والميم والنون والتاء،خطر على باله أن يفتش عـن كلمة بعل،التي يعرف من حروفها الباء واللام وبقي حرف العين في الوسط في موقع سهـل وملفت للنظر.ولشـدة يقينه أن هذه الكلمـة لابد أن تـرد في النصوص المتوفرة لديـه تعـرف في أحدها على كلمـة تتكرر سبع مـرات فجزم أنها هي كلمة بعل ،وقرر أن يكـون الشكل عشـرون (٢٠) هو العين.

وقد عمــق يقينه في أن هــذه الكلمات هي بعــل إن واحدة منها تنتهــي إلى حرف التاء الذي حدده في الشكل ٢٩ فقرأ الكلمة بعلة وهي مؤنث بعل ويتكــرر اسم هذه الربة في الكنعانية والآرامية. وإضافة إلى هذه الكلمة وجد كلمة أخرى تنتهي إلى حرف الميم الذي تعرف عليه سابقــاً ويمثله الرقم ١٦. فقرأ الكلمة بعليم بصيغة الجمع حسب القواعد الكنعانيــة. وفي نص آخر قــرأ كلمة بعلك أي ربك أو سيــدك. هنا زاد حماسه واشتد يقينه في صحة ما ذهب إليه من أن اللغة من أرومة الكنعانيــة والآرامية وأن عمله مثمر ويوصل إلى نتيجة.

ومــع هذا اليقين والحماس نذكر أنه في الكنعانيــة والآرامية قد تــترادف الكلمتان بعلك وإلهــك وهو يعرف من هــذه الكلمة الأخيرة الحرفين اللام والكاف،فحصر همه في البحــث عن هذه الكلمــة والتعرف على حرف الهاء فيها. واستطاع بسرعة وسهولة أن يحدده في الرقــم ٧ ويحدد أيضاً الرقم ٢لحرف الألف.وقد أصبح لديه الآن عشرة حروف معروفة بعثت في نفسه الجرأة على متابعــة الســير في الطريق ذاتــه وتحديد أسماء حروف أخرى انطلاقاً من نظريته أن هذه اللغة هي من أرومــة اللغات الكنعانية والآرامية التي تنطبــع مفرداتها في ذاكرته فتساعده في الوصول إلى غايته.

وهنا تساءل لماذا لاتكون الأعداد مسطرة كتابياً في هــذه النصوص التي أمعن النظر فيها وقلبها بــين يديــه مراراً؟!فجزم أنها موجودة واختار من بين الأعداد العدد ثلاثة لسهولة التعرف عليه إذ يتشابه فيه الحرفان الأول والثالــث، وهــو كان قد حدد الحرف الأوسط فيه وهو الــلام وبالفعل وقع نظره على ست كلمــات يتوســط حروفها حرف اللام.ويتشابــه فيها الشكل الأول مع الثالث ويتقدمها حرف الباء وتنتهي إلى حرف التاء اللذان كان قد تعرف عليهما سابقاً والكلمة هــي بثلاثة.أما في السطــر اللاحق فوجد كلمة تحوي ستة حــروف يعرف منها الأول وهو حرف الباء والثــاني وهو حرف الألف والرابــع وهو البــاء والخامــس وهو العين والسادس وهو التاء فقرأ الكلمة (بأربعة) أي إنه حدد حــرف الراء رقم ٢٦. وقد أدهشه أن شــكل حــرف الألف في أربعــة لا يشابه حــرف الألف الذي سبق أن اختار له الشكل ٢ في كلمة الله مــن دون تردد.استسلم لهذا الواقع وعزم على المثابرة ليتأكد من أنه من الممكن أن يكون لحرف الألف أكثر من شكل. وطرح الســؤال التالي كيف لنا التعرف على هــذه الحالة في سطور أخرى؟ توقف هانس بَوَرْ عند هذه النتيجة التي حصل عليها تنفس الصعــداء وراح يفتش عن أسلوب يتابع فيه

منهج البحث بعد أن تملكه الاطمئنان لعمله، وحدد أسماء العديد من الحروف،وخضعت لقراءتــه ومشيئتــه في التحليــل والتفكيك والتركيب فقرر أن يسلك طريقاً مختلفاً بعض الشيء يبحث عن الحروف التي سماها هل تجتمع كلها في كلمــة واحدة أو مازال بينها حــرف أو أكثر يجهله؟ فقــرأ في ضوء هذا الأسلوب كلمــة (عشــترة) أي الربة عشترة وكلمة كهنــم أي الكهنة والميــم في الآرامية والفينيقية علامة الجمع.

بعد التعرف على هذه الأحرف والكلمات حقَ له أن يقَيِّم هــذه النتائج فوصفها بأنها باهــرة بعثــت علــى التفــاؤل والاطمئنان وتشجعه على السير في الأسلوب ذاته ليكمل مشــواره ويقرأ النصوص ويحــدد ألف باء كلماتها.

إن معرفة الباحث بلغات بلادنا القديمة فينيقية آرامية عبرية، دفعت به إلى أن يسلك هذا الطريــق الذي تكلمنا فيــه ووضحناه أعلاه، من خلال الأمثلة.

وهنــا استدرك هانس بَـوَرْ ليخبرنا أن تحليلاتــه والنتائج التي وصــل إليها لم تكن بهــذه السهولة والبساطــة التي قد يتخيلها البعض فقد تخلى مرات عدة عن احتمالات وفرضيات وضعها ثم وجد أنها غير مناسبة فتركهــا جانباً ولولاها لمــا حصل على هذه النتائج التي فتحت البــاب أمامه ليعبر إلى غايته. وقد وضع نصــب عينيه الإشكالات التــي مــرَّ بهــا علمــاء الغــرب في بحثهم ودراساتهم وفهمهــم للغاتنا القديمة خاصة عملية تصريــف الأفعال. وقد رأى أن عدداً منهــم حاد عن المسلك الصحيح لأنه تمسك ببعض الفرضيات والاحتمالات التي وضعها على عجل. فحتم على نفسه تجنب ذلك.

وعلى أية حــال قطع الباحــث الشوط الأطــول في الوصــول إلى هدفــه. وحينها تذكر الفأســ التي عثر عليهــا في أجاريت رأس الشمرا ونقشت فيها أربعة أشكال هي حروف تتطابق مع حــروف النصوص التي يدرسها .والفأس محفوظة في المتحف الوطني بدمشق ونشر الكثير عنها في الأبحاث المتعلقة بحضارة وثقافــة أجاريــت. وكان الباحث الفرنسي فيرولو هو أول من اهتم بها وخمَّن أن الحروف تعبر عن اسم الأداة أي الفأس. تذكــر الباحث الألماني أن اسم فأس بالعبرية هو جَرْزنْ وعاد إلى الحــروف التي سماها فوجد حــرفي الراء والنــون ضمن الأشكال الأربعــة المنقوشة في الفأس هو الجيم الذي تبــدأ به كلمة جرزن وأن الحرف الثالث هو حكماً حرف الزاي.

تابــع العمل وأولى عنايــة كبيرة لأشكال الحروف التي عرَّفهــا. فقرأ كلمة أخت في

أحد النصوص وهو يعرف منها حرفي الألف والتـاء فخمن أن الحرف الأوسط هو الخاء رقم ١٠ .تكررت الكلمة في أكثر من موقع في جملة :أخت ل عشترة، أو أخت لِ بعل أو أخت لِ فـلان. وتابع فعثر على كلمـة تتألف من ثلاثة حروف الحرفـان الأولان ألف وخاء. ولايشبه الثالث حرف التاء في أخت. فحزر أنه هـو حرف الـدال وأن الكلمة هي اخد أي آخاد كما في الفينيقية والآرامية والعبرية فاستدل من هـذه الكلمة على حرف الدال رقم ٦ وعلى كلمة دبحن أي ذبحنا.

وقد تنبـه إلى حرف القاف رقم ٢٥ من بـين الحروف التي لم يسمِّها بعد، فوجده في كلمات: زقن وزقنيم (أي ذقن وذقون) ومقم (أي مقـام) وقَرْقَعَ وقِدْر ونَقَم. وها هو الآن يتذكـر عبـارة (سيت من صفـن) المنقوشة بالهركلوفيـة في نصب لهذا الرب، وجد في أجاريـت رأس الشمرا فسرهـا دوسو العالم الفرنسـي الشهير أنها تعنـي (بعل صفون) وإن كانت قد قرأت (سيت من صفون= الرب سيت المصري من صفون) فيجب أن يكون بعل المقصود وليس سيت لقرب صفون من بلاد بعل وبعده عن الـرب المصري سيت. وعلى هذا الأساس حدد حـرف الفاء(رقم٢٢)في كلمة صفن. وفي كلمة (ألف=ثور) التي يعرف فيها الألف واللام ويتطابق فيه حرف الفاء مع صنوه في كلمة (صفن) وهو الجبل الأقرع شمالي أجاريت.

ومن خلال هـذا التوجه العلمي المعرفي حـدد رقم ١٣ على أنه هو حرف الياء الذي تبدأ به جميع كلمات بداية السطور في أحد الرقم التي بين يديه وهي بصيغة المضارع. وهـو يعرف مـن الحروف التـي يصاغ بها المضارع حـروف الألف والنـون والتاء فلم يبق إذاً إلا اليـاء فافترض إن الشكل ١٣هو الياء فقرأ الكلمـات التي تبدأ به فوجد أن صياغتهـا مشابهة لأقرانهـا في الفينيقية والآراميـة والعبريـة ودعم دليلـه هذا من خلال كلمـات، ويدع، ويدعت التي كانت في النص.

ساعـدت هـذه الطريقـة التحليليـة المقارنيـة المعرفية في تحديـد نحو عشرين شـكلاً تطابق عشرين حرفـاً لكنها لاتغطي كل الأشـكال التـي يجدهـا في النصوص. فبدأت الإشـكالات والصعوبات.فقد لاحظ أن عدد الأشكال التي يجهل تسمياتها تزيد على عدد الحـروف الباقيـة في الأبجدية الفينيقيـة والآراميـة مثـلاً وعـدده اثنان وعشـرون. إذاً لديـه عدد أشـكال أكثر من عدد الحـروف الأبجدية.ولاحظ كذلك أن لحرف الألف شكلـين مختلفين بلفظ واحد وأن الحروف لها ألفـاظ متقاربة. استرجع

معلوماته عن المسماريــة البابلية-الآشورية والكنعانية التي سطرت بها رسائل العمارنة التــي أرسلها شيــوخ بلاد الشــام إلى ملك مصــر أخناتون،فتذكر أنها أيضاً حوت أكثر من شكل لبعضــ الحروف وأكثر من لفظ،لم يقف حائراً أمام هذا المشكل،إنما صمم على المتابعة.

لقد ظهر لــه أن الحرف ١٣ الذي قرأه حاء في ذبح يلفظ كالحرف١٠كما ظن والواو الذي حدده بالشكلين ١٩و٣ يشابه الواو في الشكلــين١٩ و١٦ وهكذا يتبــدل رقم ٣مع رقم ١٦(الكاف) وربما أيضاً رقم ٢٢(قاف) الذي حــدده برقم٣ في كلمة جرَ فكان عليه أن يصحح.

لقد حــدد الشكل رقم ٥ على أنه حرف الجيم بالاستنــاد إلى كلمات جدل ومجدول ويشتبــه في هذا الحرف أيضاً على أنه رقم ١١(خاء).أما بالنسبــة إلى الحرف رقم ٢١ فلم يهتد إلى لفظه بسهولة.إنما عندما وجد الشكلــين ٩ (الزاي) و٢٦(الــراء) ذهب به الظــن إلى القول بأنه الشــكل خمسة الذي يتوسطهمــا ربما هــو غين فتكــون الكلمة صغير.علمــاً بأن فيرولــو كان قد لفظ هذا الحــرف في كلمة صدقن أنــه القاف.الذي كان بَوَرّ قد قرأه قاف.فأقر رأيه على الغين والقاف رقم٢١ورقم٢٥.

لقد تكرر تسطير الحرف رقم ١٩ فقط مرتين وظن بور أن لفظه يشابه لفظ حرف الفــاء رقم٢٢ كمــا في كلمتــي جفن وفك وتأسيســاً علــى ذلك يكون الشــكل ٢٢ هو حرف الفاء. لقد وجــد الباحث الألماني أن النصوص التي بين يديه لاتساعد في تحديد لفــظ الشكلين ٢٧و٢٨ ومــع ذلك قال ربما يلفظان مثل الشــين والتاء.أما حرف الواو فقد عين به الشــكل٨ الأكثر شيوعاً والذي يمثــل حرف العطف الــذي يتألف من أربع إشــارات مسمارية، بينما يتألف حرف الواو الذي هو حرف ساكن في الثلاثي (وعد) من ثلاث والواقع أن مبدع الألف باء الأجاريتية قد تقصد الفصــل بين حرف الواو كحرف عطــف وحرف الواو كحرف ساكن من جذر الكلمة في معظم الحالات.

وهنا وفي هــذا المكان بالذات أحب هذا الباحث الألمــاني أن يذكرنا بأن طريقته في قراءة نصوص سينــاء المشهورة التي طبقها في عمله على قراءة نصوص أجاريت ليست هي الوحيدة ويمكن للمــرء أن يسلك طرق أخرى فجميع الطرق تتجه نحو روما حسب المثل الأوروبي. لقد لاحــظ هانس بَوَرّ بعد أن قلَّب صــور النصوص مرات ومرات بين يديــه أن معظــم الكلمــات الكنعانية التي يتداولهــا النــاس يومياً وتوقــع أن يجدها

في النصوص غائبة مثل: نفس وسلام ويوم وسماء وأرض وشمس وقدس وعبد ورأى وسماح وبارك طيب.وأخيراً أشار إلى أن لفظه لهذه الحروف،وبالاعتماد على هذه النصوص القليلة،قد يعتريه الخطأ؟! وأضاف إن صعوبة العمل تكمن في أن بعض النصوص هي مشوهة وقد ضاع من الكلمة حرف أو أكثر، وأن تصوير الرقم لم يكن على درجة كافية من الدقة،يعتمد عليها الباحث في قراءته للكلمات.ولم ينس أن يعبر عن أمله في اكتشاف المزيد من الرقم التي تساعد الباحث في إكمال عمله وقراءة النصوص وفهمها وجعلها بمتناول الجميع لإكمال المشوار ودراسة جميع نواحي هذه اللغة والمواضيع التي عالجتها الرقم. ثم أدرج الحروف التي تعرف على أسمائها وهي:ألف وألف مده وباء وجيم (جيمِل) ودال وهاء وواو فزين وخاء وحاء وياء وكاف ولام وميم ونون وعين وغين وفاء وقاف وراء وشين وتاء. وترك شكلين في آخر القائمة لايعرف اسميهما.وبهذا بلغ عدد الحروف لديه سبعة وعشرين حرفاً مع شكلين للواو والجيم. والذي يدقق في قائمة هانس بور يجدها خالية من حروف الطاء والسين والصاد والثاء المخففة ويجد أن عددها يزيد على عدد الأبجدية الفينيقية والآرامية والعبرية بخمسة أحرف.

لم يتوقف هانس بور عند محاولته الناجحة نسبياً في قراءة النصوص. بل تجاوزها إلى ناحية رائدة أخرى وهي القبض على مصدر الإلهام للمبدع الأجاريتي العظيم الذي أوجد الطريقة المثلى في كتابة لغة بلاده.

وفي سبيل الوصول إلى غايته قارن أشكال الحروف المسمارية الأجاريتية مع أقرانها البابلية-الآشورية والحثية. فوجد أن اثني عشر حرفاً لها أقران في البابلية-الآشورية والحثية التي تبنت الخط المسماري البابلي الآشوري، وذلك من حيث الشكل فقط أما اللفظ فمختلف. عندها أحجم عن القول بمدى تأثير البابلية الآشورية في إبداع الأبجدية الأجاريتية وبذات الوقت حذر من الاستعجال في إصدار الأحكام حول جذور هذه الألف بائية بالاعتماد على التشابه أو التطابق بين الحروف. ففي حالة الأبجدية اليونانية جاز للباحثين القول بأنها أخذت عن الفينيقية لأنها حافظت أيضاً على لفظ الحروف وأسمائها: فاليوناني أخذ الحرف كما هو ورسمه بشكل يوناني كما فعل من قبلهم الحثيون والعيلاميون عندما أخذوا الخط البابلي الآشوري ولفظوا حروفهم بأسمائها الحثية العيلامية. والواقع أن الشواهد على تبني أمة ما لألف باء لغة

أمة أخرى كثيرة في هذا العالم.وأثناء التقليد حافظوا على أسماء الحروف واستخدموها في صياغـة كلمـات لغة أخـرى مختلفة بل متباينـة أي إن التقليـد انحصر في الشكل الخارجي ولم يتجاوز إلى اللفظ الذي ربما سار عليه مبدع الألـف باء الأجاريتية الذي قلد شكل الخط المسماري في رسم حروفها ولكن بلفظ آخر محلي وربما هذا مافعله بشكل أو بآخـر مبدعو الأبجدية في بلاد الشام عامة بعد قرون على إبـداع أجاريت.وهنا يطيب لي الإشـارة إلى أنني أطلق مصطلح أبجدية على حـروف الفينيقية والعبريـة والآرامية ومصطلح الألف بائية على حروف أجاريت والعربيـة لأن التسلسـل بين تتالي الحروف لايتطابق في المجموعتين.

وقد لاحظ هانس بـور أن لغة أجاريت ووفـق ماكان معروفاً مـن أدبياتها وقتذاك تشـترك مـع الفينيقيـة بعـدم الاهتمـام بالحـركات والتمييز المطلـق بين الحروف كما هو الحـال في الكتابة البابلية الآشورية أيضـاً. وقد جزم كذلـك أن زيادة الحروف في الأجاريتيـة علـى الحـروف الفينيقية ٢٧إلى ٢٢ لايعني التعويض أو تجنب طريقة استخدام الفينيقيين للحركات في تغيير لفظ بعض الحروف مثل (تغيير لفظ حرف الشين إلى سـاء والحاء إلى خـاء والعين إلى غين) ونقصـد بحرف ساء هنا هـو لفظه بحالة متوسطة بين الشين والتاء كما في ثور الذي يتباين لفظـه في سورية بين منطقة وأخرى إنما لأنه وجد طريقة مضاعفة شكل بعض الحروف هو الأنسـب والأجدى وأضيف إن الفينيقية لم تكن مدونة وقتذاك فالحالة في هذه الأبجدية والعربيـة هو الأصل. وربما أن في هذا الشاهـد الدليل على استقلالية الأجاريتي في تدوين الألف باء مع الاستفادة من شكل الحرف فقط.

لم يستشهـد هانس بور باللغـة العربية إلا مانـدر وذلك لأنه يلم بهـا فقط.وكثيرة هي الدراسات التـي قارنت بين الأجاريتية والعربيـة(٥) والتي حذت حـذو الأجاريتية وميزت بين لفظ الحـروف المتشابهة شكلاً بوساطـة النقط.بينمـا ميزهـا الأجاريتي بوساطـة زيادة عـدد الأشـكال المسمارية. ويبقـى السؤال المطروح لمـاذا هذه الثنائية بشكل بعض الحروف؟

إن عمل هذا الباحـث وجهده في قراءة نصوص لغة أجاريت والتعرف على حروفها هو إنجاز علمـي كبير،يستحسن أن يتعرف عليـه ليس فقط الباحثـون في علم اللغات القديمة إنمـا أيضاً معظم المثقفين. والحق أن هـذا الباحث لم ينفرد بهـذا العمل،إنما كان علـى خـط مـوازِ الباحـث الفرنسي

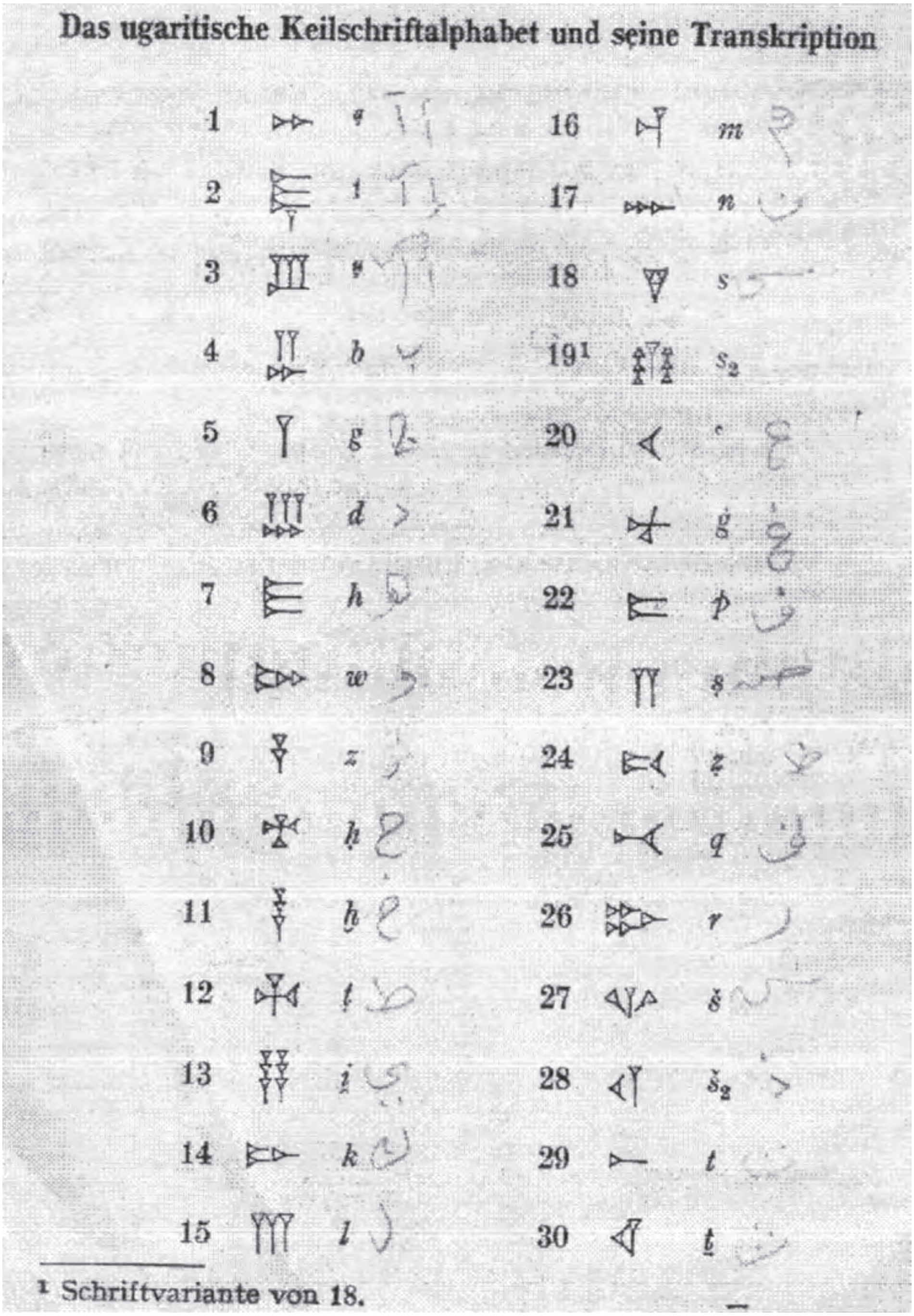
Ch. Virolleaud الــذي كان يشــارك في عمل البعثة الفرنسيــة برأس الشمرا وكان لــه قصب السبق في اطــلاع الباحثين على هذا الاكتشــاف غير أنه تأخر في نشر نتائج أبحاثــه لمــدة وجيزة وهــذا مافعلــه أيضاً الباحــث الفرنسي الآخــر P. Dhorme الذي كان يصدر مجلة :Revue biblique والــذي كان على اتصال وثيق مع هانس بور ويتتبع خطواته في مضمار قراءة النصوص وتحديد الحروف بأسمائهــا وأشكالها .ولما حصــل على ماتوصــل إليه بور مــن نتائج بوساطة المخطوطة التــي أرسلها إليه أثنى على العمــل وقدم بعضــ الملاحظات التي أخذها هانس بور برحابة صدر وأشار إليها في ملحق كتابــه(٦) الذي نشره عام ١٩٣٠في مدينة هاله.

لقد تلاقى هــؤلاء الباحثون على هدف واحد هو قراءة نصوصــ أجاريت وتحديد حروفهــا وهويتها ومكانتها بين لغات بلادنا القديمــة وجعلهــا بمتنــاول الباحثين من الأجيال اللاحقة الذيــن بنوا على دراسات أولئك المبدعين في أبحاثهــم بقواعد وفقه لغة أجاريت بآداب هــذه اللغة ومكانتها في ثقافة بلادنا. وبجهود هؤلاء الثلاثة فيرولو وبور ودورمــي اكتملت الألف باء الأجاريتية التي نعرفهــا الآن وإن كنا نحن حالياً نقدر ونبارك أعمالهم فإننا نطرح السؤال الآتي: كيــف كان أسلوب عملهــم وهدفه لو كانوا قــد حصلــوا مسبقاً على لوحــة الألف باء الأجاريتية المعروضة الآن بمتحف دمشق؟!

ففــي عام ١٩٤٩ اكتشفــت هذه اللوحة بمدينــة أجاريت أي بعد مرور عشرين عاماً علــى اكتشــاف أول الرقم وهــي الآن درة معروضــات آثــار أو تراث هــذه المدينة في متحف دمشق.

لاشك أن هذه الأبجدية كانت قد استأثرت بأفئدتهــم وأدخلــت الســرور إلى قلوبهــم ويســرت عليهــم العمل المضنــي وامتدحوا الذين أبدعوها. والواقع أن غايتي من طرح هذا السؤال ليس الوصول إلى هذه الإجابة. إنما لأقر أن عملهم قد امتاز بالدقة العلمية المنهجية الفائقة فجاءت ألف بائيتهم طبوقاً مع الأبجدية الأم.

إن الدراســات الأجاريتية اللغوية تضيق بها مكتبة فردية فهي كثــيرة ويجدها المرء في المكتبات الخاصة بحضارة وثقافة بلادنا وأشير هنا فقــط إلى أن الباحثين الألمانيين ديتريشــ ولوريتز قــد أصدرا مجلــة باسم Ugaritica الأجاريتيــة تعنى في نصوص أجاريــت وأبحاثهــا وفي ثقافة بــلاد الشام عامةً(٧) وذلك منذ عام ١٩٧٥.


Das ugaritische Keilschriftalphabet und seine Transkription
1 ʾa
2 ʾi
3 ʾu
4 b
5 g
6 d
7 h
8 w
9 z
10 ḥ
11 ḫ
12 ṭ
13 y
14 k
15 l
16 m
17 n
18 s
19¹ s_2
20 ʿ
21 ǵ
22 p
23 ṣ
24 ẓ
25 q
26 r
27 š
28 $š_2$
29 t
30 ṯ
¹ Schriftvariante von 18.

الهوامش

1- Hans Jensen,Die Schrift in Vergangenheit und Gegenwart,Berlin 1958,p.303,Fig.295

2- Syria 10,1929,p.304310-.

3- H.Bauer,Entziferung Der Keilschrifttafaln Von Ras-Shamra,Haale, 1930.

4- Hans Bauer p.50. المصدر السابق.

5- Fred Renfroe, Arabic- Ugaritic Lexieal Sturies, Münster,1999.

وفيه يجد الباحث الأبحاث المتعلقة بالموضوع

6- H.Bauer . المصدر السابق ملحق في آخر الكتاب.

7- Dietrieh,Loretz,Sammartin,Ugarit Forschung, Mmünster. ألمانيا

الدراسات والبحوث



التصنيف السباعي في مدونات الشعوب

د. عمر الدقاق *

منذ فجر التاريخ كان لبعض الأعداد حظوة في ضمير البشر لم تنلها أعداد كثيرة سواها مما يحفل به الكون والطبيعة. وبذلك اكتسبت أعداد بعينها قدراً وافياً من الإجلال والتقديس من مثل الأعداد ١، ٢، ٣، ٥، ٧، ١٠، ١٢، ٤٠، إلخ على تفاوت في أهميتها وفي منزلتها.

إن الهالات الثلاثية والخماسية والسباعية والاثنتي عشرية والأربعينية والسبعينية وسواها، بقدسيتها التي انبعثت من ربوع الشرق القديم، ولاسيما

** أستاذ في جامعة حلب، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

من بلاد الرافدين وضفاف النيل، أخذت تتوهج على مر الأيام وتسري إلى سائر أرجاء الأرض، لتغدو بذلك إرثاً إنسانياً ثرياً، وسمة غالبة على معتقدات الأمم وحضاراتها وسائر أوجه حياتها.

وإذا تبدت أمامنا هذه الأعداد المشهورة، فلا ريب أن العدد ٧ هو أشهرها وأعجبها ألقاً وسحراً وأشدها تأثيراً في حياة البشر منذ غابر الدهور، كما أنه أوغلها في معتقداتهم وأساطيرهم وفنونهم وملاحمهم. وإذا كانت منزلة هذا العدد لدى الأقوام السالفة ترجع إلى حقب موغلة في القدم، فإن هذه المنزلة استمرت على زخمها عبر العصور، وإن انحسرت عنها بعض معطياتها الغيبية، فإذا العدد ٧ اليوم مازال يسري في حياة الأمم المعاصرة على اختلاف عقائدها وثقافاتها، محتفظا بألقه وطرافته وجاذبيته لدى كل إنسان في عالمنا الحاضر..

قد لا نستطيع على وجه الدقة أن نتلمس في فجر التاريخ بدايات الاهتمام بهذا العدد ٧ والحرص على إجلاله ثم تقديسه. فالبدايات لدى البشر، كما هو معهود في مثل هذه الأحوال تسري باهتة خفية وبطيئة، وقلما تبرز وتطفو على السطح على نحو ماثل جلي إلا بعد أمد طويل. وأوائل مظاهر هذا العدد في التاريخ المدون نجدها في منطقة الرافدين وما وراءها من ربوع الشرق القديم وعند السومريين على وجه التحديد، وذلك قبل أكثر من خمسة آلاف سنة، ثم لدى ورثة حضارتهم من سائر الأقوام من أكاديين وبابليين وآشوريين وكلدانيين.. وكذلك الشأن عند الإغريق والرومان..

وفي ثنايا ملحمة غلغامش السومرية الرائدة التي تصور حدث الطوفان، وحيث يتواشج الواقع والخيال يمور العدد ٧ دون هوادة ضمن مواقف ومشاهد بعيدة الغور في غمار منازع أولئك الغابرين وهواجسهم، وكفاحهم الأزلي المرير في سبيل البقاء، وتطلعاتهم الدائبة إلى الحظوة بالخلود.

على أن السمة الأهم للعدد سبعة تتبدى في دلالته العددية التي تعني الاكتمال والانتهاء كما تعني في الوقت نفسه الرسوخ والقوة. وهذا ما تعنيه الكلمة في اللغة العربية ومعاجمها وفي سائر اللغات القديمة عند الكنعانيين والعبريين ونحوهم.

وهكذا اكتملت أيام الأسبوع سبعة كما اكتمل عدد السماوات فصارت سبعا أيضاً.. ثم سرى ذلك إلى مجال الكون والفلك والطبيعة، كما تجلى ذلك في مناحي البناء والعمران وفي العديد من الأشعار والقصص والمسرحيات والسير والمؤلفات والمصنفات وسائر الفنون والآداب

ولعل من المفيد توخياً للملمة البحث المتشعب وحصر نطاقه الواسع أن نقصر معظم الكلام على نتاج الأقدمين والأمم الأخرى في مجال المسرح والتمثيل وضمن عالم التأليف والتصنيف. على حين لا بد أن يرجأ تناول كل ذلك بصدد جهود العرب على هذا الصعيد إلى دراسة لاحقة مسهبة.

والنتاج الإبداعي الأبرز في هذا الصدد يتجلى في التراجيديا الإغريقية ولا سيما مسرحية (سبعة ضد طيبة)، وقد ألفها اسخيلوس اليوناني صاحب (أوديب)، وهي مستمدة من تراث الإغريق الذي تداخلت فيه معطيات التاريخ والأسطورة. والمسرحية تصور وقائع الحرب الطاحنة التي نشبت بين الأميرين الشقيقين إتيوكليس وبولونيكيس ابني أوديب الملعونين من قبل أبيهما، واللذين كتب عليهما القدر أن يقتل كل واحد منهما الآخر، فكانا يقودان بذلك طيبة إلى الخراب، على حين كان الرؤساء السبعة الأشداء المتدرعون يحاصرون طيبة، وراح سابعهم يتصدى لاتيوكليس الذي كان شديد التقى بالغ القوة. والغريب في الأمر أن اسخيلوس وهو أبو المسرح كتب تسعين مسرحية في حياته ولكن ما وصل إلينا هو ٧ مسرحيات

وتدور حول مملكة طيبة في اليونان أسطورة شائقة اسمها (نايوبي) وهذا اسم الملكة التي كانت تتربع على عرش مدينتها. وكان لها سبعة أبناء وسبع بنات. ولكن الحروب الطاحنة أدت إلى مصرع أبنائها وبناتها جميعاً. وقد فجعت نايوبي بهذا المصاب الأليم وأخذت تنتحب ولا تكف عن البكاء. ومازالت كذلك حتى رق لحالها كبير الآلهة (زيوس) فجعلها تمثالاً من الصخر تسح من عينيه الدموع على الدوام. غير أن واحداً من أبناء نايوبي وهو الأخير كان قد أصيب بجرح بليغ ولم يمت. وحين استعاد عافيته نذر نفسه للكفاح ضد الغزاة المعتدين حتى رضيت عنه الآلهة، وإذ ذاك عادت الحياة إلى أمه نايوبي وجفت دموعها إلى الأبد.

وثمة كتاب إغريقي قديم يحمل اسم (السبعين مقالة) من تأليف أوريباسيوس، نقله إلى السريانية حنين وعيسى ابنا يحيى من آل بختيشوع في العصر العباسي الأول، وقد ذكره ابن النديم في كتابه «الفهرست».

والإغريق يعدون الفلاسفة أو الحكماء وبعض كبار رجال الدولة سبعة ضربت بهم الأمثال، وهم طاليس، وبيتاكوس، وبياس، وكليوبول، وميزون، وخيلون، وصولون.

وفي مجال التأليف العلمي حفلت المكتبة العربية في ذلك الحين بكثير من التراجم

وأسماء الكتب المؤلفة والمصنفة والمترجمة، ولاسيما في القرون الثلاثة الأولى التي تلت الهجرة، وآثرت المنحى السباعي مثل كتاب (دسقورس) (الأخوة السبعة الحكماء في الصنعة). ومن كتب أرشميدس في الهندسة كتاب (تسبيع الدائرة) ومن بعد ذلك مجموعة من كتب بطليموس مثل كتاب في (سير السبعة) وكتاب آخر يعرف (بالسابع).. إلخ.

وقد استفاض الإيقاع السباعي في التراث الفارسي ولا سيما في مجال العقائد والملل والنحل. ومن هذا القبيل الكتاب الذي يحمل اسم (قصة الوزراء السبعة) وهو كما يقول بروكلمان مستمد من الكتب التي ترجمها العرب عن الفارسية، ولكنه لم يصل إلينا.[1]

وفي هذا الصدد أيضاً ألف (ماني) سبعة كتب تضمنت تعاليم المانوية على نحو مسهب[2]. كذلك تضم المكتبة الفارسية السالفة كتاب (صور أقاليم سبعة) لمؤلفه محمد بن يحيى أحد علماء الفرس في تقويم البلدان إبان العصر العباسي الأول في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، وقد أشار إليه كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب



الجغرافي عند العرب) وأورد ابن النديم في (الفهرست) ومن بعده حاجي خليفة في (كشف الظنون) عدداً من كتب الفقه والتصوف التي يدور مضمونها في فلك التصنيف السباعي وهي باللغة الفارسية أيضاً مثل كتاب (السبع المثاني) لنجيب الدين رضا الأصفهاني وهو في المثنويات، إلى جانبه كتاب أدبي مشابه في المثنويات أيضاً باسم (سبعة سيارة) للشاعر الفارسي عبد النبي آذر.. إلخ.

على أن كتاب الفهرست بمفرده وتميزه الذي ألفه ابن النديم يحفل بالجم الغفير من تراجم العلماء والفقهاء والمنجمين والحسّاب والمهندسين والأطباء والصيادلة وسواهم ممن صنفوا الكتب وألفوها والذين ترجموها، وذلك في قدر كبير من الجهد والتقصي والحرص على استيعاب ما زخرت به المكتبة العربية من المدونات حتى عصر ابن النديم حيث توقفت مادته العلمية عند العقدين الأخيرين من القرن الرابع الهجري بسبب وفاة مؤلفه سنة ٣٨٠ على وجه التقريب. وهو عالم جليل وباحث مدقق غاص في عالم الكتب الزاخر واتسم بحرصه على الاستيعاب ما أمكنه ذلك، والتزامه بالصدق والأمانة. كأن يقول في فهرسته بصدد أحد فصوله ما يلي: (أسماء الكتب التي ألفها الحكماء، ورأيناها، وعرفنا الثقة أنه رآها وذكرها علماء هذه الصنعة). وابن النديم على أية حال المؤلف الرائد في هذا الصدد وإمام الذين صنفوا على غراره بعد ذلك عبر العصور من مثل ابن خير الأندلسي في فهرسته أيضاً، ثم حاجي خليفة صاحب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إلى أخر هذه الزمرة من كبار المصنفين في التراث العربي.

❁ ❁ ❁

وقد سرى هذا المنحى السباعي المحبب إلى القرون الوسطى لدى الشعوب الغربية في أوروبة وأميركا، كما شاعت لدى المسيحيين أسطورة «النائمون السبعة» المتصلة بأهل الكهف وتبدت أيضاً في عدد من الصور والمنحوتات، التي ترمز إلى فكرة البعث في العالم الآخر كذلك شاعت في آداب الغربيين أشعار وقصص جمة حول الأقمار السبعة. وفي صدد الأوزان الشعرية عند الشعوب اللاتينية ومنهم الفرنسيون نمط عروضي يعرف بالسباعي[٣] Septain، وهو المقطوعة المنظومة التي تتألف من سبعة أبيات من الشعر.

وعلى صعيد آخر ثمة مجموعة قصصية معروفة ترجع جذورها أيضاً إلى القرون الوسطى في أوروبة وتحمل اسم (العقلاء السبعة في روما) ولكن كاتبها غير معروف.[٤]

ثم امتد المنحى السباعي بعدئذ إلى أمريكا الجنوبية حيث شاعت لدى شعب (بيرو) أسطورة (مدن الذهب السبع).

وعلى هذا الغرار استمد المؤلف الأميريكي فان ويسب Van Weesep عنوان كتابه (الحكماء السبعة) من كتابات الإغريق السالفة حول الحكماء السبعة الذين سبق ذكرهم، وقد ترجم الكتاب إلى العربية[٥]

وهو سيرة سبعة من أعلام الولايات المتحدة الأمريكية الذين تألقوا خلال القرنين الأخيرين في العلم والفكر والفلسفة وسائر العلوم الإنسانية وهم بنجامان فرانكلان- رالف أميرسون-وليم جيمس- جون ديوي- جورج سانتايانا- تشارلس ساندرزبرسي- ألفرد نورث هوايتهيد.

وثمة كتاب للمؤرخ البريطاني جوزف داهموس تناول فيه سير سبعة من مشاهير الملوك في القرون الوسطى وأثرهم الحضاري، وفي جملتهم الخليفة هارون الرشيد والملك شارلمان، وقد أشاد المؤلف بهاتين الشخصيتين وتحدث عن بلاط كل منهما بإسهاب وبموضوعية في تلك الحقبة السالفة من التاريخ.

وتضم المكتبة الفرنسية كتاباً مرتكزاً في تبويبه على العدد سبعة وحضوره في ضمير الأفارقة Magie et Religion dans l،Afrique de nord وهو من تأليف Doutte وقد صدر في الجزائر سنة ١٩٠٩، وإلى جانب ذلك ألف الكاتب الروسي أندرييف كتاباً اسمه (السبعة الذين شنقوا). وقد ترجم إلى الإنكليزية بعنوان The seven who were hanged ثم نقله أمين العيوطي إلى العربية وصدر بالقاهرة سنة ١٩٦٨.

وعلى صعيد آخر من العالم طاب لأدباء اليابان هذا المنحى السباعي العريق في بعض مصنفاتهم وفنونهم التمثيلية والموسيقية ومن أمثلة ذلك ما اشتهر لديهم من حكايات (آلهة الحظ السبعة)، وهم كما تذكر الموسوعة البريطانية الكبرى(٦) مجموعة آلهة ورهبان يحظون بالإجلال والتقديس في ضمير اليابانيين وجلهم من أتباع بوذا، وفي عداد هؤلاء الآلهة ربة هندية وحيدة. وقد نظمت حول أولئك السبعة أغان وأناشيد شاعت على الألسن، فضلاً عن تمثيليات هازلة محببة. وقد نحت الفنانون اليابانيون تماثيل متنوعة حول ذلك النسق السباعي تصور سفينة تحمل على ظهرها سبعة أرباب.

وفي الأدب الياباني الحديث قصة للكاتب ييكوميشيما عنوانها (الجسور السبعة) تدور حول خرافة شعبية مفادها أن الفتاة التي تجتاز هذه الجسور السبعة الممتدة عبر النهر واحداً بعد واحد وهي تؤدي الصلاة كلما دخلت جسراً أو خرجت منه دون أن تتحدث مع أحد أو تنبس ببنت شفة.. يحقق لها القدر أمنيتها بأن يجمعها بفتى أحلامها.. وعلى ذلك سلكت بضع فتيات أتراب من بنات (الغيشا) طريقهن عبر الجسور السبعة ملتزمات الصمت مؤديات للصلوات عبر كل

جسر. وعلى الرغم من حرصهن الشديد واجهن ما لم يكن في الحسبان فخرجن عن صمتهن فتبددت أمنيتهن.. وقد ترجمت قصة (الجسور السبعة) ونشرت في مجلة الآداب الأجنبية بدمشق.(٧)

ويعد الأخوان غريم الألمانيان من أبرز الكتاب القاصين الذين عنوا بسحر العدد سبعة في مجال أدب الطفولة وقد ترجمت أعمالهما إلى أكثر لغات العالم ومنها العربية، مثل قصة (الذئب والعنزات السبع)، كما كتبا القصة الأشهر عن فتاة (الثلج الأبيض والأقزام السبعة) وهي Blanche neige et les sept nains. وقد استفاضت شهرتها في عالم الأطفال وفحواها أن الملكة الأم كانت تطرز ثوباً قرب النافذة وترقب الثلج الهاطل، فوخزتها الإبرة، فنزف الدم وسال وسرعان ما نسيت ألمها وتمنت ابنة بيضاء كالثلج، حمراء كالدم، تسميها (البيضاء كالثلج)، وكان لها ما أرادت ثم ماتت فتزوج الملك بأخرى كانت لا تفتأ تسائل المرآة كل صباح: هل في الوجود أحلى منها؟، فتجيبها: نعم البيضاء كالثلج، فتغضب. ثم أوعزت إلى الحارس بأن يأخذ الأميرة الصغيرة إلى الغابة ويتركها للوحوش، وبذلك تتخلص منها ويقال أنها أمرت صياداً بقتلها وإحضار قلبها وكبدها، ولكنه يرق لها ويخبرها الحقيقة، فتعده بألا تعود إلى القصر. وهنا يمسك بوعل صغير ويذبحه ويأخذ قلبه وكبده هدية للملكة.

وتسير الأميرة وحيدة نحو بيت فتجده خالياً من أهله، وفيه (سبعة) أسرة فترقد في أحدها وإذ يعود (الأقزام السبعة) يستغربون وجودها ويدهشون لجمالها ثم تطمئن إليهم وتوافق على العيش معهم. وحين تعاود الملكة سؤال المرآة يأتيها الجواب المعهود فتغضب وتصمم على معالجة الأمر بنفسها. فتضع على وجهها قناع امرأة عجوز، وتغير من هيئتها، وتحمل سلة فيها أحزمة وأدوات زينة ثم تقصد إلى بيت الأميرة وتحاول إغراءها بشراء ما لديها فتعتذر. وعندها تهدي إليها حزاما لا تكاد تضعه على خصرها حتى تسقط مغشيا عليها. وعندما يعود رفاقها السبعة يظنونها قد ماتت، إلا واحداً اعتقد بحدسه أنها لم تمت، فينتزع الحزام وتنهض الأميرة.

وحين تطرح الملكة السؤال على المرآة وتتلقى أيضاً الجواب المعهود يستبد بها الغضب وتعمد إلى دس السم في تفاحة وتطعمها الصغيرة فتموت، ويقرر رفاقها السبعة دفنها في صندوق زجاجي. ويمر الأمير بالجنازة فيحزن ويتأثر للزهرة الذابلة. وهنا يختلج النعش بسبب نقله

فتصحو الأميرة. وعندئذ يفرح الجميع ويتزوجها الأمير. أما الملكة فحين تعرف حقيقة الأمر من المرآة تحطمها ولا تلبث أن تموت قهراً.

ولعل من أبرز الأعمال الأدبية لدى الغربيين التي استوحت من التراث التليد مفهوم العدد ٧ ما عمد إليه الكاتب المسرحي الكبير «برتولد بريخت» في تأليفه مسرحية «الخطايا السبع للبرجوازي الصغير». وهي باليه في سبع لوحات[٨]. وقد اقتبس بريخت عنوان مسرحيته الخطايا السبع التي يذكر الإنجيل أن الدين يحرمها وأن الله لا يغفرها. لكن بريخت عمد إلى تحويل هذه الخطايا وجعل منها (سبع صفات)، إنها في نظر البرجوازي الصغير أكبر الكبائر وهي:

الكسل في ارتكاب الخطيئة

التعاظم على الناس بأحسن ما عندك

الغضب على العادات الدنيا

النهم في الأكل

الدعارة دون ثمن

الجشع في السرقة والخداع

الغيرة من السعداء

ومن هذا القبيل الذي ينطوي على أهمية العدد «٧» في الآداب الغربية ما نجده أيضاً على صعيد الشعر في قصيدة نظمها (ووردز وورث) أحد أعلام الأدب الرومانسي في انكلترا، وقد آثر أن يكون عنوانها (نحن سبعة) وقد نشرت ترجمتها إلى العربية مجلة (العربي) بالكويت.[٩]

كذلك عمد أفاديك ساهاكيان أحد شعراء أرمينيا في العصر الحديث إلى تأليف (ملحمة المعري) مستلهما إياها من شخصية أبي العلاء ونبوغه. وقد جعلها في سبعة مشاهد لتقابل السماوات السبع. وفي مقبرة العظماء في العاصمة الأرمينية «يرفان» يقوم نصب مرمري فوق ضريح الشاعر ساهاكيان يصور سبعة جمال تسير في قافلة رامزة إلى تلك الأجزاء السبعة التي تتشكل منها ملحمة المعري.

وعلى الصعيد الجغرافي المقابل لأرمينية يواجهنا في آداب اللغة الإسبانية في أمريكا اللاتينية الأديب الأرجنتيني المعاصر خورخي لويس بورخيس في كتابه (سبع ليال)، الذي ترجم مؤخراً إلى العربية[١٠]. وأصول الكتاب سبع محاضرات ألقاها بورخيس على طلاب جامعة تيترو كوليزيو في العاصمة الأرجنتينية بيونس آيرس وذلك في سنة ١٩٧٧. ومجمل المحاضرات السبع سرد شائق لسيرة الشاعر الكاتب بورخيس ونظراته منذ يفاعته وانفتاحه على جوانب من تراث الشرق الروحي مثل البوذية ومثل كتاب ألف ليلة وليلة وعيون آداب الغرب

ولاسيما الكوميديا الإلهية لدانتي واختزانه الكثير من الانطباعات من خلال قراءاته النهمة التي عمقت ذهنه وأغنت أدبه، وكان لها أثر ملموس في تكوينه الفكري والشعري ويلاحظ في خلال حديث بورخيس عن سالف مطالعاته وذكرياته ذكره لعجائب الدنيا السبع، التي انعكست هالتها بعدئذ، وفيما نقدر، في إيشاره العنوان (سبع ليال) لكتابه هذا[11]. ولعل خاتمة محاضراته وهي السابعة كانت الأجمل والأغنى، من حيث تصويره لمختلف المنازع والتوجهات والرؤى تجاه العالم في هذه الحقبة المعاصرة، كما كان مجلياً ورائعاً في حديثه عن العمى والظلام كأسلافه النابغين هوميروس الإغريقي صاحب الإلياذة وملتون الإنكليزي صاحب الفردوس المفقود، ثم قوله في عبارته الأخيرة إن العمى هبة.

وقد اتسعت هالة السبعة لتشمل برحابها مجالات أخرى من مستجدات هذا العصر الاجتماعية والسياسية من مثل كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) الذي ألفه بالإنكليزية الضابط البريطاني الشهير لورنس المعروف في التاريخ المعاصر بلورنس العرب. ويتضمن رؤاه ومذكراته تجاه ما يعرف بالمسألة الشرقية، ولا سيما الأوضاع والتحالفات إبان الحرب العالمية الكبرى، وقد أقام في بعض البلاد العربية سنوات عديدة والعنوان كما هو ظاهر مستوحى من تراث الشرق.

ويتبدى هذا الاهتمام بالنهج السباعي أيضاً في مجال العلوم التطبيقية الحديثة مثل الهندسة والفلك، حيث تطلع علينا كتب علمية على هذا الصعيد من مثل ما ألفه المهندس المعماري جون رسكن في بريطانيا في كتابه عن فن العمارة القوطية إذ آثر له تسمية (المصابيح السبعة في فن العمارة).

ثم كان من الطبيعي بعد ذلك في مواكبة التكنولوجيا الحديثة أن يجد جانب من النتاج الفكري والإبداعي السباعي طريقه إلى الفن السابع أيضاً وهو جماع الفنون أي إلى الشاشة الكبرى في السينما وأيضاً إلى الشاشة الصغيرة في التلفاز. وهكذا أتيح لجمهرة الناس في أنحاء العالم كباراً وأطفالاً أن يشاهدوا بأعينهم كل جميل وطريف وممتع وبهيج.. فكان من هذا القبيل فيلم «فتاة الثلج الأبيض والأقزام السبعة»:

Snow white and the seven dwarfs

الذي بادرت إلى إنتاجه شركه والت ديزني الأميركية سنة ١٩٣٧. وهو يصور قصة الفتاة الجميلة (بلانش نيج) التي تواجه غيرة الملكة الشريرة وشراستها، فتهرب إلى

غابة بعيدة لتعيش مع سبعة أقزام طيبين بانتظار فارس أحلامها الذي يأتي في الوقت المناسب ليحتضنها ويجلب لها السعادة.

وهكذا مضت شركات السينما في هوليود وسائر الشركات المماثلة في أوروبة إلى إنتاج أفلام مشابهة بالأسود والأبيض ثم بالألوان ليراها البشر على أوسع مدى في كل بلد وفي كل بيت.. ومن هذه الأفلام الشهيرة أيضاً على هذا الصعيد السينمائي فيلم (أبطال الساموراي السبعة) The seven Samurais للمخرج الياباني (أكيرا كوروساوا) الشهير الذي تمّ عرضه على الملأ في سنة ١٩٥٤. وهو مستمد من رواية يابانية بهذا الاسم. والفيلم يروي قصة سبعة رجال من المرتزقة انبروا للدفاع عن قرية آمنة تواجه غزو عصابة من الأشرار راحت تعيث فساداً بين الناس، والفيلم يصور مرحلة سالفة من حياة الشعب الياباني خلال القرن السابع عشر.

وما لبثت هوليود أن أنتجت سنة ١٩٥٧ فيلماً متميزاً مستمداً من حقبة الحروب الصليبية عنوانه (الختم السابع) The seven seal وهو في الأصل رواية من إخراج إنغمار بيرغمان حيث يقدم من خلالها «تأملاً عميقاً في الموت والعلاقة المثلى مع الله، من خلال معاناة فارس اسمه (ماكس فون سيدو) عاد إلى وطنه من الغزوات الصليبية[١٢] فوجد وباء الطاعون وهو يحصد أرواح الآلاف في مدينته..

و إلحاقاً بما تقدم في هذه الجولة في رحاب ظاهره التسبيع أو المنحى السباعي في الفنون والآداب يمكن أن يشار على هذا الصعيد أيضاً في مجال النقد الأدبي إلى كتاب (سبعة أنماط من الغموض) Seven types of ambiguity وقد ألفه الأديب السويدي إبسن Ibsen (١٨٢٨- ١٩٠٦) ثم ترجم إلى الإنكليزية وعمد إلى دراسته وتحليله الناقد البريطاني وليم امبسون Willam Empson وعالج فيه ظاهرة الغموض في الشعر[١٣]. ويعد في طليعة الكتب النقدية في موضوعه. وأصله رسالة دكتوراه في جامعه كامبردج أشرف على معدها الناقد الكبير I. A. Richards.

وفي هذا الصدد من النقد الأدبي سبق أن عرفت الساحة الأدبية في الولايات المتحدة الأمريكية مجلة (الفنون السبعة) The seven arts. وقد أصدرتها في مدينة بوسطن مجموعة من المحررين الأمريكيين من بينهم جبران خليل جبران في ضحى القرن العشرين.[١٤]

وفي مجال الدراما لقي مؤخراً مسلسل اجتماعي استعراضي إقبالاً جماهيرياً في

فضائيات التلفزة الغربية من إنتاج إحدى الشركات بالولايات المتحدة الأمريكية. وهو مستمد من سيناريو تدور وقائعه حول سبعة إخوة وفي مقابلهم سبع فتيات بحيث تنجم عن ذلك علاقات متشابكة ومفارقات طريفة.

وبعد، فإنه يكاد يتعذر على المتقصي بل المتتبع أن يحيط بمدى انتشار هذه الظاهرة السباعية في ثقافات الأمم. وعلى أية حال، حين نتلفت حولنا ونجيل النظر في رحاب هذا العالم المعاصر وضمن زمننا الحاضر الذي يحفل بإنجازاته وإبداعاته على كل صعيد من المعارف الإنسانية والفنون والآداب والعلوم والتكنولوجيا..، فإنه يتبين لنا أن البشر في حقيقة الأمر يتشابهون برغم أنهم في الوقت نفسه لا يتشابهون، حيث تتلاقى الجهود وتتقاطع الأفكار وتتشابه الرؤى. فكما كان للأعداد ولا سيما العدد سبعة حيز كبير وحضور متميز لدى الأمم في غابر العصور، يبقى لهذا العدد شأنه ومنزلته في حاضر الزمان، ليغدو على الدوام القاسم المشترك في ثقافات الأقوام البشرية.

وهكذا تبقى لسبعة من بين سائر الأعداد، هالتها وظلالها، وسحرها وجاذبيتها منزلة رفيعة محببة في حياة الإنسان، ما دام في الوجود عقل يبدع ونفس تتذوق.

الهوامش:

١- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار ١٠٣/٣، دار المعارف- القاهرة ١٩٦٢.

٢- كتاب الفهرست، ابن النديم، طبعة فلوغل. بيروت ١٩٦٥.

٣- معجم Larousse القسم التاريخي.

٤- انظر موسوعة ١٩٨١ × ١ Britanica: Seven.

٥- كتاب (الحكماء السبعة) نقله عن الإنكليزية يوسف الخال وأنيس فاخوري. وقد نشرته دار مجلة شعر في بيروت سنة ١٩٦٣.

٦- انظر مادة Seven في الموسوعة البريطانية ١٩٨١ TX.

٧- مجلة الآداب الأجنبية، العدد الثالث من السنة الأولى، كانون الثاني ١٩٧٥، اتحاد الكتاب العرب.

٨- ترجمها إلى العربية محمود النحاس، انظر مجلة «المسرح» المصرية، عدد حزيران (يونيه) ١٩٦٩.

٩- نقل القصيدة إلى العربية صفاء خلوصي، انظر مجلة العربي الكويتية، عدد شباط (فبراير) ١٩٧٢.

١٠- ترجمة عابد إسماعيل في دمشق، وكتب عنه جهاد أبو غياضة تحليلاً مكثفاً في جريدة تشرين السورية، الملحق الثقافي.

١١- جهاد أبو غياضة، مقالة (مشاهدات بورخيس الجمالية- سبع ليال) جريدة تشرين، الملحق الثقافي، أبواب دمشق، كانون الأول ٢٠٠٩.

١٢- مجلة الحياة السينمائية، دمشق، صيف ٢٠٠٢، مقالة محمد الأحمد، أهم ١٠٠ فيلم في مئة عام.

١٣- انظر مقالة ظاهرة الغموض في الشعر الحر، خالد سليمان، مجلة الفصول بالقاهرة، العدد ٦٨، أكتوبر ١٩٨٦، مارس ١٩٨٧.

١٤- ذكر ذلك ميخائيل نعيمة قطب الرابطة القلمية في المهجر، وذلك في كتابه المعروف (جبران خليل جبران).

الدراسات والبحوث



الصحة النفسية
في القرن الحادي والعشرين

د. طه النعمة *

تشير تقارير الخبراء وفي مقدمتهم خبراء منظمة الصحة العالمية إلى أن الدور الذي يمكن أن تؤديه عواقب الافتقار إلى الصحة النفسية والآثار التي يمكن للاضطرابات النفسية أن تحدثها في حياة الناس والمجتمعات سوف تحتل مكان الصدارة على الصعيدين الصحي والاقتصادي، مقارنة بالمشكلات الصحية الأخرى، ابتداء من عشرينيات هذا القرن. وفي السطور الآتية سنحاول إلقاء الضوء على تلك الآثار واستعراض المبررات التي قادت

** باحث من سورية.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

منظمة الصحة العالمية وسواها من مراكز البحوث للتوصل إلى تلك الاستنتاجات. ولعل الخطوة الأولى في هذا الاتجاه تكمن في التعرف إلى بعض المفاهيم الواردة في هذه المقالة.

مفهوم الصحة النفسية:

لوقت طويل ساد المفهوم القائل بان الصحة النفسية هي البرء أو الخلو من الاضطراب النفسي، غير إن هذا المفهوم ما عاد مستخدما لكونه ضيقاً ومحدوداً، ولاعتماده على السلب والإقصاء. إذ إن خلو المرء من الاضطراب النفسي يشكل جانبا واحدا من جوانب الصحة النفسية، فقد نجد شخصا خاليا من الاضطراب المذكور، إلا أنه مع ذلك غير راض عن نفسه أو عن حياته، أو يجد أن علاقاته المهنية أو الأسرية أو الاجتماعية تكتنفها، جزءاً أو كلاً، واقعاً أو تصوراً، المشكلات وعدم القبول.

أما المفهوم المتفق عليه الآن للصحة النفسية فينظر إليها على أنها القدرة على التكيف والتوافق النفسي مع الذات والجماعة وامتلاك الوسائل المؤدية إلى تماسك وإنضاج الشخصية، وتقبل الفرد لذاته، وتقبل الآخرين له بما يطلق طاقاته ويحقق شعوره بالطمأنينة والسعادة. وتشير منظمة الصحة العالمية بهذا الصدد إلى أن «الصحة النفسية ليست مجرد الخلو من المرض وإنما هي حالة من العافية التي تسمح للفرد تحقيق قدراته والتعاطي مع الضغوط اليومية، والعمل بإنتاجية تمكنه من إفادة مجتمعه».

في ضوء ما تقدم يمكن القول إن النقاط التالية يمكن أن تغطي جوانب رئيسة في الصحة النفسية:

١- **قدرة إدراك الواقع واختباره:** وتتمثل في اتخاذ المرء موقفاً واقعياً وعملياً عند تقويمه لإمكانياته وردود أفعاله، فضلاً عن إمكانيات وردود أفعال الآخرين. وتكوين انطباعات مقاربة للواقع عما يجري حوله من أحداث تمكنه من المساهمة الناشطة والمجدية فيها، وإقامة حدود واضحة بين الذات والآخر، وبين الواقعي والمتصور، وبين الحاصل والمتمنى.

٢- **تعرف الذات وتقبلها:** كلما زادت معرفة المرء لذاته وما تحويه من دوافع ومشاعر، ومن نقاط قوة وضعف، ومن آمال وتوقعات ومحددات، وتعمقت بصيرته في طبيعتها، ألفها أكثر وكان أقدر على تقبلها وتقديرها. وكلما كانت الحياة الداخلية للمرء قريبة من وعيه كان أقل عرضة للارتباك والتشوش والشعور بالاغتراب.

٣- **قدرة ضبط السلوك وتوجيهه:** عند

توافـر قدر معقـول من هذه القـدرة تقل الأفعال الارتجاليـة والاندفاعية التي عادة ما تثير مشاعر النـدم والذنب بعد اتيانها، فضلاً عما تسببه من أضرار مادية واعتباريـة للشخـص وتشويـه لصورته في أذهـان الآخريـن وما تحدثه مـن تأثيرات سلبية في علاقته بهم.

٤- قـدرة تكويـن علاقـات ذات مغـزى: وتتمثـل في استطاعة المـرء إنشاء علاقات وديـة، وأحياناً، حميمة مـع الآخرين تتمتع بقدر مناسب من الديمومـة والاستمرارية، واستشعار حاجاتهم وانفعالاتهم والتعاطف مع هـذه الحاجات والانفعـالات والمشاركة فيهـا. وتقبله لتقـرب الأشخاص المناسبين الودي والحميم منه والسماح لهم بمشاركته مسراتـه وأحزانه، عندما يـرى أن الموقف ملائم لذلك.

٥- الإنتاجية: وتتمثل في قدرة استخدام المرء لقابلياتـه الظاهرة والكامنة في نشاط منتج يلبي متطلبات الحياة اليومية، ويساهم في تحسينهـا وترقيتها، مـع إمكانية إدامة هذا النشاط لمدد مناسبة دون الشعور المعيق بالملـل والرغبة في التخلـي وهبوط الطاقة والدافعية وفقدان الاهتمام.

وبناء عليـه يمكن إجمال **الأهداف التي يتوخـى العاملـون في الصحـة النفسيـة تحقيقها** بالآتي:

١- هدف تنموي: وذلك بوساطة توظيف ما لديهم من معرفة نفسية في تحسين نوعية الحياة اليومية في البيـت والمدرسة والعمل وعموم المجتمـع، وفي مساعدة الأفراد على تنمية قدراتهم وميولهم ومواهبهم للاستفادة منها في العمل والإنتاج والإبداع.

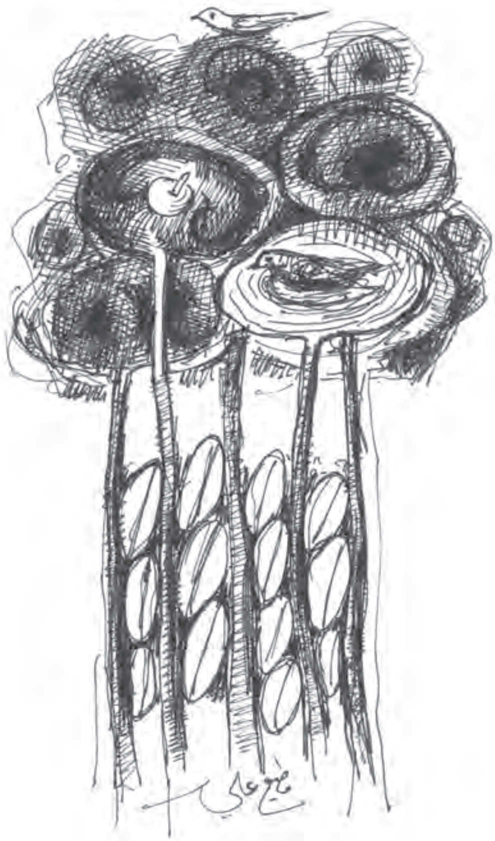
٢- هـدف وقائـي: يمكـن للفعاليات التنموية المذكورة آنفا أن تتدرج كذلك ضمن إجـراءات الوقاية مـن الاضطراب النفسي وتهدف إلى الحد مـن انتشار الاضطرابات النفسيـة والسلوكية، فضـلاً عن استخدام المعرفـة النفسيـة في اكتشـاف الأفـراد المعرضين للضغـوط والأزمات والإحباطات والصراعـات بصـورة مبكـرة وقبل تمكن الاضطراب منهم. إذ إن الإجراءات الوقائية تتوخى استبـاق النظر في التخفيف من أثر العوامل والظـروف والمصاعب والمشكلات المساعدة علـى تكوين الاضطرابات، فضلاً عـن الحد مـن تأثـير العوامـل الانتقالية والوراثية. والجهـود هنا تتوجه نحو الأسرة والمدرسـة وأماكـن العمل وذلـك بوساطة تذليل الصعوبات وتقـديم الإرشاد النفسي والصحي والتصدي للعوامل المساعدة على الانحراف وغيره من المشكلات السلوكية.

٣- هـدف علاجـي: توظيـف المعرفة النفسيـة في تشخيص وعلاج الاضطرابات النفسية والسلوكية، وبالتالي:

- تخفيف المعاناة والعمل على إزالتها.
- منع الانتكاس والمعاودة والإدمان.
- منع التدهور، غير القابل للإصلاح، في الشخصية.
- منع حدوث الإدمان والانحراف النفسي والاجتماعي.
- منع حدوث العوق.
- هدف تأهيلي: تخفيف آثار التدهور في الشخصية والعوق الناجمين عن الاضطراب النفسي والعادات السيئة والأضرار الدماغية قدر المستطاع والمساعدة على توفير نوعية حياة مقبولة.

مفهوم الاضطراب النفسي

أما الاضطراب النفسي فهو «أي حدث أو عارض يمر بهما الشخص فيؤثران سلبا على انفعالاته أو أفكاره أو سلوكه وجعلها غير متوافقة مع معتقداته وخلفيته الثقافية وطبيعة شخصيته ويؤديان إلى إرباك حياته وحياة أسرته والمحيطين به ويعيقان قدراته على إدامة حياة منتجة ويشوهان علاقاته بالآخرين وبالواقع». وتوجز منظمة الصحة العالمية رأيها بالاضطراب النفسي بالعبارة الآتية؛ «هو خلل في التوازن داخل الذات وبين



الذات والبيئة الاجتماعية أو الاثنان معاً، ولكي نتوصل إلى فهم أفضل لهذه العبارة الموجزة ربما لابد، ابتداءً، من إلقاء نظرة على العناصر التي بإمكانها إنتاج كل من السواء واللاسواء أو العافية والاضطراب. إذ إن كل واحد فينا هو محصلة غير نهائية لأداء وتفاعل وتداخل وتناغم وتناقض قوى ناشطة متعددة، يمكن تلخيصها فيما يأتي:

١- قوى تخص الأطر التكوينية

الإحيائية، الجسم ببنيته ووظائف أعضائه، والعصبونــات (خلايا الدمــاغ العصبية)[1] تكويناً وتراتباً وتوصيلاً، والدوافع الغريزية الجبلية والأنمــاط السلوكية المبرمجة داخل كل واحد فينا ومشتقاتها وتفرعاتها، فتوتها ووهنها وموقعها في سلم الأسبقيات، فضلاً عن المزاج.[2]

٢- قــوى تخصــ الخــبرات والتجارب الفردية التــي تعرض ويتعرضــ لها الفرد ونوعيــة الآثار التي تتركهــا فيه، والطريقة التــي يتعاطــى فيهــا الشخص مــع بيئته النفسية الداخلية؛ دوافعه ورغباته، أهوائه وتفضيلاتــه، وكيفيــة تفاعله معهــا، تأثراً وتأثيراً.

٣- قــوى تخص التعاطــي مع الآخرين المقربين، ومــا يمنحون من رعايــة وعناية وحنــان أو لا يمنحــون، ومــا يقدمونه من مثوبات وعقوبــات، وما يعلّمون من مهارات وخــبرات أو لا يعلّمــون، ونوعيــة القــدوة التــي يوحون بها، فضلاً علــى تأثير الهيئة الاجتماعيــة التــي يمثلونهــا، بتحديداتها وتقييداتها وأوامرها ونواهيها، مسموحاتها ومحرماتها، وما تمنحه أو لا تمنحه من شعور بالتضامن والطمأنينه والأمن والحماية.

لو أدت هذه القــوى أدوارها كما ينبغي ابتداءً، ولــو كانت متوافقــة ومنسجمة مع بعضهــا البعض لما كانت هنــاك معاناة ولما كان هنــاك اضطــراب. ولكنهــا، في واقع الحال، معطلة أحياناً ومتناقضة ومتقاطعة في أحيــان أخرى، ومتصارعــة في كثير من الأحيــان. وإذ ليس بمقــدور أي منها إلغاء الأخــرى. إلا في حالات التدهور الشديد في بنى وعمليات الشخصية وتفككها. تتم تهدئة الصراع أو تأجيله أو الالتفاف عليه بوساطة حلول وسط تتألف من توازنات حرجة فيما بين القوى المتعارضة تخضع للتعديل واعادة الترتيــب المتواصلــين. لذا نحــن مهددون جميعــاً باختــلال توازناتنــا في أي لحظة، وغالباً ما يحدث ذلك إلا أن آليات دفاعاتنا وسياقات تعاطينا مــع التوترات سرعان ما تعيــد ترتيب التوازنات قبــل أن يترك ذلك الاختــلال بصماته على حياتنــا النفسية. فالسواء، علــى وفق هذا المنظور، هو توازن مستدام بينما اللاســواء أو الاضطراب هو لاتوازن مستدام.

والصورة الشائعــة للشخص الذي لديه اضطــراب نفسي هي أنــه الشخص الذي يتكلم هراء ويتصرف بغرابة. ولكننا، في واقع الحال، نجد أن الغالبية الساحقة من هؤلاء الأشخاصــ يبــدون ويتصرفــون ويتكلمون بطريقــة لا تختلف عن أولئك الذين يشكون من اعتلال أو مرض جسمي، وهم لا يشكلون

خطورة أكثر مما يشكله مرضى الجسم. وليس على المرء أن يخشى التعرض للأذى لأنه يتحدث إلى شخص يعاني اضطراباً نفسياً إلا في حالات استثنائية قليلة. وهناك عدة أنواع من الاضطرابات النفسية، وبعضها، إن لم يعالج، يمكن أن يفضي إلى الإعاقة الشديدة، وأحياناً، إلى الموت (١٥٪ ممن يعانون اكتئاباً ينتحرون). والغالبية الساحقة من الأشخاص الذين لديهم اضطراب نفسي يعانون مما يمكن تسميته الاضطرابات النفسية الشائعة مثل الاكتئاب والقلق، والتي قد لا ينتبه لها الكثير من المضطربين أنفسهم ولا العاملون في مجال الرعاية الصحية أو لا يعدونها اضطرابات تستحق الاهتمام. وجرت العادة أن تكون الاضطرابات الشديدة مثل الفصام واضطراب الهوس الاكتئابي والذهانات الحادة، والتي لا تمثل نسبة كبيرة في حجم الاضطرابات النفسية، هي فقط الحالات التي يعترف بها اضطراباتٍ نفسية من قبل المجتمع والعاملين في المجال الصحي، بسبب ما يرافقها من سلوك وتصرفات لافتة للانتباه.

مدى انتشار الاضطرابات النفسية في بعض الأقطار العربية:

خلال السنوات القليلة الأخيرة نشرت نتائج ثلاث دراسات تناولت مدى انتشار الاضطرابات النفسية في ثلاثة أقطار عربية، فقد وجد كرم وزملاؤه في دراسة نشروها في العام ٢٠٠٨ أن نسبة انتشار الاضطرابات النفسية خلال مجرى الحياة تعادل ٢٥,٨٪ من عموم السكان في لبنان[٣]. وفي مصر بحسب دراسة أجراها غانم وزملاؤه ونشرت في العام ٢٠٠٩ اتضح فيها إن نسبة انتشار الاضطرابات النفسية بين البالغين من السكان هي ١٦,٩٣٪[٤]. أما في العراق فإن دراسة أجرتها وزارة الصحة العراقية ومكتب منظمة الصحة العالمية في العراق في العام ٢٠٠٧ ونشرت نتائجها في شهر آذار ٢٠٠٩ أوضحت أن نسبة انتشار الاضطرابات النفسية خلال مجرى الحياة بين عموم السكان هناك كانت ١٦,٥٪[٥]. وعلى الرغم من أن الكثيرين يعتقدون بأن النسبة الخاصة بالعراق هي أكثر من التقديرات المنشورة للأسباب المعروفة، إلا أننا نستطيع القول في ضوء نتائج الدراسات الثلاث إن نسبة انتشار الاضطرابات النفسية في عموم أقطار المشرق العربي تتراوح بين حوالي ١٧٪ و٢٥٪ أو بمتوسط يقترب من ٢٠٪ من مجموع السكان. وإذا ما سحبنا هذا المتوسط على مجموع السكان نجد أن هناك أكثر من ستة ملايين شخص، في العراق على سبيل المثال، من أصل (٣٢)

مليون نسمة، لديهم اضطراب نفسي، وعندما نقول إن لدى الشخص اضطراباً نفسياً فإن ذلك يعني، على وجه الدقة، أنه بحاجة إلى مداخلة علاجية.

مدى توفر الرعاية الصحية النفسية:

ومشكلة الاضطراب النفسي تأخذ وقعاً أشد وضوحاً إذا ما علمنا أن الغالبية الساحقة لا تنال أية فرصة للحصول على علاج، إذ تشير الدراسة العراقية، وهي الدراسة الوحيدة التي مسّت هذا الجانب، إلى أن ٢٪ فقط من الستة ملايين ونيف شخص تلقوا شكلاً من أشكال العلاج، وفي ظننا أن هذه النسبة هي عامة في باقي دول الإقليم مع فوارق بسيطة، وذلك لأسباب عديدة سنكتفي بذكر أربعة منها:

١- يسود الاعتقاد في هذه الأنحاء من العالم أن حل مشكلة الاضطراب النفسي هي من اختصاص الطبيب النفسي (أو طبيب «الأمراض العقلية» كما يطلق عليه غالباً) مما يسمح للكثيرين إقناع أنفسهم بأن المشكلة في أيدي أمينة ولا توجد حاجة إلى التغيير أو عمل المزيد. ولكن لندع الأرقام تتكلم؛ لم يتعدَ معدل العدد المتوفر من الأطباء النفسانيين في العراق في أي وقت من الأوقات خلال العقود الثلاثة الأخيرة، على سبيل المثال، (١٠٠) طبيب نفسي، أي طبيب نفسي واحد لكل حوالي (٣٢٠) ألف نسمة، أو واحد لكل حوالي (٦٠) ألف شخص لديه اضطراب نفسي. ولو افترضنا جدلاً أن هذه الألوف من البشر تسنى لها الوصول إلى الطبيب فإنه لن يكون قادراً بمفردة على تقديم الحد الأدنى من الدعم العلاجي. فضلاً عن أن المداخلة العلاجية أو ما يسمى تدبر المشكلات والاضطرابات النفسية على أسس صحيحة ومؤثرة تحتاج إلى فريق نفسي يضم، إضافة للطبيب، متخصصين في علم النفس السريري والعلاجي والدعم أو الخدمة الاجتماعية- النفسية والتمريض النفسي والعلاج الحرفي والتاهيلي.

٢- ندرة أو انعدام وجود خدمات للرعاية الصحية النفسية على مستوى مستوصفات ومراكز الرعاية الصحية الأولية وفي العيادات الخارجية للمستشفيات العامة، الأمر الذي يحول بين الغالبية الساحقة من المحتاجين والحصول على الدعم والعلاج النفسيين المناسبين. إذ إن الدعم والعلاج النفسي الكافيين والمؤثرين يتطلبان نفَساً طويلاً ومراجعة متكررة وتواصلاً مع البرنامج العلاجي لأشهر عديدة غالباً ولمدى الحياة أحياناً.

٣- الوصمة: إن أسلوب الوصم في

التعاطــي مع الأشخاص الذيــن يعانون من مشــكلات أو اضطرابــات نفسيــة يعد من أهــم العوامل التي تجعلهم وأسرهم يخشون التصريح عن هذه المشكلات والاضطرابات فضلاً عمــا يمثله ذلك مــن تفرقة وتمييز ظالمــين وتثبيط لهمــم الشخصــ وأسرته وتفضيل الإحجام عن طلب العون العلاجي، بمعنــى آخر إن الشخصــ وأسرته يفضلون استمرار المعانــاة والعذاب على أن يوصموا بوساطــة ما اعتاد فعلــه البعض. وحتى في بعض البلــدان المتقدمة يؤثــر هذا العامل على مدى سعــي الأشخاصــ الذين لديهم اضطراب نفســي في طلب العون العلاجي؛ إذ إن نسبــة تتراوح مابــين ٢٢ إلى ٢٣٪ من ســكان الولايــات المتحــدة الأميركية، على سبيــل المثال، يعانون مــن اضطراب نفسي خلال أية سنة من سني حياتهم لكن نصفهم على وجه التقريب لا يسعى في طلب العلاج. وإذا ماعلمنــا أنه، في أي وقت من الأوقات، هناك واحد من كل ثلاثة بالغين وواحد من كل خمســة أطفال يعانون من مشكلة نفسية فــإن توافر آليــات ومــوارد التدخل المبكر والملائــم يمكــن أن تكون أنجــع وسيلة لمنع تحول المشــكلات إلى اضطرابات متفاقمة. ولكــن الكثير من الأشخاصــ لا يسعون إلى الحصول على هذه الخدمات، حتى المتاحة منها، لأنهــم لا يريــدون أن يوصموا بأنهم «مرضى عقليين» أو «مجانين».

٤- بعضــ الأشخاصــ بمــا في ذلــك بعض المتعلمين في مجتمعاتنــا يحسبون أن الاضطراب هو شكل من أشكال المس بسبب قوى خارقــة للطبيعة، أو هــو قدر مكتوب يتعــين تقبله والتعايش معه. والبعض الأخر بما فيهم بعض حملة «الدكتوراه» يعتقد أن الشخصــ الذي لديه اضطــراب نفسي هو شخص ناقص خُلقاً وديناً وإن ما يحدث له هو جزاء وفاق، لذا فهو لا يستحق التعاطف وليس بحاجة للعلاج، فضلا عن أن البعض الأخر يظــن أن الاضطراب النفسي يحدث لأن الشخص «ضعيــف» الشخصية وعديم الإرادة. وكل هؤلاء يزيدون، من حيث يدرون أو لا يدرون، معاناة الأشخاص الذين لديهم اضطــراب نفسي وأسرهــم وأحبائهم، على الرغم من أن الوقائع تشير إلى أن الاضطراب النفسي شأنه شأن الاعتلالات الأخرى يمكن أن يلحق بأي إنسان بغض النظر عن العرق أو اللــون أو الديــن أو المركز الاجتماعي أو القدرة المالية، إذ لا يوجــد إنسان في منأى عنه أو يمتلك حصانة مؤكدة ضده.

التحذير والعواقب

لقد دق هارلم براندلاند ناقوس التحذير، في مقالة نشرها في العام ١٩٩٨ وكان وقتها

مديـرا عاما لمنظمـة الصحـة العالمية[٦]، من تنامـي مشكلة الاضطرابـات النفسية والاكتئـاب على وجه الخصوصـ، إذ توقع فيها أن تحتـل الاضطرابات النفسية مكان الصـدارة في الاعتـلالات المسببـة للعجز (disability) على المستـوى العالمي وكان الاكتئـاب وقت صدور المقالـة يحتل المرتبة الرابعة بين الاعتلالات المسببة للعجز. وقد لخص الأسبـاب التي دعته إلى ذلك التوقع بما يأتي:

١- إهمـال الاضطـراب النفسي وعدم النظـر إلى الاضطرابـات النفسية الشائعة (الاكتئاب والقلق) على أنها اضطرابات يمكن أن تؤثر على الشخص والأسرة والمجتمع.

٢- ارتفـاع معدل الأعمـار، مما يسمح بتزايد أعـداد الأشخاص الذين يعانون من الخرف.

٣- كثـير من المجتمعـات التي اعتادت تقديم الدعم والعون إلى الأشخاص المحتاجين من خـلال الأواصر الأسريـة والاجتماعية أصبحت تجد مصاعب متزايدة في استمرار هـذا المنحـى وذلك علـى الأرجـح بسبب توجه تلك المجتمعـات المتسارع نحو التقانة وتداعي شبكات الدعم الأسري والاجتماعي وتبنـي علاقات تجارية استهلاكية. كل هذه العوامل ربمـا تكون قد ساعـدت وتساعد على الانتشار الوبائـي للاكتئاب وسواه من الاضطرابات النفسية.

٤- اتسـاع رقعة الحـروب والصراعات الداخلية وما يتسبب عنها من فوضى ونزوح وتهجير أعداد غفيرة من البشر.

وفي دراسـة منفصلـة أجرتهـا منظمة الصحة العالميـة تناولت فيها ١٤ بلدا، ستة منها نامية وثمانية متقدمة، ونشرت في العام ٢٠٠٤، وجـد، في المعدل، أن أكثر من نصف الاضطرابـات النفسية في هذه البلدان هي اضطرابات بسيطة، وأن نسبة كبيرة من هذه الاضطرابـات إن لم تعالـج يمكن أن تتحول إلى اضطرابـات متوسطة الشـدة وشديدة ومسببة للعجز. وقد وجد أن ٥٠ - ٥٥ ٪ من الأشخاص الذين لديهم اضطرابات شديدة في البلـدان المتقدمة و٧٦ ـ ٨٥ ٪ في البلدان الأقل تقدما لا يتلقـون أي علاج خلال ١٢ شهـرا السابقة على مقابلتهم لأغراض تلك الدراسة.

وخلال العقدين أو الثلاثة الماضية حدث تطور هـام في فهمنا للاضطـراب النفسي وتحسن في قدرتنا على علاجه. كما أنه أخذ يحظى باهتمام متزايد، خصوصاً، في ضوء ما أصبح يعرف «بعبء الاعتلال» (illness burden). إذ إنـه حـث المعنيـين بشؤون الصحة على إيلاء موضوع الصحة النفسية،

ومـا يحدثه من آثـار صحيـة واجتماعية واقتصاديـة، أهمية متزايـدة. وتلمس هذه الأهمية لم يعد مقتصراً على الدول المتقدمة بـل تعداها إلى العديد مـن الدول النامية. الأمـر الذي حفز منظمـة الصحة العالمية على اتخاذ سلسلة من المبادرات، ابتدأت في إجراء تقييم جديد لمعرفة وتشخيص المسائل الهامـة المتعلقة بالصحـة النفسية والمؤثرة على جوانب حياة الناس كافة.

ونتيجة لتلك المبادرات، أخذت التقارير الصادرة عن منظمة الصحة العالمية تراجع الطرق التـي كانت متبعة في تقييم ما الذي يعنيه «الاعتلال»، وما الذي يمكن أن يندرج تحت هذا العنوان. فبدلاً من مجرد التأكيد والتركيـز، مثلاً، على الوفيـات التي يمكن الوقاية من حدوثها والتي تسببها الأمراض الانتقالية والتلـوث، وأيضـاً الوفيات قبل الأوان الناجمة عن أمراض القلب والسرطان، وحسب الأسلـوب التقليدي الذي كان متبعاً لمدة طويلة، فإنها أخذت تتفحص كذلك ما أطلقت عليه عبء الاعتلال.

هذا الأسلوب الجديد في التفحص يقوم على أساس احتساب سنوات الحياة الصحية الضائعـة نتيجة العجز عـن التمتع بنوعية حيـاة طبيعية بمعزل عن احتساب السنوات الضائعة نتيجة الوفاة قبل الأوان. كما إنه – الأسلوب الجديد– حوّل، بشكل جاد، مجرى النقاشـ حول ما الذي يتعـين على الحالة الصحيـة أن تتضمنه أو تعنيه، وبضوء ذلك فإن الجداول التي كانت تتصدرها في العادة الأمراضـ الانتقالية وسـوء التغذية، أخذ يظهـر فيها، وعلى نحـو متصاعد في سلم الأهميـة، العجز عن التمتـع بنوعية حياة طبيعية والناجم عن الاضطرابات النفسية.

فقد بينـت الجداول الجديـدة المرفقة بتقارير المنظمة، أن مـا مجمله (١٠) بالمئة مما يسمى بسنـوات الحياة الضائعة نتيجة العجز ومحاولة التكيف له يمكن إرجاعه إلى الحـالات الطبنفسيـة، وأن (٥٠) بالمئة من هذه الحالات ذات علاقة، على نحو أو آخر، بالاكتئـاب. إذ بينت التقاريـر بأن الاكتئاب واحد مـن الأسباب الرئيسيـة للعجز على المستوى العالمي خلال عقد التسعينيات. وأن التوقعـات تشير إلى إمكانيـة تصاعد نسب هذا العجز في العقـود اللاحقة، في الدول المتقدمة والنامية على السواء.

لقد كانت تلك إحـدى النتائج المفاجئة لاستخدام «مقياس عـبء الاعتلال»، الذي أدمج السنوات الضائعة بسبب نوعية الحياة الرديئة بالسنوات الضائعة بسبب الوفاة قبل الأوان. إذ بسبـب محدودية عـدد الوفيات الناجمة عن الحـالات الطبنفسية بالمقارنة

مع الأمراض الانتقاليـــة، على سبيل المثال، فإن تلك الحـــالات لم تكن تحظى بالاهتمام الذي تستحقه قبـــل استخدام مقياس عبء الاعتـــلال، الأمر الذي أدى إلى أن ينظر إلى النوعية الرديئة للحياة وكأنها معادلة للموت قبل الأوان.

علـــى أن عبء الاعتـــلال لا يقاس فقط بسنـــوات الحياة الصحيـــة الضائعة، ولكن، أيضاً، بالكلفة الاقتصادية المتمثلة بساعات وأيـــام العمـــل الضائعـــة فضـــلاً عن كلف العـــلاج. ففي بريطانيا، علـــى سبيل المثال، كلف العبء الاقتصادي للحالات الطبنفسية في العام ١٩٩٩ أكثر مـــن (٦٠) بليون دولار سنويـــاً محسوبـــة علـــى أساس أيـــام العمل الضائعـــة والبالغة قرابـــة (٩١) مليون يوم عمل ضائـــع سنويا نتيجة التغيب عن العمل أو الحضور غير الفعال، والضياعات النوعية للمنتوجات، فضلاً عـــن تكاليف العلاجات الطبية والاجتماعية.

أمـــا في مجتمعاتنا فإن عـــبء الاعتلال المتعلق بالحـــالات الطبنفسية يأخذ، حسب اعتقادنـــا، منحنـــىً ربما يكون أشـــد وقعاً، أكان مـــا يتعلق منه بسنوات الحياة الصحية الضائعـــة أم بالكلـــف الاقتصادية الباهظة المهـــدورة. لأن الأشخاصـــ الذيـــن يعانون من حـــالات طبنفسيـــة –اكتئابية على وجه الخصوصـــ– لا ينشدون العـــون العلاجي المناسب فيمضـــون سنوات طويلـــة أسيري العجـــز الحياتـــي والوظيفـــي الظاهر منه والمقنـــع. وبسبب كون الحـــالات الطبنفسية لدينـــا تأخذ مظاهـــر شتى مـــن الشكاوى البدنيـــة، فـــان غالبية الذيـــن يعانون منها يلجـــؤون، في العـــادة، إلى المـــكان الخاطئ طلباً للعـــون، مشكلين بذلك عبئـــاً إضافياً على الكـــوادر الطبيـــة والمختبرية المحدودة الإمكانيـــات أصلاً، إضافـــة إلى استهلاكهم لأدويـــة ومستحضرات ومعدات طبية لا نفع لهم فيها ويحرمـــون منها، في ذلك، من هم بأمسّ الحاجة لها.

وتلخص منظمة الصحة العالمية نظرتها إلى معضلـــة الاضطـــراب النفسي في نشرة أصدرتها في تشرين أول ٢٠٠٩ بعنوان «عشر حقائق تخصـــ الاضطـــراب النفسي» جاء فيها ما يأتي:

١- حـــوالي نصـــف الاضطرابـــات النفسية تبدأ قبل عمر ١٤ سنة وحوالي ٢٠٪ مـــن جميع أطفال ومراهقي العالم على وجه التقدير لديهم اضطراب نفسي أو مشكلات نفسية وهـــذا أمر ينطبق علـــى المجتمعات والثقافات كافة، ولكـــن الجدير بالملاحظة أن المجتمعـــات التي لديهـــا أعلى نسبة من الأشخاص دون عمر ١٩ سنة هي المجتمعات

الأكثر فقــراً. ومعظم البلدان ذات المداخيل المتوسطــة والمتدنية لديها طبيب واحد لكل ١- ٤ ملايين شخص، متخصص في طبنفس الأطفال.

٢- الاكتئــاب يتصف بشعــور مستدام بالحــزن وفقــدان الاهتمام والقــدرة على الاستمتــاع فضــلا عــن أعراضــ نفسية وسلوكية وجسمانية أخــرى. ويأتي بالمرتبة الأولى في قائمة الأسبــاب المسببة للإعاقة على المستوى العالمي.

٣- هنــاك في المعدل (٨٠٠) ألف إنسان يتوفــون انتحــارا كل عــام، ٨٦ ٪ منهم في البلدان ذات المداخيــل المتوسطة والواطئة. ومعظم المتوفين انتحــارا تقع أعمارهم بين ١٥ و٤٤ سنة أي في ذروة السن المنتجة.

٤- الحروب والكوارث لها وقع كبير على ارتفاع معدل الاضطرابات النفسية.

٥- الاضطرابــات النفسيــة من عوامل الخطــورة في التقاط الأمراضــ الانتقالية وغــير الانتقاليــة، ويمكنهــا أن تساهم في الإصابات الجسمية الرضيّة المقصودة وغير المقصودة.

٦- الوصمة والتمييز الذي يتعرض لهما الأشخاصــ الذين لديهــم اضطراب نفسي وأسرهــم تحــول دون سعيهــم نحــو طلب الحصول على الرعاية النفسية والعلاجية.

٧- غالبــاً مــا يتــم انتهــاك الحقوق الإنسانية للأشخاص الذين لديهم اضطراب نفسي بشــكل تلقائي في معظم البلدان، بما في ذلــك تقييد الحرية والعــزل والحرمان من أبسط الاحتياجــات الأساسية واقتحام خصوصياتهم. ولا يمتلك سوى عدد محدود من البلدان قوانين ملائمــة لحماية حقوق الأشخاص الذين لديهــم اضطراب نفسي، علــى الرغم من التوصيــات التي أصدرتها كل من الهيئة العامة للأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية بهذا الخصوص.

٨- هنــاك عدم مساواة في توزيع الموارد البشرية الماهــرة الخاصة بالصحة النفسية على صعيد عالمي. إذ إن هناك نقص كبير في الأطباء النفسانيــين والممرضين النفسانيين والسايكولوجيــين والعاملين في مجال الدعم النفسي. الاجتماعي في البلدان ذات الدخول الواطئة والمتوسطة، وهذا يشكل عائقاً رئيساً أمام تقديم الدعم والعلاج للأشخاص الذين لديهم مشكلات واضطرابات نفسية في تلك البلدان.

٩- يواجــه توفــير وتحســين الخدمات في مجال الصحــة النفسيــة خمسة عوائق مفتاحيــة تمس الحاجة إلى تخطيها: غياب الصحــة النفسية عن برامج الصحة العامة وما يترتب على ذلك من غياب للتخصيصات

المالية جزئياً أحيانـــاً وكلياً غالباً، والتنظيم الراهن للخدمات الصحية النفسية المفتقر إلى الكفـــاءة، خصوصا العجز عن دمجها في خدمات الرعاية الصحية الأولية، والنقص الحاد في المـــوارد البشرية، وغياب القيادات المؤثرة في مجال الصحة النفسية.

١٠- لما تقدم تحتاج الحكومات والمانحون والمنظمات الممثلة للعاملين في مجال الصحة النفسية، والأشخاص الذين لديهم اضطراب نفسي وأسرهـــم العمـــل متضامنين بهدف توفير خدمـــات الرعاية الصحيـــة النفسية الكفوءة وتخصيصاتها المالية المطلوبة والتي هي نسبيـــا، أو بالقياس لباقـــي المشكلات الصحية، ليست كبيرة، إذ تبلغ دولارين لكل نسمة سكانية واحدة سنوياً في البلدان ذات المداخيل الواطئة و٣- ٤ دولارات في البلدان ذات المداخيل المتوسطة.

هـل هنـاك مـا يمكـن عملـه على الفور؟

في ختام مقالته يطرح براندلاند تساؤلين، الأول؛ مـــا الذي يمكن عملـــه؟ ويجيب عنه قائـــلاً: «من المثير للدهشـــة إن هناك بعض المداخلات البسيطة والرخيصة نسبيا على نحو غير متوقع؛ التخلف العقلي، على سبيل المثال، الذي هو واحد من الاضطرابات الأكثر انتشـــاراً في البلدان النامية، يمكن الحد من انتشاره بإضافة اليود إلى ملح الطعام بكلفة متدنية، وتحسين الصحة الإنجابية ورعاية الحوامل. فضلا عن أن بعض الاضطرابات ذات الرس الأسري يمكن تقليل ظهورها في الأجيال اللاحقة بتجنـــب التزاوج الداخلي كلما كان ذلك ممكنـــاً». أما التساؤل الثاني فـــكان؛ لماذا لا يتم تقـــديم العناية بالوسائل التي ثبت أنها يمكن أن تكون متاحة ومؤثرة؟ ويجيـــب قائـــلا: «الأسباب هـــي؛ الأسبقية المتأخرة بصورة عامـــة التي تعطى للصحة النفسيـــة والتنظيـــم التقليـــدي لخدمـــات الصحـــة النفسيـــة الـــذي يقصرهـــا على مؤسســـات «الأمراض العقلية» الكبيرة، مثل المستشفيات التي تشبـــه، في بعض الوجوه، مؤسســـات عزل الجذام الغابـــرة والتطبيق المفتقـــر إلى الكفاءة للسياقـــات التي أثبتت نجاحهـــا، بسبب الافتقار إلى الوعي بها بين العاملـــين في الصحة والمخططين لسياستها أو بسبب فقر تنظيـــم وتمويل الخدمات أو العجز عـــن تأمين النوعيـــة أو الافتقار إلى أدوية عـــلاج الاضطرابات النفسية. وهناك طبعا الوصمة الملتصقة بالاضطراب النفسي والتي كثـــيراً ما تثبط من عزيمة الأشخاص الذين يعانون مـــن طلب العلاج والتي يمكن أيضاً أن تحد من استعداد مقدمي الرعاية الصحيـــة النفسيـــة للتدخـــل. والحل الآني

والمباشر والممكن والذي لا مفر منة للحد من تفاقم مشكلات الصحة النفسية يكمن في إلغاء «مؤسسات الأمراض العقلية» وافتتاح شعب للطب النفسي في المستشفيات العامة وفي عياداتها الخارجية ودمج الرعاية الصحية النفسية بخدمات الرعاية الصحية الأولية مما ييسر على الذين لديهم متاعب نفسية المراجعة والحصول على العون العلاجي الملائم وتأمين استمرارية ومتابعة العلاج اللذين لا غنى عنهما للمعالجة الكافية والكفوءة.

الهوامش:

١- يحتوي الدماغ البشري على مئة بليون (مئة ألف مليون) عصبونة، لكل عصبونة منها في المتوسط عشرة آلاف توصيلة تربطها بالعصبونات الأخرى.

٢- Temperament: استعداد ذو أساس إحيائي للاستجابة انفعالياً على نحو خاص عندما يجد الفرد نفسه في سياق ظرفي معين.

3- Karam E. et al. Lifetime Prevalence of Mental Disorders in Lebanon. PLoS Medicine, 072008/21/.

4- Ganem M. et al (2009). National Survey of Prevalence of Mental Disorders in Egypt. EMHJ Vol 15 No. 1.

5- Al-Hasnawi S. et al. The Prevalence of Correlates of DSM-IV Disorders in the Iraqi Mental Health Survey. Published on-line 7 March by The World Psychiatry Journal.

٦- يرجى مراجعة موقع منظمة الصحة العالمية / الصحة النفسية على الرابط الآتي ذكره للاطلاع على أصول بعض البحوث المشار إليها في المقالة والاستلالات الواردة فيها:

http://www.euro.who.int/mental health

الدراسات والبحوث



عَمَارة في المواجهة

د. بغداد عبد المنعم ❊

على الرغـم من هويته الإسلامية الأساسيـة والقديمة.. غير أنه أمسى في الوقـت الحاضر من أكثر العمارات شهرة في العالم لوقوعه في خضم هائل مـن المواجهات ولاستهداف وجـوده كاملاً.. وأعتقـد أن الأقصى غدا من أشد الـبروزات العربية التي يمكن الاشتغال عليهـا وبكثافة إعلامية.. فهو كيـانٌ موجود في الحضور الثقافي الغربي الاستشراقي بمستوياته الصدامية والهادئة.. وموجود كذلك في الحضور الثقافي العربي والإسلامي بمستوياته: التاريخية والحاضرة..

❊❊ باحثة في التراث العربي (سورية).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

المعنى القرآني للمسجد الأقصى

اسم مكان ورد في القرآن الكريم في فاتحة سورة الإسراء «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» وفي التفاسير الكلاسيكية: أن معنى الأقصى هو الأبعد والمقصود الأبعد مقارنةً بين مساجد الإسلام الثلاثة أي إنه بعيد عن مكة والمدينة على الأرجح..وإنه كان يعرف ببيت المقدس قبل نزول التسمية القرآنية له.. وقد ورد ذلك في حديث الإسراء الذي ورد عند ابن حنبل.. وكانت منطقة القدس تعرف في ذلك الوقت باسم (إيلياء)..

أسري بالنبي محمد (ص) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وفيه صلى النبي إماماً بالأنبياء ومنه عرج إلى السماء.. وفي السماء العليا فرضت عليه الصلاة.. وقد جاء في القرآن الكريم وصف تفاصيل ليلة الإسراء والمعراج: في سورتي الإسراء والنجم. ولئن كانت فاتحةُ الإسراء قد حددتْ المسار الأرضي أي (الإسراء).. فإنَّ سورة النجم أخذتنا في العلى والإدهاش وأغدقت علينا روعاتٍ وجمالياتٍ وتوصيفاً يأخذ بحواس الإنسان إلى ما فوق حدودها..

إذاً، المسجد الأقصى هو الاسم العربي القرآني لهذا المكان الاستراتيجي المهم في شمال الجزيرة العربية وجنوبي الشام.. وحين أضحى الأمويون في دمشق عبَّروا عن (مكان شاسع) بتجسيد معماري ثم بآخر.. وتحول المكانُ شيئاً فشيئاً إلى زخم من العمارات حملت رمزيات الحضور النبوي إلى أرض القدس وإلى سماواتها..فالأقصى مكان من الأرض اتصل مع (الأفق الأعلى) ومع (سدرة المنتهى).. «ما زاغ البصرُ وما طغى × لقد رأى من آيات ربه الكبرى».. جغرافيةٌ ومكانٌ وعمارةٌ امتلأت بالرمزية لتعبر عن الأكثر اتساعاً في كل الأبعاد..

وبالفعل.. وعلى الرغم من العروبة القديمة جداً لبيت المقدس.. فاليبوسيون والكنعانيون هم من القبائل التي قدمت من شبه الجزيرة العربية.. فإنه ومنذ الفتح الإسلامي للقدس استوطنت مدينة القدس وأكنافها قبائل عربية..وقد كرر هذه العملية لاحقاً صلاح الدين بعيد فتحه المدينة وذلك تأكيداً تاريخياً مستمراً لانتمائها الواسع العربي والإسلامي..

(الحرم القدسي) المسجد الأقصى

(المسجد الأقصى) اسم أُطلِقَ منذ العهد الأموي على المنطقة المحاطة بالسور المستطيل الواقعة في جنوبي شرق القدس

القديمة المسورة.. مساحة هذه المنطقة /١٤٤ دونماً/ وفيه: المسجد الأقصى بتجسيده المعماري وقبة الصخرة وعدد كبير من التكوينات المعمارية تقارب المئتين..

وهو ساحة على شكل مضلع غير منتظم. في الجنوب ٢٨١م وفي الشمال ٣١٠م وفي الغرب ٤٩١م وفي الشرق ٤٦٢م. تُشكل هذه المساحة سدس مساحة القدس القديمة.. وهذه المساحة لم تتغير منذ وضع المسجد أول مرة كمكان للصلاة.. وهذا ما لم يتحقق حتى في المسجد الحرام والمسجد النبوي اللذين تم توسيعهما عدداً من المرات.

مع الفتح الإسلامي عام ١٥ هـ / ٦٣٦م بنى عمر بن الخطاب الجامع القبلي كنواة للمسجد الأقصى.. وفي عهد الدولة الأموية بنيت قبة الصخرة كما أعيد بناء الجامع القبلي وهذا كله تم بين سنتي ٦٦-٩٦هـ/ ٦٨٥م- ٧١٥م وليتشكل بعدها المسجد الأقصى بشكله الحالي.

يحيط بالحرم سور يشترك من جهة الشرق مع سور المدينة.. وتعتبر منطقة الحرم الشريف أو المسجد الأقصى مسجداً كلها.

وعبر التاريخ ومنذ بداية النصف الثاني من القرن الهجري الأول افتتح إلى هذه الساحة عدد من الأبواب حملت أسماء شهيرة منها ما أغلق لكنه ما زال مشهوداً ومنها ما لم يعد موجوداً، ففي الشرق باب الرحمة وفي الجنوب: الباب المنفرد والباب المزدوج والباب الثلاثي وهي من الأبواب المغلقة.. وأما الأبواب التي ما تزال مفتوحة فهي عشرة، منها في الغرب: باب المغاربة (باب النبي)-باب السلسلة (باب المتوضأ)- باب المطهرة-باب القطانين، وفي الشمال: باب العتم-باب شرف الأنبياء. وللمسجد الأقصى (الحرم القدسي) أربع مآذن وقد بنيت على سور الحرم عند الأبواب وذلك إثباتٌ قديم على أن ساحة الحرم جميعها اعتبرت مسجداً.

مئتا تكوين معماري في المسجد الأقصى

وهي حوالي مئتان بين: مساجد وقباب وأروقة ومحاريب ومنابر ومآذن وآبار وأسبلة: الجامع القبلي (المسجد الأقصى) - مسجد قبة الصخرة- المصلى المرواني- حائط البراق.. وسوف نركز هنا على مسجد قبة الصخرة والجامع القبلي (المسجد الأقصى).

مسجد قبة الصخرة

يقع هذا المسجد شمالي ساحة الأقصى، واجهاته الخارجية تشكل مثمناً تسقفه أشهر قبة ذهبية في العالم.. وهي قبة

المسجد كله (ساحة الأقصى = المسجد الأقصى)..وهـي أقدم قبـة بنيت بعد ظهـور الإسلام.. بناهـا عبد الملك بن مروان (٦٨-٧٢هـ/ ٦٨٨-٦٩٢م) فوق صخرة المعراج (طولهـا ١٨م وعرضها ١٤م وأعلى نقطة فيها ١،٥م).

يعتقـد العامـة أن الصخرة معلقة بين السماء والأرض غير أنها تبرز بروزاً شديـداً وتحتها مغارة بها محراب قديم يسمى مصلى الأنبياء.يحيط بالصخرة سيـاج من الخشـب المعشـق وهو من تجديدات السلطـان الناصر محمد بن قلاوون ٧٢٥هـ.

يحيـط بالصخـرة أربـع دعامات حجريـة مكسـوة بالرخـام بينها ١٢ عموداً رخاميـاً تحمل ١٦ عقداً تحمل رقبة اسطوانية ثم القبة.

العناصر المعمارية لمسجد قبة الصخرة

تحيط بالصخرة دائـرة تتشكل من ١٢ عمـوداً وأربع دعائـم حجريـة مستطيلة، مقطعها مربع، ارتفاعها ٣م مكسوة بالرخام الأبيض المعـرق.. يتلو هـذه الدائرة من الأعمـدة والدعائم الـرواق المستدير الأول وعرضه /١٠،٢٢م/، ثم جدار داخلي مثمن يتشـكل مـن /٨/ دعائم وهـي اسطوانات



ملبسـة بالرخام تقع في رؤوسـ المثمن يقع بينها / ١٦ عموداً / مختلفة الألوان.. بين كل عموديـن اسطوانة على التوالي.. طول ضلع هذا المثمـن الداخلـي / ١٥،٧٤م/ وقطره /٤٠م/. يعلـو مثمـن الأعمـدة والدعائم السابـق /٢٤ قنطـرة/ يصـل بينها دعائم خشبيـة. يلي المثمن السابـق رواق مستدير آخـر عرضه /٤،٦٣م أخيراً: الجدار المثمن الخارجـي طول ضلعـه /٢٠،٦٩م/ وقطره

٥٠،١٤م/ وارتفاع هذا الجدار /١٢م/ وهذا الجدار يشكل واجهات البناء وهو عبارة عن جدران حجرية ارتفاعها /٩،٥م/ يحيط بها من الأعلى جدار ساتر ارتفاعه /٢،٦٠م/ في كل جدار من الجدران الثمانية سبعة تجويفات تعلوها نوافذ زجاجية عدا آخر تجويفين.

يعلو الدائرة السابقة من الأعمدة والدعائم /١٦ قنطرة/ نصف دائرية، وتعلو القناطر رقبة القبة وهي اسطوانية وفي أقصى هذه الرقبة تنفتح /١٦ نافذة/ زجاجية مذهبة وفوقها القبة وقطرها ٢٠،٤٤م.. ارتفاع القبة ٣٥،٣٠م عن مستوى التربة..

أقدم قبة في الإسلام - ٧٢ هـ

قبة الصخرة هي أول قبة بنيت في الإسلام، وهي قبتان من الخشب بينهما فراغ.. ولهذا الفراغ وظيفة إنشائية وأخرى جمالية، وأما الإنشائية فقد ساعد هذا الفراغ في تخفيف الوزن وتخفيض القوى الضاغطة على الأعمدة والدعائم والأساسات.. كما أعطى القبة تجسيماً واتساعاً.. الفراغ بين القبتين محشو باللباد للتخفيف من شدة حرارة الصيف.. من الخارج صُفحت القبة بصفائح من الرصاص تعلوها صفائح نحاسية مذهبة عددها /١٠٢٠٠/ لوح من النحاس المذهب.. ولها دور جمالي في إعطاء البريق والانعكاس الضوئي.. ولهذه الصفائح المذهبة دور في عكس أشعة وحرارة الشمس وبالتالي تخفيف تأثير قساوة الصيف. أما من الداخل فزينت القبة بالخشب المنقوش والملون وبكتابات قرآنية بالخط النسخي (آية الكرسي).

لمسجد قبة الصخرة أربعة أبواب متعامدة.. وهي مزدوجة ومصنوعة من الخشب المصفح بالرصاص، شكلها مستطيل (٤،٣٠× ٢،٦٠م) تعلوها عقود نصف دائرية، يتقدم الأبواب مظلة على شكل قبوة اسطوانية عرضها /٢،٥م /..أكبر المظلات هي التي تعلو الباب الجنوبي طولها /١٥،٦٥م/ محمولة على ثمانية أعمدة. أما هذه الأبواب فهي: الباب الشرقي يقابل قبة السلسلة والباب الغربي يقابل باب القطانين، والباب الشمالي والباب الجنوبي يواجه المسجد الأقصى.

المدرسة الزخرفية الأقدم في الفن الإسلامي

تتشكل الزخرفة في مسجد قبة الصخرة من شكلين أساسيين: الرخام والفسيفساء، واستخدم الرخام لإكساء الأقسام السفلية من الجدران داخلاً وخارجاً ويوجد في عقود القناطر والأعمدة.. الرخام في

القبــة مازال على حاله كمـــا نفذ في العهد الأموي.. أما الفسيفساء فهي التشكيل الأول في العمارة العربيـــة الإسلامية.. تتكون من أجزاء دقيقة من الزجاج والحجر والصدف تراوحـــت ألوانهـــا بين الأخضـــر والأزرق.. وألـــوان أخـــرى.. بعض من هـــذه الأجزاء مذهـــب أو مفضض رُصفـــت لتشكل وردة أو نخلـــة.. تغطي الفسيفساء الأجزاء العليا من الجدران داخلاً وخارجاً وباطن القبة.. أمـــا النحاســـ أو البرونز المذهـــب فتشكل تغطية للأبـــواب والجسور الخشبية.. وهذه الصفائـــح قد تكون بلا زخرفـــة أو تغطيها النقوشـــ والزخـــارف.. ألصقـــت جزيئات الفسيفســـاء علـــى خلفية جصيـــة.. وجود الفسيفســـاء أغدق نـــوراً منعكساً من آلاف النجوم الدقيقة في سماء القبة وأطرافها.

ونجد نوعـــاً زخرفياً آخر هو (الزخرفة الخشبية) وقد نُفذت بوساطة الحفر وتوجد في سقف الرواقين من الداخل..ونجد كذلك (زخرفة البرونز) التي نُفذت بوساطة الطرق كمـــا في زخارف صفائح البرونز التي تغطي الروابط الخشبية بين الأعمدة.

باعتبارها الزخرفـــة الأولى في الإسلام فقد خرجت من وحيه وشكلت المدرسة الأولى في ذلـــك.كان في هذه الزخرفـــة: العناصر النباتية: أشجار نخيل وزيتون وأوراق أكانتاس وورقة وثمر العنب وثمرة الصنوبر والرمان وأوراق لوزيـــة مركبة.. وريـــدات.. كؤوس.. مزهريـــات.. وكل هذه العناصر تجردت من حالتها الطبيعية وانتقلـــت لتكون موضوعاً فنياً.. فحـــول سيقان الأشجـــار تشكيلات هندسيـــة.. أغصـــان الأشجـــار تخرج عن طبيعتها لتتصاع في تشابـــك هندسي يسير شيئـــاً فشيئاً نحو التجريد.. جذوع الأشجار لهـــا أشـــكال مستطيـــلات رأسية..حتـــى ورقـــة العنب وجـــدت طريقـــاً إلى التجريد والتحوير.

ونلاحظ على هذه الزخرفة الأولى بعض السمات والخصوصيات منها: التنوع وعدم التكـــرار في الصيغ الزخرفية. وقد صُممت ونفـــذت بأسلـــوب متماســـك موحـــد وغير متناقض، فهـــي تُشكل وحدة فنية منسجمة في التكويـــن والأسلـــوب. وأما مـــواد البناء المستخدمـــة والمصنعة مثل الرخام والخشب وأحجـــار الفسيفســـاء فهـــي صناعة محلية نفذت من قبل سكان البلاد.

الكتابة والخط

تزخـــر قبة الصخـــرة داخـــلاً وخارجاً بالكتابات من الخـــط العربي التي تعاشقت مع التشكيلات الزخرفية الأخرى المتنوعة.. فتمتد هذه الكتابـــة على الجزء العلوي من المثمن الداخلي.. نفـــذت على شكل أشرطة

طولانيــة بلغ مجمــوع أطوالهــا /٢٤٠م/ باستخــدام الفصوص المذهبــة على خلفية زرقــاء وســط الفسيفساء.. نقــرأ في هذه الكتابات وموضوعاتها:

الهدف من بناء المسجد ونصوص لآيات قرآنيــة.. ســورة النســاء بالخــط الكوفي المذهــب.. وفــوق كل نافــذة مــن النوافذ الخارجيــة آية قرآنية..وداخل القبة نُسخت آية الكرسي بالخط النسخي.. الفريز الذي يعلــو الجدران الخارجية كتبــت عليا سورة ياسين. وعلــى رقبة القبة من الداخل كُتبت سورة طه بماء الذهب.. والكتابات في أعلى أقواس المضلع المثمن الأوسط تعتبر أقدم ما كتــب من خط عربي أطلق عليه اسم الخط الجليل..كمــا نقرأ في هذه الكتابات تكريماً للرسول (صــ) وآيات تظهــر رأي الإسلام بالمسيحية والسيد المسيح عليه السلام..

أقدم تاريخ مكتوب في الإسلام

وفي القبــة نجــدُ أقدمَ تاريــخٍ مكتوب في الإســلام، وقد احتواه هــذا النص كما يلي: «بنى هــذا المسجد الإمام المأمون أمير المؤمنين سنة اثنتين وسبعين» ..

فهنــاك تحريف ظهر في هــذه الكتابة، فسنــة ٧٢ تقع ضمن فــترة حكم عبد الملك بن مروان /٦٥- ٨٦هـ / والخط الذي كُتب بــه اسم المأمون مخالــف للخط الذي كتبت به باقــي أجزاء النص.. فهذا المزور لم يُتقن عمله تماماً..!!

وثَّقَتْ هذه النصوصُ لأحد أنواع الخط العربــي الذي كان سائداً في القرن الهجري الأول وهو الخط اليابس (الكوفي).. وبدايات دخول الخط العربي في فن الزخرفة.

الميــزات المعماريــة لمسجــد قبــة الصخرة

باعتبار هذا المسجد أقدم نموذج معماري إسلامي فقد شــكل مدرسة معمارية وفنية في عناصره وفنــه الزخرفي والكتابي.. وهو كذلك حمل ميــزات وخصوصيات تاريخية أدخلتــه بشكل نهائــي في الذاكرة الجمعية العربيــة والإسلامية.. وكذلــك في الذاكرة الغربية بوجهة نظر مختلفة..

فمن هذه المميزات:

- أن مسجد قبة الصخرة عمارة تذكارية لتخليد حادثة الإسراء والمعراج.. فكان بسبب ذلك المسجد الوحيد بمسقطه المثمن.
- قبــة الصخرة هــي أول قبة بنيت في الإسلام.
- بُنيت دائرتا الدعائم والأعمدة داخل مسجد قبة الصخرة بشكل محروف.. ويبلغ مقدار هذا الانحراف حوالي /٣ درجات/.. والغايــة مــن هــذا الانحــراف منع حجب الأعمــدة الواقعــة أمام الناظــر للأعمدة

الأخرى المقابلة لها في الجهة الأخرى.. وهذا أعطى المكان اتساعاً أكثر مما هو عليه في الواقع.

- الأعمدة المحيطة بالقبة تتصل عند أعلى تيجانها مع بعضها بعوارض خشبية ضخمة، تغلفها صفائح برونزية مزخرفة.. والهدف الإنشائي منها تخفيف القوى الضاغطة على العقود والأقواس وتخفيف الضغط الناتج عن القبة التي ترتكز عليها..

- المظلات التي تتقدم المداخل الأربعة تعتبر ابتكاراً جديداً في العمارة الإسلامية وهي المثال الأول فيه.

- مسجد قبة الصخرة مسجد مسقوف بالكامل.. وهو بذلك يخالف جميع المساجد التالية..

- يتحقق هدف الإضاءة والتهوية بشكلي جمالي ومثالي في بناء مسجد قبة الصخرة.. ففي كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي /٥ نوافذ/ فيكون مجموع هذه النوافذ / ٤٠ نافذة / بالإضافة إلى النوافذ الـ / ١٦ / في رقبة القبة.. هذا العدد الكبير من النوافذ وفر إمكانية كبيرة للإضاءة الطبيعية.. عوضت عدم وجود الصحن المكشوف.

- نشاهد في الواجهات الخارجية للمسجد تلك النوافذ أو التجويفات الصماء والغرض منها جمالي خالص.. فقد كسرت من حدة الجدار الخارجي وطوعته بهذه الحنيات اللينة وأعطته نوعاً من التجسيم بفعل تفاوت الظلال.

- لمسجد قبة الصخرة محرابٌ صغير في الجدار الجنوبي من الداخل أبعاده (١،٣٧ × ٠،٦٧م) وهو عبارة عن عمودين صغيرين ما بينهما تجويف مزخرف عليه كتابة (لا إله إلا الله)..ويعتقد «كريسول» أنه أقدم محراب في الإسلام.. إذ إن محراب المسجد النبوي بني فيما بعد من قبل الوليد بن عبد الملك / ٨٨-٩١هـ/.

الجامع القبلي (وهو ما يسمى اليوم بالمسجد الأقصى)

وهو الجزء الجنوبي من المسجد الأقصى المواجه للقبلة.. له قبة رصاصية.. وهو اليوم المصلى الرئيس للرجال في المسجد الأقصى.. وفيه يقف الإمام ويصلي.. بني هذا المسجد في المكان الذي صلى فيه عمر (رضي الله عنه) عند فتح القدس عام /١٥هـ / بدأ ببنائه الخليفة عبد الملك بن مروان وأتمه الوليد..

يقع بالقرب من السور الجنوبي للحرم القدسي وعلى محور القبة باتجاه الجنوب.. أنشئ بشكل أولي من قبل عمر بن الخطاب وهذا الجزء اندثر مع الزمن .. لكن الإنشاء

المعمــاري تمَّ في عهد الوليد بن عبد الملك.. ولئن كان بناء قبة الصخرة يعود بكامله للعهد الأمــوي تقريباً فإن المسجد الأقصى انتابته ترميمات وتغييرات وهي بشكل سريع:

- استنــاداً إلى بعض الترميمات وبعض النصوص فإن الأقصى (الجامع القبلي) في العهد الأموي كان يتألف من خمس بلاطات متعامــدة مع جدار القبلة وكان طوله /٥٠-٨٠م/ وأما قبته فلم تكن قد أنشئت بعد.

- يذكر المقدسي / القرن الرابع الهجري / أن توسيعــاً أدخل علــى المسجد الأقصى (الجامع القبلي) فأصبح يتألف من / ١٥ / بلاطة متعامدة مــع جدار القبلة.. البلاطة الوسطــى أكثر اتساعاً لأنهــا تحمل القبة.. وأمــا السقف فهو جمالوني «مثلثي» مصفح بالرصاصــ وحسب تعبــير المقدسي «جمل عظيم خلفه قبة حسنة» ويذكر كذلك وجود رواق أمام الأبواب في الجهة الشمالية..

- تغيير تال لعله حدث في العهد الفاطمي /١٠٣٥م/ حين تمَّ اختزال عدد البلاطات إلى سبع فقط.. وذلــك ما اعتقده كريسول الذي كان مفتشاً للآثار في حكومة فلسطين أيــام الانتداب البريطاني لــه كتاب العمارة الإسلامية المبكرة.

- ذكــر المسجــد والتغيــيرات عدد من المؤرخين والرحالــة كان منهم ناصر خسرو الذي زار الأقصى في سنة /٤٣٨هـ-١٠٤٧م/ ويذكــر أنه كان في المسجــد /٢٨٠ عموداً/ تعلوهــا العقود.. وقبة محمولــة على /١٦ عموداً/، وأقرب وصف تاريخي إلينا ما ذكره مجير الديــن الحنبلي في الأنس الجليل عام /٩٠٠هـ/ من أن المسجــد يتألف من /سبع بلاطات/ ثلاث منها فقط: الوسطى واثنتين على جانبيها تعود إلى العهد الأموي.

الأقصى (الجامع القبلي).. حالياً

مساحتــه ٤٤٠٠م٢، أبعــاده الداخلية: ٨٠×٥٥م، ويتشــكل من سبعة أروقة: أوسط وثلاثة في الشرق ومثلها في الغرب. أمَّا عمق بيت الصلاة فيتشكل من /١١ رواقاً/ موازياً لبيت الصلاة. تقوم هذه الأروقة والبلاطات علــى /٥٣ عمــوداً رخاميــاً/ و/٤٩ سارية حجريــة/ مربعــة، في حين تقــوم القبة في نهاية البلاطة الوسطى.

للمسجــد /١١ بابــاً/ سبعــةٌ منها في الجــدار الشمالي، واحــدٌ في الشرق، واثنان في الغــرب، وواحد في الجنوب. يوجد تحت الأقصى دهليز واسع يسمى الأقصى القديم فيــه سلسلة مــن العقود تقــوم على أعمدة ضخمة.

ميزات معمارية في المسجد الأقصى (الجامع القبلي)

حمل الجامع القبلي وهو التكوين داخل الأقصى الذي حمل اسمه،بخصوصيات معظمها لم يتكرر في المساجد اللاحقة، منها:

- خلوه من الصحن المكشوف الموجود عادة في المساجد ولكن في حالة الأقصى تعتبر ساحته كلها صحناً تمتلئ بالمصلين.

- محرابه لا يتوسط القبلة.

- بلاطات الأقصى عمودية على جدار القبلة وليست موازية له كما هو الحال في كثير من مساجد العهد الأموي ومساجد العصور التالية.

- سقف المسجد جمالوني ضخم.. وهو قليل الشيوع في المساجد وأول ما ظهر في المسجد الأموي بدمشق فقد تمَّ تنفيذ سقف الأقصى الجمالوني في عهد المهدي وسقف الأموي سابق له.

- قبة المسجد نسخة مصغرة عن قبة الصخرة.

- الحلقة السفلية للقبة تنحني نحو الخارج بمقدار /٧٥سم/ وذلك بالاستعانة بسلسلة من المساند البارزة.

- يلي العقود جدار حامل للقبة مزين بنوافذ صغيرة على هيئة بوائك.

- تتميز أعمدة المسجد الأقصى بقصرها وثخن قطرها وذلك لتتمكن من حمل السقف الجمالوني الضخم.

- الارتفاع الكبير للسقف هو الذي أوحى للمعماريين بالربط بين تيجان الأعمدة بروابط خشبية.

الزخرفة في المسجد الأقصى

من أهم الوحدات الزخرفية التي دخلت في تشكيلات اللوحات الزخرفية في المسجد: الكؤوس المركبة، وثمار الرمان المركبة، وأوراق العنب المركبة والمحورة والتي أخذت شكلاً زخرفياً مجرداً.. وريدات مفصصة.. حبيبات مجمعة..وهذه الزخرفة تطورت قليلاً عما كانت عليه في المسجد الأقصى.. فهناك تداخل بين العناصر النباتية والعناصر المعمارية.. أعمدة هذه الحنيات تعلوها تيجان بصلية تتكون من تقابل نصف ورقتي أكانتاس وهو تطور مبسط للتاج الكورنثي.

من الزخرفة الكتابية في المسجد الأقصى:سورة الإسراء المكتوبة بالفسيفساء وتبدأ من أعلى المحراب وتمتد باتجاه الشرق على طول /٢٤م/.

إذاً: هذان المسجدان المهمان في ساحة الحرم القدسي (ساحة الأقصى) جمعت بينهما سماتٌ مشتركة:

- تعدد المداخل ووجودها في الجهات الرئيسية الأربع.

- الأبواب المصفحة بالذهب والفضة.
- استخـدام الفسيفساء كعنصر أساسي في الزخرفة.
- العوارض ذات الكسوات المزخرفة.
- العقود نصف الدائرية.

تكوينات معمارية أخرى في الأقصى

التكوينان الأكثر شهرةً هما مسجد قبة الصخرة والجامع القبلي (الأقصى).. غير أنَّ تكوينات أخرى ملأتْ ساحة الحرم القدسي وحولته إلى مكان أثير مزدحم بالآثار العتيقة الناطقة.. من هذه التكوينات: المصلى المرواني والذي يقع في الجنوب الشرقي للمسجد الأقصى. والأقصى القديم ويقع تحت الجامع القبلي، بناه الأمويون ليكون مدخلاً ملكياً إلى المسجد الأقصى من القصور الأموية التي كانت تقع خارج حدود المسجد الأقصى. ومسجد البراق: عند حائط البراق.

وهناك مجموعة الأسبلة والآبار الكثيرة في المسجد الأقصى. والمدارس: المدرسة العثمانية - التنكزية - الأشرفية - الملكية - الأسعردية - المنجكية - الباسطية -الأمينية - الفارسية - الغادرية.

وثمة عنصر معماري شديد الخصوصية في ساحة الحرم القدسي هو البوائك: البائكة الشمالية- البائكة الغربية- الجنوبية- الشرقية- الشمالية الغربية- الجنوبية الغربية- الجنوبية الشرقية- الشمالية الشرقية.

ومن التكوينات الجميلة كذلك: قباب المسجد الأقصى (الحرم القدسي) وهي عدا قبة الصخرة يوجد في ساحة الأقصى الشريف ما يزيد على (١١) قبة بنيت لأسباب مختلفة: التدريس-العبادة- الاعتكاف- تخليداً لذكرى حدث معين. وهذه القباب: قبة الصخرة-قبة النحوية- السلسلة- الأرواح- سليمان- الخضر- المعراج- الميزان- يوسف آغا- يوسف- موسى- عشاق النبي- الشيخ خليل..

أجمل هذه القباب الصغيرة (قبة السلسلة) التي تقع شرقي قبة الصخرة وملاصقة لها تصغرها حجماً سداسية تقوم على /١٦أعمدة/ ويحيط بها رواق مضلع يرتفع سقفه حتى أسفل رقبة قبة الرواق، يقوم على أحد عشر عموداً.. في داخلها محراب صغير، وقد استخدمت لحفظ أموال المسلمين أيام الأمويين كما هو الحال في قبة المال في صحن المسجد الأموي بدمشق.

مـن ذاكـرة الأقصـى الأليمـة ومن واقعه

حـين احتل الفرنجة القدس أحرقوا منبر الأقصى / ٤٩٢هـ- ١٠٩٩م /.. وقصة المنبر النوري الحلبي الذي أعاده صلاح الدين إلى مكانه في الأقصـى بعد تحرير القدس عـام /٥٨٣هـ/ من القصص الشهيرة. صنع هذا المنبر مـن خشب السرو الحلبي المطعم والمنـزل بالعاج والأبنوس والمعشق تعشيقاً دون استخدام المسامير.. في المنبر تشكيلات زخرفيـة عديدة عاجيـة وهندسية ونباتية ومقرنصات..

أما حائط البُراق فهو الجزء الجنوبي الغربي من جدار الحرم الشريف (الأقصى) وهو جزء مـن المسجد الأقصى ومن حادثة الإسراء والمعراج.. والمكان الذي حطت عليه البراق التي حملت الرسـول (ص) من مكة إلى القدس إلى السموات العلى.. طوله ٤٨م وارتفاعـه ١٧م ويصل طول الحجر الواحد فيـه حـوالي ٥م. حدثت ثورة الـبراق عند هذا الحائط وسقط عدد كبير من الشهداء العرب بيد الشرطة البريطانية سنة ١٩٢٩.

كان من إجـراءات التهويد على مستوى الهوية المعمارية للمدينة تلك الحفريات حول المسجـد الأقصى وتحته للعثور على الهيكل الـذي تدعـي إسرائيل وجـوده في منطقة المسجـد الأقصى وقد ابتـدأت الحفريات في أواخـر سنـة ١٩٦٧ وما زالـت مستمرة حتـى الآن. وكان مـن الجرائـم التي نالت من قدسيـة المدينة إحراق المسجد الأقصى الذي دبرته سلطـات الاحتلال في ٢١/ ٨/ ١٩٦٩ والمحـاولات التي جرت لنسفه مطلع ١٩٨٠ على يد الحاخام مئير كاهانا.. ولعل من أخطر الاعتداءات على المسجد الأقصى تلـك السلسلة من الحفريات التي قامت بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي حوله وتحته.

وثمة إجراء مستمـر على رغم فداحته ووضوح عـدم شرعيته وعـدم حضاريته!! فبدؤوا يخططـون لإقامة مدينـة مقدسة يهودية على أنقاض المسجد الأقصى يسمونها (مدينـة داود) وهم بذلك يهيئـون مناخاً جديداً ويفرضون حقيقة واقعة داخل ساحة المسجد الأقصى. هذه المدينة المُتَخيلة التي بدأت تظهر ماكيتاتها ومخططاتها وتصوراتٌ لهـا تقوم علـى أنقاض المسجـد الأقصى والمنطقة المحيطة به. كان من بين الإجراءات التهويديـة الفاحشـة التي تمـت أيضاً في السنوات الأخـيرة في مدينة القدس اقتراح هدم درب المغاربة تمهيداً للاستيلاء الكامل على منطقة الـبراق وتوسعتها، وذلك بدعم مباشر من الجمعيات اليهودية المتطرفة مثل (جمعية الحفاظ على تراث الحائط الغربي) وهي مموّلة مـن قبل عائلة يهودية أمريكية تضخها بمليـارات الـدولارات.. وكل هذه الجمعيات داخل الكيان الصهيوني مرتبطة بمموّلين خارجيين وكل جمعية تختص بجزء

من مدينـــة القدس..لقـــد استولت منظمة (عطيرات كوهنيـــم) المتطرفة على جزء من أراضـــي وقف إسلامي تدعى (حمام العين) وباشرت بإقامة كنيس من طابقين فوق الأرض وعـــدة طوابق تحت الأرضـــ، لكن بعده عن المسجـــد الأقصى ليس إلا بضع عشرات من الأمتار !!

هـــذا عمـــل حقيقـــي يجـــري وتظهـــر آثاره بشـــكل مباشر وهو جـــزء من المشروع الصهيـــوني.. وهـــو مشـــروع يعمـــل بشكل منهجي ومخطـــط واستراتيجـــي ويستخدم كل الوسائـــل حتى يثبت أحقية هذا المشروع وبالتالي يؤثر على العقلية اليهودية والعقلية الدوليـــة خاصة الإدارات التـــي تنحاز إليه أو تدعمـــه بشكل مباشـــر.. وذلك جزء من التهويد الشامل الـــذي خضعت وتخضع له مدينة القدس يومياً.

أخيراً:

كان هذا مروراً طفيفاً في الحرم القدسي من خـــلال عناوين معماريـــة وفنية لامَسَتْ الأقصى بتكوينيـــه الأساسيين (مسجد قبة الصخـــرة والجامـــع القبلي) وقـــرأتْ فيه الأسبقيـــةَ التاريخيـــة في التأسيس للعمارة المساجديـــة ومضموناتهـــا التفصيليـــة من الزخرفـــة والخط.. كما لامسَـ هذا المرورُ عن بعد جروحاً انفتحت في جروح فاتسعَتْ حتى تـــألم الألم.. إلى أقصاه.. الأقصى الذي أخذ اسمه وفعله من القرآن ليعبر عن الأكثر اتساعـــاً في كل الأبعـــاد.. وليشـــكل عمارة عربية أضحتْ في الصف الأول من الظهور الإعلامي.. أضحـــت (عمارةً) في المواجهة ومن ثم غدتْ عمارةً مُقاومة..!!

مراجع البحث

- ريتشموند، قبة الصخرة المشرفة. أكسفورد- ١٩٢٤.
- كرسول، فن العمارة الإسلامية المبكرة، أكسفورد-١٩٦٩.
- الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية- دمشق- ط١- ١٩٨٤-مج٣ ومج٤.
- د.عبد الهادي عبد الهادي، كنوز القدس. مؤسسة آل البيت.
- الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية-١٩٨١م.
- العارف عارف، المفصل في تاريخ القدس- ط٢- ١٩٨٦م.
- الكواكبي سعد زغلول، منبر المسجد الأقصى. مجلة العاديات- ١٩٧٨- ١٩٧٩.
- سلسلة تاريخ وجغرافية فلسطين-وكالة هيئة الأمم المتحدة- الأونروا-اليونسكو-١٩٧٠.
- د. مؤنس حسين، المساجد. سلسلة عالم المعرفة- الكويت- ١٩٨١.

الدراسات والبحوث



عليُّ بنُ إبراهيمَ بنِ بخْتَيْشوعَ الكفْرَطابيّ
(...- بعد ٤٦٠هـ/...- بعد ١٠٦٧م)

❀
د. محمد ياسر زكور ❀❀

سهّلتْ وحدةُ الأرضِ والجغرافية واللغة انتقالَ أعلامِ الحضارة العربية والإسلامية بين بـلاد الدولة الواحدة شرقاً وغرباً، ولاسيما الجارتين بغداد ودمشق، وحركةُ الأعلام تلك كانت لبواعث شتى: طلباً للعلم أو العمل، وذلك مما كان له أهميـــةٌ في إغناء وتقدم العلوم العربية، أو سعياً لتوسيع الشهرة، أو هربـاً من ظروف غير ملائمة، أو استجابةً لدعوة من ذوي السلطان، فقد يغري بعضُ هؤلاء طبيباً أو عالِماً ليكون في بلاطه، فينتفعون بطبّه وعلمه من

❀❀ طبيب وباحث في تاريخ العلوم الطبية.

ناحيــة، ويفخرون برعايتهــم أهلَ العلم من ناحيــة أخرى. ففي بدايــة العهد العباسي انتقل فيه الكثير مــن السوريين إلى العراق لتحول عاصمة الملك من

دمشق إلى بغداد، ومنهم قسطا بن لوقا البعلبكــي (٢٠٥- ٣٠٠هـ)، وفي فترة لاحقة انتقــل آخــرون من العراق إلى بــلاد الشام أمثال مهــذب الدين النقاشــ (ت ٥٧٤هـ) ورضيِّ الدين الرحبــي (أو الرخي) (٥٣٤- ٦٣١هــ) وعبد اللطيف البغدادي (٦٢٩هـ)، ومنهم طبيبنا علي بن إبراهيم بن بختَيّشوع الكفرطابي موضوعُ بحثنا هذا.

علي بن إبراهيم بن بختيشوع الكَفْرَطابي، طبيــبٌ، كحّال، عالمٌ بطــب العيون، من أهل كَفْرِطاب، في سورية- محافظة إدلب-، توفي بعد ٤٦٠هــ. أولُ وأقدمُ طبيب عرفناه، من خلال بحثنا، في هــذه المحافظة. لم نجد له ترجمــةً في المصــادر سوى مــا ذكرتْه كتبُ التراجم الحديثة عما ورد في كتاب بروكلمان في تاريــخ الأدب العربي، ومــا أورده ماكس مايرهــوف في تحقيقــه «المقــالات العشر لحنين»، ومخطــوط «تشريح العين وأشكالها ومداواة أعلالها» الذي سوف نتحدث عنه.

نشأته:

نشأ علي الكفرطابي في كَفْرِطاب، وكانت بلدةً عريقة، ذكرتْها أكثرُ المصادر التاريخية، تقــعُ جنوب إدلب ٧٣كــم، شمال غرب خان شيخــون ٣كم، لم تعــرفِ الاستقــرارَ طيلةَ فترة الحروب الصليبيــة، حيث كان يتناوبُ عليها العــربُ المسلمون والفِرنجة، مما أدى إلى ضعفها وتراجعِها باستمرار، إلى أن حل الزلزالُ العظيم سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٧م ودمَّر معظمَ معالمِها ممــا أدى إلى هجرة سكانِها، وخاصــةً الموارنــةِ منهم، لأنهــا كانت بلدةً للمسلمــين والمسيحيين علــى السواء، ومنذ ذلــك التاريخ بدأ يتراجــع دورُها العسكري والاجتماعــي، وتحولت من بلــدة إلى قرية ومــن ثم إلى مزرعــة، وحالياً هــي مندثرةٌ ولم يبــق منها غيرُ موضعِهــا، واكتُشف فيها مؤخراً لوحتا فسيفســاء ترقيان إلى القرن الخامس الميلادي.

ذكرها ياقوت الحمَوي في «معجم البلدان» بقوله: «هي بلدةٌ بين المعرة ومدينة حلب في بريــةٍ منعشة، أهلها ليس لهــم شربٌ إلا ما يجمعونه من ميــاه الأمطار في الصهاريج». وعلى الرغم من ذلك فقد أنجبت العديدَ من الأعلام؛ منهم محمد بن يوسف الكفرطابي، وسلامة بــن عياض الكفرطابي، وأحمد بن يعقوب الكفرطابي... وغيرَهم، ومنهم علي بن إبراهيم بن بختيّشوع الكفرطابي الطبيب الكحّال.

والــده كان طبيباً أيضاً، وهذا ما يتضحُ

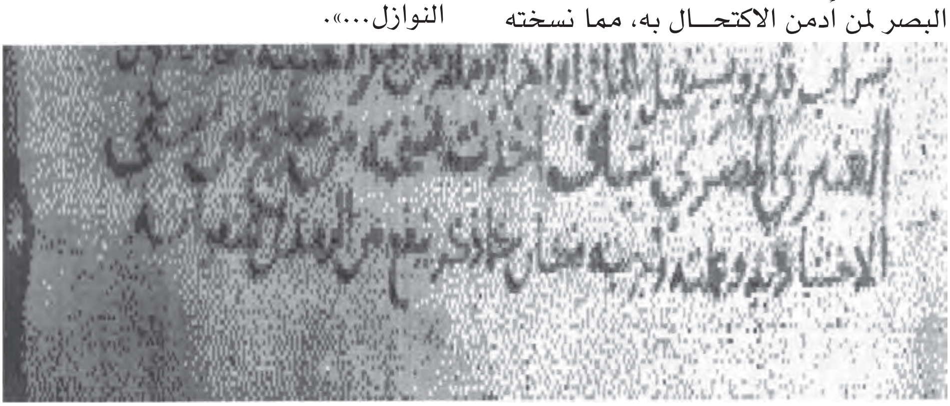
من كتابــه حيث يقول في وجــه الورقة ٢٢ من مخطــوط «تشريح العين»: «كحل وجدته بخط والدي في كتبه يبرئ من الرمد الشديد والقروح الوضرة ويسكِّن الألم وينقّي القذى، وهو منجح... فائق يحسن الفعل وقد جربته فحمدت تأثــيرَه بتوفيق اللّٰه». كما يقول في موضع آخــر في الورقة الأخيرة (٢٥/و) من المخطوط: «وقال والدي....».



تنقله في البلاد

يُستنتج مما جــاء في المخطوط أن عليَّ الكفرَطابي سافــر إلى مِصر واليمن، فأخذ هناك من أطبّائها أيضاً، حيث يقول في ظهر الورقــة ٢٣: «كحلُ الجلاء المقــوي للبصر المانع من نزول الماء في العين ويجلو البياض ويبرئ مــن الظلمة والضبابة ويحفظ صحة البصر لمن أدمن الاكتحــال به، مما نسخته من أسعد قاضي اليمن، مما أخذه من طبيب هندي وصل إلى عــدن... وجربته فحمدت منفعتَه...».

ويقول في وجــه الورقــة ٢٠: «العنبري المِصري شياف[1] أخذت نسختَه من شيخ من بني الإخشاديــة[2]... وعلّمتُه وجربتُه فكان كما ذكر ينفع مــن الرمد في عنفوانه ويمنع النوازل...».



نسبُه إلى آل بختيشوع (البخاشعة)

لعل مـا يلفتُ الانتبـاهَ في اسم علي بن إبراهيم بـن بختَيْشوع الكفرطابي هو مدى صلتِه بهـذه العائلة العريقة في الطب، وهل لهـذا الطبيبِ جذورٌ تربطـه بهم، أم مجردُ اتفـاقِ الاسـم فقـط، ولذلك قمنـا بهذه الدراسـة لمعرفة مدى هـذه الصلةِ العائلية بـين الكفرطابي والبخاشعة (آل بختيشوع)، الصلةِ التي تربط بين طبيب كحّالٍ عاش في القرن الخامـس الهجري/ الحـادي عشر الميـلادي، والمنسـوبِ إلى قريـة كفْرِطاب السورية، وبـين آل بختَيْشـوع (البخاشعة) المنحدرين من جنديسابور، والذين كانوا في خدمة خلفاءِ بني العباس، تلك العائلةُ التي كان أكثرُ أفرادِها أطباءَ في بغداد.

ودراسـةُ تلك الصلةِ بين الكفرِطابي والبخاشعـة هـي من خـلال تاريـخِ قرية كفرِطاب، ومخطوطِ «تشريح العين وأشكالها ومـداواة أعلالهـا»، ومـن خـلال تاريـخ البخاشعة.

البخاشعة

هـم آلُ بختَيْشـوع؛ وقـد وردت لفظةُ (النجاشعة) في تذكِرة داودَ الأنطاكي طبعةِ دار الفكـر ١٩٩٦م، أكثرَ من مرة، وبالبحث عـن هـذه اللفظـة الغريبـة والاستشارةِ اللغوية توصلنا إلى ما يلـي:[٣] وقعَتْ لفظةُ (النجاشعة) في غير موضع من تذكِرة الشيخِ داود الأنطاكيّ، منها ما في ج١ ص٣٤٣ وهو قولُـه في الـكلام على صنعـة الخَنْديقون: (وفي نسخ النجاشعـة)، وفي ج٢ص٧ قوله: (غاليـةٌ من تراكيبِ زينـة العروس المنسوب للنجاشعة)، وفي ج٢ ص٢١٢ في صنعة الندّ: (وأولُ من اخترعه النجاشعةُ للخلفاء). وكذا كان الأمر في طبعة المكتبة الثقافية أيضاً، في الجزء الأول الصفحات ١٤٧، ٢٤٤، ٣٣٠.

وبمقارنة مـا ورد في التذكِـرة المطبوع للأنطاكـي بإحدى نسخهـا الخطّية، وهي نسخة المغـرب- الرباط- الخزانة الحسنية برقـم ٦٣/د في الصفحات ٧٢، ١١٤، ١٦٤، كان رسم اللفظة أيضاً (النجاشعة).

هذه أمثلة مـن استعمـال اللفظ، وهو مصحَّـف، وأحْرِ به أن يكـونَ كذلك؛ إذ لا أصلَ لمـادةِ (نجشع)- بالنـون والجيم- في مسْتعمَـلِ العربيّـة، بـل لا وجـودَ لها في المعرَّبـات. والصحيـحُ: البَخاشِعـة، بالباء الموحّدة والخـاءِ المعجَمة، وهـو جمع على مثال عَبادِلـة وبَرامِكة ومَشارِقـة ومغاربة وأسـاوِرة وأكاسِـرة، وغيرِها ممـا هو جمْعٌ منصـرِف بزيادة الهاء، ويكـثر استعمالُه في جموع الأعلام والأقوام والكَلِم المعرّبة، ويوزنُ بمَفاعِلَةٍ وفَعالِلَـة وأفَاعِلَة ونحوِها. والمراد

بذلك الجمع، بنو بَخْتَيْشوع، وهم سُلالةٌ من مشاهيرِ أطبّاءِ دولةِ بني العبّاس، خدموا عدداً من الخلفاء والوزراء، ويُعَدُّون في جملة المستعربين من السُّرْيان واليونان. وقد صدّر ابنُ أبي أصيبعةَ بذكرهمْ البابَ الثامنَ، وهو في طبقات الأطباء السُّرْيانيين، وترجمهم تفصيلاً؛ فمنهم جورجس بن جَبرائيل، وهو أولهم، ويسمّى أيضاً جيُوَرْجيس، وجُرْجُس وجِرْجس، وجُوَرْجيُوس.. ثم ابنه بخْتَيْشوع، ثم وَلَدُ هذا: جَبرائيل، ثم بختيشوعُ بنُ جبرائيل، وهكذا- بل تفرّعتْ شجَرتُهم فوق ذلك، حتى ذُكر منهم يوحَنّا بنُ بختيْشوع وبختيْشوع بنُ يوحنّا في عصر الراضي بالله والمقتدرِ بالله، ممن تأخر عن زمن الرشيدِ والمتوكل. وفي تراجمِ أولئكَ عددٌ من الكتب، ذكَرها ابنُ أبي أصيبعة في كتابه هذا «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، من ص١٨٣ إلى ٢٠٤، ثم ص ٢٧٦-٢٧٧، وهي مصنَّفات في الطِبِ وفروعه كالحِجامة والفَصْد والتشريح، وأنواع الأدواء وصناعةِ الدواء؛ ومنها، «كتابٌ في صَنْعة البَخُور»، ألّفه جَبرائيلُ بنُ بختيْشوع للمأمون، بعدما خدم الرشيدَ قبْله، وتوفي سنة ٢١٣هـ.

قلت: ههنا المقصودُ، فإذا كان بنو بَخْتَيْشُوعَ ممن عُرِفوا بتأليف رسالةٍ أو رسائلَ في عملِ الطِّيب، فإليهم الإشارةُ في معرِض ذكر الغالية والنَّد، والخنديقون في معناهُما لأنه شرابٌ مطيَّب، ويؤيدُ ذلك قولُ الأنطاكيّ في التذكِرة ج١ ص٣٤٣، بعد النقل عن البخاشعة وصفةِ صَنْعَة ذلك الشراب: «وهذه هي النُّسخةُ الجيدةُ الصحيحة، لا ما في المنهاج وغيره»؛ فعبّر بالنسخة آخراً وبالنُّسَخ أولاً، ولفظة «نسخة» هذه كثيرةُ الاستعمال عند الأطبّاء والصيدلانيين والعطّارين قديماً، وهي اصطلاح يُرادُ به ما نعنيه اليوم بقولنا: وصفة، وبالإنكليزية Recipe.

وأما «زينة العروس» فأحدُ الكتب المنسوبة إلى البخاشعةِ كما تقدم، وعنوانُه دالٌّ على مضمونه.

ومن أمثلة النقل عن بني بَخْتَيْشُوع في صَنعة الطيب ما في «نهاية الأرب» للنوَيْريّ، وهو قوله عنواناً: «صَنعةُ مَيْسُوسٍ نادرٍ أُخِذَ عن بختيشوع الطبيب، من كتاب العطر المؤلَّف للخليفة المعتصم بالله» (ج١٢ ص١٣١) وقولُه: «صَنعةُ نوعٍ آخرَ من الميْسُوس، عن بختيشوع أيضاً، من الكتاب المذكور» (ج١٢ص١٣٤).

وبعدُ، فالجماعةُ قومٌ مشهورون من نصارى السُّريان المشتغلين بالطب، وأسماؤهم تدور حول لفظ بختيْشوع غالباً؛ واللفظ مركب من (بَخْت) و(يَشُوع)، ومعناه:

عبدُ المسيح، من السُّريانية، كما في المصادر؛ فذلك أنَّهُم نُسِبوا إلى ذلك العَلَم تَغْليباً، كأن كُلاًّ منهم يُسمّى به بعينه، ثم جُمع على النحو الذي ذكرْنا فلم يمكن جمعُه إلا بالحذف، فلمّا بقي منه أربعةُ أحرفٍ: ب خ ش ع صحَّ جمعُه، وزِيدتِ الهاءُ لبيانِ العُجمة.

ومن أمثلة التغليب في العربية- وهو معروفٌ ثابتٌ: العُمَران: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والقمران: الشمس والقمر- هذا من المثنى؛ ومن الجمع: الأحاوصُ: فرعٌ من بني عامرِ بنِ صعصعةَ، وهم نسلُ الأحوصِ ابنِ جعفرِ بنِ كلاب بنِ عامر،....

أما نسبُه؛ فيمكن أن يكون عليُّ بنُ إبراهيمَ بن بختَيْشوع الكَفْرُطابيُّ سليلاً للبخاشعة، كما يمكن أن لا يكون بينَه وبينَهم نسبٌ إلا اتفاقَ الأسماء فقط؛ فهو احتمالٌ معتبر، بيد أنه لا سبيل إلى ترجيح النفي أو الإثبات اعتماداً على المصادر التي بين أيدينا.

وهذا الكَفْرُطابيُّ لا ترجمةَ له ولا ذكرَ عَرَضَ في شيء من تواريخ الأقدمين وغيرها من المصنفات، مثلِ «إخبارِ العلماء بأخبار الحكماء» للجمال القِفْطي (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨) و«عيونِ الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، أو في ما هو أعمّ وأوسع نحوِ «سِيَرِ أعلام النبلاء» للذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) و«تتمةِ المختصر في أخبار البشر» لابن الوردي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) و«حسْنِ المحاضرة في تاريخ مِصر والقاهرة» للسيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) و«شذراتِ الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، وقد استقرينا ذلك كلَّه وغيرَه فلم نقع على عين ولا أثر. وإنما ذكره العصريون كبروكلمان وكحّالة، وترجمه الزركلي في أعلامه فلم يكن له مصدرٌ غيرَ تاريخ بروكلمان ومخطوطةِ «تشريح العين» نفسِها. وممن ذكره: الدكتور ماكس مايرهوف Max Mayerhof المستشرق، في مقدمة تحقيقه لمقالات حنين بن إسحق في العين (ص١١-١٢) التي نشرها بالقاهرة سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، وسمّى الكتابَ هناك «كتابَ تركيب العين وأشكالها ومداواةِ عللها» ورأى مايرهوف أن مؤلِّفَه «لم يكن اختصاصياً في طب العيون، بل متطبباً عاماً يتعاطى صناعته في كفرطاب...» وقد يكون مايرهوف بنى رأيَه هنا على ذكرِ عليٍّ الكفرطابي لأدوية في معالجة أماكنَ أخرى من الجسم غيرِ العين، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الطبيب- خاصة قديماً- طبيباً يعالج أمراض الجسم كلَّها قبل أن يختصّ في طب العيون.

فالرجل غيرُ مشهورٍ إذاً في مصادر كتب

التراجــم. وأولُ ما يُتوقف عنــده من أمره أن اسمَــه: علــيّ، وهو اســم إسلامي، وأما أبــوه فاسمه مشترك، واســم جده الأقرب: بختيشــوع، اسم نَصراني سُريــاني كما قُرّر في المصادر. وسواءٌ كان مــن بني بختيّشوع الأعــلام أم من غيرهم، فظاهــر حاله أنه أسلم هو أو أبوه، وهو غيرُ بعيد.

وآخرُ المشهورين من البخاشعة الأطباء، على مــا في طبقات ابن أبي أصيبعة (طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت: ص٢١٤):

عبيــد الله (نحو ٤٥٣هــ/١٠٦١م) بنُ جَبرائيــل (٣٩٦هـ/١٠٠٥م) بــنِ عبيدِ الله (في الأصل: عبد الله، مكبَّراً) ابنِ بختيّشوع (٢٥٦هـ/٨٦٩م) بنِ جَبرائيل (٢١٣هـ/٨٢٨م) ابنِ بختيّشوع (نحو ١٨٤هـ/٨٠٠م) بنِ جوُرْجِس (بعد ١٥٢هـ/٧٦٩م) بنِ جَبرائيل.

وبالمقارنــة التاريخيــة الزمنيــة، يبعد أن يكــون الكفرُطابي- وقــد كان حياً سنة ٤٦٠هــ/١٠٦٧م- سليــلَ بختيّشــوع الثاني المتوفــى سنة ٢٥٦هــ/٨٦٩م؛ فالمدة قرنان ويزيد، ولا يبلغ مدى ثلاثةِ أجيال قرنينِ إلا نــادراً، وأبعدُ من هذا أن يكون جَدُّه القريب بختيشوعَ الأول!!

ولكن يحتمل أن عمودَ نسبِ الكَفْرطابي: علي بن إبراهيم بن بختيشوع، سقط منه جَدٌّ أو جَدّان مثــلاً، ومثل ذلك كثيرٌ في المصادر القديمة، فعلــى ذلك تستقيم نسبته وتصلح سنــةُ ٤٦٠هـ سنةً من عمره، بغير مضادة لما تقدم.

وزبدةُ القول أن الأمرَ محتمل، وفي دراسة نسخة «تشريح العين» لم يظهر فيها ما يرجح أحد طرفي الاحتمال، والله أعلم.

بيــد أن مــن تحــدّث عنــه في مقالة نُشــرت في مجلــة طب العيون عنــد العرب Ophthazone أورد تلميحــاً إلى أنــه قد استفــاد من اسم عائلــة بختيشوع في سفره وترحالــه، وفيها أيضاً إشــارةٌ إلى أن عائلةَ الكفرِطابي عائلةٌ عريقة في الطب من خلال انحدارها من مدرسة جنديسابور.

نسبتُه إلى كفرطاب

وأمــا نسبتُــه إلى كَفْرطــاب فالخطب فيهــا يســير. فالبخاشعة أصــلاً أهوازيون من جُنديسابور، ولكنهــم تحولوا إلى بغداد وغيرها من حواضر العراق، بل انتقل جبرائيلُ الثاني إلى ميّا فارِقين- أشهرِ مدن ديار بكر، بالجمهورية التركية حالياً- في خدمة الأمير ممهدِ الدولة البويهي، وبها دفن (الطبقات ٢١٣-٢١٤)، وكــذا أقام بها ابنُه عبيدُ الله. وانتقــال الناس في الديــار العربية وغيرها أمر شائع يومئذ، ولاسيما عند الأطباء وأهل العلم، للبواعث التي أشرت إليها في المقدمة، فلا غرابة أن يكون رجُلُنا من بني بختيشوع

أولئك وإن كان من أهل كَفَرطاب، فديار بكر امتداد شامي، وقد غــرّب إلى مصر فكيف بما هو أدنى؟!

مؤلفاتُه ومآثرُه

لقد مَهر علــي بن إبراهيم بن بختيّشوع في طب العيون، واشتهــر بصنعته، واستفاد من سفــره وترحاله مما أكسبه شهرةً وخبرة في تنقله بين البلاد. ثم إن علي الكفرَطابي كان عالمــاً بطب الجســم كافة قبل أن يكون متخصصــاً بطــب العيون، كمــا هو الحال حديثاً، وهذه تعتبر من السمات الجيدة لدى أي طبيب.

ومن آثاره «كتابُ تشريح العين وأشكالها ومــداواة أعلالها»: وهو مخطوط يوجد منه ثلاث نسخ، على ما نعلم:[٤]

الأولى في مكتبــة لينينغــراد، ذكرهــا ماكســ مايرهوف في مقدمة كتاب حنين بن إسحــق «العشر مقــالات في العين»، وذكرت في النسخــة المحققة طبعــة شركة العبيكان بالرياضــ، وهي نسخة قديمــة مؤرخة يوم السبــت الخامســ عشر من شهــر جمادى الثــاني سنــة واحــد وخمســين وخمسمئة للهجرة النبوية.[٥]

والثانية في دار الكتب والوثائق القومية- بالقاهرة- تحت رقم (١٠٠/ طب تيمور)[٦]، وهذه لدي صورةٌ عنها، الخط نسخي رديء وقليــل الوضوح، تقع ضمــن مجموع في ٢٥ ورقــة، الناسخ عبد الرحيم بــن يونس، بن أبي الحسن الأنصاري، سنة النسخ ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م، مــن نسخــة بخــط الحكيم عبد الرحمن بن سالم..

والثالثــة ذكرت في النسخــة المطبوعة، وهي نسخــة حديثــة جــداً في دار الكتب المصريــة، منسوخــة عن نسخــة لينينغراد يقول ناسخها: قد وقع الفراغ من نسخ هذا الكتاب في صباح يــوم الأربعاء ١٣ رمضان ١٣٤٨هــ الموافق ١٢ فبرايــر ١٩٣٠م نقلاً عن نسخة استحضرها جناب الدكتور ماكس مايرهوف الطبيب الأخصائي في العيون من مدينة لينينغراد عاصمة الروسيا بالتصوير الشمســي، ونسخُ الراجي عفو مولاه محمود صدقي النسّاخ بدار الكتب المصرية.[٧]

والكتــاب يمكــن أن نقسمــه إلى أربعــة أقســام: الأول في تشريــح أعضــاء الجســم كافــة، والثــاني في تشريــح العــين خاصة وبشكل مفصل، والثالــث في أمراض العين وعلاجاتها، والرابع في أدوية العين كافة.

وفي الكتاب شــرحٌ مفصل لعملية الساد (القدح). وفيه يعزى له ابتكار علاج لضعف البصر، أرّخه بقوله في الصفحة الأخيرة من المخطوط:

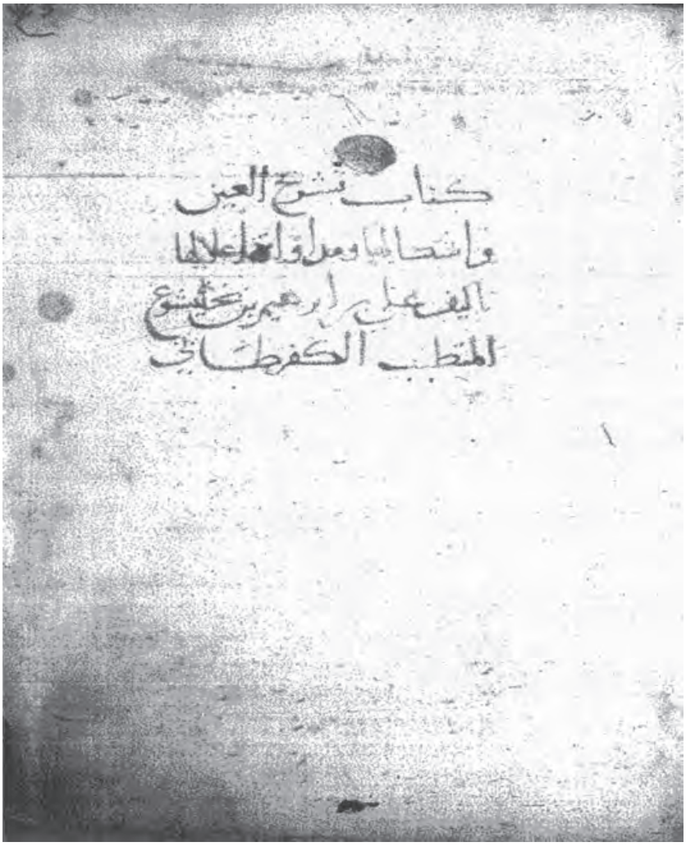
«وقال الكندي[٨] إن أبا نصر كان لا يبصرُ الكواكــبَ ولا القمر، فأسعط بمثل (عدسة) كندس مع دهن بنفسج، فرأى الكواكب بعض الرؤية، فأسعط بــه ثانية وثالثة، فبرئ بُرءاً تامّــاً، وكان قد يقدّم تنقيــة الجسد، فنقى الكندســ الرأس، ووجدت هــذا الدواء في الحاوي[٩]، إلا أنه طباشير، وعجبت أنا كيف

تمر هذه علـــى من نسخ الحاوي، لأني رأيته في خمســ نسخ وجربته أنــا فكان الكندس الذي ينقـــي الدمـــاغ وليســ للطباشير إلا التبريدُ والتجفيف، وما له تحليلٌ ولا تقطيع، والغرضُــ ما يحلل ويقطــع، ولمّا فكرت فيه وجدت الكندسَ تصحيف طباشير، وصح لي ذلك بالتجربة في سنـــة ستين وأربعمئة، في امرأة كبيرة السن، وفي رجل، برَءا بعد تنقية الجسد بسعوط الكندس، من ضعف البصر الذي بلغ بهما ألا يبصرا ما بعُد، ولا يحققا ما قرُب، ومن العشا بإذن اللّه تعالى.

تمّ كتـــاب صنفه علي بـــن إبراهيم بن بختيشوع المتطبــبُ الكفرُطابي، وكتبه عبد الرحيم بن يونس بن أبي الحسن الأنصاري بخطّه لنفسه يوم.........

من نسخة بخــط الحكيم عبد الرحمن ابن سالم بن.... الأنصاري...».

كما ذكر أسماءَ كثيرةً ممن أخذ عن كتبهم، أمثال: أهــرُن، وجالينوس، والرازي، وخلف الكحال من مصر، وبشر الكحال، والكندي، ومـــن الكتـــب؛ المهـــذب(١٠)، والحـــاوي،... وغيرهم.



الهوامش

١- مرهم للعين.
٢- الأسرة الإخشيدية حكمت مصر في مطلع القرن الرابع الهجري، ومنهم كافور الإخشيدي.
٣- عن العلاّمة شهاب الدين «أبو عمرو».
٤- طَبع ماكس مايرهوف تلخيصاً لهذا الكتاب مع ترجمة أجزاءٍ منه، كما طُبع الكتاب مؤخراً بكامله بتحقيق محمود أحمد صقر ومحمد رواس قلعه جي وظافر الوفائي.
٥- حنين بن إسحق: كتاب العشر مقالات في العين، تحقيق ماكس مايرهوف بالقاهرة، المطبعة الأميرية ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م. ص ١١-١٢. في النسخة المحققة: ص١٩، ١٢٦.
٦- ذكر في هوية المخطوط (لعله المجموع) أن عنوان المخطوط: جوامع كتاب جالينوس في الأمراض الحادثة في العين، أوله بعد البسملة جوامع كتاب جالينوس، الرقم والفن ١٠٠/ طب تيمور، تاريخ النسخ ٨٨٣ هـ، الناسخ عبد الرحيم يونس، عدد الأوراق ٢٢٧.
٧- لعلَّ المحققين اعتمدوا هذه النسخة في تحقيق الكتاب.
٨- يعقوب بن إسحق الكندي المتوفى سنة ٢٦٠هـ.
٩- كتاب الحاوي في الطب لأبي بكر الرازي المتوفى سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م.
١٠- المهذب في الكحل المجرب أو المهذب في طب العيون لابن النفيس المتوفى سنة ٦٨٧هـ، بينما الكفرطابي كان في سنة ٤٦٠هـ؟؟. فيستبعد أن يكون هو المقصود بناء على حياة الكفرطابي، لكن ذكر حاجي خليفة كتاباً باسم «المهذب في الطب» ولم يذكر مؤلفه. (حاجي خليفة: كشف الظنون ج٢ ص٧٢٧).

المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م. عدة صفحات.
- ابن إسحق، حنين: كتاب العشر مقالات في العين، تحقيق ماكس مايرهوف بالقاهرة، المطبعة الأميرية ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، ص ١١-١٢.
- الأنطاكي، داود بن عمر: تذكرة داود، المسمى تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، مجلدان، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦م. ج١ ص٣٤٣، ج٢ ص٧، ٢١٢.
- الأنطاكي، داود بن عمر: تذكرة داود، المسمى تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، ويليها ذيل التذكرة لأحد تلاميذ المؤلف، وبالهامش النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة، المكتبة الثقافية- بيروت، ج١،

ص: ١٤٧، ٢٤٤، ٣٣٠.

- الأنطاكـي، داود بن عمر: تذكرة داود، المسمى تذكرة أولي الألباب، مخطوط الرباط- الخزانة الحسنية برقم ٦٣/د، الصفحات ٧٢، ١١٤، ١٤٤.
- حاجـي خليفة، مصطفى بن عبـد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتـب الحلبي والمعروف بحاجي خليفـة: كشـف الظنون عن أسامـي الكتب والفنون، ٦ مجلـدات، دار الفكر، بيروت- لبنـان ١٩٩٢م. المجلدان الثالـث والرابع هما (إيضاح المكنون للبغـدادي)، والمجلدان الخامس والسادس هما (هدية العارفين أسماء المؤلفين للبغدادي). ج٢ ص٧٢٧.
- حميـدان، زهـير: أعلام الحضارة العربيـة الإسلامية في العلـوم الأساسية والتطبيقية، منشـورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٥م. ٦مجلدات. ج٢، ص٧٧.
- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م، ٧ مجلدات. ج٤ ص٤٧٠.
- الزركلـي، خير الدين: الأعـلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلـم للملايين بيروت. ٩ مجلدات. ج٤ ص ٢٥٠.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م، (٤ مجلدات). ج٢ ص٣٨٦.
- الكفرطابـي، علـي بن إبراهيم بن بختيشوع: كتاب تشريح العين واشكالهـا ومداواة أعلالها، مخطوط برقم ١٠٠/ طب تيمور، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، عدة صفحات.
- الكفرطابـي، علـي بن إبراهيم بن بختيشوع: كتاب تشريح العين واشكالها ومـداواة أعلالها، تحقيق محمود أحمد صقر ومحمد رواس قلعجي ومحمد ظافر الوفائي، شركة العبيكان، الرياض ١٩٩١م. ص١٩، ١١١، ١٢٦.
- مجلة التراث العربي، تشرين أول ٢٠٠٥م، ص ٩٩-١٠٠.
- مجلة تاريخ طب العيون عند العرب Ophthazone.
- مشلح، عبد الحميد: الظاهر والمدفون في بلد الزيتون، دار عكرمة- دمشق ٢٠٠١م. ج٢ ص٣٢١.
- النويـري، شهاب الدين أحمد بن عبـد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب، وزارة الثقافـة والإرشـاد والفنـون، المؤسسة المصريـة العامة للتأليـف والترجمة والطباعة والنشـر ١٣٧٤هـ، ج١٢ ص١٣١، ١٣٤.

- BROCKELMANN (C.), GESCHTE DER ARABISCHEN LITTERATUR, Leiden, GI (1943), SI (1937). P 886.

الدراسات والبحوث



الفلسفة العربية المعاصرة وإشكالية المنهج

د. ياسين الويسي *

الفلسفة العربية المعاصرة وإشكالية المنهج واحد من الموضوعات المهمة التي لم تحظ بما تستحق من العناية والبحث حتى الآن في حدود علمي. وقد تناولت المصطلحات التي وردت في البحث بالتعريف كالإشكالية والمنهج وصور المناهج وكان ذلك في المبحث الأول وفيه مطلبان المطلب الأول: تعريف المصطلحات أما المطلب الثاني: فقد ضمنته صور المناهج المعاصرة. وفي المبحث الثاني: نقد المناهج وإشكالية تكون المنهج وفيه مطلبان الأول: بينت

* باحث في القضايا الفلسفية. أستاذ الفلسفة العربية الإسلامية في قسم الفلسفة بالجامعة المستنصرية ببغداد.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

فيه النقد الموجه لهذه المناهج. وجاء المطلب الثاني: لبيـان إشكالية تكون المنهج وتحديد المشكلـة، وختمت البحـث بأهم ما توصلت إليه من نتائج.

إن هـذه المشكلـة هي إحـدى مشاكل العصـر وليست هي المشكلـة الوحيدة التي واجهـت الفكر العربي المعاصـر. لكن هذه المشكلة برأيي قد وقفت عائقاً حقيقياً أمام مشروع النهضـة العربيـة والإسلامية. إن التخبـط والضياع الذي فرضته على الفكر العربي المعاصر فـترات مضت وهي ليست بالقصيرة كان لهـا أثرها على واقع التفكير العربـي المعاصر، فقد بقينـا فترات طويلة مـن الزمن ونحـن أسارى الماضـي، أما آن الأوان أن نستمد من الماضي ما يجعلنا على الأقـل على عتبة التواصل معـه، وأن نوفق بين التراث والمعاصرة، وأن نقرأ تراثنا بعين المتفحص، لا بعين المدهوش المتعجب وأن نضـع منهجاً في العلوم النظرية والتطبيقية يأخذ بأيدينا لمواصلـة مشروعنا النهضوي الذي هو أمل الأمة وحلم الجماهير.

وعلى رغم كل الإشكاليات التي تعترض طريقنـا يجب علينا أن نواصـل العمل من أجل هذا الهدف النبيل.

وقفة مع الاصطلاحات

المـطـلـب الأول: تـعـريـف المصطلحات:

إن من المهم قبل الخوض في بيان إشكالية المنهج في الفلسفة العربية المعاصرة، من بيان بعض المفاهيم ولاسيما مصطلحي الإشكالية والمنهج باعتبارهما مرتكز البحث.

١ ـ الإشكالية problematic، والمشكلة Problem ففـي العـودة إلى كتب المعاجم نجد أن لفـظ إشكالية لغةً مشتق من الفعل (الرباعـي) أشكل الـذي يعنـي المشابهة والالتباسـ والاختلاط نقـول: أشكل عليه الأمـر أي اختلـط والتبسـ. واصطلاحاً: مأخـوذ من مشكلة وهـي المعضلة النظرية أو العلميـة التـي لا يتوصل فيهـا إلى حل يقيني[١] والاختـلاط والالتباس المأخوذ من المعنـى اللغوي يرافق المعنـى الاصطلاحي عنـد الدكتور محمد الجابـري حيث يعرف الإشكاليـة اصطلاحاً بأنهـا (منظومة من العلاقـات التي نسجتها داخـل فكر معين مشاكل عديدة مترابطـة لا تتوافر إمكانية حلها منفـردة ولا تقبل الحل مـن الناحية النظريـة إلا في إطـار حـل عـام يشملها جميعاً)[٢] والإشـكال بمعنى الالتباس يطلق على ما هو مشتبه ويقرأ من دون دليل كاف.

ومن ثم يبقى موضع نظر[٣] إذاً (فإن الإشكال عند الفلاسفة هو صفة لقضية لايظهر فيها وجه الحق. وبهذا فهي يمكن أن تكون صادقة أو خلاف ذلك... إنها موضع نظر لدى الدارسين لأي قضية فكرية أو فلسفية وإن أي عملية فيها أو الحكم عليها بالسلب أو الإيجاب هو محل الخلاف. بسبب أن الإشكالية نفسها لا تطرح مع قائلها أساسها القوي المتين الذي يسلم به الخصم والآخر عند السماع أو القراءة لهذه المشكلة فكيف إذا كانت هذه المشكلة منهجاً؟ متبنى من هذا الكاتب أو ذاك، عليه تبقى الإشكالية موضع لبس واشتباه، ومنطقياً عدم اليقين بقطع الحكم فيها، وسيكولوجيّاً: هي عدم التسليم بما يقوله الآخرون عن الموضع المراد بحثه أو درسه من السامع أو القارئ)[٤] وتأسيساً على ذلك فإن إشكاليات الفلسفة العربية المعاصرة هي في الأساس إشكالية النهضة العربية والتي لها تفرعات مرتبطة بعضها ببعض هذه التفرعات هي في حد ذاتها إشكاليات ضمن إشكالية النهضة. فمشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية ومشكلة التعليم، ومشكلة الاحتلال المباشر وغير المباشر أي المشروع الاستعماري والهيمنة العالمية -أي مشكلة الاستقلال السياسي- كلها مشاكل مرتبطة بعضها ببعض فإذا ما حاولنا حل أي من هذه المشاكل على سبيل المثال حل مشكلة الفقر والتخلف الاجتماعي فإنه يجب علينا حل مشكلة التعليم وحل مشكلة الاستعمار والاستقلال في القرار السياسي وبالتالي تبدو جميع هذه المشكلات مترابطة وهي إشكالية كبرى بوجه النهضة العربية.

أما المنهج لغة: فهو من نهج نهجاً الطريق سلكه: أبانه وأوضحه[٥]. ويعرفه يوسف كرم بأنه (الطريق الواضح في التعبير عن شيء، أو عمل شيء، أو في تعليم شيء، طبقاً لمبادئ معينة، وبنظام معين بغية الوصول إلى غاية معينة)[٦] أو هو (وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة)[٧] والمنهج كونه (طريقاً للحقيقة. ولما كانت الحقيقة هي التطابق بين الوجود اللفظي والعلمي والعيني للأشياء)[٨] فالمنهج هو الطريق الذي يؤدي إلى ذلك التطابق بين أنواع الوجود.

ولكي نعطي فكرة عن أقسام المنهج فإن المنهج ينقسم بحسب العمل الذي يعمل فيه فإن كان عمله في مجال العلوم الطبيعية سمي بالمنهج التجريبي أو الاستقرائي أو التطبيقي. وإذا كان عمله في مجال التاريخ والعلوم الإنسانية سمي بالمنهج التاريخي أو المقارن، أو العقلي أو الصوري... وهنالك مناهج متعددة (كالمنهج الفرضي



الأفلاطوني، والمنهج الواقعي الأرسطي، والمنهج العقلي الديكارتي، والمنهج التجريبي البيكوني -وقد ظهر حديثاً- المنهج التحليل المنطقي، والمنهج الهوسرلي والمنهج البنيوي وغيرها).[٩]

وينبغي الانتباه إلى أن الطرق التي تُعتمد في الوصول إلى الحقيقة كثيرة، مما يجعل احتمالات هامش الخطأ واسعة جداً في الاعتقاد الذي يذهب إلى أن كل طريق يؤدي إلى الحقيقة طالما أن المنهج طريق إلى الحقيقة والطرق كثيرة، فيظن أنه على أساس ذلك يحق لكل من يرى في طريقه منهجاً أن يسلكه وصولاً إلى غايته وهذا يجعلنا نؤكد ضرورة التمييز بين طريق وطريق، أو قل بين منهج ومنهج)[١٠] ويتم التمييز بين منهج وآخر من خلال الغايات التي يريد هذا المنهج أو ذاك الوصول إليها (فإن هذه المناهج على تنوعها وسعتها، إنما يفهم من مرادها أنها محاولة للوصول إلى غاية معينة عبر استعمال مبادئ وقواعد محددة يسير بموجبها الباحث حتى يصل إلى مراده ومبتغاه. وإن كان للجانب النفسي أثر في ذلك لاسيما في مجال العلوم الإنسانية الذاتية ذات الطابع التاريخي).[١١]

المطلب الثاني: صور المناهج المعاصرة:

ونحن في خضم دراسة إشكالية المنهج ينبغي التعرف على إشكالية المنهج لنتلمس فيما بعد إشكاليته فمن صور وأشكال المنهج:

أولاً: المنهـــج التاريخـــي: وهـــو المنهـــج الذي يتم بموجبه دراســـة القضية تاريخياً والأسباب التـــي دعت إلى ظهـــور الإشكال في قضية ما وطـــرح الأسئلة على الأحداث التاريخية ومحاولـــة الإجابة عليها. وما هي عوامل التأثير والتأثـــر والتطابق والانتشار والاختلاف في تلكم القضية. إن أهم من مثل هذا المنهج في الفلسفـــة العربية الإسلامية علـــى سبيل المثال: محمـــد لطفي جمعة في كتابه «تاريخ فلاسفة الإسلام» وخليل الجر وحنـــا الفاخوري في كتابـــه «تاريخ الفلسفة العربية» وكمال اليازجـــي وأنطوان غطاس كـــرم في «أعلام الفلسفة العربية»[١٢] وهناك دراسات كثيرة في هذا الصدد. وعلى الرغم من ذلك فإن الفلسفة العربية الإسلامية ما زالت بحســـب رأي عمر فـــروخ بحاجة إلى عرض صحيح لمعرفة آراء الفلاسفة أنفسهم قبل أن نعرض رأينا فيهم.[١٣]

ثانياً: المنهج الموضوعي:

إن خـــير من مثل هذا المنهج في الفلسفة العربيـــة الإسلاميـــة المعاصرة هـــو الأستاذ مصطفى عبد الرازق (رحمه الله) فهو بحق (رائـــد هذا المنهج وقد بسطـــه لنا في كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية «القاهرة، ١٩٤٤م» وقـــد كان لهـــذا الموقف عند عبد الـــرازق دواع وأسبـــاب دفع إليهـــا نفر من المستشرقـــين ممن حاولوا أن يوجهوا الطعن إلى العرب المسلمـــين ويتوهمونهم بضحالة الفكـــر الفلسفـــي وغياب الوعـــي بالمسائل المنطقية والميتافيزيقية).[١٤]

إن أصحـــاب هـــذا المنهج قـــد بينوا أن دراســـة أي قضية يجب أن يكون من داخلها أي الغوص في باطنها وتثوير هذا الباطن من خلال رؤيا معاصرة فيرتبـــط بذلك التراث بالمعاصـــرة. إن أهم مـــن مثل هذا المنهج في نظر أصحابه هم (علمـــاء الكلام والفقهاء والأصوليون والمتصوفـــة، وهؤلاء هم الذين جاؤوا بمواقف عقلية فلسفية حددت سمات العقـــل العربـــي الإسلامـــي في مواقفه من المشكلات الفلسفية المعروضة).[١٥]

ثالثاً: المنهج المادي الجدلي:

وهو المنهـــج الذي يقوم علـــى معطيات الفلسفـــة الماديـــة الجدليـــة التاريخيـــة وتقسيماتها للمجتمـــع ومراحل تطوره عبر التاريـــخ وإرجـــاع هـــذا التطـــور إلى عامل مسيطـــر، هو العامل المـــادي الاقتصادي - وهذا المنهج- إنما انطلق من هذه الفروض التي وضعتها الفلسفة المادية[١٦] وفسر على هذا الأســـاس كل القضايـــا والمشاكل التي واجهت الفلسفة العربية الإسلامية، وحاول بشـــكل أو بآخـــر أن يلبس تراثنـــا الفلسفي لبوســـاً مادياً جدلياً، وأن يفسر حركة الفكر

فيه بما يتناسب وطبيعة منهجه، أي بعبارة أخرى، إسقاط الحاضر ومعطياته العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الماضي ولصالح الماضي بكل ما يمثله من ذلك[١٧] وأبرز من يمثل هذا المنهج وحاول تطبيقه على تراثنا الفلسفي العربي الإسلامي د.طيّب تيزيني في كتابه «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط» دمشق، ١٩٧١م. ود. حسين مروة في كتابه «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، بيروت ج١، ١٩٧٨ ـ ج٢، ١٩٧٩»[١٨] وإن كان هناك بعض التباين بين آراء التيزيني ومروة.

رابعاً: المنهج التاريخي الجدلي:

لقد مثل هذا المنهج خير تمثيل أستاذنا الدكتور حسام الألوسي من خلال كتابه «دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي» الذي صدر ببيروت ١٩٨٠م وقد عمل على تطبيق هذا المنهج في كتابه «من الميثولوجيا إلى الفلسفة» الذي صدر ببيروت أيضاً عام ١٩٨٠، وفي كتاب «الزمن في الفكر الديني والفلسفي القديم» صدر في بيروت ١٩٨٠، وكتابه «حوار بين الفلاسفة والمتكلمين» الذي صدر في بيروت أيضاً ١٩٨٠ م، ويرى الآلوسي أن أهم ما يقوم عليه هذا المنهج هو أن التراث الفلسفي العربي الإسلامي، يجب أن ينظر إليه من خلال العلاقات المتبادلة بين الطبقات ومستوى النضال الطبقي في هذا المجتمع أو ذاك فضلاً عن النظر إلى مستوى تطور العلوم، ولاسيما العلوم التطبيقية في هذا المجتمع أو ذاك مع الاهتمام بالتواصل الفلسفي الفكري أي ما يسمى بالاحتياطي التراكمي من التصورات والمواد الفكرية. مع الأخذ بعين الاعتبار الخصائص القومية والوطنية للمجتمع. وهذه النقاط هي التي يقوم عليها المنهج[١٩]. ويمتاز هذا المنهج أيضاً بأنه يهتم بإظهار المواقف والنظرات من خلال أدائها الوظيفي في زمانها، أي عمن نعبر، ومن خلال وقوفها مع حركة التقدم العلمي أو ضد.[٢٠]

خامساً: المنهج الوضعي:

يعتبر الدكتور عبد الرحمن مرحبا خير من مثل هذا المنهج في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية المعاصرة (ويقوم هذا المنهج على دراسة -الإشكالية في- تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية بالتعامل مع نصوصها كما هي «كائنة» لا كما يجب أن تكون، أي إن الفكرة الفلسفية ضرورة تاريخية حياتية لأصحابها وعصرها ولها وظائف ومهمات بعينها، وإن لكل مرحلة تاريخية فلسفتها ومزاجها العقلي والروحي ولكل حضارة خصائصها المتميزة)[٢١]. ويتميز المنهج

الوضعي عند مرحبا بقيامه على عدد كبير من النصوص الفلسفية لذات الفيلسوف لتتضح بذلك فلسفته بعد إخلاء النصوص من الغموض وبيانه وتوضيحه.[٢٢]

سادساً: المنهج العقلي:

إن من أهم ما يقوم عليه هذا المنهج هو التفريق بين النظرية الفلسفية الخالصة وبين الفلسفة العامة، ويضم في طياته إضافة إلى الفلسفة النظرية، التصوف وعلم الكلام، من خلال التركيز على العقل في تبني الأفكار والنظريات أو رفضها ويعتبر الدكتور محمد عاطف العراقي أبرز وأهم من يمثل هذا المنهج من خلال بعض كتبه مثل «مذاهب فلاسفة المشرق»[٢٣] و«تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية»[٢٤] و«ثورة العقل في الفلسفة العربية»[٢٥] و«المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد»[٢٦] ومن أهم ما يتميز به هذا المنهج (أنه يعتمد على النصوص الفلسفية في دراسة آراء الفلاسفة مع عدم تحميلها تفسيرات لا يسمح بها النص نفسه، ثم إن السبيل الأفضل في تقدير الفيلسوف حق قدره هو تحليل الأفكار ونقدها، لأن في هذا على الأقل دليلاً على أنها أفكار حية ولم تولد إلا لما اهتممنا بها من جانبنا.. ويجد صاحب هذا المنهج أن النظر إلى تاريخ الفلسفة العربية من خلال منظور تقليدي يقوم على الرواية من دون الدراية والتحليل وإنما يقوم على النظرة المسطحة من دون النظرة المعمقة، لأنه لا يستطيع كشف ثراء هذه المذاهب الفلسفية والكلامية).[٢٧]

سابعاً: المنهج التحليلي:

يبدو هذا المنهج قريباً من المنهج الموضوعي إلا أنه يزيد عليه بأنه يعتمد على (البحوث التحليلية والتفصيلية لكي يختار مذاهب معينة ويصنف الآراء ويعيد تركيب العناصر الأولية لموضوعات الفلسفة العربية الإسلامية، ويدخلها في إطار تركيبي، ويعرضها عرضاً مركزاً تسيطر عليه فكرة موجهة -إلى جانب ذلك فإن- هذا المنهج هو غير ما تعنيه فلسفة التحليل المنطقية، المعروفة في الفكر الفلسفي المعاصر، بل هو شيء مختلف عنها -وهو- يتجه على نحو مباشر إلى موضوعات محددة من التفكير ليتخذها مادة لنوع من الدراسات المركزة التي تُعنى بالأفكار أكثر مما تُعنى بالتفاصيل التاريخية)[٢٨] إن خير من مثل هذا المنهج في الفلسفة العربية الإسلامية المعاصرة الدكتور محمود قاسم حيث يصرح (بأن الفلسفة العربية الإسلامية ليست وريثة الفلسفة اليونانية والرومانية، بل لديها عناصرها الأصلية الخاصة بها والمعبرة عن موقف أصحابها من مشكلاتها ومعضلاتها

والحلـول التي قدمتها لهـذه المشكلات)[٢٩] وعلى الرغم من تعدد المناهج إلا أن السؤال الـذي يبقـى مطروحاً ما هـو منهج الأمة للنهوض؟ وبحسب رأي الباحث فإن المشكلة تكمن في غياب أو تغييب المنهج عن الأمة!.

نقد المناهج وإشكالية تكون المنهج

المطلب الأول: نقد عام للمناهج:

إن مـن أهم المشاكل التـي تواجه العقل العربي المعاصر هي مشكلة المنهج إن المناهج السالفة الذكر ينتقد بعضها بعضاً فأصحاب المنهج الموضوعـي ينتقدون المنهج التاريخي ويدافعـون عن منهجهم فالمنهـج التاريخي برأي عبد الحليم محمـود قد أضر إضراراً بالغـاً في دراسـة الفكر الفلسفـي العربي الإسلامي لأنه قدم قراءة مخطوءة ومغلوطة للتراث... وعليه فإن المنهج الموضوعي برأي د. محمود هو الذي يقدم القراءة الصحيحة والموثوق بها لتراثنا الفلسفي.[٣٠]

أمـا أصحـاب المنهـج المـادي الجدلي فإنهم يـرون أن منهجهم هـو الأصلح وأن فشل المناهج التاريخية والمناهج الأخرى في استخراج وتطوير وجهة نظر علمية موحدة حـول العصر العربـي الإسلامـي الفكري الوسيط، وذلـك أنهم في رأيهـم لم يدرسوا هذا العصر الفكري في علاقته الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسية، وهم لم يفلحوا في تقـديم دراسة دقيقة عن هـذا الفكر لأنهم قطعـوا كل صلة ما بين الواقـع والمثال، أو ما بـين النظرية وأسبـاب ظهورها[٣١] فهم يعتبرون منهجهـم هو القـراءة الصحيحة والشاملـة لمجمـوع تراثنا الفكـري العربي الإسلامي[٣٢] وهذا المنهج قد وجه إليه النقد من قبل أصحاب المنهـج التاريخي الجدلي ولاسيما رائـد هذا المنهـج الدكتور حسام الآلوسي الذي يرى أن هذا المنهج على رغم من ادعاءاتـه في التعامل العلمي مع التراث إلا أنه أبعد ما يكون عن ذلك فهو قريب من المنهج «السلفي» الذي يعيد الحاضر وأدواته الفكريـة إلى الماضي بكل مـا تعنيه الكلمة، أو يفهم الماضي على صورة الحاضر، فضلاً عن الانتقائيـة في التعامل مع النصوص[٣٣] فيتصـرف كيفيـاً في فكـر المدروسين على أسـس ونظرات غريبة مـن حيث المصطلح وعـن المعـاني الروحية لهـم ولعصرهم[٣٤] ويدافـع الآلوسي عن منهجـه ويعده مفيداً للدرس الفلسفي بخـلاف المناهج الأخرى التي قدمت من وجهة نظـره قراءة قاصرة للتراث الفلسفـي العربـي الإسلامي لأنها أخذت بجانب وأهملت الجوانب الأخرى[٣٥]. أما المنهج الوضعي والذي يبرز في كتابات د. محمد عبد الرحمن مرحبا فقد نقد المناهج الأخـرى واعتبر مرحبا (اتخـاذ هذا المنهج

في قـراءة تراثنا الفلسفي بـكل شخصياته المتميزة، بأن المناهج التاريخية قد أضرت في تقديم الصورة الحقيقية لكيفية درس هؤلاء الفلاسفة، ذلك أنهم عندما يؤرخون للفلاسفة العرب المسلمين يكـثرون من نقد أصحابها وتوجيه المطاعن عليهم)[٣٦] أما المنهج العقلي وعلى لسان الدكتور عاطف العراقي يتوجه (بالنقد إلى المناهـج الأخرى لاسيما المنهج التاريخي المقـارن[٣٧]... ويعده «لهواً وعبثاً» لأنه يقوم على «التأثر والتأثير»[٣٨] وبهذا فهو منهـج خطابي لابرهاني لأنـه لا يقوم على برهانية دقيقة، بل علـى عواطف وأمزجة مختلفة وفيه مسح واضـح لفكر الفيلسوف اللاحق علـى السابق وإهمال مؤثره لعصره وعلومه وأنظمتـه الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وهو مـالا يرتضيه صاحب المنهج العقلي[٣٩] وقد رأى الدكتور العبيدي أن هذا المنهج (قـد بقي على الرغـم من مميزاته الإيجابيـة -أنـه- أسير النظـرة الأحادية إلى الفكـر الفلسفي العربـي الإسلامي، ما لم يقدم قـراءة شاملة وتجديديـة وإحيائية حسبما يقول صاحب المنهـج)[٤٠] أما المنهج التحليلـي فقد وجه إليه نقداً وهو أن (هذا المنهج انتقائي واضح يأخذ الأفكار الفلسفية ويحللها ويركب من هذا التحليل رؤية جديدة لربما ليست كما هي عند الفيلسوف المدروس أي إنه يحمل النص ما لا يحتمل من التأويل وهذا مخالـف لقواعد وأصـول البحث في تاريـخ الفكر الفلسفي كما وجدنا عند بقية المناهج الأخرى لاسيمـا الجدلي التاريخي والوضعي).[٤١]

المطلب الثاني: إشكالية تكون المنهج وتحديد المشكلة:

إن حاجة الإنسـان إلى منهج ظهرت مع محـاولات الإنسـان الأولى لحـل مشكلاته الفكريـة وتكمـن حاجتـه للمنهـج في أنه (يتوصل بـه إلى اكتشاف حقائـق الأشياء، وأصح المفاهيم وسلامة التحليل والاستقراء وآليات نقل المعتقدات إلى الواقع، ثم تنظيم الواقـع على وفق خلاصات التفكير العلمي، وفي الامتداد التاريخي للثقافة العربية هناك مشكلة في تكـون المنهج، وأخـرى في تكون المعرفـة على نمط التفكـير العربي بحلول مشكلاته العميقة للنهضة)[٤٢] فالنهضة أهم مشكلات الفكر العربي المعاصر ولكي نتوصل إلى حلول سليمة لهـذه المشكلة لابد لنا من وضـع منهج يوصلنا إلى حلهـا فهل المشكلة تكمن في عدم قدرتنا على تبني منهج علمي يقودنـا إلى النهضة؟ أم أن المشكلة تكمن في تشكيـل معارفنا على أسس منهجية توصلنا إلى النهضة؟ وسواء أكانت المشكلة في المنهج أم في المعرفـة فـإن هناك أسبابـاً عديدة

أدت إلى ظهور هذه الإشكالية من أهم هذه الأسباب: الأسباب المتعلقة بالمنهج. وأهم هذه الأسباب أولاً: الأسباب التاريخية: إذ (لا سبيل إلى الانقطاع عن العمل بالتراث في واقعنا لأن أسبابه مشتغلة على الدوام فينا، آخذة بأفكارنا، موجهة لأعمالنا، متحكمة في حاضرنا ومستشرفة لمستقبلنا، سواء أقبلنا على التراث إقبال الواعي بآثاره التي لا تمحى أم تظاهرنا بالإدبار عنه غافلين عن واقع استيلائه على وجودنا ومداركنا).[٤٣]

ثانياً: أسباب تتعلق بطبيعة العقل العربي المعاصر وطرائق التفكير.

ثالثاً: أسباب تتعلق بأزمة المنهج في الخطاب الفلسفي العربي المعاصر.

وأما الإشكالية المتعلقة بالمعرفة وتكونها على أساس ومنهج فإن من أسبابها:

أولاً: أسباب تتعلق بأزمة الواقع الموضوعي وأثره في إحباط دور الخطاب الفلسفي العربي المعاصر وينقسم إلى:

أ. أزمات ينتجها الواقع الاجتماعي العربي المعاصر.

ب. أزمات ينتجها غياب الشروط الموضوعية للنهوض بالخطاب الفلسفي العربي، وتفعيل دوره في معالجة واقعنا.

ج. أزمات تقررها طبيعة العلاقة بين العقل الفلسفي والعقل السياسي (بين الفكر والسياسة والعلاقة بين المثقف والسلطة).

د. أزمات تتصل بجدلية العلاقة بين الأنساق الثقافية والتعليمية المؤسسية، والبحث الفلسفي الحر.

هـ. أزمات تتصل بتقاطع الرؤى الفكرية المتنوعة، وتباين مواقفها من التراث والتجديد وفي مواجهة التحديات.

و. أزمات تتصل بالموقف من العقل والعقلانية، والعاطفة والوجدان، والمواقف المتباينة من الثوابت والمتغيرات والعقل والنقل، والأنا والآخر، والعقيدة والشريعة، والحضارة والثقافة.

وهناك تحديات داخلية منها فكرية ومعرفية وأخرى اجتماعية وثالثة حضارية وكذلك توجد تحديات خارجية منها - تحديات ثقافية وعلمية وتكنولوجية- وتحديات عسكرية- وتحديات الصهيونية الإمبريالية- وتحديات حضارية عالمية.[٤٤]

وبعد تحديد الإشكالية والأزمات المتفرعة عن هذه الإشكالية فإنه يجدر بنا كباحثين في مجال الفلسفة والفكر أن نلتمس الحلول التي تؤدي بنا إلى تجاوز هذه الإشكالية لتصل الأمة إلى مبتغاها وهي النهضة الحقيقية التي إذا ما قلنا إنها نهضة نرى آثارها في الواقع معاشة من خلال مواكبتنا للتطور الحاصل على مختلف

الأصعدة. ولكــن قبل كل شيء ما هو المنهج الذي نتبعه لحل مشكلة المنهج؟

فقــد (لا تكون الإجابة دقيقــة إذا قلنا مطلقــاً إن المنهج يمكــن أن تتطور قواعده وأجزاء هيكلــه خارج تأثــير الأيديولوجيا، ونقــع في حلقــة مفرغة إذا قلنــا إن المنهج يمكن أن تنتجه الأيديولوجيا، فعلى الإجابة الأولى ليســ هنــاك في العيــان (الواقــع) قواعــد منهجية موضوعية تتحاكم إليها كل الأفكار والنظريات الإنسانية والأيديولوجيا، وليس هناك قواعد منهجية في مجال الفكر الإنســاني ترقى في حيادهــا وموضوعيتها مرقــى الأداة المختبريــة في الفكر الطبيعي التطبيقــي فالأدلــة المنهجيــة للمعتقدات يمكنها أن تضبــط إلى حد كبير الانحراف والخطأ لكنها ليست كالتجربة الطبيعية مثلاً حيث يفترض التطابــق بين نتائجها تطابقاً تاماً مهما تكررت التجربة)[٤٥] والترابط بين المنهــج والمعرفة يفرض علينا ســؤالاً مهماً وهو هل أن المنهــج في الثقافة العربية وليد المعرفــة ومعلولها؟ أم أن المعرفة في الثقافة العربية وليدة للمنهــج ومعلولة له؟ وتنقسم الإجابــة بحســب رؤى الباحثــين ونظرتهم للمعرفة في الثقافة العربية الإسلامية. فمن يرى (أسلمة المعرفة يــرى أن المعرفة وليدة للمنهــج ومعلولة له وهــذا المنهج في وجهة نظر هؤلاء هو القــرآن الكريم (وقد أثار – هذا الرأي- ولا يزال يثــير جدلاً واسعاً في آثاره على نهضة الأمة وموقعها في جدليات الصــراع الحضاري)[٤٦] وهنــاك فريق آخر يذهــب إلى (علمنة المعرفــة) وهؤلاء يرون في المشــروع الأول واعتراضه على التجريب بأنه مخالفة لأســس المنهج العلمي وجوهره وهذا النقد يتبنــاه العديد من المفكرين من أمثال رضوان السيــد، ومحمود أمين العالم، ونصر أبو زيد وهاشم جعيط ومحمد أركون وغيرهم.[٤٧]

ومــن هنا ندرك وجــود أزمة في طبيعة المعرفة تضاف إلى إشكالية المنهج.

إن من أهم ما يعطل عملية تشكيل المنهج هو أن قضية الثابت والمتغير هي قضية غير محكومــة بمنهج يقيني قد انتقلت إلى الفكر العربي المعاصر وكذلــك انفصال الظاهرة العلميــة بسبب قرون القطيعة عن الظاهرة الدينية.[٤٨]

الخاتمة

لقــد حاولــت في هذه الورقــة البحثية البسيطــة أن أبين أهم الأسباب في إشكالية المنهج فتبين لي التالي:

١- إن الأمــة لا يمكنهــا أن تنهض من دون أن تضــع لها منهجاً تتبناه للوصول إلى مجدها وازدهارها.

٢- إن إشكاليــة المنهج في الفكر العربي المعاصر تحمــل في طيّاتهــا إشكالية أخرى وهــي هــل أن الإشكالية في المنهــج أم في المعرفة غير قائمة على المنهج.

٣- ثــم إن هذا الإشكال قــد قادنا إلى مسألــة أخرى وهي ما هــي طبيعة المعرفة التي يمكــن أن تقوم على منهــج يأخذ بيد الأمة إلى النهوض «أسلمة المعرفة» أم «علمنة المعرفة».

٤- ثم صاحب ذلك إشكال آخر وهو هل أن المنهج وليد المعرفــة أم أن المعرفة وليدة المنهــج وبينا اختلاف الجــواب بحسب آراء الباحثــين، فمن يذهــب إلى أسلمة المعرفة يجعل من المعرفة وليدة للمنهج، ومن يذهب إلى علمنــة المعرفــة يــرى أن المنهــج وليد المعرفة.

٥- أرى أن المنهــج العقلــي الذي يتبناه الدكتور عاطف العراقي وغيره من أصحاب هــذا المنهج هــو المنهج المثــالي الذي يمكن للأمــة أن تعتمده في مشروعهــا النهضوي غير متجاهلة بقية المناهج فتأخذ بالتاريخي لعرض الواقعة التاريخية وتأخذ بالموضوعي لشرح موضوعها وتأخذ بالمادي الجدلي لبيان إبداع الفكر الفلسفــي العربي والإسلامي، وتأخذ في المنهج الجدلي التاريخي للوصول إلى حقائــق غامضــة في قضايــا الفكــر وبالوضعــي والتحليلي دون المغالاة في تأويل الواقعة أو القضية.

٦- العمل الجاد على حــل الإشكاليات والأزمات المتولــدة عنها بالقضاء على تلكم الأسباب مــن خلال الحــوار الحقيقي مع الذات.

الهوامش

١- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، ط١٢، ١٩٨٢، ج٢، ص٣٧٩.

٢- د. محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط٤، ص٢٨.

٣- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص٣٧٩.

٤- د. حســن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، مجلــة الفلسفة، يصدرها قسم الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد الأول، لسنة ٢٠٠١م، ص١١٤- ١١٥.

٥- أحمد رضا، معجم فن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م، ص٥٥٧.

٦- د. يوسف كرم وجماعته، المعجم الفلسفي، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م، ص٢٣١.

٧- جماعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١٩٥.

٨- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بيروت، ج٣، ص٢١، وكذلك مشكاة الأنوار، تحقيق: أبو العلا عفيفي، القاهرة، (١٢٨٣ هـ- ١٩٦٤م)، ص٥١. وأيضاً: معيار العلم في فن المنطق، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، ص١٤٦. وينظر أيضاً ابن سينا الشفاء، قسم المنطق- العبارة، تحقيق محمود خضيري، القاهرة، (١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠م)، ص١-٢.

٩- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة التاريخ، ص١١٥.

١٠- د. محمد الكبيسي، مدخل إلى الفلسفة التطبيقية، مجلة الفلسفة، العدد الأول، السنة ٢٠٠١، ص٢٤٢.

١١- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة التاريخ، ص١١٥.

١٢- للاستزادة ينظر حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١١٨ وما بعدها.

١٣- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص٧.

١٤- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١٢٣.

١٥- المرجع نفسه، ص١٢٣.

١٦- المرجع نفسه، ص١٢٤.

١٧- د. حسام الآلوسي، الفلاسفة العرب ونظرية التطور، مجلة آفاق عربية، بغداد، العدد (٢) السنة (١٠)، ١٩٨٥،ص٤٢.

١٨- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١٢٨.

١٩- د. حسام الآلوسي، دراسات في الفكر الإسلامي، بيروت، ١٩٨٠، ص١١.

٢٠- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١٢٨.

٢١- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١٢٩.

٢٢- ينظر محمد عبد الرحمن مرحبا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٧٠م، ص٧ ـ ٨.

٢٣- ينظر د. محمد عاطف العراقي، مذاهب فلاسفة المشرق، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٤- د. محمد عاطف العراقي، تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٥- د. محمد عاطف العراقي، ثورة العقل في الفلسفة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٦- د. محمد عاطف العراقي، المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد، القاهرة.

٢٧- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١٣١.

٢٨- المرجع نفسه، ص١٣٢.

٢٩- د. محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٥.

٣٠- د. حســن العبيــدي، إشكالية المنهج في قــراءة تاريخ الفلسفة، ص١٢٤. وللاستــزادة ينظر د. عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام، بيروت، ١٩٧٤م.

٣١- المرجع نفسه، ص١٢٥.

٣٢- ينظر د. طيب تيزيني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دمشق، ١٩٧١م.

٣٣- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١٢٧.

٣٤- د. حسام الآلوسي، الفلاسفة العرب ونظرية التطور، ص٥٤.

٣٥- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة تاريخ الفلسفة، ص١٢٩.

٣٦- المرجع نفسه، ص١٣٠.

٣٧- المرجع نفسه، ص١٣١.

٣٨- د. محمد عاطف العراقي، ثورة العقل في الفلسفة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص١٥.

٣٩- د. محمد عاطف العراقي، مذاهب فلاسفة المشرق، القاهرة، ١٩٧٦م، ص١٧.

٤٠- د. حسن العبيدي، إشكالية المنهج في قراءة الفلسفة، ص١٣١.

٤١- المرجع نفسه، ص١٣٢.

٤٢- عبد الأمير زاهد، أزمة المشروع النهضوي، الصيرورة التاريخية وإشكالية المنهج، بحث ضمن المؤتمر الفلسفي العربي الثاني لبيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢، ص١٣٢.

٤٣- د. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج، ص١٩.

٤٤- ينظــر د. عبــد الله الفلاحي: الخطاب الفلسفي العربي المعاصر بين مشكلة المنهــج، وأزمة الواقع الموضوعي، وأثرها في أزمة الرؤية ومواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين، بحث ضمن أعمال المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، لبيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢، ص٨٧- ٩١.

٤٥- عبد الأمير زاهد، أزمة المشروع النهضوي، ص١٣٢- ١٣٣.

٤٦- المرجع نفسه، ص١٣٥.

٤٧- ينظــر رضوان السيــد، الصحوة الإسلامية والثقافة المعاصرة، مقال صحيفــة السفير ١٩٨٧/٤/١٠. وكذلك ينظر محمد أركون من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي.

٤٨- عبد الأمير زاهد، أزمة المشروع النهضوي، ص١٣٤.

المصادر والمراجع

١- أحمد رضا، معجم فن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م.
٢- جماعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي، القاهرة، ١٩٧٩ م.
٣- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، ط١٢، ١٩٨٢م.
٤- حسام الآلوسي، الفلاسفة العرب ونظرية التطور، مجلة آفاق عربية، بغداد، العدد (٢)، السنة (١٠)، ١٩٨٥م.
٥- حسام الآلوسي، دراسات في الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.
٦- حســن العبيدي، إشكالية المنهج، مجلــة الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية الآداب قراءة تاريخ الفلسفــة، الجامعة المستنصرية، العدد الأول لسنة ٢٠٠١م.
٧- ابن سينا، الشفاء، تحقيق: محمود خضيري، القاهرة، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.
٨- رضوان السيد، الصحوة الإسلامية والثقافة المعاصرة، مقال في جريدة السفير بتاريخ ١٠/٤/١٩٨٧ م.
٩- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج.
١٠- طيب تيزيني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دمشق، ١٩٧١م.
١١- عبد الامير زاهد، أزمة المشروع النهضوي، الصيرورة التاريخية وإشكالية المنهج، بحث ضمن المؤتمر الفلسفي الثاني لبيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢م.
١٢- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٣- الغزالي، مشكاة الانوار، تحقيق: أبو العلا عفيفي، القاهرة، ١٢٨٣ هـ ـ ١٩٦٤م.
١٤- الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.
١٥- عبــد الله الفلاحــي، الخطاب الفلسفي العربــي المعاصر بين مشكلة المنهج وأزمة الواقع الموضوعــي وأثرها في أزمة الرؤية ومواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين، بحث ضمن المؤتمر الفلسفي الثاني لبيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢م.
١٦- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، بيروت، .
١٧- عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام، بيروت، ١٩٧٤م.
١٨- محمد عابد الجابري، نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط٤، ١٩٨٥م.
١٩- محمد عاطف العراقي، تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية، القاهرة، ١٩٧٦م.
٢٠- محمد عاطف العراقي، مذاهب فلاسفة المشرق، القاهرة، ١٩٧٦م.
٢١- ثورة العقل في الفلسفة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
٢٢- المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد، القاهرة، ١٩٨٧م.
٢٣- محمد أركون، من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي.
٢٤- محمــد محمود الكبيبي، مدخل إلى الفلسفة التطبيقيــة، مجلة الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد الأول لسنة ٢٠٠١م.
٢٥- محمد عبد الرحمن، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٧٠م.
٢٦- محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣م.
٢٧- يوسف كرم، المعجم الفلسفي، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.

الدراسات والبحوث



المفاهيم الأثرية والحضارية المتوارثة

د. خليل المقداد ❁

كثيراً ما نقرأ في كتب ومراجع عربية أو أجنبية أو نسمع في ملتقى ثقافي أو في مناسبة ثقافية أيضاً أحاديث تدور حول مواضيع عن التراث والمخلفات الأثرية والحضارية العربيــة بشكل عام، فيذكر أحدهم على سبيل المثال أن عمــر الإنسان لا يتجاوز الخمســين ألف عام وأن عمر الحضارات لم يتجاوز بضــع آلاف من السنين أيضــاً، ناسياً أن أحدث المكتشفــات التي تمّ العثور عليهــا في العديد من المواقــع الأثرية في سورية وعلى سبيل المثال لا الحصر

❁❁ باحث في الآثار - سورية.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

في مناطق يبرود وحوض العاصي وحوض الفرات وحوض بردى وحوض اليرموك وغيرها تجاوزت في عمرها المليون عام، وإن لم يكن أكثر من ذلك بكثير.

وكثير من المتحمسين للحضارة العربية المصرية يروجون لهذه الحضارة وكأنها فرعونية ومصرية بحتة ناسين أنها عربية قبل أن تكون مصرية، لدرجة يعتبرون فيها أنه لا توجد آثار في الدنيا سوى الآثار المصرية كما أن اختراع الدولاب والتحنيط وبناء الأهرامات وغيرها كلها جاءت من قبل الفراعنة المصريين قبل غيرهم هادفين من وراء ذلك إلى سلخ مصر والمصريين عن جسم الأمة العربية.

وفي الحقيقة فإن مصر جزء هام ورئيس من هذه الأمة وشعبها بالنتيجة شعبٌ عربي، وما تراثها وآثارها إلا إرث حضاريُ قومي موجود في أحد أقطار الوطن العربي والذي بالنتيجة ما هو إلا تراث نفتخر به نحن كعرب وبشكلٍ خاص في سورية بالقدر الذي يفتخر به أشقاؤنا في بلاد النيل إن لم يكن أكثر منهم، وهذه الحتمية تنطبق على كامل التراث العربي سواء كان ذلك داخل أراضي الوطن العربي أو خارجه.

كما لابد من التذكير أن كثيراً من هذه الآثار موجودةُ في سورية وأن معظم المناطق الغربية والشمالية والجنوبية من سورية ذات ترابط متين مع التاريخ والحضارة العربية المصرية، بل إن استقراء قسم من التاريخ المصري القديم جاء من خلال وجود المصريين في سورية وأن من أدخل الدولاب والعربة إلى مصر هم الهكسوس السوريون، كما أن مواد التحنيط كانت تجلب من سورية؛ بل إن السوريين كانوا يستعملون التحنيط أيضاً وتوجد كثير من الدلائل على ذلك.

ولكن ما قادني إلى كتابة هذا المقال هو توضيح بعض الأمور التي مازالت عالقة في أذهان كثير من الناس، كما أن مشكلتنا تكمن في توضيح المفاهيم الحضارية والثقافية المتداولة بين الناس وإيصالها لهم بالطرق المقنعة والدلائل المادية الملموسة، وفي هذه المسألة يكون للإعلام ووسائله دورُ هام في ذلك، إضافةً للثقافة الحقيقية التي يمتلكها المتبصر والمترفع عن التعصب الديني أو العرقي أو القومي أو الإقليمي وغيرها.

وهذا الأمر قادني أيضاً إلى التذكير في قصة الباحث الأثري الفرنسي السيد جان ريموند باشو jean Raimond Pacho الذي قاد حملة استكشاف أثرية في منطقة الجبل الأخضر في ليبيا انطلقت من مصر في ٣ تشرين ثاني عام ١٨٢٤وبقيت حتى ١٧ تموز عام ١٨٢٥وهو تاريخ وصوله إلى القاهرة.

وهذه الحملة كانت من ضمن حملات الاستكشاف الفرنسية التي كانت تتبع للجمعية الجغرافية الفرنسية ومنها حملة شامبليون الذي اكتشف حجر رشيد في مصر وحل رموز الكتابة المصرية القديمة. وكانت ثمرة رحلته غنية جداً؛ إذ حوت على مئات اللوحات الوثائقية وكشف اللثام عن منطقة حضارية عربية تعتبر من أغنى المناطق الأثرية في شمال أفريقيا.

وقد قدر حجم العمل البحثي الذي قام به وبعد الانتهاء من رحلته في إقليم برقة بأنه يفوق كثيراً من الأعمال العلمية التي أنجزت في عصره، واعتبر عملاً علمياً فريداً لا يضاهى، وشبه أحد الباحثين نتائج عمله بأنها رائعة عصره، ولكن وللأسف فكانت ثمرة عمله بالمقابل الانتحار ودفع حياته ثمناً لهذا العمل الجبار.

والسبب في ذلك يكمن بعد إنجاز مهمته والعودة إلى باريس إذ أخذ ينكب على نشر نتائج رحلته بينما كان شامبليون يقوم في مكتب مجاور لمكتبه في ترجمة حجر رشيد، وهذا الأمر قاد الوسط العلمي والإعلامي إلى الاهتمام الكبير في زميله شامبليون وإهماله مما ولد لديه قناعة أنه أصبح باحثاً غير مرغوب به أو غير مقدراً بالقدر المطلوب مقارنةً بزميله شامبليون أو مهملاً على أقل تقدير، وبالطبع فقد أغضبه هذا السلوك وحوله إلى رجل عصبي المزاج، ولهذا السبب انتحر واضعاً نهاية لحياته في بداية عام ١٨٢٩.

والمسألة التي تهمنا نحن في سورية بشكل خاص وفي الوطن العربي بشكلٍ عام أن كثيراً من الناس يجهلون البعد الحضاري والغنى الأثري الذي تتمتع به سورية كولادة ومنطلق للحضارات العالمية. أما أنا بدوري فأعتبر أن السبب يكمن في ضعف الترويج الأثري والسياحي سواء عن طريق وسائل الإعلان أو المناهج التربوية أو ضعف الثقافة الأثرية والحضارية.

كما أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة لدينا لا تكرس للقضايا الأثرية والحضارية إلا بقدر يساوي واحد بالألف أو بالكاد بالمقارنة مع البرامج غير المهدوفة أو أن الهدف منها تضليل الحقائق وإخراج جيل غير مسؤول في المجتمع، إضافة إلى عدم البحث والتمحيص عن الشخصيات العلمية ذات الثقافة الحقيقية أو عمل ندوات الهدف منها إظهار الحقائق بالاعتماد على المعطيات المرتكزة على أحدث المكتشفات في منطقتنا والعالم.

وأبرز مثالاً على ذلك أننا مازلنا نلاحظ بأن طلابنا وحتى في الجامعات مازالوا

يتعلمون ويرددون اللحن القديم الذي زرعه مؤرخو الفرنجة المتعصبين للصليبية بأن من اكتشف قارة أمريكا هو كريستوف كولومبوس، وإن كانت مثل هذه الأفكار غير مقنعة ومنذ سنوات السبعينيات عندما كنا ندرس مثل هذه الأفكار في الجامعات العربية.



وجاءت البراهين الأكيدة ومنذ الثمانينيات من القرن الماضي من خلال المكتشفات والحفريات الأثرية في قارة أمريكا الجنوبية، إضافةً إلى حملات الاستكشاف العلمية، وكانت النتائج التي توصلوا إليها على ضوء هذه الحفريات الأثرية والاستكشافات الميدانية عكس ذلك كلياً وبالبراهين العلمية الدامغة والتي تؤكد بأن العرب من الفينيقيين السوريين والمصريين القدامى وصلوا إلى تلك المناطق وكانت بينهم وبين تلك الشعوب وشعوب البحر الأبيض المتوسط علاقات تجارية وحضارية نشطة تركت آثارها فوق تلك القارة وحتى الآن.

كما بينت المكتشفات وجود معابد عربية قديمة بنيت على نمط المعابد المصرية والسورية سبقت الألف الأول قبل الميلاد، وكذلك مساجد إسلامية تعود للفترات الإسلامية المبكرة وتأكد ذلك بالشواهد المعمارية والقطع الفخاريات والمسكوكات والأدوات الزجاجية والنذرية وغيرها الكثير الكثير والتي يعرض حالياً قسم منها في متاحف تلك الدول والمنشورة أيضاً في المجلات والدوريات التخصصية التاريخية والأثرية والحضارية.

أما بالنسبة إلى قصة كريستوف كولومبس وكما ذكرها الكثير من الباحثين فتتلخص

بـأن محاكم التفتيش التي أنهت الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال) كانت تطارد المسلمين وفي كل الاتجاهات التي كانوا يتوجهون إليها ومنهم من ذهب إلى اليابسة على الشاطئ الآخر من المحيط الأطلسي لمعرفتهم المسبقة بوجود إخوان لهم في تلك المناطق، وعلى أثر ذلك وجد أفراد الأسطول الأسباني منطقة جديدة بالنسبة لهم والتي استعمروها لاحقاً مدعين أنهم اكتشفوا قارة جديدة وعالم جديد أيضاً.

كما توجد الكثير من الأفكار المتوارثة والمغالطات في المفاهيم التاريخية والحضارية عن الأوابد الأثرية في العالم العربي والتي نسمعها كل يوم وحتى الساعة وعلى ألسنة شرائح المثقفين على اختلاف مستوياتهم ومجملها أن الآثار التي نشاهدها في بلادنا إما أن تكون آثاراً يونانية أو رومانية أو بيزنطية مرتكزين في ذلك على الأفكار المتوارثة والتي زرعها الرحالة الغربيون من مختلف التخصصات الذين جابوا بلاد العرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للتمهيد للاستعمار الأوروبي الحديث وزرع كيان عنصري صديق للغرب وعدو للعرب أبناء المنطقة.

وحتى الآن مازال يطلق بعضهم مثل هذه الأفكار من منطلق تعصب قومي أو عرقي أو ديني ومن دون مرتكزات علمية أو حفريات أثرية أو تحليلات مخبريه أو معطيات معمارية وغيرها، كما أطلقوا على الحروب التي جرت في المناطق الغربية من بلاد الشام والتي جرت في الفترة الواقعة بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر الحروب الصليبية والتي لم تكن في الحقيقة سوى حروب فرنجية وإمبريالية وعنصرية أهدافها اقتصادية وأطماع استعمارية.

وعلى جميع الأحوال فإن المراحل التاريخية سواء كانت يونانية أو رومانية أو بيزنطية كان وجودها قصيراً جداً في بلاد العرب ولم تتجاوز القرون المعدودة من عمر الحضارات التي شهدتها هذه البلاد وعلى امتداد مئات الآلاف من السنين. ولم يكن قول الباحث الفرنسي ومحافظ متحف اللوفر السيد أندريه بارو في القرن الماضي: (لكل إنسان وطنان؛ وطنه الذي يسكنه وسورية) يرتكز على وهم وإنما ثمرة عشرات السنين من العمل الأثري في سورية.

وجاء ذلك كتأكيد على الغنى الثقافي والحضاري وعلى الإرث الأثري الضخم الذي تمتلكه سورية وبقية مناطق العالم العربي، كما لم نكن مغالين إذا ذكرنا أن الكثير من المعارف والمرتكزات الحضارية كانت

تتولد في بلاد الشام ثم تتوسع انتشاراً إلى العالم عبر مسالك البحر الأبيض المتوسط، أو المسالك البرية عبر القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبة.

وكان للفينيقيين الحق في الهيمنة الاقتصادية بعد الانطلاقة الهائلة في امتلاك الثروات الخارقة في مطلع الألف الأول قبل الميلاد وخاصة بعد أن توسعت مستوطناتهم في القارات الثلاث المحيطة في البحر الأبيض المتوسط وبناء المستوطنات والعواصم الكبرى في شمال أفريقيا وجنوب أوروبة وبلاد الغال وشبه جزيرة أيبيريا. إضافةً إلى ذلك فقد كان للفينيقيين وتجارهم العديد من الوكالات والموانئ والمستوطنات في اسبانيا والبرتغال والجزر الواقعة داخل البحر الأبيض المتوسط مثل سردينيا ومالطة وصقلية وقبرص وغيرها.

وقد انعكست النهضة الاقتصادية بكل مواردها بالغنى والفوائد على تلك المدن التي تنامت بشكلٍ مضطرد عمرانياً وتنظيمياً وبشرياً لتصبح مدناً برية وبحرية قوية تمتلك الأساطيل الجبارة لتجوب بحار العالم، ولهذا أخذت المبادرات في تنمية الموارد الاقتصادية والتجارية بشكلٍ يتوافق مع الحاجة التجارية العالمية والمبادلات الاقتصادية من جهة وكذلك توافر المواد المطلوبة للصناعة المحلية من جهةٍ أخرى، وبذلك أصبحت التجارة الفينيقية المعتمدة على التصنيع المعدني في القرن السابع قبل الميلاد ذات أهمية ولها مكانتها العالمية المرموقة.

ومن الطبيعي أن هذا الازدهار لم يتم الحصول عليه بسهولة، وإنما ببذل الجهد والمعانات سواء بالطرق العسكرية أو الغزوات وخاصة الغزوات التي كانت تتم بين المدن الفينيقية مثل مدينة قرطاج والإغريق في جزيرة صقلية، أو الهيمنة الاقتصادية والسياسية والتجارية أو أساليب التفاهم مع المجتمعات الأخرى وإيصالها إلى نفس المستوى الذي توصل إليه الفينيقيون.

ونضرب هنا بعض الأمثلة على ذلك ومنها العلاقات التي كانت تتم بين الفينيقيين والإغريق. ففي بداية الأمر وقبل الألف الأول للميلاد حلت قبائل الإغريق في مناطق أسيا الصغرى قادمةً من أواسط أسيا ومنهم الدوريون- الكورنثيون- الإيونييون- التوسكانيون إضافة إلى عرب من سورية.. إلخ، وقد استقر قسم من هؤلاء في منطقة آسيا الصغرى، والقسم الأخر اتجه إلى بلاد البلقان وتراقيا ومكدونيا وبلاد اليونان، أو بمعنى أشمل القسم الجنوبي الشرقي من قارة أوروبة.

إلا أن قسماً من هؤلاء وخاصة الذين حلوا في منطقة اليونان وجدوا أن الأراضي ضاقت بهم بسبب الموقع الجغرافي المكون من وديان ومنحدرات ساحقة وقلة الأراضي الزراعية، لذلك حاولوا العودة إلى القسم الغربي من تركيا، إلا أن أبناء عمومتهم بالأمس لم يستقبلوهم بالترحاب وبالأحضان، لهذا جرت بينهم الحروب الطاحنة في التنافس على امتلاك الأرض والاستقرار، وكان من أشهر تلك الحروب حرب طروادة.

وفي هذه الحالة وبموجب الحاجة لم يجد قسم كبير من هؤلاء وخاصة الذين سكن قسم منهم في الجزر اليونانية أو جزر بحر إيجة إلا اللجوء إلى الفينيقيين الذين كانوا أسياد البر والبحر للعمل لديهم في الأساطيل البحرية التي كانوا يملكونها، وبالمقابل فكان هؤلاء يحتاجون إلى اليد العاملة لهذا الأمر تم احتضانهم سيما وأن هؤلاء أصبحت لديهم الخبرة في التعايش مع البحر كما أن السفن الفينيقية كانت تعتمد على الجدافين بحيث تحتاج كل سفينة مالا يقل عن ستين جدافاً.

ونتيجةً لهذه العشرة الطويلة بين الإغريق والفينيقيين تمرس هؤلاء في فهم المصلحة والاختلاط مع المصريين والليبيين والسوريين والذين هم بالمحصلة قبائل عربية، لذلك تشرب الإغريق الحضارة العربية وتتلمذوا على يد العرب ومنهم الفلاسفة والأطباء والمهندسون وغيرهم ثم أخذوا في نقل هذه الحضارة إلى بلادهم وبناء دولة متينة كانت مرتكزاً لإمبراطورية الإسكندر الكبير ومن ثم انطلقوا لبناء مستوطنات في شمال أفريقيا كانت بدايتها في منطقة قورينا في الجبل الأخضر في ليبيا الحالية قبل أن يتوسعوا في بقية المناطق المجاورة والاصطدام مع قرطاج.

ومن هنا نجد أن الإغريق تفهموا الحضارة بشكلٍ مبكر بسبب احتكاكهم بالعرب وطبقوها بذكاء، ولهذا نلمس الفوارق الحضارية المتباعدة بشكلٍ واضح بينهم وبين الشعوب القادمة من شمال أوروبة وغربها ووسطها، والتي حلت في شبه الجزيرة الإيطالية ومن ثم شكلت جزءاً من الشعب الروماني، ومع الزمن أخذ هؤلاء في التقليد ولكن بعد دفع الثمن الباهظ قيمةً لذلك.

ولم يكن مفاجئاً دخول قوات الإسكندر المقدوني إلى سورية، كما لم يكن لدى الشعب أي امتعاض، وهذا لا يعني الترحيب بالعنصر الغريب؛ وإنما المسألة أن سورية كانت موضع صراع، ومرتكز للوجود الفارسي وصراعه مع الإغريق، لذلك كانت الرغبة لدى سكان بلاد

الشام وبــلاد النهرين ومصر في بادئ الأمر رحيل المستعمر الفارســي، ولكن بالمقابل لم يكن لديهم رغبة في دخول عنصر غريب إلى بلادهــم أو حلول مستعمر آخر. وإنما كانت الرغبة تتمحور حــول إنهاء مرحلة الصراع بين القوى الكبرى فوق أراضيهم.(١)

وفي بداية الأمر لم يغير المستعمر الجديد شيئاً في سورية حيث اعتبرها وآسيا الصغرى منطقة عبور ومرتكزاً للتوسع في شرق آسيا وملاحقــة الفرس أينما كانوا والقضاء على إمبراطوريتهم، إلا أن الأمر بدأ يختلف شيئاً فشيئاً، وتغيرت نظــرة المستعمرين إلى بلاد الشــام حيث اعتبروها دار قــرار واستقرار وقاعدة عسكرية كـبرى. لذا أخذوا في بناء المــدن العسكرية في المواقــع الاستراتيجية، إضافة إلى بناء مدن ملاصقة للمدن الكبرى للتواصل مع المجتمع السوري.

وهــذا الاستقرار ولّــد نهضة حضارية جديدة ارتكزت علــى المقومات الحضارية السابقــة ولكــن بثــوب جديــد ومصاهرة جديدة ولدت حضارة عرفت باسم الحضارة الهللينستية استمرت حوالي ثلاثة قرون من الزمــن كان للشعب العربــي دورٌ رئيس في بنائها وفي جميع المجالات. وهذا الأمر انعكس بالطبــع على مجريــات الحركــة الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية.

والشيء المؤكد الذي نود الإشارة إليه في هذه المناسبة أن كل محتل أو غريب جاء إلى سوريــة كانت طريقته مختلفــة بالتعامل مع الشعب وفي التعاطي مع الأمور الاستراتيجية عما يكون عليه الحال مــع شعوب ومناطق أخــرى من العــالم، ففي بدايــة الأمر يحل مستعمــراً ومن ثم يسعى لتحسين العلاقات والاندمــاج مــع الشعــب وتوليــد علاقات اندماجيــة، ويعالج الأمــور بالحكمة كونه يتعامل مع شعبٍ ذي حضارة عريقة وجذور تاريخية عميقة، ولهــذا فكانت معاملته مع الشعــب في سورية معاملــة خاصة تتناسب مع المجريات، وهــذه المجريات لم يعشها مع شعوبٍ أخرى.

والشيء الجوهــري في الأمر أن المحتل الجديــد ومنــذ الساعــة التي يضــع فيها أقدامــه فوق هذه الأرضــ يباشر في التأثر بهذا الشعب وينهل من حضارته، ثم يترجمها عملياً ثم يصبح رسولاً لنشر هذه الحضارة، ولدينــا من الشواهد بما فيه الكفاية؛ وعلى سبيل المثال: المصريــون في عهد الفراعنة، والحثيــون والفرس والسلوقيــون والبطالمة والرومان والبيزنطيــون والسلاجقة والتتار والمغول والفرنجة والعثمانيون... إلخ.

علــى العمــوم لا نود الخوضــ في هذه المجالات الواسعة حتى لا نبتعد عن البحث

الذي نحن بصدده، وسوف نتطرق إلى بعض الجوانب المتعلقة في الموضوع الذي نعالجه علنا ننصف الحقيقة التاريخية ولا نكون متعصبين إقليميا أو قومياً أو دينياً وننحرف عن المسار الصحيح وبنظرة الباحث الواقعي، ولا نظلم بلدنا وحضارتنا ونقدمها على طبقٍ من ذهب إلى الآخرين كما يفعل البعض أثناء تناولهم مثل هذه المواضيع الحضارية الحساسة.

وكما ذكرنا سابقاً فلم تكن شعوب القسم الجنوبي من القارة الأوروبية بمعزل عن الشعب العربي في سورية، وخاصةً في العهود الكنعانية والآرامية والفينيقية، بل على العكس فقد كان قسم كبير من هذه الشعوب من أصول عربية، كما لم يكن سكان أوروبة الشرقية وخاصةً منطقة البلقان ومقدونيا واليونان وغيرها بمعزل عن هذه القضايا وهذا التمازج، بل على العكس فقد تتلمذ هؤلاء على أيدي الشعب العربي السوري منذ انطلاقة حضارتهم.

وقد أبدت الشعوب الإغريقية ومنذ القرن السابع رغباتها ومبادراتها في التمازج مع الفينيقيين في المجالات كافة، وترجمت كثيراً من القضايا ترجمة عملية، وخير شاهدٍ على ذلك التوافق في التنظيم العمراني مع البيئة الجغرافية، والتمازج الأيديولوجي والميثولوجي والفني والمعماري والفلسفي، أو بمعنى أصح التوافق في جميع مقومات الحضارة وإرهاصاتها.

وبالطبع فلم تكن لدى الشعب الفينيقي في تلك الآونة الرغبة في الهيمنة السياسية أو عقلية الاحتلال بقدر ما كان لديهم حب الانفتاح ونقل الحضارة إلى شعوب العالم، وهذا ما شاهدناه يتكرر في العهد الأموي في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى العالم[٢]. وبالطبع فهذه المقتضيات لا تمنع من وجود الرغبة في الهيمنة الاقتصادية والانطلاق إلى امتلاك الثروة والحصول على الفوائد المادية بطرق مشروعة وانفتاحٍ حضاري.

ونضرب مثالاً واحداً على ذلك فقط؛ ففي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ذهب قسم من سكان الساحل السوري وأغلبهم من سكان جزيرة أرواد ومدينة عمريت ومحيطها إلى جزيرة ديلوس، وهي من الجزر الهامة من بين جزر البليونيز اليونانية، وموقعاً من أجمل المواقع المهيأة للاستقرار الطبيعي، وأسسوا في هذه الجزيرة مستوطنة كباقي المستوطنات العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسها جزيرة صقلية جنوب إيطاليا.

وقبل قدوم العرب إليها كانت عبارة

عن جزيرة تتميز بالمظهر القاسي والأرض الوعرة الجرداء وكثرة الحصى والصخور، وكذلك افتقارها للمياه، لذلك فما أن وضع هؤلاء أقدامهم فيها حتى حولوها إلى عالم آخر، فقد أصبحت مركزاً للإشعاع العلمي والديني والثقافي كما أن هؤلاء كانوا من ذوي الثقافة العالية في جميع العلوم، لذلك أسسوا فيها مركزاً ثقافياً لجميع بلاد اليونان إضافةً إلى مركزها الديني والتجاري العالمي.

وبسبب الحاجة إلى المياه فقد قام المستوطنون الجدد في حفر بئر مركزي وزرعوا حوله أشجار النخيل ومن ثم بناء معبدين سميا في فترةٍ لاحقة باسم معبد أبوللو ومعبد أرتميس، وقد أصبحت هذه المراكز الدينية والثقافية والعلمية والتجارية من المرتكزات الهامة لازدهار الجزيرة ومن ثم الجزر المحيطة بها، وفي القرن السادس دخلت في العالم الإغريقي وتحت هيمنة مدينة أثينا.

إلا أن المدينة بقيت مركزاً دينياً رئيساً يرتاده جميع معتنقي الديانة، كما تحولت لتصبح مركز إشعاع للحضارة الأيونية يجتمع فيها كل عام وخاصةً في بداية فصل الربيع جميع معتنقي الديانات الوثنية وخاصةً تقديس الإله أبوللو لتقديم الأضاحي وممارسة الألعاب الرياضية وإعلان الأفراح، وهي العادات والتقاليد نفسها المتبعة في سورية في هذه المناسبات.

وقد أصبحت المدينة مركزاً عالمياً لتبادل المنتجات، وكذلك مركزاً للاستيراد والتصدير حيث تستقبل منتجات الحبوب من سورية ومصر وخاصةً القمح المصري والقرطاجي وكذلك الزيت والزيتون من سورية ونقل زراعة الزيتون إلى بلاد اليونان، وكذلك استيراد النخيل ومنتجاته، والجلود من المناطق المحيطة بالبحر الأسود، كما أصبحت مركزاً لتجارة العبيد.

ومن هنا نجد أن هذه الفترة الزمنية التي تجاوزت الأربعة قرون كانت كافية لوجود تقارب وتفاهم ومشاركة في العيش في موقع جغرافي واحد وفي بلاد ممتدة احتضنت البحر الأبيض المتوسط ليكون منطلقاً عالمياً لنشر الحضارة والتوفيق بين الشعوب المختلفة. ومن خلال هذه المعطيات وهذه المقومات انطلقت الحضارة الهللينستية بكل مقوماتها وبكل ما تحويه الكلمة من معنى.

ولدينا مسألة جوهرية أُخرى تتعلق في هذا الموضوع تحديداً، أو في مواضيع أخرى متشعبة تنطوي ضمن هذا المحور وترتبط ارتباطاً مباشراً مع تاريخ سورية وبشكلٍ مباشرٍ أو مع تاريخ الوطن العربي والأمة

العربيــة بشكلٍ عــام وهي مسألــة التاريخ الروماني والحكم الرومــاني والإمبراطورية الرومانيــة والشعــب الرومــاني والبــلاد الرومانية وغيرهــا. وبالطبع فهذه المفاهيم ترتبط بمــا قبلها وما بعدهــا من مفاهيم تاريخية وحضارية.

فلو نظرنا إلى موضوع التسمية نجد أن هــذه الصفة جاءت نسبــةً إلى مدينة روما التي كانت عبارة عن عاصمة للإمبراطورية الرومانيــة والتــي كانت تضــم العديد من الشعــوب، وليســت بسبب وجــود عرق أو قوميــة أو سلالة تعــرف باســم الرومان، وكذلــك ما يعني هذه التسميــة يعني أيضاً التسمية المتعلقــة بالإمبراطورية البيزنطية التــي جاءت بعدها نسبةً إلى مدينة بيزنص اليونانية.(٣)

ولــو صح هــذا الأمــر لأطلقنــا على الفرنسيــين تسميــة الباريسيــين نسبةً إلى العاصمــة باريــس بدلاً مــن فرنسيي بلاد الغــال أو اسم المدريديين بــدلاً من أسبان شبــه جزيرة أيبيريا، أو الدمشقيين بدلاً من الأمويين أو البغداديين بدلاً من العباسيين أو القاهريين بدلاً من الفاطميين أو البرلينيين بــدلاً من الألمان، أو حتــى الرومان بدلاً من الإيطاليين حديثاً وهكذا.

لنترك هــذا الجانب وننتقــل إلى قراءة الجغرافية التاريخيــة، فنجد أن سبعين في المئة من أراضي الإمبراطورية الرومانية هي أراضٍ عربيــة، وكذلك الأمــر بالنسبة إلى الشعــب الروماني فنجــد أن النسبة نفسها من السكان تكــون عربية، إضافةً إلى العدد الكبــير من الأباطــرة الذين حكمــوا روما والإمبراطورية من أصولٍ عربية، ناهيك عن أعضــاء مجالس الشيوخ والــولاة والقناصل والحــكام والفلاسفــة والمهندسين وغيرهم الكثير الكثير ممن جاؤوا من أصولٍ عربية.

كما أن معظــم المستوطنات التي أسست في حوضــ البحــر الأبيضــ المتوسط على الــبر وداخل البحــر أسست وبنيــت بأيدي عربيــة وسكنها العرب الذيــن كان أحدثهم الكنعانيين- الفينيقيــين مثل مدينة ديلوس التي أصبحــت من أهم المراكــز العمرانية والتجارية في بلاد اليونان ومن أجمل الجزر في البحــر الأبيض المتوســط، كما أصبحت مركزاً مشعاً للثقافــة والحضارة الإغريقية كما أسس قدموس وأخته أوروبة العديد من المستوطنات العربية.

حتــى إن مدينة روما نفسها أسست من قبل العرب الفينيقيين(٤)، وبنيت المعابد على شــرف الآلهة العربيــة النبطية عند مصب نهر التيبر، وبالنتيجة أليس من الإنصاف أن نطلق علــى هذه الإمبراطوريات التي تعرف

باسم الإمبراطورية الرومانية أو الإمبراطورية البيزنطية أسماء الإمبراطوريات العربية.

بالطبع لا نريد أن نخوض كثيراً في هذا المجال الذي يستحق دراسة تاريخية صادقة ومعمقة بعيدةً عن التعصب الجغرافي أو القومي أو الديني أو العرقي وغيره، وإنما إنصاف شعبنا وبلادنا ونضع الأمور في نصابها الصحيح، وعندما نحصل على النتيجة نجد أن هذا التراث الحضاري الأصيل هو تاريخ ونتاج هذه الأمة وليس غيرها كما يقدمه البعض إلى الشعوب والأمم الأخرى في الوقت الذي أخذ فيه الباحثون والمنصفون من هؤلاء إعادة النصاب إلى مساره الصحيح اعتمادا على المعطيات العلمية التي عكست ما كان يقوله أجدادهم من أوهام ضللت مسار التاريخ والحضارة، كما ضللت أنصاف المثقفين من أبناء أمتنا الذين يرددون المفاهيم دون تبصر.

ومن المسائل الهامة التي لا يحسن فهمها في تحليل الأمور التاريخية والوقوع في المكائد الاستعمارية والماسونية والصهيونية هي الواقع الحضاري والقومي لمنطقة جنوب سورية الكبرى أو بلاد الشام الجنوبية في مرحلة تاريخية امتدت من نهاية العهد الآرامي وحتى الفتوحات الإسلامية، ونخص بالذكر المملكة النبطية التي كانت صاحبة السيادة على هذا الحيز الجغرافي بشرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وقومياً...إلخ بسبب العديد من المرتكزات ومنها:

١- أن المملكة النبطية والمجتمع النبطي الذي كان منتشراً فوق رقعة جغرافية تكاد تشكل مساحتها حيزاً كبيراً يساوي تقريباً مساحة الممالك التي كانت تحيط في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط مثل المملكة السلوقية والبطلمية والفارسية، وجميعها شكلت المرتكز الهام في العهد الهللينستي لبناء هذه الحضارة، إضافةً إلى تمددها واتساعها إلى الخليج العربي وتغلغلها في الجزيرة العربية حتى مناطق اليمن وعمان، ناهيك عن وصولها إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا والمحيط الهندي وغيره من مراكز الحضارات العالمية.

٢- لم يكن المجتمع النبطي مجتمعاً مستهلكاً ومنغلقاً، بل كان مجتمعاً منفتحاً على العالم بحكم وجوده في مناطق استراتيجية تنفتح على أنحاء العالم كافة، إضافةً إلى الدور التجاري الوسيط الذي كانت تقوم به القوافل التجارية النبطية بين مختلف الأسواق العالمية وخاصة المناطق البعيدة من جنوب شرق آسيا إلى المناطق الداخلية في القارة الأفريقية، إضافةً لذلك

تسويق منتجاتهم إلى هذه الأسواق واستيراد المنتجات الضرورية للسوق المحلية، كما كانوا أسياد التجارة العالمية بين البر والبحر ومكملين الدور التجاري الذي كان يقوم بع أبناء عمومتهم من الفينيقيين العرب في السنوات السابقة، وكما كان للفينيقيين الأهمية والفضل في نشر الحضارة العربية غرباً وشمالاً كان للأنباط الفضل في نشرها شرقاً وجنوباً.

٣- تعتبر المملكة النبطية المملكة العربية الثانية من حيث الأهمية العالمية بعد المملكة الفينيقية في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد ولذلك فكما كان للمملكة الفينيقية شخصية وهوية مستقلة إضافةً إلى تفاعلها وتأثيراتها المتبادلة مع الممالك والإمارات العالمية الأخرى، كذلك الأمر بالنسبة إلى المملكة النبطية، فقد حافظت على شخصيتها وهويتها المستقلة إضافةً إلى تفاعلها مع ما يحيط بها من ممالك وإمارات عالمية وعربية سابقةً لها أو معاصرةً لها أيضاً.

٤- من المؤكد أيضاً أن التجار الأنباط كانوا يرتادون البحار والمحيطات العالمية والأسواق التجارية منذ فترات قديمة في الوقت الذي كانت فيه الشعوب الأخرى قابعة في محيطٍ مغلق ومتقوقعة على نفسها، لذلك ساهم هؤلاء في عملية الانفتاح بين الشعوب وكان لهم بصمات ملموسة في هذا الأمر، لذلك نقلوا كل المقومات الفنية وأفكارها الجوهرية وخاصة في مجالات الإبداعات الفنية والمعتقدات الدينية والمرتكزات التنظيمية.

٥- من المرجح أن يكون للأنباط دورٌ هام في إظهار أشكال النسور فوق المسكوكات العالمية كون المناطق التي كانت أكثر عشقاً وتفاعلاً مع النسر هي مناطق الجزيرة العربية، كما أن هذه المنطقة هي الأكثر ملاءمة لوجود النسور والطيور الجارحة، لذلك قام هؤلاء بنقل هذا الباعث إلى البطالمة اللاجيين في مصر والسلوقيين في سورية ومنذ بداية العصر الهللينستي المبكر، إضافةً إلى تصوير الجمل فوق المسكوكات في جنوب بلاد الشام والفيل في الشمال والحصان في شمال أفريقيا، في الوقت الذي كان الإغريق يفضلون تصوير شكل البومة قبل النسر فوق مسكوكاتهم التي كانت تسك في بلاد اليونان.

ومن هنا نجد أنه لمن المبالغة بمكان تحديد هوية كيان سياسي وحجمه وقدم وجوده بسبب عدم الكشف عن أدلة تؤكد ذلك سيما وأن هناك الكثير من الظروف التي تحجب التوسع في الحفريات الأثرية

في الأماكن التي من المؤكد أنها سوف تقدم وثائق ودلائل تؤكد ذلك، ومن هنا فمن غير المنطق أن نحدد فترة حكم الملك النبطي الحارث الثالث لتكون بداية انطلاقة المسكوكات النبطية في وقت لعب فيه هؤلاء دوراً هاماً في المجالات المختلفة ومنها المجال الاقتصادي وقبل الملك الحارث الثالث بقرنين من الزمن على أقل تقدير وبحصر المعنى في جنوب سورية أو في منطقة دمشق وجنوبها وفي وقتٍ كان لهم فيه دور الريادة في المناطق الأخرى.

وفي هذا الخصوص ننتهز الفرصة لتنبيه الباحثين إلى عدم الوقوع في المطبات التي رسمها الكثير ممن سبقهم من أعداء هذه الأمة أو من ينوب عنهم حول التقليل من أهمية الوجود النبطي في جنوب بلاد الشام وقدمه أو الاعتقاد بوجود شعب آخر وممالك أخرى غير الأنباط طيلة العهود التي سبقت قدوم المسلمين والسعي إلى التمسك بذرائع وهمية للتقليص من الحدود الجغرافية التي كانت تحت سيطرة الأنباط. ولدينا من الدلائل المادية في هذا الخصوص بما فيه الكفاية موثقة بنتائج الحفريات الأثرية ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- حاول الرحالة وبعض الباحثين في القرن السابق وما قبله أن يُجَزِّئوا المنطقة بصورة تجعل الأنباط وكأنهم عبارة عن سلطة تغلغلت في جنح الظلام بتوسعها نحو دمشق مروراً بمنطقة حوران، أو أنهم جاؤوا بطلب النجدة من أهالي دمشق، أو كأصحاب مصالح اقتضت الضرورة بقاءهم فيها بما يتناسب مع حجم مصالحهم، لذلك كانت لهم أحياء في بصرى ودمشق وغيرها تتوافق مع هذه المقتضيات.

ولكن المعطيات الأثرية أكدت وبالدليل القاطع أن كامل الحيز التنظيمي لمدينة بصرى ومنذ نهاية الفترة الآرامية هي أرضية نبطية؛ بمعنى أن كامل مدينة بصرى بتطورها التنظيمي والعمراني يعود للأنباط، وكما ينطبق هذا الأمر على بصرى ينطبق على دمشق وغزّة وغيرها، وهذا ما أكدته الحفريات الأثرية في النقب وبصرى وحوران والعديد من المناطق الأخرى، أما المناطق التي لم ينقب فيها فهذا ليس برهاناً على عدم وجود الأنباط فيها.

٢- لم تعرف المنطقة الشمالية الغربية من سورية بعد الكنعانيين شعباً وقبائل عربية سوى الفينيقيين، كما لم تعرف المنطقة الجنوبية من بلاد الشام وحتى المنطقة الشرقية المحاذية إلى وادي النيل أو حدود سيناء الغربية شعباً بعد الآراميين سوى الأنباط، يجاورهم شرقاً وشمالاً الصفائيون

العرب، وجنوباً أبنــاء عمومتهم الإيدوميون ثــم القبائــل التدمرية في القســم الداخلي الشرقي من بــلاد الشام، وغرباً عرب لبنان الإيتوريون.

٣- من هــذا المنطلــق نجــد أن توسع الأنباط علــى حساب الآراميين لم يكن نوعاً من التوســع الاستعماري أو استغلال ضعف الممالــك المتناحرة للسيطرة على سورية، بل كان مشاركة في العيش بــين أبناء العمومة، ولهذا فالتفســير المنطقي أن هــؤلاء كانوا أصحــاب سيــادة يتوسعــون في أراضيهــم كيــف يشاؤون وحسب تقاسم مصالحهم مع بعضهم البعض.

٤- لم تكن حالة الأنباط هي الفريدة في المنطقة؛ فقد سبقهم بذلك موجات القبائل العربيــة السابقــة من عمونيــين وأكاديين وأشوريين وكنعانيــين وكلدانيين... إلخ، كما تكررت الحالة لاحقــاً عند قدوم الغساسنة والمنــاذرة. ولهذا كانــت ديمومة هؤلاء فوق أراضيهم بشكلٍ طبيعي ولم يكن لها انعكاسات على الظواهر الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياســة وغيرها، والسبــب في ذلك أنهم أبنــاء شعبٍ واحد، لذلــك وقفوا جميعاً مع توسع المملكة التدمرية وسيادتها.

٥- ولدينــا دليلٌ قاطع علــى أن جميع الشعــوب التي كانت تدخــل البلاد كشعوب غريبــة عنها كانــت ديمومتهــا في الإقامة قصيرة، وتنتهــي إقامتها أو وجودها بانتهاء الغرضــ الــذي قدمت مــن أجلــه، ولهذا ذهبــت أدراج الريــاح دون أن يكون لها أي أثر، والدلائــل على ذلك كثيرة مثل الإغريق والرومــان والبيزنطيــون والفرنجة والتتار والمغــول وحتى من جــاؤوا مــع الاستعمار الغربــي الحديث، ولهذا لم يكــن وجود لأي شعــب فوق الأرضــ العربية ســوى الشعب العربي.

ومــن البديهــي أن ظهور صــور الملوك الأنبــاط فــوق المسكــوكات النقدية برفقة زوجاتهم أو أمهاتهــم أمر طبيعي يدل على احــترام المرأة العربية منذ القدم ودورها في مشاركة الرجل في جميع المجالات، وهذا ليس أمــراً تقليدياً وليســ مستغرباً ولكن الشيء المستغرب ومع شدة الاستغراب أن نعزو هذا الأمــر إلى مفهوم تقليدي ذي تأثير خارجي، ولِمَ لم يكــن العكس؟ بمعنــى أن القادمين إلى المنطقة العربية هم الذين تأثروا بهذا التقليد العربي وصوروا زوجاتهم إلى جانبهم.

والدلائــل على ذلك كثــيرة نضرب منها مثــلاً واحــداً وهو عــدم الكشــف عن أي تقليــد أو باعثٍ من هذا النــوع سبق العهد الهللينستــي أو طبق خــارج الوطن العربي، ولذلك فــكان هــذا التقليــد انطلاقا من

التقليد العربي والتأثر به ثم ترجمته ترجمة حقيقيــة، ومن هنا نجد أن هذا الأمر ينبثق من صلــب الخصوصية التــي كانت ترتكز عليهــا المعطيات للســكات النقدية النبطية كما هــي الظواهر الحضاريــة الأخرى من عمارة وتنظيم وسياسة وثقافة.

أمــا مسألــة الكتابات غــير النبطية أو ازدواجية لغــات الكتابة على الأبنية الأثرية أو النصوص الوثائقية أو المسكوكات النقدية فهذا ينبثق من منطلق التعامل الدولي لتلك النقود، وليس مبرراً لوضع هذه النقود تحت تأثير أو سيادة سلطة أخرى على منتج محلي تشرف علــى إدارته سلطــة مستقلة وكيان سياسي عالمي.

فكمــا تمازجــت الكتابــات الفينيقيــة والإغريقيــة فــوق المســكوكات النقديــة الفينيقيــة والإغريقيــة، كذلــك تمازجت الكتابــات النبطية مع الكتابــات الإغريقية والعكســ صحيح، وينطبق هــذا الأمر على باقي الدلائل بسبب عالمية الحضارة العربية النبطية.

وثمة أمرٌ آخر لابد من الإشارة إليه وهو أن قدم وجود الأنبــاط في المنطقة وخاصةً منطقة دمشق وجنوبها لا يمكن تحديده من خــلال النقود النبطية أو فترة الملك النبطي الحارث الثالث ٨٤ – ٧٢ ق.م، ولذلك يفترض التوســع في الحفريــات الأثريــة في أحياء دمشــق والمناطق المجاورة لهــا ليتم الكشف عن الحقائــق التــي تؤكد ذلــك، ولاسيما وأن إنتاج المسكــوكات السلوقية والبطلمية وتداولهــا في المنطقة جاء على أعقاب فترة زمنية من الإنتاج النقدي الذي تميز بتداول المسكــوكات المستقلة وشبه المستقلة، إضافةً إلى مسكــوكات المدن والبلديات ومسكوكات الإمارات العربية.

والغريب في الأمر أن الكثير من الباحثين القدامى ومقلديهم الجدد ممن يتناولون مثل هذه المواضيع المتعلقة في تاريخ هذه المنطقة وحكامها ومظاهرها الحضارية يعتمدون في مصادرهــم إما على كتاب التوراة والمعروفة ثقتــه وكتاباتــه المــزورة تاريخيــاً أو كتاب الحروب اليهوديــة وكأن هذا الكتاب أصبح مرجعــاً مقدساً وكل ما ذكر فيه صحيح، بل على العكس من ذلك فكل ما جاء به عارٍ عن الصحة وما هــي إلا أفكارٌ وضعت لتحقيق مآرب ومصالح على حساب المنطقة.

واضرب مثلاً حول هــذا الموضوع: فقد ذكر في هــذا الكتاب أن قائداً يهودياً يدعى يهــوذا الماكابي (جودا ماكابــي) قام بحملة من فلسطين لنصرة اليهود في مدينة بصرى النبطيــة في القرن الثاني قبل الميلاد بسبب اضطهادهــم من قبل ســكان المدينة، وعند

دخــول المدينــة أمر جنوده بإحــراق مدينة بصرى عن بكرة أبيها ثم غادرها بعد التأكد من حرقها وتدميرها وخرابها.

وقــد تأكد الكذب والافتراء في مثل هذه الروايــات من خلال الحفريات الأثرية التي تجريها البعثة الأثريــة الفرنسية في المدينة منذ عام ١٩٧٠م وما زالت تعمل في المدينة حتى الساعة. وقــد شملت الحفريات كامل القطاع العمراني في المدينة وخارجها، وكذلك الحيز التنظيمــي لكامل المراحل التنظيمية التي مرت بها المدينة وحتى العصر الحديث، ولم يثبــت حتى الآن أي دليل يبين آثار حريق تعرضت له المدينة، كما لم يتم العثور على أي أثر لكنسٍ يهودي في المنطقة.

ومــا ينطبق علــى بصــرى ينطبق على كامــل المناطــق التي ذكــرت والتــي كانت تخضع للمملكة النبطيــة والتي كانت تمتد من شمال الجزيرة العربية إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبــي وشمالاً مناطق دمشق حتى الضمير والبادية السورية وحتى منطقة البقاع، وإن انتهــت المملكة النبطية كحكــم سياســي في ربيــع عــام ١٠٦ بعد الميــلاد إلا أن العرب الأنباط بقوا أصحاب السيادة في المنطقة وعلى الصعد كافة حتى قدوم أبنــاء عمومتهــم الغساسنة وحلولهم في المنطقــة ومشاركتهــم في زعامتها حتى الوقت الحاضر حيــث كان النشاط الفاعل للغساسنــة القسم الغربي والممتد من سفوح جبل الشيــخ ومشارف دمشق وكامل مناطق الجولان وحتى حوض نهر اليرموك الغربي، أي في المنطقة الواقعة بين الإيتوريين العرب في لبنان والأنباط.

ونعود للرد علــى أولائك الذين يعتبرون أن المنتجــات التراثية في المنطقة ما هي إلا إرث دخيل أدخلتــه الإمبراطوريات القادمة والمستعمرة لهذه البلاد ببعض الأدلة المادية ومنها:

١ – مدينة البــتراء ذات الهوية العربية النبطية الصرفة والتي أصبحت من عجائب الدنيا حديثاً، فقد حاول الكثير من الباحثين اختراق هــذا التراث بالادعاء أنه عبارة عن تــراث تأثــر في الإنتاج المعمــاري اليوناني، ونأخذ مــن هذه المدينة بعضــ الأمثلة من مبانيها العملاقة ومنها:

أ – المســرح: الــذي نحــت في الصخر الطبيعــي بكامل أقسامه، وهذا المسرح ليس له مــا يشابهه أو يناظــره في العالم قاطبةً، والحالة الوحيدة التي تتوافق نسبياً وبشكلٍ بسيط معه في مســرح مدينة ميرا في تركيا حيث بني المسرح مستنداً على جرف صخري استناداً وليس نحتاً كما هي الحالة الموجودة في البــتراء وإن ظهــرت بعضــ التهييئات الصخرية لتتوافق مع الموقع.(٥)

ب - مبنــى الخزنة: وكذلــك الأمر في هذا البناء الذي نحــت في الصخر الوردي الطبيعي مع واجهةٍ شاقوليةٍ بارتفاعٍ شاهق وامتدادٍ عرضي كبير وبشكلٍ مسطح يساوي ما يقارب ٢٥٠٠م٢ نحــت باستقامةٍ واحدة وبشكلٍ أملس مــع واجهة أمامية ذات نظام تعميــد ورواق يتقــدم الصالــة الداخلية، وجميعها نحتت مــن نفس الكتلة الصخرية بما فيها الركائز والأعمدة والتيجان والسطح المعمــد، وكأن النحاتين كانــوا يتعاملون مع المادة وكأنها من الشمع أو الجص اللدن.

ج - بناء المحكمــة: وقد نفذ هذا البناء أيضــاً بالنحــت في وسط مرتفــع صخري شاهــق ولم يتم الولوج إليه إلا من خلال درج نفذ داخل الصخر الوردي القاسي، وعندما يدخل المرء إلى الداخــل يفاجئ وكأنه أمام سرادق فخم ليس له مثيل في العالم.

د - تنفيــذ شبــكات المياه علــى سفوح التلال الصخرية بشبكة من الأقنية المنحوتة في الصخــر وجرهــا إلى خزانــاتٍ جوفية انتشرت في كامل أحياء المدينة.

وهناك الكثــير الكثير مــن الأدلة التي تؤكد الهوية الحضارية المتعمقة لهذه الأمة والتــي كانت سباقــةً إلى التطور الحضاري ومنــذ العصر النطوفي الذي انطلق من بلاد الشام منذ الألف الخامس عشر قبل الميلاد والذي عرف بالثورة الزراعية وثورة الرموز في وقــت لم يكن عند الشعــوب الأخرى في العــالم أي مستوىً ولــو بأبسط الأمور يمكن مقارنته مع هذا المجتمع.

لنترك الماضي ونعود إلى الحاضر لنتناول عمليات الكشف والترميم الأثري التي جرت في بعضــ المواقع الأثريــة في سورية ومنها على سبيل المثال مدن أفاميا وتدمر وبصرى، وحتى لا يطــول البحث نتناول بعض نماذج من الأبنية التي شملهــا العمل وعلى رأسها مبنى مســرح وقلعة بصرى. وقــد شاهدنا المكان قبل بداية العمــل كما شاهده الكثير مــن الباحثين والرحالة منــذ القرن الثامن عشر وحتــى بداية الاستقلال حيث المباشرة في الكشف والترميم في وقتٍ لم تستعمل فيه إلا الوسائل التي كانت تستعمل في زمن البناء الأصلي لمبنى المســرح والقلعة، وكأن العمال الذين كانــوا يقومون في العمل يرجعون إلى أكثر من ألفي عامٍ مضت.

وبالطبع وبعدٍ هجر هذه الكتلة البنائية المكونة من المسرح والقلعة للعديد من القرون الزمنية تحول الموقــع إلى جسم مغلق حيث ملئت المعابر والممرات بالأتربة والانهيارات التي تعرضت لها الأقســام العلوية وإغلاق الممــرات الرئيسة واختلاط الكتل الحجرية مع الأتربة والتكلســات التي تشكلت بسبب

الملوحــة والرطوبة والإشنيات إلى ما هنالك من معضلات واجهت المشرفين على العمل في وقت لم يكن هؤلاء قد تخرجوا من جامعات أو أكاديميــات أو معاهد علمية متخصصة كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر.

وهنا لا نريد أن نستعرض مراحل العمل والتــي تمَّ تناولهــا بقليلٍ مــن التفصيل في كتابنا مسرح بصــرى الأثري، إضافةً إلى ما نشر حولها في بعض أعــداد من الحوليات الأثرية السورية في حينه، وما يهمنا من الأمر النتائج التي تمَّ التوصل إليها من خلال بعض المواقف التي عايشناها وشاهدناها بأنفسنا نعرضها للأمانة التاريخية ومنها:

١- عــدد العمال: معظــم أهالي بصرى نســاءً ورجــالاً وممن كانوا في طــور الفتوة والشبــاب والشابات وقليل ممن تجاوزا سن الخمســين والقليل من النســاء المتزوجات، لذلك نستغل هذه الفرصــة لتوجيه الشكر الجزيــل إلى أهالي بصرى فــرداً فرداً ممن ساهمــوا في هذا الإنجــاز العظيم وقدموا صــورة مشرفة لتاريخ وآثــار وتراث بلدهم ومدينته وأمتهم العريقة.

٢- الإشــراف الفنــي: كان الإشــراف الفني محــدوداً جداً ويقتصــر على الخبرة المكتسبــة من الزمــن والتعايش مــع المادة المحليــة والممارسة التدريجيــة مع مشاركة بعض النحاتين من ريف دمشق وبشكل خاص مــن منطقة تــل امنين، ومساعــد فني من المديرية العامة للآثار والمتاحف وعدم وجود مهندسين على ملاك المديرية في ذلك الوقت لذلك كان المكلف الرسمي في الإشراف على تنفيــذ العمل ورئاسة دائــرة الآثار المرحوم سليمان المقداد وبمشاركة أهالي المدينة.

٣- الناحية المادية: كانت ساعات العمل تستمر من السادسة صباحاً وحتى السادسة مساءً مع ساعة ونصــف استراحة غداء في منتصــف النهار وعلى مدار أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة، وكان الأجر اليومي يتراوح بــين خمس لــيرات وأربع لــيرات للنحاتين والفنيــين وثلاث لــيرات للعمــال وليرتان للعامــلات، ولذلك كان الأجــر الشهري لمن يعمل كامل أيام الشهر يتراوح بين ٥٠ إلى ٨٠ ليرة سورية مع الأخذ بعين الاعتبار التوقف عن العمل في الأيام الممطرة.

وبالمحصلــة كان الكشف الشهري لأجور العمــال يــتراوح بــين ١٨ إلى ٢٠ ألف ليرة سوريــة لعدد العمــال البالــغ تقريباً ٣٠٠ عامل، والمصــروف السنوي بمــا فيه مواد البنــاء والمعدات لا يتجــاوز ٢٠٠ ألف ليرة سوريــة، ولذلك فإن ما أنفــق على الكشف والترميــم على قلعة ومسرح بصرى منذ عام ١٩٥٠ بدايــة العمل وحتى عام ١٩٧٠ نهاية

العمل بما فيــه صيانة وترميم كامل الأبنية الأثرية في المدينة لم يتجاوز المليون ليرة طيلة الثلاثين عاماً.

ولهذا فإن حجــم العمل ونسبة التنفيذ والإمكانيــات المتواضعــة والإخلاص في العمل والنزاهة جميعهــا أذهلت المسؤولين في الدولــة وفي العالم قاطبةً لذلك كانوا وما زالوا ينظرون إلى أهــالي بصرى والمشرفين على العمل نظرة إجلالٍ واحترام وتقدير.(٦)

ونضرب بعض الأمثلة على ذلك ومنها:

١- عندمــا زار وزيــر الثقافــة والآثار المركزي في زمــن الوحدة بين سورية ومصر السيــد ثروة عكاشة وشاهــد هذه الأعمال والمستــوى الفنــي وضخامــة العمل وقف مذهــولاً ومعجبــاً إعجاباً شديــداً، وعند عودته إلى القاهرة مباشرةً طلب من الرئيس جمــال عبد الناصــر أن يعــين المدير العام للآثار والمتاحف في الإقليم السوري الدكتور سليم عادل عبد الحق مديراً لهيئة الآثار في الجمهورية العربية المتحدة والسيد سليمان المقــداد رئيس دائرة الآثار في جنوب سورية والمشرف على تنفيذ العمل في بصرى معاوناً له.(٧)

٢- عندمــا زار المديــر العــام لمنظمــة اليونسكــو العالمية مدينة بصرى واطلع على العمــل في القلعة والمسرح والمدينة ومن شدة ما ناله من إعجاب جلس في الاستراحة داخل القلعة لتناول الغــداء، وطيلة الجلسة كانت عينــاه تفيضان دمعاً، وبــين الفينة والفينة ينهضــ ويعانق المرحــوم سليمــان المقداد قائلا إنه لم يشاهــد أي عمل جبار في العالم كمــا شاهده في مدينة بصــرى. وعلى ضوء ذلك منحه عضوية المعهــد العالي للصيانة والترميــم الأثري في مدينــة روما مع منحة فنيــة لمدة ستــة أشهــر، وتمّ تسجيل مدينة بصرى كمدينة تراثٍ عالمية.

٣- عندمــا زار المديــر العــام للآثــار والمتاحــف في المملكــة الأردنيــة الهاشمية في عــام ١٩٧٦ الدكتور عدنــان الحديدي مدينة بصرى وشاهد المستوى الفني للترميم لدرجة كان يصعب على المشاهد التمييز بين البناء الحقيقي والبناء المرمم وقف مذهولاً وقال يجب أن تكــون مدينة بصرى مدرسة الصيانة والترميــم العالمية، وأذكر جيداً أنه حاول جاهداً اصطحــاب عدد من الفنيين إلى الأردن للإشــراف علــى تنفيذ الأعمال هنــاك ولكن بسبب الحاجــة الماسة لهم في سورية تعذر ذلك.

وهناك المئات من الشواهد الأخرى التي يصعب ذكرهــا أو استعراضها والتي جاءت من مختلف الفنيــين والمختصين والمسؤولين في العــالم والتي يجــب أن يفــرد لها بحثٌ خاص.

وليســت الغاية هنــا المفاخرة في الأمور والتــي تستحق أكثر من ذلــك، ولكن الغاية أن نبــين أن مثل هذه الأعمــال التي نفذت منذ آلاف السنين ثم أعيد بناؤها وترميمها وصيانتهــا في العصر الحديث مــا هي إلا نتاج شعب واحد وإنسانٌ واحد وهو الإنسان العربي الذي بنــى الحضارة وقدمها للعالم. فكيف يكون معقولاً أن يعزى هذا الأمر إلى من تعلــم هذه الحضــارة وترجمها لنجعله هو الباني والمشرف والمانــح وكأننا نقول إن التلميذ هو من يعلم الأستاذ في المدرسة.

وأختم حديثــي بذكر بعضــ الشواهد التــي عاينتهــا بــأم عيني وتعايشــت معها لتكون نموذجاً للمقارنة لدى الباحثين الذين يتبنون النظريات التي تسيء للهوية القومية لهذه الأمة ولبعضــ الأبنية العملاقة والتي تستحــق أن يقف المرء أمامهــا وقفة تمعن وتبصر ومنها:

المقابــر: ومنها المقابــر الهرمية ومقابر المغــازل وذات الأُســود والسبــاع في مدينة عمريت التي تعتبر فريدةً من نوعها في العالم وتعــود في جذورها إلى العهــد الفينيقي أو ربمــا أقدم من ذلك والتــي نقل الفينيقيون هندستها وطرز بنائها معهم إلى شمال أفريقيا ومازالت نماذجهــا شاخصة في العديد من المواقــع ومنها مقابر مدينة صبراته في ليبيا غرب مدينة طرابلس بحوالي ٨٠كم.

المســارح الدائرية (الأنفتياتر): وقد بني منهــا الكثــير في البلاد العربيــة وما زالت شاخصــة أمام أعــين المتبصرين مثل مباني مدن عمريت- بصرى- جرش في بلاد الشام ومدينــة لبــدا الكبرى- صبراتــة في ليبيا- الجم في تونس- شرشال- تبسة في الجزائر وغيرها الكثير الكثير من الأبنية التي مازالت بحاجة للكشف عنها.

وقد بنيت جميعها قبل أن ينقل مخططاتها وهندستها ويطبقها علــى الواقع في مدينة روما المهندســ العربي الســوري أبوللودور الدمشقي الذي طور بناء هذه المدينة ضمن أســس معمارية رائعــة في زمن الإمبراطور تراجان بعــد أن تركها نيرون تئــن من آثار الخراب والحريــق لعشرات السنين، وهناك طبق نفســ المناهج التنظيميــة والعمرانية المنفذة في سورية مثل مدن أفاميا- اللاذقية- عمريت- بصرى- دمشق- حلب- سيروس- أنطاكيا... إلخ.

القلاع: وقد أثبتــت الهندسة العسكرية للقــلاع في سوريــة الكــبرى خصوصيتهــا العملاقة وهويتهــا العربية المحلية الصرفة والتي لم يُــبنَ ما يماثلها ويناظرها في العالم، وقد جــاءت مرتكــزة على أســس وقواعد هندسيــة تعود في جذورها لأكثر من خمسة آلاف عام. وقد انحصر بناؤها بشكل مكثف

على مرتفعات الساحل السوري من الشمال إلى الجنـوب مع بعض القلاع التي بنيت في المدن الداخلية مثل قلعة حلب وقلعة بصرى وقلعة دمشق وقلعة صلخد وقلعة جعبر.

ونذكـر بعض مـن أسماء هـذه القلاع التي تؤكد الهوية العربية السورية ووجودها في بـلاد الشام ومنهـا: قلعة نجـم- قلعة الحصن- قلعة صلخد- قلعة المرقب- قلعة الشريـف- قلعة جعبر- قلعة العريمة- قلعة حـارم- قلعة بصرى- قلعـة سمعان- قلعة المضيـق- قلعـة شيزر- قلعـة حلب- قلعة دمشق- قلعة حماه- قلعـة الخوابي- قلعة أرواد- قلعـة الكرك- قلعـة عجلون- قلعة الشوبك- قلعة صلاح الدين- قلعة الربض- قلعة فخر الدين المعني وغيرها الكثير.

الهوامش:

١- وهـذه الحالة تكررت في العصر الحديث عندما كانت بولاندا (بولونيـا) موقع مرور بين القوى العظمى المتطاحنة في القارة الأوروبية أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية وما نتج عنهما من عواقب.

٢- وكما قال الشاعر:

أمـويون وإنـي بهمـوا أوصلوا الدنيا ببستان هشام

٣- بيزنص (القسطنطينية): موقع استراتيجي هام فوق مضيق البوسفور الذي يفصل بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط عن البحر الأسود، وقد كانت تفصل بلاد اليونان الشرقية عن بلاد اليونان الغربية، وعندما نقل الإمبراطور قسطنطين العاصمة من روما إلى بيزنص الأقرب إلى بلاد الشام التي كانت المنطقة الفاعلة في تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط والتاريـخ الرومـاني أطلق على هذه المدينة اسمه فسميت باسم القسطنطينيـة، وعندما اتخذها الأتراك العثمانيون عاصمـةً لدولتهـم أطلقوا عليها اسم اسطنبول (أست بولس: أي المدينة الشرقية) كما أطلق عليها اسم الأستانة في مرحلة من مراحل الحكم العثماني.

٤- يمكن استخلاص قصة بناء مدينة روما من خلال ما ذكر في العديد من المصادر القديمة وما جاء في قصص المعتقدات القديـمة (الميثولوجيـا) حيث يعود الأصل في ذلـك إلى بداية العهد الفينيقي عندما هاجـر أمير فينيقي يدعى إينه أو عينـة Enee مـن الساحل السوري إلى منطقة ليديا في الجانب الغربي من آسيـا الصغرى ثم استقر في مدينة طروادة.

وأصبح هذا الأمير البطل الحقيقي في ملحمة فيرجيليوس، ثم ذهب إلى أقربائه في مدينة قرطاج بعد حريق مدينة طروادة، وهنـاك عشق الأمـيرة السورية الفينيقيـة إيليساElissa من مدينـة صور التي أسست مدينـة قرطاج في القرن التاسـع ق. م، ولظـروفٍ غامضة أجبر على الهرب إلى إيطاليا وأسس هنـاك العديد من المدن ومنها مدينة لافينيوم Lavinium.

وحسـب ماجاء في الملحمة الشعريـة الإينيد Eneide للشاعر اللاتيني بوبيليوسـ فيرجيليوس مارو publius

virgilius maro (٧٠-١٩ ق. م) صديق أوكتاف أن إينيه /عينة Enee الهارب أحب ديدون/ إيليسـا وتزوجهـا، إلا أنه أجبر على هجرها بناءً على أوامر الإله زيوس/ جوبيتـير ولهذا قتلته. ويذكر في المعتقدات الدينية الرومانية أيضاً أن روميليوس /رومولوسRomulus مؤسس مدينة روما من أحفاده هو وزوجته الفينيقية إيليسا من مدينة قرطاج.

كما جاء في الميثولوجيا الرومانية أن رومو ورومولوسRomu et Romulus الطفلان اليتيمان اللذان أرضعتهما الذئبـة عندمـا أصبحا في طور الفتوة والشباب قام رومولوس بمساعدة أخيه رومو في تأسيس مدينة روما في عام ٧٥٣ ق. م، ثـم أصبـح أول ملك على المدينة، وقد تم تقديسه من قبل سـكان المدينة لدرجة التأليه، ولهذا أصبح في نظر الرومان الإله الحامي لمدينة روما.

٥- مـن الملفت للنظر أني سمعت وأنا أقوم بإعداد هذا المقال من محطة فضائية عربية الإعلان عن مسابقة سياحية من ضمـن سلسلة حلقـات للترويج السياحي للآثار العربية في البلدان العربية طـرح سؤال من ثلاثة احتمالات وكان السؤال على الشكل التالي: أين يقع المسرح الروماني في الأردن: ١- في مدينة العقبة- ٢- في مدين عمان- ٣- في مدينة معان.

وأنتهـز هـذه الفرصة للفت نظر صديقي وعزيـزي وزميلي الدكتور فواز خريشة المدير العـام للآثار والمتاحف في المملكة الأردنية الهاشمية الشقيقة للاهتمام بهذا الموضوع المتعلق في سلخ الهوية العربية عن معلم من أجمل المعالم العربية في الأردن وأكثرهـا أصالة وقومية وليس غريباً أن يتم لاحقاً الإعلان عن مسرح البتراء وبنفس الصيغة كما يحدث في البلدان العربية الأخرى، كما أرجو طرح مثل هذه المفاهيم وتصحيحها من قبل مؤتمر الآثار العربي وعقد مؤتمرات حول هذه القضية.

٦- سليم عادل عبد الحق- مسرح وقلعة بصرى- الحوليات الأثرية السورية- ١٩٦٤- العدد ١٤ عام ص ٥- ٢٢.

٧- اذكر هذه الواقعة للأمانة التاريخية وكما ذكرها لي الدكتور سليم عادل عبد الحق شخصياً في مدينة باريس في فرنسا أثنـاء زيـارة لبيته بدعوة على الغداء في ربيع عام ١٩٨٢، كما ذكر أنهم وقعـوا في حيرةٍ من أمرهم وقلق حول تدبير الأمـور بهذه السرعة وترتيب الإجراءات العائلية، ولكـن للصدفة والتقدير فما أن هموا للسفر والمباشرة بالعمل في القاهرة حتى وقع الانفصال.



الدراسات والبحوث



حقوق الإنسان في التراث العربي

وحقوقه في: دستور الثورة الفرنسية

أحمد عمران الزاوي *

لن نتوغل في الزمن لنقف على حجم الحقوق التي كان ينالها الإنسان.

ففترة ما قبل القرن السابع الميلادي، كانت في جميع الدنيا مغمورة بالظلام الاجتماعي.

حقوق الإنسان التي صارت طبيعية فيما بعد «حق الحياة» و«العمل» و«الأسرة» و«المعتقد» و«التعبير» و«المجاهرة بالكرامة».

لم تقونن ولم تضبط في نظام آمر ساهر إلا بعد أن استقر التشريع في يد الدعوة الإسلامية واستقرت معه ضوابط التنفيذ.

** باحث ومحامي سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

فيما يلي سوف أقدم بحياد علمي من المقارنات والنصوص والوقائع ما يؤكد هذه الحقيقة.

وأنا إذ أركز على تلك الفترة من تاريخنا فلأنها الأزهى ولأنها الأكثر ضوءاً في ذلك التاريخ وما بعده باثني عشر قرناً تقريباً.

سوف أقصر بحثي على المواضيع التالية:

- تعريف الحرية في القاموس وقوانين اللغة العربية.

- مساحتها في النصوص العربية الإسلامية.

- مقارنة بين مساحتها الإسلامية العربية وبين مساحتها في دستور الثورة الفرنسية وشرعة حقوق الإنسان.

- ثم ألقي بعض الضوء على ما ينتشر الآن من حقوق عربية وفيما إذا كان ينبغي التبديل أم يكفي التعديل؟

١- تعريف الحرية في اللغة:

الحر: هو نقيض العبد.

والحرة: نقيض الأمة.

والجمع: أحرار «للذكور» وحرائر أو حرّات «للإناث».

والحر من كل شيء خياره فكل شيء فاخر من شعر ونثر وسواه يطلق عليه اسم «الحر».

«الطاقة الأصيلة حرة» و«السحابة الهطول حرة» و«الصقر حر» و«الحران نجمان عن يمين الناظر إلى الفرقدين إذا انتصب الفرقدان».[1]

وقد وجدت كلمة «حر» في اللغة المصرية القديمة حيث كانوا يسمون «الصقر» حراً أخذاً من «حورس» أو «حور» اسم الفرعون.

لقد وردت كلمة «حر» في الآية (١٧٨/٢) و(٩٢/٤) و(٨٩/٥) و(٣/٣٨).

ففي الآية (١٧٨/٢-البقرة) تفريق في القصاص بين الحر والعبد.

وفي الآية (٩٢/٤-النساء) تحرير العبد كفارة عن القتل الخطأ.

وفي الآية (٨٩/٥-المائدة) تحرير العبد كفارة عن اللغو في الإيمان.

وفي الآية (٣/٥٨-المجادلة) تحرير العبد كفارة عن العودة بعد الظهار.[2]

٢- الحرية في المنظور العربي الإسلامي:

بما أن القرآن اكتفى بالقول عن الحر نقيض العبد.

فقد خلت آياته من المعنى الحالي «للحرية»

واكتفاء القرآن كان مراعاة للثوابت الاجتماعية التي لم يتخلص الإنسان منها إلا بعد حرب الشمال والجنوب في أميركا أطلق

عليها اسم تحريـر العبيد كان الناس فئتين (أسيادهم الأحرار) و(أرقاءهم العبيد).

فالمهمة التـي ألقاها المجتمع على عاتق العبيد هي خدمة السيد وتنفيذ رغباته دون اعتراض والرغبـات كانت تتجاوز التكاليف الشخصية فتشمل الرعـي وخدمة الماشية والجنـي وقطع الأخشـاب ونقلها والتزويد المنزلي بالماء والعسل والبيض وسواها.

لذلك:

-كان تعدد الرقيق تحت اليد دليلاً على اليسار مثـل تعدد المواشي والمقتنيات. وكان انتشاره في الحياة الاجتماعية برهاناً ساطعاً على الفرق الطبقي الشديد.

مما جعل الرسالة تتعامل معه بالتدريج التعليمي.

«إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْـوَةٌ..» الحجـرات ٤٩/١٠.

﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْم عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَـاء عَسَى أَن يَكُـنَّ خَيْراً مِّنْهُـنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُـمْ وَلا تَنَابَـزُوا بِالأَلْقَـابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُـوقُ بَعْدَ الإِيمَـانِ وَمَن لَّمْ يَتُـبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾. الحجرات ٤٩/١١.

وفي الحديث الشريف:

«**إخوانكـم خولكـم جعلهـم الله تحـت أيديكـم فمن كان أخـوه تحت يده فليطعمه ممـا يـأكل وليلبسه ممـا يلبـس ولا يحمله فوق طاقته وإن حمّله فليساعده وليعنه**»

(اقتباس من الحديث)

منـذ أن آلت الخلافة إلى الخليفة الأول أخـذت الحرية بعداً سياسياً شاملاً للجميع حيـث تقلصت شرائح المجتمـع إلى شريحة واحـدة تضم الراعـي والرعيـة ففي أول خطبة

له قال:

«أيهـا الناسـ إني وليـت عليكم ولست بخيركـم فإن أحسنت فساعدوني وإن أسأت فقومـوني أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعـة لي عليكم القوي عندي ضعيـف حتى أسترد منه الحـق والضعيف عندي قوي حتى أرد له الحق».

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الثلاثة:

فالثاني عمر (رضي الله عنه) كان يعسّ على رجليه بالليل ماشياً.

وهـو الذي قال: مـن رأى في اعوجاجاً فليقومـه وابتسـم عندما قال لـه أعرابي بأعلى صوتـه: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف.

وهـو المتسائـل المستكر علـى الأسياد استعباد الناس:

«متـى استعبـدتم الناس وقـد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».



أما الرابع علي (رضي اللّه عنه) فقد انتقل بسياسة الحرية نقلة نوعية إذ لم يتوجه بخطابه إلى الأسياد بل إلى المسحوقين ولم يعتبر الحرية عطية من أحد فصرخ في المسحوق الذي أحنى الاستعباد قامته قائلاً: «لا تكن عبد غيرك وقد خلقك اللّه حراً».

فترة الأربعة هي العصر الراشدي تميزت عما تلاها بأن الخليفة يقبل النقد ومستعد لتصحيح الأخطاء وأنه مستعد للتنازل وإسقاط البيعة إن خرج عن المثل والأخلاق.

ولكن:

منذ أن غابوا غاب تواضع الحاكم وغابت المساواة من كتلة السلوك الاجتماعي وعادت نزوات النفس فاكتسحت الجميع من الراعي إلى الرعية كل وما تصل إليه ذراعه.

للمثال والمقارنة أسرد حادثة مماثلة تصرف فيها أربابها بأساليب مختلفة.

- قال عمر (رضي اللّه عنه) لمن أقسم أنه لو رأى فيه اعوجاجاً لقومه بحد السيف: الحمد للّه الذي أوجد من يقوم عمر بحد السيف.

- قال أحد جلساء معاوية: إن أسأت قومناك فاتقدت عينا معاوية وقال بماذا؟ فأدرك القائل خطورة الموقف فقال: بسيوف من الخشب فانفرجت أسارير معاوية وقال: إذن نستقيم.

- قام عبد الملك خطيباً بين الناس وقال «واللّه لا أسمع أحداً يقول لي اتق اللّه إلا ضربت عنقه.

- ليس بين القول الأول والثاني أكثر من عشرين سنة.

وبينه وبين القول الثالث أكثر من ثلث قرن.

وثمة حادثة رويت عن خليفة عباسي أنه قال لأحد جلسائه:

«إنه الحكم يا بن أخـي والله لو نازعنا عليه صاحب الرسالة لحززنا رأسه بالسيف».[٣]

لقد غابت مؤسسة الشورى وحل محلها السيف أو التوريث

والشورى مأمور بها من الله بكل صراحة

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...﴾(آل عمران ٣/١٥٩).

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. (الشورى ٤٢/٣٨)

الشورى التي أمر بها النبي فطبقها وسارت عليها أمور الناس في العصر الراشدي غابت وحل البديل شرطة وسجون وقضاء وأمن لحماية الطلع الجديد الذي اقتضى تشبثه بالدنيا إقصاء القديم من نصوص وسنن لأنها كانت تتعارض مع رغباته وامتيازاته.

أصيبت الشورى في الصميم حيث استهدفت من ثلاثة مراصد.

أصيبت من الاستخلاف الوراثي.

وأصيبت من احتباس النقد في الصدور حفظاً للرؤوس من السقوط.

وأصيبت من تكاثف النسيان للنصوص وسيرة النبي ونهج الراشدين وقام البديل فكر لبون وقف مواهبه لامتداح مزايا السلطان أو اختلاقها فتعاقبت الأحداث حاملة أقصى ما يمكن حمله من المتغيرات في السياسة والأخلاق.

فالعرب الذين طوروا الحكم واعتبروا المساواة جزءاً لا يتجزأ من الحياة مخلفين جمهورية أفلاطون وديموقراطية أثينا وحولوا هذا الشرق إلى بستان عالمي من الحضارة لم يحتفظوا بمواقفهم أكثر من ثلث قرن حتى عادت النوازع والأهواء مثل الطوفان اكتسح القيم والأخلاق ودفع بها إلى بطن التاريخ.

انتشر الغنى فأنجب الطغيان[٤] والتنكر للقيم وأصبح الفرق بين الأحرار والعبيد والحرات والإماء طابع العصر وحفرت الأهواء أخدوداً بين الخلق الراشدي وما بعده ازداد عمقاً واتساعاً وبعداً على الزمن حتى صار الانفصال عن النصوص واستبدالها بالجديد الماجن في مقدور أي إنسان.

والرقيق:

الذي كان من الثوابت الاجتماعية العالمية والذي عالجه التشريع العربي بالتدرج كما مر في الآيات السابقة.

عاد على أوسع مما كان قبل الدعوة فأصبح من المقتنيات مثل أمتعة القصور والحيوانات وما من فرق في الاقتناء بين المسلمين وغير المسلمين ولا بين الذكر والأنثى فالذكر عبد والأنثى أمة أو ملك اليمين نعم لم يكن يخلو زمن من المصابيح التي تنير العقول ولكنها لم تكن تلبث غير القليل حتى يغيبها أوقيانوس الظلام.

إن عمر بن عبد العزيز حاول أن يعيد عهد الراشدين فمات ميتة مجهولة ومعبد الجهني وتلميذه غيلان الدمشقي وبشار بن برد وعيسى بن منصور الحلاج وأبو عمر السهروردي وغيرهم كثيرون(٥) قضى عليهم النهج الجديد.

٣-المقارنة:

إن المقارنة بين الحقوق التي منحها التراث العربي الإسلامي للإنسان وبين ما منحته ديموقراطيات الغرب بدءاً من دستور الثورة الفرنسية مروراً بشرعة حقوق الإنسان التي أصدرتها الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨ وصولاً إلى الممارسات الديموقراطية في أحدث صورها.

هذه المهمة:

تستدعي أن يستبعد الباحث من المقارنة الفكر التشددي الذي يدعي أن الفكر الأصولي الحرفي هو وحده يمثل الفكر الإسلامي وأن يستبعد اليافطات التي ترفعها بعض أنظمة الحكم الإسلامية جاعلة منها غطاء يستر عورات الحكم وذلك

كما يلي:

١- يقوم استبعاد الفكر التشددي على الأسباب الآتية:

- يعتبر أصحاب هذا الفكر جميع صنوف التشريع البشري قوانين وأنظمة ومؤسسات كفراً لأن تحديد الحلال والحرام والثواب والعقاب والمسموح به والممنوع عنه هو من صلاحية الله وحده.

- العلم هو الذي يحقق الارتباط بالله هو العروة الوثقى أما سواه من العلوم التي لا تفضي إلى هذه الغاية فهي خارجة عن مفهوم العلم الحقيقي لأنها خارجة عن العبودية لله وبالتالي: يكون الاستغناء عنها تنفيذاً لإرادة الله.

ويتابعون:

مع أن الأمة العربية كانت أمية فقد وصفها الله بأنها خير أمة أخرجت للناس ومع أن ابن عبد الله كان أمياً فقد كلف برسالة الله وقد كان بمقدور العناية الإلهية أن تحذف منه الأمية قبل الدعوة أو بعدها مما يقطع بأن ما سوى العلوم العبادية هو كفر صريح.(٦)

وفي كتاب «رسالة الإيمان» بين مؤلفه

صالـــح سرية نظرة هؤلاء إلى الديموقراطية فقال:

الديموقراطيـــة منهاج للحيـــاة يخالف منهاج الإســـلام ففي الديموقراطية الشعب هو صاحب الحـــق والسلطة في التشريع في حين أن لا صلاحيـــة للشعب في الإسلام بل الصلاحية لله إن الجمع بين الديموقراطية والإســـلام والكلام لهم هـــو مثل الجمع بين اليهودية والإسلام فكما لا يستطيع المرء أن يكون مسلماً ويهوديـــاً في وقت واحد كذلك لايستطيع أن يكون ديموقراطياً ومسلماً.

ج- ولم يقم استبعادي لهذا الفكر:

بسبـــب كونه غير علمـــاني بل لأنه اعتبر الديموقراطية هـــي العلمانية بالضرورة في حين أنها قد تكون شيئاً مختلفاً بل قد تكون حالة مناقضة فقد عـــرف القرن العشرون نظامين من أكثر النظم علمانية هما النظام النـــازي والنظـــام الفاشي ومع ذلـــك أكثر النظم كافة في كبت الحريات وكتم الأنفاس وتصفية الأحرار وتهميش الشعب.

إن منطـــق الحيـــاة الـــذي يرفضـــ الببغاوية.

يرفضـــ في هذا الزمـــن صلابة التفكير وجموده ويوجب قيام النظم الاجتماعية على قواعد من التمدد الفكري والديني والقومي ويرى وجـــوب الاستقلالية بين هذه الأقانيم لأن طغيـــان أحدها على قسيمه الاجتماعي يؤدي إلى الكوارث.

٢- أما استبعادي للفكر المتحكم المتمثل في الشعارات فللأسباب الآتية:

- لأن همهـــا المقيـــم الـــذي يتقدم على كل هـــم واهتمام هو حمايـــة الكرسي وذلك بتركيم النصوص والسهر الدائم على الدفاع عـــن الامتيازات وإســـكات المعارضة بجميع وسائل القمع.

- لأن هـــذه المناهج بعـــدت عن الأصل العبقري بعداً شاسعـــاً حتى يبدو أن الصلة بينها وبين ذلك الأصل قد انقطعت نهائياً.

لذلك:

لم نر فرقـــاً بين نظام الفكـــر التشددي ونظـــام اليافطات والشعـــارات كل منهما لا يستطيع أن يعطي صورة حقيقية عما طبقه العرب في صدر الإسلام فالديموقراطية:

كما تحدثت عنها فلسفة حقوق الإنسان وكما طبقها أجدادنا الأوائل.

هي:

تمكـــين الشعب أن يحكـــم نفسه بنفسه مستبعداً تسلط الفرد أو الجماعة.

ونظـــراً إلى أنها تتكون في رحم الظروف الاجتماعية فهـــي لا تستطيع امتلاك زمام الحياة إلا بعد أن تنضج جوارحها.

لهـــذا قالوا: الديموقراطيـــة هي الابنة الشرعية للتطور.

دخلت الديموقراطية بتعريفها الحديث إلى المجتمع الإنساني لأول مرة بدستور الثورة الفرنسية الصادر بوثيقة عام ١٧٨٩م.

ثم حملت هوية عالمية بوثيقة الجمعية العمومية للأمم في ١٠/١٢/١٩٤٨م وكان من الطبيعي أن تأتي الوثيقة الثانية أبعد مساحة وعمقاً من الوثيقة الأولى لأن عوامل التطور كانت قد فعلت فعلها في سيرورة المجتمعات إبان الفترة الفاصلة.

ففي ظل الوثيقة الأولى:

- قالت مدام رولان وهي في طريقها إلى المقصلة: مسكينة أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك.

- كما عبر روبسيير عن كيفية الوصول إلى الحرية بمقولتيه الشهيرتين:

«الحرية تسقى بالدماء».

«الحرية هي الاستبسال ضد الطغيان».

أما وثيقة الأمم المتحدة فقد فرضتها ظروف ذلك الزمن.

إذ منذ أن انقشع ظلام الكون واقتحم الهواء النظيف صدر الإنسان من دون استئذان جاء الإعلان في الوثيقة أن تلك الحقوق الطبيعية لم تعد كتلة من العطايا تتصدّق بها على الشعب نظم فردية أو جماعية بل هي من أوليات حقوق المواطن وحمايتها من أوليات واجبات الحكم.

في التاريخ: إن أول صيحة لمكافحة الظلم صدرت عن الكنيسة.

نعم: من الكنيسة:

إن أول صيحة ضد الظلم في العالم الغربي صدرت عن الكنيسة كانت صيحة احتجاج على إبعادها عن السياسة وتفكيك أصابعها عن أعناق المجتمعات التي ظلت متحكمة في أنفاسها أكثر من ألف وخمسمئة سنة..

بدأت الصيحة بالأنين ثم علت متخذة شكل النداء الذي عرف فيما بعد بأنه نداء الكنيسة الذي تضمن إعلاناً بأن لكل مظلوم مطلق الحق في مكافحة الظلم.

ولكن فلاسفة القرن الثامن عشر وثواره فطنوا إلى خلفيات ذلك النداء فاختطفوه وداروا به دورة كاملة وفسروه بمعناه الجديد.

وهو:

«إن للفرد حقوقاً طبيعية نشأت قبل نشوء المجتمعات هي: حق الحياة، والأمن والملكية والعمل والتعبير وتكوين الأسرة».

وهي: مع بديهيتها وقدمها ترزح تحت سلطة الأقوياء.

لذلك:

أعلنوا بأن من حق أي مظلوم أن يكافح ضد ظلم يقع عليه من الغير.

وتلك الحقــوق بمقدار مــا هي حقوق طبيعيــة هـــي أيضاً واجبــات طبيعية على الدولة التي هـــي مفوضة من الشعب لإدارة شؤون وحماية حقوقه أفراداً وجماعات فإن هي أهملــت هذا الواجب خطــأ أو قصداً سقــط التفويض حكماً وإن هي تشبثت بعد ذلك صــار استهدافها وإقصاؤها جهاداً في سبيل العدل الإلهي.

حقــوق الإنسان هي ذاتهــا في كل زمان ومكان.

ولكنها كانت تصادر مما يمكن من القول بكل ثقة:

إن وثائق الغرب لم تبتكرها بل هي موجودة منذ وجود الإنسان وما اختلاف الأمم حولها في الأزمنــة السابقة غير اختلاف في وسائل فهمها وتطبيقها.

من هنا: وبعد أن تعرفنا على تاريخيتها في الغــرب بــات علينــا أن نتعــرف علــى تاريخيتها عند العرب.

ملاحظة:

لا نقصد بالتاريخية معرفة بدء نشوئها بل تاريخية فهمها وتطبيقها لأنها في الوجود قديمة قــدم الإنسان ونحن في هذا التعرف لن نغادر النصوص بل سوف نكتفي بإيرادها والتعليق عليها أي سوف نقدم النصوص أدلة غير مشكوك فيها..

لــن يكون منصفــاً ولا حيادياً أي باحث في هذا الإطــار إن أهمل وثيقة المدينة تلك التــي وضعها النبي (ص) لأهل يثرب حينما وصل إليها مهاجراً من مكة التي أوذي فيها وأصحابــه... كان يسكــن في يــثرب آنذاك مسلمــون ومهاجــرون وأنصــار ومشركون ونصارى ويهود وأحنــاف فوضع النبي تلك الوثيقة سقفــاً جامعاً للجميــع تحت مبدأ المواطنية دون تفريق في الدين المدينة حلال علــى أهلها حرام علــى غيرهم لا فرق بين المسلم وسواه من أبنائها. /لقد ذكر محمد بن حميد الطوسي في كتابه «الوثائق السياسية في عهــد النبــي» نقــلاً عن تاريــخ المدينة للطبري أن النبي (ص) أرسل بعض أصحابه ليبنوا أعلاماً على حدود المدينة شرقاً وغرباً وشمــالاً وجنوباً.... في تلــك الوثيقة وفيما ورد في القــرآن ومــا جاء في حجــة الوداع والسنــة الصحيحة وتصرفــات الراشدين أدلة حاسمة علــى أن الفكر الليبرالي الحر الذي نــادى به الفيلســوف الإنكليزي لوك والفيلسوف الفرنسي جــان جاك روسو في العقد الاجتماعي كان أقل مما عرفه العرب وطبقوه قبل أكثر من عشرة قرون.(٧)

قبل أكثر من عشرة قــرون سابقة كانت الأبجديــة الأولى للنظام والتنظيم في البلاد العربية الإسلامية هي تركيز فكرة المساواة

وحرية التعبير من عبادة وسلوك ووضع الضوابط الكفيلة بالتنفيذ.

- ففي حين أن بريطانيا (بلدلوك) لم تقرر التسامح مع الكاثوليك إلا في عام ١٨٢٩ ومع اليهود إلا في عام ١٨٤٢ ومع الملحدين إلا في عام ١٨٧٨.

- وأن الجمعية التأسيسية الفرنسية التي أعلنت حقوق الإنسان في كل مكان لم تقرر فصل الدين عن الدولة بل اكتفت بإقصاء الكنيسة عن السياسة وتحرير كنيسة فرنسا من سلطة البابا.

- وأن روسو اختتم العقد الاجتماعي بضرورة النص على الهوية الدينية للدولة ومعاقبة الخارجين عليه بالإعدام.

- وأن فولتير ألح على أن تكون الكاثوليكية دينا رسمياً يجب أن ينتمي إليه جميع المواطنين.

نقول:

في حين أن حقوق الإنسان طرحت في الغرب بتلك العيوب فإنها طبقت في الوطن العربي الإسلامي خالية من أي عيب وفيما يلي عدد من الفقرات استعرض فيها بالاختصار الممكن حجم تلك الحقوق وكيف طبقها العصر العبقري العربي الإسلامي.

أ-في آيات القرآن وخطب النبي وما صحت نسبته إليه وفي سيرة الراشدين أدلة على أن المساواة بين الناس هي حق إلهي قرره الله للبشر دون تفاضل ولا تمييز.

أي:

إن المساواة في النصوص الإسلامية هي حق قرره الله في حين أن صرخة روسو في مقدمة العقد الاجتماعي كانت عرضاً لا فرضاً.(٨)

«أيها الناس: لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أحمر ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى».

من خطبة حجة الوداع

- في حين أن «روسو» طالب بالإعدام لمن يخالف المذهب الكاثوليكي.

قال القرآن: «**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..**» (سورة البقرة ٢/٢٥٦).

«**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**» (سورة الكهف ١٨/٢٩).

«لنجران وحاشيتها عهد الله وذمة رسول الله في أنفسهم وأموالهم ومقدساتهم لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا يحجرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش».

من وثيقة العهد مع نجران

- وإن كان فولتير وروسو اللذان هما أبرز مفكري الثورة وقد أوجبا حماية الكاثوليكية كدين رسمي لا يقبل التعدد.

فإن القرآن طمأن الجميع على مقدساتهم وأعلن أن لا خوف عليهم وأن لهم أجرهم عند ربهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(سورة البقرة ٢/٦٢).

وإذ برد الجدال، فقد أوجب أن يكون مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

العنكبوت ٢٩/٤٦ أي أحسن من الحسن

ب- وفي سلوك صاحب السلطة تجاه الناس ثمة فرق كبير

ففي الخطبة الأولى للخليفة الأول (مرت معنا سابقاً)

وفي أقوال الثاني وأفعاله (مر معنا سابقاً)

وفي أقوال الرابع (مر معنا سابقاً)

ما يدل بوضوح على وجوب احترام الإنسان وأن لا فرق بين الحاكم والمحكوم في حين أن إمبراطور ألمانيا خطب في سنة ١٨٩٧ أي بعد مئة سنة على صدور وثيقة الثورة الفرنسية فأعلن للناس قائلاً:

«إنني مفوض من الله لذلك أرفض أن يراقبني واحد من مخلوقات الله».

ج - وفي حين أن فلاسفة الثورة الفرنسية رفضوا التعدد

كان عمر بن عبد العزيز الذي حكم قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون قد أمر بحماية الحرية الدينية لأتباع الكنائس والكنس وبيوت النار وكان هو يقوم بزيارة تلك البيوت الدينية ويقول: «إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً».

د-أما حرية التعبير التي وجدنا نمطاً عنها في العقد الاجتماعي وأقوال فولتير وخطاب الإمبراطور الألماني.

فقد كانت شيئاً مختلفاً اختلافاً جذرياً في العرب المسلمين

«إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني» أبو بكر

«والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف» قالها أعرابي لعمر

هـ-والأسرة التي لم تعرف الاستقرار حتى الآن في الغرب أضفى عليها النص الإسلامي ثوب القداسة.

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...».(سورة الروم ٣٠/٢١).

«وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ».

(سورة لقمان ٣١/١٤).

«وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً× اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً».

(سورة الإسراء ١٧/٢٣-٢٤).

و- والظلم الذي لم يتخذ أي إجراء عملي أو كتابي لمكافحته في الغرب أوجبت النصوص على الحاكم العربي أن يكافحه واعتبرته كفراً ينتظره عقاب الله.

«وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ». (سورة إبراهيم ١٤/٤٢).

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً».. (سورة النساء ٤/١٠).

وعن علي كرم الله وجهه:

- ما جاع فقير إلا بما متع به غني.

- ما رأيت نعمة موفورة إلا وعلى جانبها حق مضيع.

تلك الفقرات إضافة إلى الحض النصوصي على العلم والعمل.[10]

قدمتها أمثلة وحملتها الغايات التالية:

الأولى: لتقديم الدليل على أن ليبرالية لوك وفلسفة روسو ووثيقة حقوق الإنسان وشرعة الأمم المتحدة لم تكن غير تأوهات إنسانية سبقها العرب بعدة قرون وحولوها إلى قواعد دينية وزادوا بأن نظموا واعتبروا حقوق الإنسان فرضها الله وليس السلطان وأنها مثلما هي حقوق للرعية واجبات على الراعي.

الثانية: وهذا هام جداً... وهو لكي أثبت أن أمتنا العربية لم تتقدم إلى الطليعة إلا بعد احترامها حقوق الإنسان ولم تتخلف عن الأمم إلا بعد ما هجرت تلك الحقوق.

الثالثة: وهي هامة أيضاً

إن أمتنا لن تستعيد دورها الحضاري بل ولن يكون لها وجود حضاري بتقليدها للغرب حرفياً واختبائها تحت موائده الدستورية والقانونية بل يتم لها ذلك:

- بالتحديق جيداً فيما آلت إليه حالنا.

- بالبحث عن العلاج الذي يتفق مع خصائصنا القومية مبتدئين بالتراث.

في التراث نجد الأسباب الحقيقية التي تحولت بالأمة من التفتت إلى الوحدة ومن الجهل إلى العلم ومن التبعية إلى الدور القيادي.

فالالتفات عنه والافتتان بما أخذه الغرب هو عبث بالذات والتاريخ.

الرابعة: إذ يقول الغرب: إن فكرة العقد الاجتماعي هي من إبداعهم.

نقول: إن العقد الاجتماعي طبقه العرب

قبل أن يراه الغرب بأكثر من عشرة قرون.

فالعقد يعني وجود فريقين: أولهما الفرد وحقوقه والثاني هو الدولة التي صار تفويضها بحماية هذه الحقوق وهذا ما تعنيه البيعة تماماً.

قال السنهوري: البيعة عقد مستوف لأركانه معناه الرضا وطرفاه الإمام والأمة وموضوعه توكيل الإمام لتصريف أمور الأمة.

وقال ابن خلدون قبله بستة قرون.

«كانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري».

ملاحظة:

كنقطة نظام لها الحق بقطع الحديث لابد لي من إيرادها وهي:

الرجاء ألا يحمل كلامي على أنه دعوة إلى حرفية النظم السابقة.

بعد هذا الفاصل الزمني الذي تراكمت فيه مستجدات الحياة.

بل: وأبواب هذا القرن قد تفتحت

ولن تستقبل بالتكريم إلا من تحصن بالأخلاق السامية وتسلح بالعلم النافع.

أردت التنبيه إلى ضرورة عدم الأخذ بالتراث بحرفيته وعدم نبذه بكلّيته والاستعاضة عن كلية الأخذ والنبذ باستعادة صور الماضي استعراضاً استقصائياً واعتبارها عمقاً استراتيجياً لحياتنا.

٤- هل نحتاج إلى التبديل؟

هل نستطيع بما وضعه الأجداد في القرن السابع لوحده أن نغطي حاجاتنا العصرية؟

في اعتماد نظرية: عدم الأخذ الحرفي وعدم النبذ الكلي جواب كاف فنحن إذ التزمنا بالإقرار أن حقوق الإنسان ليست منة ولا تفضيلاً من السلطات وإن التطور حاجة أبدعها البديع.

ملزمون بأن نقر بأن الله الذي حدد الحقوق وقضى بالتطور أبدع في كل أمة خصائص تميزها عن سواها.

هذا يقتضي ألا نأخذ من الغير إلا ما ينسجم مع خصائصنا.

فإن لم نلتزم بهذا المبدأ نكون مثل ذلك الطائر الذي نسي مشيته فيما هو يقلد مشية الغير نسي ما مضى وفشل في التقليد.

يقول قائل:

لماذا؟ أوليست الحضارة أممية التدفق؟

نجيبه نعم: ولكن أجساد الأمم مثل أجساد الأفراد إن وفد إليها عنصر غريب عن طبعه وتكوينه رفضه وإن كان إدخاله ضرورة طبية فإن الجسد ملزم بالدوام على مطر من الأدوية وعناية طبية دائمة وحمية صارمة هذا القياس وإن كان قياساً مع

الفارق يستطيع أن يعين ضرورة التحذير من الاعتماد على الآخر دون حذر.

نحن لن يتحقق لنا استقلال النجاح بل ولن ينسب إلينا النجاح إن تحلقنا دون تدبر حول المائدة الحضارية التي أعدها لنا الغرب.

من حق أمتنا علينا أن نتحقق مما على تلك الموائد وفيما إن كانت الأصناف الحضارية التي تملؤها خالية من استغلالنا والاحتيال علينا.

والتأكد إن كانت قد قدمت لوجه الإنسانية والحضارة.

إن أبلغ الملاحظات وجدته في فقرة من خطاب كان أحد قادة العالم الثالث قد وجهه إلى شعبه قال:

«إذا لم تلتفتوا إلى السياسات التي يسوقها الغربيون الإمبرياليون وظللتم عند فكرة أن الإسلام ليس أكثر من الموضوعات القليلة التي تدرسونها ولا تتجاوزونها فإن الإمبرياليين سيتركونكم وشأنكم أقيموا الصلاة ما شئتم إن الذي يريدون هو بترولكم لا شيء يقلقهم من صلواتكم وأدعيتكم إنهم يريدون بترولنا ومعادننا ويريدون تحويل بلداننا إلى أسواق لاستهلاك بضائعهم التي يأخذون موادها الأولية من أرضنا ويعيدونها مصنعة يبيعوننا إياها بالأثمان الباهظة.

لهذا تقوم الحكومات العميلة التي نصبوها بمنعنا عن التصنيع ولا تسمح إلا بصناعات التجميع التي تستعين بالخارج».

هذه الأقوال الثورية العميقة لم تصدر عن قائد الثورة الكوبية ولا عن قائد الفاتح من أيلول ولا عن قائد الثالث وعشرين من تموز بل صدرت عن قائد يعتمر العمامة وعباءة الإسلام هو آية الله الخميني.

لقد تكلم هذا القائد الفقيه بألسنة مئات الملايين التي أطلقوا عليها اسم العالم الثالث فنقل بعباراته الواضحة حقيقة نوايا الغرب تجاهنا فالأسلوب الغربي كما رآه الخميني ينطلق عندنا من مصالحه ليصب في مصالحه فهو أي الغرب يريدنا أن نتمسك بحرفية السلف وأن نجمد عليها وأن نتعايش مع حالة التشمّع الفكري.

هذه الغاية تمثل خلاصة الأسباب التي تجعل الغرب مناصراً وداعماً للحركات الرجعية في بلداننا ومدها بالسلاح والأموال وتغطيتها بوسائل الإعلام وتصفيته لأقنية الدماء التي تسيحها في ساحاتنا باسم القومية والدين والقومية والدين منها بريئان هذا يفسر حِصار سورية والمقاومة في لبنان وغزة ألا فليعلم الجميع أن الحضارة لا تستنسخ مثلما صار استنساخ دوللي لأنها مثل أية نظرية حينما تنتقل من مكان إلى

مكان تختلــف شكلاً ومضمونــاً باختلاف الأمكنة.

تبــدأ منذ أن تحل في وطن جديد بطرد جميــع معاكساتهــا الاجتماعيــة والفكرية المتوضعــة في ذلك الوطــن ثم تركم الجميع في سلة واحدة متبعــة أسلوب المحدلة على الطريق تملأ التجاويف وتبتر النتوءات حتى يستوي الكل تحت قدميها بالاستخذاء ويخلو الطريق من تضاريس المعارضة لأن التجانس الجديد اتخذ طريقاً يتفق مع دولاب المحدلة واسطوانتها العريضة الثقيلة.

هذا ولن يفوتنا:

أنــه لا ديموقراطيــة حقيقيــة حتى في أحدث البلدان.

هنــاك وفي كل مكان الشعــب لا يحكم نفســه بل تحكمه بيوت المــال من مصارف ومصانع وشركات.

أنــت أيها المفكر حر في تفكيرك ألف ما تشــاء من الكتب ضع ما تشاء من النظريات أطلق ما لديك من عبارات النقد.

لن يعارضك أحد لأن لك حرية التعبير

ولكن حينما تطرح فكرك مقالاً أو كتاباً لدى أية صحيفة أو مجلــة أو مطبعة تقابل طروحك بالرفض لأن تلك الدور حرة أيضاً في أن تنشر أو لا تنشر ولكن بما أنها مرتبطة بالأجهــزة وبيوت المال لا تنشــر كلمة فيها مساس بتلك الجهات.

إذ ذاك تقتنــع أن الصهيل بالحرية هو عبث لفظي.

وأنت أيهــا العامل صفق وارفع عقيرتك بالغناء فقد نصت القوانين على حريتك في أن تعمل أو لا تعمل تريث وانظر في الصفحة الثانية من القانون إياه أن صاحب العمل حر في أن يستخدم عملك أو لا يستخدمه.

إذ ذاك وتحت ضغط حاجتك تتنازل عن حريتك وتضعها بين يدي صاحب العمل هو الذي يضع حدودها ويحدد حجومها.

الديمقراطيــة الحديثــة مثلمــا فعلت في الفكــر والعمل أفرغــت جميع الحقوق الإنسانية الأخرى من معاني الحرية.

فليســ مــن حــر في الديموقراطيــة الرأسمالية غير المال

هنا:

نلتمس الانتباه إلى ملاحظة ثانية كنقطة نظام لا يجوز إرجاؤها وهي أننا فيما قدمناه لا ندافع عن الضياع الحضاري الذي يكتنف أمتنا ولا نهــدف إلى تفضيله بحرفيته على أنظمة القوانين والمؤسسات..

ولكننا استدعينــا الأمثلة من مصادرها لكي نــبرر بها الدعــوة إلى عــدم الافتتان بالأنظمة الغربيــة وإلى أن استنساخنا عنها لن يحقق لنا ما نصبو إليه.

بقي أن نبين الأسباب التي شكلت أخدوداً فاصلاً بين النصوص الديموقراطية وبين عدم تنفيذها.

سوف نحاول وضع اليد على الأسباب مؤكدين سلفاً أن محاولتنا اجتهاد قد تعترضه اجتهادات وقد تحمل من الصواب أكثر مما يحمله ومع هذا فإن تعدد الاجتهادات يثري الفكر ويوسع مساحة الاختيار.

قامت الديموقراطية الغربية على الأفكار التي طرحها لوثر بين الناس في أوائل القرن السادس عشر.

لقد بحث هذا الراهب طويلاً فيما تركه السيد المسيح والآباء الأجلاء من بعده فلم يجد ما يبرر تسلط رجال الدين على نفوس الناس وأقدارهم وأموالهم.

كانت دوافعه الأولى إبعاد رجال الدين عن النشاط السياسي اقتداء بالمسيح الذي رفض عروض الدنيا وقال مملكتي ليست في هذا العالم ودعا إلى التحرر من مفاتن الدنيا آمراً جماعة المؤمنين أن يتركوا ما قيصر لقيصر وما لله لله.

انتشرت أفكار لوثر بين الناس انتشاراً سريعاً وخاصة البرجوازيين الذين كانوا ينوؤون تحت طلبات رجال الدين فسرعان ما رفعوا أفكار لوثر فوق الرؤوس واعتمدوا عليها في استلام قيادة المجتمعات حكماً وعلماً واقتصاداً دون أن يقابلوا من اللوثرية بالاستنكار.

لقد أوهموا الناس دون اعتراض من اللوثرية أنهم أعمق الجميع فهماً لموقف المسيح حينما نادى بإقصاء أهل الدين عن الدنيا وقالوا: لسنا ملزمين بغير مصالحنا الدنيوية أما الأخلاق فقد أناط السيد صياغتها وحمايتها والإشراف على تنفيذها برجال الدين.

لذلك:

يخطئ كثيراً من يعتقد بأن حرية العبادة والعمل والفكر والأسرة التي ملأت القوانين الديموقراطية وضعت لتحرير المظلوم والأخذ بيد الضعيف استجابة منهم لصوت الإنسانية بل لحماية امتيازاتهم وصونها من تمرد الكثير المنهوب على القليل الناهب.

القوانين ونظم القضاء والأمن والسجون وضعت لاستمرار الاستقرار أي لتبقى الامتيازات في مأمن من التمرد عليها وتعكير صفوها.

أما الديموقراطية التي مارسها الأجداد فقد بنيت على قناعة مطلقة بأن كتلة الحريات حرية العبادة والعمل والفكر والسلوك وتكوين الأسرة هي حقوق أزلية منحها الله للإنسان وليست تفضُّلاً عليه من أخيه الإنسان الضمير ألقيت عليه مقاليد

الإمارة لأنه قوة رادعة لا تند عنها الصغيرة مهمـا صَغُرت أما القوانـين والأنظمة التي أبعدتـه عن الحياة فهـي أغطية اجتماعية ملأتها الشقـوق والثقوب ممـا أتاح لذوي الاحتيال النفاذ بجرائمهم منها.

لهذا قلنا:

إن ديموقراطية الغرب المستنسخة حرفياً ليسـت ولن تكون علـى مقاسنا الاجتماعي والأخلاقـي فلم يعرف في تاريخنا أننا حتى في أزهى الأيام هجّرنا شعبا أو هدمنا بيوتاً أو قلعنـا أشجاراً أو يتمنـا أطفالاً أو رملنا نساء لقد أوجبت علينا ديموقراطيتنا أن من دخل في ذمتنا فهو منا.

المجتمع المتعدد المبني على المواطنية هو صناعة عربية بامتياز ودون سابق.

لقد أثر عن المأمـون قوله لعلماء حلقة العلم:

ابحثوا ما شئتم من غـير أن يستدل أي واحد منكم بكتابـه الديني كيلا تثور بذلك المشاكل الطائفية.

وقال خلف بن المثنى:

لقد شهدنا عشـرة في البصرة يجتمعون في مجلـس واحد لا يعـرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة وهم:

«الخليـل بـن أحمـد- مسلـم سنـي» و«الحميري- مسلم شيعي» و«صالح بن عبد القدوس- ثنـوي» و«سفيان بـن مجاشع- خارجـي صفوي» و«بشار بـن برد- شعوبي خليع ماجن» و«ابن نظير المتكلم- نصراني» و«عمر بـن المؤيد- مجوسـي» و«ابن سنان الحراني- صابئـي» و«ابن راس الجالوت- يهودي».

كانـوا يجتمعـون فيتناشـدون الأشعار ويتناقلـون الأخبار ويتحدثـون في جو من المودة لا تكاد تعرف أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم.

بعد هذا:

أرجـو أن تفهم حقيقـة غايتي من عدم نسيان التراث

فهي العـودة إليه للاطلاع وليس للحذو الحرفي والاتباع

فنحـن مـع هـذه المتغـيرات الفكرية والحياتية لا نستطيـع أن ندفع بمجتمعاتنا إلى الخلف قروناً من الزمن.

فالدعـوة إلى الخلافة لا تجدي في هذه الأيـام وإن كانت يومذاك صيغة تقدمية مع صيغ الحكم.

ثم:

لن ننكـر أنها لم تعشـ ظرفها العبقري على الدوام.

فمن لا يفرق بين خلافة الراشدين وابن عبد العزيـز وبين يزيد بـن معاوية ويزيد

الآخر وخلفاء بغـداد فيما بعد والسلاجقة والأتـراك هو حسـير النظر قصـير الباع العلمي.

في الختام:

أرجو المعذرة لأمرين:

أولهما:

هذا البحث متعدد الأطياف لا يستطيع مقال أعد للنشر أن يفيه حقه.

الثاني:

لأن الأسلوب الأدبي طغى على الأسلوب العلمي وما ذلك إلا تقرباً من القراء.

الهوامش:

١- الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان قريبان من القطب.

قيل: هما كوكبان في بنات نعش الصغرى.

وبنات نعش: سبعة كواكب: أربعة منها نعش لأنها تشبه سرير الميت، لذلك سميت نعشاً، وهي الكبرى والثلاثة الباقية هن بنات نعش: فسميّن الصغرى.

٢- الظهار: هو أن يدير الرجل ظهره لزوجته ويقول: أنت كظهر أمي.

وقد ورد في الآية (٢) من سورة المجادلة: «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ منكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ».

٣- تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٥ وما بعدها. والخليفة هو «أبو جعفر المنصور».

٤- «كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى× أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى» (العلق ٩٦/٦-٧)

٥- – معبد الجهني: توفي في سنة ٦٩٩م= ٨٠هـ قتل لأنه قال بحرية الإرادة.

– غيـلان الدمشقي: توفي في سنة ٧٢٣م= ١٠٥هـ صلـب بفتوى الأوزاعي على عبد الملك بن مروان: تنسب إليه فرقة الغيلانية.

– بشار بن برد: شاعر أعمى خليع رماه المهدي بالزندقة فجلد حتى مات.

– الحلاج: فيلسوف متصوف سُجِن ثماني سنوات ثم عذب وصلب في عام ٩٢٢م.

– شهاب الدين السهروردي: فيلسوف إشراقي من سهرورد في مراغة قتل في حلب سنة ١١٩١م في القلعة.

٦- سئـل شكري مصطفى في المحكمة عن رأي منظمة التكفـير والهجرة وهو أحد قادتها عن تعريفها للعلم فقال «كل علم وتعليم يتجاوز حاجة العبادة هو حرام» القول مدون بحرفيته في ضبط المحكمة.

٧- جـون لوك: هو فيلسـوف إنكليزي عاش بين ١٦٣٢-١٧٠٤م على الرغم من دعوته الشديدة إلى فصل الزمني عن الروحي فإنه لم يطلب علمانية الدولة ولم يتسامح مع الملحدين

٨- أهـم مؤلفاتـه «محاولة الفهم البشري» وقد عد هـذا الكتاب من أهم مصادر الإشـراق الفكري الفلسفي في القرن التاسع عشر وخاصة فيما جاء به من البحث الاستباقي في فهم العقل الإنساني.

٢-جـان جـاك روسو: ولد في جنيـف وعاش أكثر عمره في فرنسا ومـات فيها عاش بـين ١٧١٢-١٧٧٨م. نشر في عام ١٧٦١م كتاب»جوليـا أو إيلويز الجديدة» وفي نيسان ١٧٦٢م نشر كتـاب العقد الاجتماعي وفي أواخر أيار من عام ١٧٦٢م نشر كتاب»إميل».

٩- «يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّـن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبـاً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنـدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ». سورة الحجرات، ١٣/٤٩.

صيحة روسو في مقدمة العقد الاجتماعي: «ولد الإنسان حراً وهو في كل مكان مكبل بالأغلال».

١٠- «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» سورة فاطر ٢٣/٣٥.

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ..» سورة العنكبوت ٢٠/٢٩

«قيمة كل امرئ ما يحسنه وأقل الناس قيمة أقلهم علماً» علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

«السماء لا تمطر ذهباً» عمر بن الخطاب رضي الله عنه.



اللغة الحثية
دراسة ومختارات أدبية

فايز مقدسي *

لقد بقيت اللغة الحثية مجهولة رغم العثور على مجموعة لا بأس بها من الألواح مدونة بها. وذلك حتى تمكّن العالم اللغوي «هروزني Hrozny» في الربع الأول من القرن الماضي من قراءة وتفسير نص صغير مدون بالحثية. مما سمح فيما بعد بقراءة النصوص الحثية وكان الحثيون قد اقتبسوا الخط المسماري الأكادي «البابلي القديم» لتدوين لغتهم إضافة إلى خط آخر.

أما النص الصغير فيحتوي على العبارة التالية التي نثبت هنا نصها بالحرف اللاتيني أولاً، ثم بالحرف العربي، قبل أن نشرع في استعراض كيف

** شاعر وباحث سوري - باريس.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

تم فهمها وتفسيرها مـــن قبل العالم المذكور أعلاه.

ثـــم، وهذا جهد شخصــي، سوف نعمد إلى درســ النصــ والعبارات الــواردة فيه لــنرى إلى أيّ حد يمكن اعتبار اللغة الحثية السورية ذات جذور هندو- أوروبية، أو أقدم لغة ضمـــن نطاق تلك المجموعة اللغوية كما يصنفها علمـــاء اللغات اليـــوم. وهل يمكن تفسيرها بلغات شرقنا القديم.

/Nu/Ninda/ an/ezza/tteni

Vadar/ ma/eku/ tteni

وبالحرف العربي:

نو/ نيندا/ آن/ إيززا/ تيني/

فادار/ ما/ إيكو/ تيني.

تعـــرّف (هروزني) في كلمة /نيندا/ على اسم الخبز بالسومرية. وقد تدل الكلمة على الطعام بشكل عام. ففكر في أن دلالة الكلمة الثانيـــة مـــن العبارة تدل علـــى فعل الأكل. ووجـــد للفعل معـــادلاً في اللغـــة الجرمانية /الألمانيـــة القديمة/ /إيـــزان/ ورأى في / نو/ الإنجليزيـــة Now الآن. ثم اعتبر آخر العبـــارة ضمير المخاطـــب في صيغة الجمع (أنتم) فحصل على عبارة (الآن كلوا الخبز). ثم عكف على السطر الثاني فوجد في كلمة /فادار/ مقابـــل إنكليزي يدل على الماء هو Water. أمـــا الكلمة التالية eku فقد عثر على ما يقابلها في اسم (اكوا agua) أيّ الماء باللاتينية القديمة. واعتبر حرف الوصل / ما/ أداة عطف أكادية. وهكذا ترجم السطر الثاني بـ (واشربوا الماء).

هذا هـــو التحليل الذي تبنـــاه الجميع. والـــذي سمح فيمـــا بعد بقـــراءة النصوص الحثيـــة التي تم اعتبارهـــا عندئذ لغة ذات أصول هندو- أوروبية. وقد سمحت النصوص المزدوجة للّغـــة الحثية والأكادية في الإسراع في فهـــم وتفســـير اللغة الحثيـــة التي كانت سائدة منذ الألف الثاني ق.م. في الكثير من أرجاء سورية وكيليكيا، وعلى نحو خاص في حماه والجزيرة السورية.

إن كون اللغـــة الحثية في الماضي البعيد ذات أصـــول هنـــدو- أوروبيـــة لا يعني أنها كانـــت على هذا النحو الخالصـــ على أيام الإمبراطوريـــة الحثيـــة السوريـــة (الألـــف الثاني ق.م) حيث دُونـــت النصوص الحثية بالمسماريـــة الأكادية، وامتزجـــت مع لغات المنطقة الأخرى واستعـــارت منها وأعطتها الكثير من التعبير والمفردات وأسماء الأعلام والصيغ التقليدية. لذلك لو لجأ المرء، وبعد البحث والتقصي وإعمال الجهد، إلى قراءة النصـــ الحثي على نحو مخالـــف باستعارة كلمـــات ومفـــردات وتراكيـــب مـــن اللغات القديمـــة كالأكاديـــة والكنعانيـــة والعربية

وبالبحث عن جمل معروفة (صيغ مألوفة) تؤدي إلى المعنى ذاته لوجد أن النص الحثي ليس غريباً على لغات/ لهجات المنطقة. ولقد قمت بتحليل النص على النحو التالي وحصلت على المعنى ذاته الذي أدته الترجمة الهندو- أوروبية على وجه التقريب. وإلى القارئ هذا التحليل:

كلمة /نو/ تعطي في جذرها (ن) معنى الآن العربية. أو بتعبير كثير الاستعمال إلى اليوم في المناطق الريفية (هالحين) وهو بدوره يدل على الوقت الحاضر. أما كلمة /نيندا/ فتؤدي معنى الخبز (الكلمة مستعارة من السومرية)، وتجعلنا نرجع إلى كلمة خبز كما يلفظها أهل مدينة (حماه) إلى اليوم، ولا ننسى أن حماه كانت مملكة حثية لزمن طويل، فيقولون /نينة/ للخبز وللأكل في آن واحد بلغة الأطفال /كول نينة/ يعني كل خبزاً أو طعاماً ولا شك أن حرف الدال قد سقط نتيجة الاستعمال والزمن حيث يميل الناس إلى تخفيف اللفظ. وأما كلمة /آن/ في السطر الأول فتفيد معنى الوقت الحاضر بدورها. وربما كانت دلالة على الخبز الطازج أي الخارج من التنور. أما كلمة /إيززا/ تيني/ فنجد جذورها في أسماء هي نفسها في كل لغات- لهجات المنطقة مثل زيت وزيتون وفعل مثل /عزز/ أي تقوى أو قوى نفسه بشيء من الخبز أو الطعام. أو شد أزره بالخبز أو، وببساطة /غذاء/ أو /زق/ كما يفعل الطائر الذي يغذي صغيره فيزق الطعام في حلقه. ثم كلمة /فادر/ التي قد تكون شكلاً من أشكال /در/ يدر/ وهي تستعمل للماء (درت السماء بالمطر. أدر عليكم الماء أو الخمر. أما كلمة /كهوا وهي eku في الأصل الحثي، وaqwa في اللاتينية/. فهي تماثل اسم / قهوة/ بالعربية الذي كان قديماً يدل على الخمر ويلفظ /كهوه: (جيم مصرية) فإما أن العربية استعارته من اللاتينية (على عهد الإمبراطورية الرومانية) وأما أن العكس قد حدث. وقد يأتي الفعل أو الاسم من صيغة /ماء أجاج/ عذب. (تُلفظ الجيم جيماً مصرية). وهي في هذه الحال تصبح قريبة من الكلمة الحثية (إيكو eku).

ونعثر على هذا اللفظ كثيراً في الشعر الفراتي في المناطق التي كانت حثية فيما مضى كضفاف الفرات. ونرى أيضاً ما يقاربه في اسم /اسقا/ أو /سكا/ (جيم مصرية) وهو اسم ساقي الحدائق الملكية في العهد السومري والذي انتشل الملك شاروكين من النهر وهو طفل صغير كما تخبرنا الكتابات الأكادية. والاسم يدل على الماء كما هو واضح. أما حرف /ما/ فيقرب

من /مــع/ والكلمة هــذه من اللغة الأكاديــة التي لم تكــن تكتب العين وتستعيض عنهــا بألف لعدم وجود حرف العين في المقطعية السومرية التي استعملها أهل العراق في العهد الأكادي لتدويــن لغتهــم. نأتي الآن إلى الكلمــة الأخــيرة /إيكــوت/ / تيني/ حيث نرى جذر كلمة (قوت) أو القــوت /الطعام ورغد العيش/. ويمكــن أن نــرى في الاسم /قوت/ ما يدل على القوة. أي تقوية النفس ببعضــ الطعــام والشــراب. وهي تأتــي في القواميســ بشكل (كات). أمــا (تيني) فقد تكون ضمير المفرد المخاطــب (ت) أو فيهــا دلالة على فعل (أعطى).



ونذكــر أن اســم عيــد تجــدد الخصوبة أو عيــد الربيع القديم كان اسمه بالسومرية /أكيتو/ ولعل الاسم دخل العربية في كلمة (طعام). هكذا نحصل على التركيب التــالي: (إليكم خبزاً فكلوا) وخمراً، أو ماء، فاشربوا وقووا أنفسكم.

والعبارة تأتي غالباً في النصوص القديمة وفي النصــوص التوراتيــة كصيغــة مألوفة وشائعة بحيث أنها تأخذ طابع عبارة طقسية وتقليدية. فنحن نلاحظ في ملحمة جلجامش أن المــرأة تعطي الخبز لانكيــدو المتوحش فيأكل. وتعطيه الخمر فيشرب. ويقول النص (فصار إنساناً) وفي النص التوراتي/ اشعيا ٢١/ نقــرأ عبارة مشابهة (هاتوا ماء لملاقاة العطشان. وافوا العابر بخبزه) وفي قصيد/ الملك دانيل/ الأوغاريتية تأتي عبارة:(قومي فجهزي عجــلاً رخصاً. واصنعــي خبزاً ل (كوثــر خاسيس) حتى يــأكل ويسند قلبه). وفي نفســ القصيدة يقوم الملك دانيل فيأكل ويشرب خمر أبناء السماء الذي يشد الازر.

(في الأصـــل (ع.ز.ر.ي.شـــ.ق.ي.-ب.ن.-ل.د.ش. ازر- يسقي- أبناء- المقدس) فيقوي نفسه. ونلاحظ مـــدى التقارب بين المفردة الكنعانية /ازر/ وبـــين الحثية /إيززا/. ولا نجهل أن وجود الحثيين والحوريين في مملكة أوغاريـــت كان كثيفاً).وفي كتاب/كنز أربا أو الكنز العظيم/، وهو كتاب الصابئة المقدس، نجد عبارة (رأس الصدقة أن تُطعم الجائع، وتسقي العطشان.) وأيضاً (إذا رأيتم جائعاً فأطعمـــوه. وإذا رأيتم عطشـــان فاسقوه). وهكـــذا نـــرى أن المفهوم الذي تـــدل عليه العبارة يأتي من مختلـــف المناطق والمصادر دون أن تتغير فحواه.

ويأخذ الأمر دلالة ذات شأن حين نلاحظ أن العبارة الحثية السالفة الذكر تبدو، في كل معانيها وفي نمـــط تركيبها، قريبة جداً من كل العبارات السابقة، وبشكل خاص، وهذه ملاحظة عالية الأهمية، من العبارة الشهيرة التـــي قالهـــا المسيـــح لتلاميـــذه في العشاء السري أو الأخير قبل موته. فقد قسم الخبز وقال: هذا هو جسدي فكلوه. ثم قدم الخمر وقال: هذا هو دمي فاشربوه. (أنظر أنجيل مرقص(١٤) وإنجيل لوقا (٧)).

ولا يخفـــى أن هذه العبارة تكاد أن تكون حرفيـــة في مقاربتها للعبـــارة الحثية. وهي عبارة تُعتبر من صُلـــب اللاهوت المسيحي. وتقـــوم عليها فكرة الفـــداء التي هي أساس المسيحية. والاحتمال كبـــير أن يكون الأدب الحثي قـــد استعارهـــا مـــن آداب وتقاليد الشعوب المجاورة. وأيضـــاً أن يكون المسيح قالهـــا لتلامذتـــه قبل موته لأنـــه كان على معرفـــة بهـــا، وإن كان قـــد أعطاها بعدا لم يكـــن معروفا من قبل حيث جعل من جسده ودمـــه، بموته فداءً للبشـــر، الخبز والماء. أو القـــوت. وهو الذي كان يسمـــي نفسه (ابن لإنسان أو، وبلغتـــه الآرامية: (بار ـــــ ناشا). وهـــذا التعبير هو نفســـه في الكنعانية، كما يأتـــي في نصوص أوغاريت (ابن ـــــ ادم) ولما كانت لفظة ادم بالكنعانية تدل على البشر أو الناس، فيكون التعبير الآرامي/بار ـــــ ناشا/ مرادفاً لهـــا في دلالتها، وبدورها، على/ابن الإنسان/. وإذا عدنا إلى العبارة الحثية فهي تدل على مدى انسجام المجموعة الحثية في النسيج السوري القديم. ولعله ليس من باب الصدفة وحسب أن هذه العبارة قد سمحت بفك وفهـــم اللغة الحثية حيـــث أنها تبين، وإلى حـــد كبـــير، ومع غيرها مـــن الأناشيد والتضرعات الحثية المرفقـــة بهذا البحث، مـــدى تفاعـــل (الحيـــاة الروحيـــة) الحثية والميقانية والحورية مع العبادات التي كانت سائـــدة في العراق القديم /ما بين النهرين/ وفي سوريـــة الطبيعية. ونـــرى كيف أن تلك

الحيــاة الروحية العاليــة المستوى، وبكل ما خلفته من ثقافــة مكتوبة ذات طابع إنساني شمــولي، قد تركت آثارها في المسيحية التي نشأت في المنطقة فيما بعد. وكانت بدورها شمولية وعالمية النزعة.

إذا تعرضنــا الآن للجانــب الروحي في الثقافــة الحثيــة (والميتانية___الحوريــة) التي شاعــت في الشمال الشرقي من سورية ووصلت إلى حماه وقطنة قرب حمص وربما إلى دمشق التي يأتي اسمها في صيغة (اوبي)، فإننا سوف نجد أن الديانة الحثية هي، مع اختلاف يسير، قريبة من الديانة الرافدية في العهدين السومري والبابلي (الأكادي). وفي آن واحد من الديانة الامورية والكنعانية. أي إنها لم تكن غريبة عن الروحية المشرقية رغم وجــود بعض أسماء إلهية تبدو سنسكريتية. إنما، ومن بين تلــك الأسماء السنسكريتية، نعــثر على اســم ربة تدعــى (سوريا). مما يجعلنــا أمام امتــزاج كبير بــين الثقافات واللغات. كما أن اسم الله الكنعاني (إل خالق الأرض (بالاصــل إل___قني___أرص) دخل إلى الحثية في صيغة (إل___كوني___راص).

إذا استعرضنا أسس الديانة الحثية نجد (القوة الإلهية العظمــى) التي تجسد الإله الأب (القوة الكونية المذكرة) وإلى جانبه (الأم العظمى) التــي تجسد (القوة المؤنثة). وعن اتحاد هاتين القوتين تنشــأ الحياة وتتجدد باستمــرار في دورة لا متناهية. هذا التجدد لــدورة الطبيعــة، والذي تقــوم عليه حياة البشر، مسؤول عنــه سيد الخصوبة والمطر الذي يحمل بالحثية اسم (اليشوف أو تيشوب (techup/). غــير أنه في بعض النصوص يحمل اسم مختلف هو (تلفينو tel-pino). ولهذا الرب أو السيــد الشاب قرينة اسمها بالحثية (هيفا___hepa). وهكذا نرى مدى التوازي مع الديانة الرافدية (العراق القديم) حيث هنــاك رب (ونستعمــل كلمة رب هنا بمعنى سيد) هو (دموزي) مسؤول عن تجدد الخصوبــة وقرينته هي (إنانــا). وذلك في العهــد السومري. أما في العهد البابلي فقد صار اسم الرب (تموز) واسم الربة (عشتار). أما في المنطقة الكنعانية فقد كان اسم الرب (حدد) المشهور بلقبه (البعل) أما الربة التي ترافقــه فكان اسمها (أنــات أو عنات). ثم حدثت التفرعــات اللاحقة والمتأخرة زمنياً مثــل (أدونيس ثم مــار جرجس ثم الخضر وعشتارتا وافروديــت وفينوس واتارجيتس. وعلى القارئ أن لا يُدهش من كثرة الأسماء الإلهية في الأديــان القديمة لأنها في الواقع تشير دائمــاً إلى شخص إلهي واحد بأسماء متعددة تصف وتصنف أفعاله الحميدة التي فيهــا يتجســد الخير الذي يمنحــه للبشر.

وأحياناً تشير الأسماء إلى قوى سماوية جرى العرف فيما بعد على تسميتها بالملائكة. فقد يرسل الله ملاكاً لواحد من البشر ليبلغه رسالة إلهية. والملاك في هذه الحالة لا يظهر سوى في الحلم. لذلك نلاحظ أن طقس تفسير الأحلام كان شائعاً عند الحثيين كما كان عند جيرانهم. وكان المختص بتفسير الأحلام وتاويل الرؤى يجهد ليجد تفسيراً للوحي الإلهي حتى يعرف المقصود منه. وهذا ما يحدث، على سبيل المثال، عندما تظهر القوة السماوية التي تدعى (ساموها) في الحلم للملكة قرينة الملك الحثي الشهير (حاتوسـ ـإل)، وتخاطبها قائلة: (سوف أمد يد العون لزوجك. أنا أبداً ما تخليتُ عنه. وسوف أجعل منه كاهناً لملكة السماء (اريننا). توكلي عليّ وسوف أعطيه كل أرض الحثيين.).

وكانت الأعياد الدينية والشعبية كأعياد سومر وبابل وكنعان. أي أعياد فصلية ومرتبطة بمواسم الحصاد وجني الثمار ومنتجات الأرض. وكان يتم الاحتفال بعيد (رأس السنة) في أواخر الشتاء وأوائل الربيع مع تجدد دورة الطبيعة وعودة الازدهار إليها.

وفي نهاية بحثنا في اللغة الحثية ومظاهر ديانتها نثبت هنا بعض المختارات من الأدب الحثي اللغة لإعطاء القارئ فكرة عن ذلك الأدب.

ونبدأ بنشيد شعري ابتهالي مرفوع إلى القوة السماوية الكونية المؤنثة التي تحمل بالحثية اسم أري- ننا. (نور الشمس أو سيدة النور) والنشيد يتغنى بفضل الشمس على البشر.

أنت نور الشمس
مباركة أنت ومبارك اسمك بين الأسماء
تجرين رداء المجد في الأعالي
وليس كمثلك شيء.
لا سيدة إلاّ أنت وجلالك لا حد له
في يديك تمسكين ميزان العدالة
فلتكن مشيئتك في السماء وعلى الأرض
أنت ترسمين حدود الأقاليم
أنت غوث للملهوف
كلك مغفرة
وأنت رحمة للناس
تغفرين لهم ذنوبهم
نورك يغطي السماوات والأرض
أنت أب وأنت أم للعالمين.

❁ ❁ ❁

حكاية رب الخصوبة في الأدب الحثي:

هذه القصيدة تعتبر من عيون الأدب

الحثي اللغة. وهي تقص، وعلى نحو شعري حافل بالصور، حكاية رب الخصوبة الحثي الشاب الذي يُدعى في النص (تلفينو وهو نفسه تيشوب) الذي اختفى (في نهاية فصل الربيع) فحل القحط على الأرض في غيابه. تماماً كما يحدث في القصائد الرافدية والكنعانية عند اختفاء أو موت (تموز أو البعل حدد أو أدونيس في الحكايات اللاحقة). والقصيدة تقص الأحداث على النحو التالي:

(اختفى الرب (تلفينو) فحل القحط بالأرض وأدرك الطبيعة الجفاف.

خمدت نار الاحطاب في البيوت، وهجرت القوى السماوية (الملائكة) المعابد.

هلكت الأغنام في المراعي والحظائر من القحط. وأخذت العجول تنفق وتموت.

الغنمة لم تعد ترضع وليدها.

لا الخروف يقرب أنثاه ولا الثور البقرة.

أوراق الأشجار تساقطت.

والنبات يبس في الحقول.

جفت الينابيع وخيّم ظل المجاعة على الأرض.

وراح الناس والقوى السماوية يهلكون جوعاً.

أقام أبو (تلفينو) مأدبة، ودعا إليها القوى السماوية (الملائكة).

أكلوا. إنما لم يشبعوا لقلة القوت. شربوا. لكنهم لم يردوا ظمأهم لندرة المياه.

فخاطب، أبو (تلفينو) القوة السماوية قائلاً:

(تلفينو) هجر الأرض.

شيء ما أثار حنقه فحمل كل خير معه ومضى.

فصاح الجميع: يجب البحث عنه.

أمضْ (أيها النسر) وفتش في الجبال والوديان.

أبحثْ عنه في أعماق المياه.

انطلق النسر. ولكنه عاد دون أن يعثر على (تلفينو).

فقال الرب الأكبر: ما العمل. سوف نهلك جوعاً.

قالت أم (تلفينو) لزوجها: يجب أن تذهب أنت بنفسك وتبحث عنه.

راح وبحث عنه ولكنه لم يعثر عليه.

فقامت الأم وأوصت النحلة قائلة:

اذهبي. فإذا عثرت عليه، فاعقصيه ثم اغسليه واحمليه إليّ.

عثرت النحلة (وهي هنا رمز عودة الربيع) على (تلفينو) فحملته وعادت به.

فعادت الخصوبة إلى الأرض بعودته).

حين يقرأ المرء هذه القصيدة فكأنه يقرأ قصائد دموزي وإنانا أو تموز وعشتار أو، وأيضاً، البعل والموت /من قصائد أوغاريت/. وذلك يبين إلى أيّ حد كانت الثقافة الحثية الدينية متأثرة بالثقافات التي كانت محيطة بها ومختلطة معها في نظرة موحدة إلى الكون وإلى الإنسان.

صلاة (قصيدة شعرية) مرفوعة إلى رب

المطر (تلفينو) وهي عبارة عن تضرع لنزول المطر الضروري للزراعة.

أينما تكون يا (تلفينو) الجبار.

سواء كنت في السماء مع القوى السماوية.

أو في البحار، أو على رؤوس الجبال.

فإني أدعوك أن تأتي.

رائحة بخور شجر الأرز تتصاعد.

فعد إلى هيكلك المقدس.

إني أتضرع إليك.

أنظر كيف أرفع بيدي خبز التقدمة كقربان.

استمع إلى صلاتي وأستجب لدعائي.

أنت السيد القادر والمقتدر

ما من يعلو عليك في أرض الحثيين.

وما من بلد أخر يفعل ذلك.

نحتفل بأعيادك ونقدم القرابين لك في أرض الحثيين.

وما من بلاد أخرى تفعل ذلك.

فقط في أرض الحثيين عطايانا هي الذهب والفضة والأحجار الكريمة

نحتفل بأعيادك. نعيد لك في كل شهر، وفي كل سنة.

نعيد لك في (رأس السنة) ونعيد لك في الخريف.

ما من أرض أخرى تفعل ذلك.

في أرض الحثيين أنت المبجل.

الملك مرشو-لي هو عبدك والملكة وصيفة لك.

كل النبلاء ورؤوس البلاد لا يكرمون سواك.

الهوامش:

فيما يخص انصهار الحثيين (والميتانيين والحوريين) في العالم الثقافي الروحي لحضارة المنطقة فإن أسماء بعض الملوك الحثيين تبين لنا ذلك. حيث أن عدداً لا بأس به من الملوك الحثيين يحملون في المقطع الأخير من أسمائهم اسم الإلوهة /إل أو الله/ أو /إيلي- إلهي/. وعلى سبيل المثال الملك الشهير (حاتوش- إيلي Hattouch-ili) ويمكن أن يدل الاسم على حماية الله للعاصمة الحثية /حاتوشا/ حماها الله. وهناك أيضاً الملك (مورشل- لي Murch-il). والاسم قريب من /مرسل/ لتبادل الشين والسين). ويمكن أن نفهم منه (الذي ولاه الله. ثم الملك Muwata lli). /مو- وتا- إيلي. وإذا أخذنا أخيراً، وفي هذا الاستعراض السريع للأسماء الملوكية الحثية، اسم الملكة الحثية الشهيرة (فضة- هيفا Puda- Hepa قرينة الملك حاتوشيلي لوجدنا أننا نستطيع استخلاص اسم (فضة) من المقطع الأول، واسم (هيفا) من المقطع الثاني. هكذا نحصل على أسماء أعلام لا تزال سائدة إلى اليوم. ومن هذه الأسماء الحثية، وعلى سبيل المثال، اسم (أروى) الذي يطلق على البنات. وننوه أخيراً أن مناقشة العبارة الحثية وتقريبها من العبارة المسيحية لم يرد في أيّ كتاب أو دراسة وإنما في هذا البحث وحسب.

المراجع الأساسية للبحث

- الهندو- أوروبيين (بالفرنسية)، تأليف: L.Lebedynski.
- الحضارة الحثية والميتانية والحورية (بالفرنسية)، تأليف: J.contenau.
- النصوص الحثية. (بالفرنسية)، ترجمة: M.Sznycer وM.Vieyraa.
- ما بين النهرين. (بالفرنسية)، تأليف: JPottero.
- الكتب التوراتية.
- الأناجيل.

الدراسات والبحوث



حساسية الكتابة القصصية للطفل

✽
عبد الباقي يوسف

الكتابة الموجهة للطفل تحتاج إلى خصائص ومقومات لابد أن يتمتع بها كاتب قصة الأطفال حتى تكون له معيناً لربط جسر ذوقي وحسي وأدبي بينه وبين الطفل، إلى جانب ما يتمتع به من موهبة توظيف المخيلة، وموهبة الإبداع الأدبي والفكري.

لاأقول أن الكتابة للأطفال عملية صعبة بشكل خاص كما قد يظن البعض، بل إن الإبداع الأدبي بشتى فروعه وأجناسه عملية تحتاج إلى جهود

✽✽ أديب وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

كبيرة حتى يتم إخراجه من المخيلة إلى عمل مقروء، ثم تحتاج إلى كثير من الجهد حتى يرى هذا الإبداع النور، وهذا يتعلق أيضاً بشخصية الكاتب، فقد نرى كاتباً يتمتع بموهبة أصيلة، ويتمتع بذكاء في التواصل عبر توصيل نتاجه الأدبي إلى الآخرين، بيد أن شخصيته لاتترك مجالاً حتى يحترمه الآخرون، وحتى يحترموا أدبه، فهو شخص لايتمتع بحكمة التوازن، أو بحكمة بناء شخصية ثقافية واجتماعية راقية يكن لها الآخرون الكثير من التقدير والاحترام، من ناحية أخرى، فهو قد لايقدر نتاجه الأدبي، ويقذفه إلى الناس، وقد يبلغ مرحلة يتوسل فيها من أجل نشر كتاب له، أو حتى نشر موضوع في مجلة شديدة البساطة. إنه هنا يهين شخصيته أولاً، ثم أنه يهين موهبته الإبداعية، وبالتالي فإن الناس يشعرون بشيء من الضجر منه كشخص، ومن نتاجه كإبداع.

في حين نرى المبدع الذي يتمتع بشخصية متوازنة ينتظر طويلاً حتى يقدم إبداعه، أو حتى يقدم أمسية أدبية، أو محاضرة، وهو يشعر برهبة التواصل مع الآخرين، وعموماً فإن مثل هذا الشخص هو شديد الحياء، وشديد الحساسية تجاه علاقاته بالآخرين، وهو شخص يصمت أكثر مما يتكلم، ويختفي أكثر مما يظهر، ودوماً يتلقى الدعوات، بيد أنه يتأنى في تلبيتها، حتى يثق كل الثقة بما انتهى إليه من إبداع جديد.

شخصية كاتب الأطفال

يتمتع كاتب الأطفال بميزات تميزه عن غيره سواء من الأدباء، أو من بقية الناس، فهو مهما سعى إلى إعطاء صورة جادة عن شخصيته من خلال المظهر، إلا أن رائحة الطفولة تفوح منه، ويمكن في أي موقف تصدر منه حركة تلقائية عفوية كتلقائية وعفوية الأطفال إلى درجة لفت النظر إلى تلك الحركة، وتسجيل مأخذ عليه إذا كان في مجلس شعبي عام لاأحد فيه يعرفه، أما إذا كان في مجلس أدبي، فإن ذلك يبدو طبيعياً أمام زملائه، أو متذوقي أدبه.

من هنا يمكنني القول بأن كاتب الأطفال الذي يجد نجاحاً وانتشاراً، وقبولاً لدى شرائح الأطفال كافة، هو شخص مايزال يحافظ على فطرية طفولته، ويميل إلى عالم الطفولة أكثر من ميله إلى عالم الكبار، ويعقد آمالاً على عالم الطفولة أكثر مما يعقدها على عالم الكبار، وإذا أردتُ أن أقدمه من وجهة أخرى، فأقول هو بالنسبة للتاريخ الأدبي ذاك الأديب الذي تفوح رائحة الرومانسية من أدبه حتى لو كتب عن الحروب إنه شخص رومانسي في كل تصرفاته، ومواقفه، وأدبه،

فحتى لو بلغ مئة سنة، يكون بوسعه أن يكتب عن مشاعر الحب بحرارة وقوة تفوق حرارة وقوة وبراعة شخص في الخامسة والعشرين من عمره.

إن كاتب الأطفال المتمكن من الكتابة القصصية بشكل جيد، هو شخص يعرف كيف يمارس أبعاد ومزايا طفولته بعداً بعداً، وتفصيلاً تفصيلاً عندما يشرع في كتابة سطور المسودة الأولى لنص أدبي جديد موجه إلى عالم الطفولة.

إذاً، كاتب الأطفال هو طفل يرتدي ثياب الكبار لأن حجمه كبير، طفل بذقن ولحية، طفل هو في الوقت عينه أب، وجد.

إنه لايمارس هذه الطفولة مع الآخرين فحسب، أو عندما يشرع في الكتابة، بل يمارسها حتى مع نفسه، لأنه لايتمثل هذه الطفولة على قدر ما هي جزء ثابت في بنيته السيكولوجية، ويعيش وقائعها كسائر أطفال العالم.

لذلك فهو شخص ميال إلى تجمعات الأطفال، ومجالسهم ومحادثتهم ، ويمكنني القول إنه يسمعهم بأذن ثالثة، وينظر إليهم بعين ثالثة، يسمع ما لايسمعه الآخرون، ويرى ما لايراه الآخرون في عالم وتصرفات الأطفال، وهو شخص يحالفه النجاح كثيراً في عقد علاقات متينة مع الأطفال، وبالتالي لجعل الطفل يروي له في جلسة حميمية ما لايرويه لغيره، حتى لو كان مايرويه بالغ الخطورة، أو الحساسية.

وعلى قدر ما يشعر براحة وألفة وأنس في مجالسة الأطفال، فإنهم كذلك يشعرون في مجالسته بألفة وأنس وارتياح، ولعل ميل الطفل إلى هكذا شخص يفوق ميل الكبير إلى عالم الطفل، ذلك أن الطفل يشعر في عمقه أنه بحاجة إلى شخص كبير يستوعب تصرفه، ويستوعب جماليات مرحلته العمرية دون أن يخدشها، أو يحط من مقدارها بالنسبة لوجهة نظر الطفل، ووفق تصوره وتخيله للأشياء، وهو على مدارج تلك المرحلة التكوينية التي يرى فيها كل شيء جميلاً وبالغ العذوبة، وطوع أمره، ولذلك تراه يستاء وينفر بقوة عندما لاتلبى رغباته أو طلباته التي يفهمها من وجهة نظره بأنها أوامر يصدرها إلى أقرب شخص كبير إليه، وعليها أن تلقى التنفيذ الفوري والمباشر، وهو جاد كل الجدة في هذه المشاعر لأنه ربما يبكي حتى الإغماء إذا اصطدم بممانعة، أو بعدم استيعاب، أجل إنه قد ينشج حتى الموت بسبب قطعة حلوى، وقد يستغرق في الضحك التلقائي حتى الإغماء بسبب مداعبته للعبة.

يدرك الطفل في حضرة رجل استثنائي



كهذا أنه لايتحــدث إلى طفل مثله، في الوقــت الذي يدرك فيــه أنه لايتحــدث أيضاً إلى رجل كبــير لايستوعبه، ينتابه إحساس في حضرة رجل مجيد كهذا أنــه يتحــدث إلى طفل يكبره بالحجم فقط، إنه يرى طفولــة جلية فيــه، ويخاطب طفولته، فــيرى الاستجابة من تلــك الطفولــة، ولذلــك تراه يمازحه، ويتصرف معه كما لو أنه يتصرف مع طفل مجايل له. تبلغ بينهما درجة التفاهم حد أن الطفل يصغي إليه بجدية، ويــرى أنه يمكن أن يدافع عنه في عالم الكبار.

هنا نــدرك أننا إزاء شخصــ يمكن له بالفعل أن يقدم شيئاً مجدياً للطفل سواء من خلال العلاقة المباشرة بينهما، أو من خلال الأدب. إننــا لانتردد عندذاك من عقد آمال كبرى علــى هذا الشخص، ونضــع أطفالنا أمانة بين يديه، وبين ظهراني أدبه.

تنمية موهبة كتابة قصة الأطفال

ثم إننــا نتساءل أمــام شخص موهوب بالفعــل كي يكون مشروعاً هاماً لفتح جديد في عــالم الكتابة القصصية للطفل، ما الذي يمكن لهذا الشخصــ أن يفعله حتى يخطو بقدميه إلى درجــات متقدمة لم يسبقه إليها أحد في خصائص القصة الموجهة للطفل.

إذا نظرنا إلى هذا الشخص، سنراه يبذل ما لديه من وقت وجهد حتى يتغلغل في عالم الطفولة التي قد يكون افتقد بعض مزاياها نتيجة لظروفه التربوية أو المعيشية.

إضافــة إلى ذلــك، يحتــاج كاتب قصة الطفل أن يقرأ بتدبر وتأمل ما يكتبه الطفل من أفكار، وإن كان يتمتع بذائقة فنية أيضاً، فيمكنــه أن ينظر إلى مــا يرسمه الأطفال،

هنا يستخلص شيئاً جديداً من عالم الأطفال ذاك الشيء الذي أخفق في استخلاصه وهو يتحدث إليهم وجهاً لوجه، لأن الطفل يمكن ألاّ يقول كل شيء من خلال اللفظ اللساني المباشر بسبب بعض العوامل النفسية، فهو قد يلقى حرجاً في استرسال حديث طويل، أو يشعر بحياء وهو يعبر عن مشاعره، بيد أنه من خلال التعبير الفني والأدبي، لايواجه هذه المشكلة، بل قد يعبر بشكل أكثر تعبيراً وقوة لأن الخيال في هذه الحالة يكون له معيناً، وأيضاً الوحدة التي يكون فيها تعينه على التركيز فيما يود البوح به.

إذاً، عليه أن يكون قارئاً جيداً ليس للأدب الذي يكتبه الطفل فحسب، بل وبارعاً أيضاً، ويتمتع بقوة ملاحظة في تلقي النص الأدبي الذي ينظر فيه.

من جهة أخرى، يمكننا الاستفادة من القصة التي يكتبها الطفل في محاولة منا لإجراء مقارنات بينها وبين القصة التي يكتبها الكبار للأطفال، وهي مقارنة يمكن أن تكتسب درجة الأهمية القصوى بالنسبة لكاتب الطفل على وجه الخصوص، لأنه يستمد منها زاد التخاطب الأدبي مع مخيلة الطفل في علاقة تكاملية- هذه المرة- بين الطفل المبدع، وبين الكاتب الكبير المتلقي، ثم قلب هذه العلاقة بكثير من الحذر لتتولد منها ثنائية علاقة تكاملية بين الكاتب المبدع، وبين الطفل المتلقي.

إن ما يكتبه الطفل يكتسب أهمية أولى قبل أي كتابة أخرى سواء كانت من الكبار للكبار، أو من الكبار للأطفال، مهما كانت هذه الكتابات متقدمة في درجات التحليل والتوفيق، لأنها بالنسبة لكاتب الطفل تفتقد روح التلقائية الطفلية في التعبير، هذه التلقائية التي هي امتياز خاص بالأطفال دون غيرهم.

أريد أن أوضح بأن التلقائية هنا تشبه حمل آلتي تصوير فيديو، واحدة يحملها رجل، والأخرى يحملها طفل، فنرى الرجل يركّز على مقاطع التصوير لأنه يشعر بأن المصوَّر يُمثله، ويجلب عليه مسؤولية، بيد أن الطفل يقوم بالتصوير التلقائي دون أن يخطر بباله أن المصوَّر يمثله، وإذا كان التصوير في موقع حساس، فنلجأ إلى ما قد صوره الطفل بالدرجة الأولى لأنه يكون قد التقط الحقيقة كلها بتلقائيته.

التلقائية تكتسب درجة التصديق والثقة أكثر من غيرها، وبناءً عليها قد تصدر أحكام قضائية هامة بحق الكبار الذين وقعوا في قفص تلقائية طفل.

وبناءً على هذه الثقة، يعتمد الكثيرون على تلقائية الأطفال في معرفة الحقائق،

فعندما يخرج طفل مــع أبيه لبعض الوقت من البيــت، يمكن أن تسألــه أمه فيما بعد عــن الأشخاص والأماكــن والأحاديث التي سمعهــا، لأنها تدرك بأنــه سيقول الحقيقة كلها ربما أكثر من أبيه الذي قد يواري بعض الحقيقة.

وهذا يحدث أيضاً بالنسبة لأهل التحقيق في الحــوادث والجرائــم التي تقــع بوجود أطفــال، ورغم أن الطفــل شخص لايؤخذ بقولــه كونه دون سن الرشــد أو البلوغ، إلا أن قولــه يؤخَذ على محمل الثقــة بالنسبة للمحقــق، كما هو الحــال بالنسبة للأم في البيت.

وهكــذا، فــإن كاتب قصــة الطفل يثق بالقصة التــي يكتبها الطفــل، ويسعى إلى قراءتها بكثير من التدبر والتأمل والتأويل.

علينــا أن ننتبــه إلى أن الطفــل وهــو يكتــب، لايتجــه بكتابته إلى الطفــل مثلما يفعل كاتب قصــة الطفل الذي يركّز كتابته إلى عالم الطفولة، بــل هي كتابة منبثقة من عالم الطفولة إلى عالم الكبار، ولذلك يمكننا التعــرف على الطفل من خــلال ما يكتب حتى إذا كان هذا الطفل

أصماً، وهــو حين يكتب لايتجه بكتابته إلى شريحــة معينــة، بل يكتــب منطلقاً من طبيعة تلقائية الطفولة اللامسؤولة التي هي ميزة خاصة بالطفل دون غيره.

هنا علينا أن نتجنــب بشيء من الحذر مقارنــة الطفل بالمجنون حتــى لو تشابهت بعض التصرفات والأقوال والسلوكيات، لأن المجنون هو شخص يدور في متاهة الجنون، وعقلــه غير قابل للنمو والتطور، في حين أن الطفل، هو شخص عاقل يتقدم في درجات العقل والمعرفة والانفتاح على منارة الحياة.

ثمة أمر بالــغ الحساسية والخطورة في مسألــة الكتابة للأطفــال، وهو تمتع بعض الأدبــاء بخيال يمكنني تسميتــه بـ الخيال المريض.

تــرى هــذا الكاتــب يستخــدم خياله المريض من خــلال كتابة قصــة يظن بأنه يوجههــا إلى الأطفال، وحقيقــة الأمر فإن جانباً لابأس به من الأدباء يستخدمون هذا الخيــال المريض ليس في كتاباتهم فقط، بل في واقع حياتهم الشخصية أيضاً مما يحيل هــذا الخيال حياتهــم إلى جحيم من خلال بعضــ التصورات والتكهنات التي تبلغ حد الهلوسة بهم.

فترى الكاتــب أسير الخيــال في حياته اليوميــة، فــإن ابتسمت له امــرأة، راح به الخيــال شطر أبعاد لاتمس الحقيقة بشيء، وبعــد ذلك يكتشف بأن المــرأة كانت تبتسم وهي تنظر إلى ورقة شجرة خريف قد علقت برأسه دون أن ينتبه إليها.

وإن مـرَّ بجانـب صديق وألقـى عليه السلام، ولم يجب الصديـق، راح به الخيال إلى أبعاد لاوجود لها إلا في مخيلته، وحقيقة الأمـر أن هذا الصديـق كان في عجلة من أمره لدرجـة أنه لم يكن يـرى أمامه بشكل جيد.

على هذا المنـوال تتساقط شذرات هذا الخيـال المريض في بعضـ القصص التي يكتبها الكبار سواء للصغار أو حتى للكبار.

وهنا فإن الطفل هو أول من يكتشف هذا الـلا مألوف الذي يسعـى لاقتحام فطرية عالمـه دون أن يحالفه النجاح في ذلك سواء أكان من خلال الكتابة، أو من خلال العلاقة المباشرة بينهما وجهاً لوجه.

إن الطفل لايثق بهذا الكبير الذي يتصنع الكلمات والمواقف، ويبدو أمامه مزدوجاً.

إذاً علينـا أن نـدرك بـأن كاتب الطفل مهما بلغ مـن إمكانيات أدبية، فإنه لاينجح في كتابة قصة تعبر عن تفاصيل عالم الطفولة كما يحالف النجاح الطفل في هذه المهمة.

الكتابـة للطفـل عليها أن تلـج إلى عالم الطفولة وتتحاور مـع الطفل محافظة على مرحلته العمرية من شتى النواحي، وإلا فإنه يصطدم بهـا، ويرفضها وهـو يشعر بأنها كتابة دخيلة على محراب عالمه الطفلي.

المرأة و الكتابة للطفل

أريـد أن أقول هنـا بأن المـرأة الكاتبة يحالفهـا النجاح في الكتابـة للطفل بدرجة أعلـى من الرجل، ذلـك أن المرأة تعيش مع الطفـل فترة أكثر من الرجـل، وهي تتحاور مع الطفـل أكثر مما يفعـل الرجل، كذلك فهي تحمل الطفل وهو جنين وتعقد علاقة أولية معه لمدة تسعة أشهر، وهذا ما لايكون للرجل.

حتـى في البيت يمكـن أن نلاحظ بأن المـرأة تستوعـب الطفل أكثر مـن الرجل، ويمكن للرجل أن ينفر مـن إزعاجات ابنه، أو مـن بكائه الطويـل في الليل، فيخرج إلى غرفـة أخرى ليبتعـد عنه ويحقـق لنفسه راحة وسكينة، بيـد أن المرأة لايمكن لها أن تفعل ذلك، بل تبقى تتحايل على طفلها بكل الوسائل، وتهدهـده حتى ترضيه ويغفو بين يديها.

إنهـا لاتتهرب مـن مسؤوليتهـا عندما يهـرب الأب مـن مسؤوليتـه، وتصبر على طفلها عندما ينفـد صبر الأب، ولذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبة طفلها أدبياً بدرجة أكثر قرباً من الرجـل. أقول طفلها لأن أي امـرأة عندما تنظـر إلى أي طفل في العالم، ينتابها إحساس بأنه جزء منها بسبب المعاناة المشتركـة التي تشـترك فيها نسـاء العالم، وبسبب مشاعر الأمومـة الفطرية المشتركة

بين النســاء كافة سواء أكــن أمهات، أم كن عانسات، أم كن فتيات.

أقول مشاعر الأمومة الفطرية المشتركة، لأن مشاعــر الأب هــي مشاعــر مكتسبــة بالمقارنة مع مشاعر الأم كونه لايشعر بمعنى الأبوة الحقيقية إلا بعد ولادة الطفل، ونموه، ومداعبته، والتعرف على ملامحه، وكلما كبر الطفل، أكسب الأب مشاعر مسؤولية الأبوة، بينما الأم تطعمه وتسقيه، وتعالجه، وتداعبه، وتحدثــه تسعة شهور في بطنها قبل أن تراه رؤى العــين، وهي بذلك لاتــزداد أمومة له فقط، بل تزداد حناناً له أيضاً، هذا الحنان الذي يجعلها تفدي طفلها بعمرها من خلال كلماتهــا اليومية معه، في حين لايجعل الأب مــن نفسه قرباناً لابنه على الأقل من خلال الألفاظ كما تفعل الأم بمسرة.

يمكننــا ببساطة ملاحظــة امرأة في أي شــارع من شــوارع العــالم، أو في أي حافلة، تتقدم نحو طفل وتستــأذن أمه حتى تظفر منــه بقبلة، وقد تبيّنتّ لي هذه الحقيقة من خلال التجربــة الشخصية بعد ولادة ابنتي /روهات/ التــي هي مع كتابة هذه السطور في سنتهــا الثالثة والنصــف، وولادة ابني / لوند/ الذي هو في سنتــه الأولى والنصف، أذكر هذا لأنني مــا أزال في ذروة المشاهدة اليومية لِما تبيّن، ويتبيّن معي.

لاحظتُ هذه الحقيقة التي لفتت نظري بسبــب التكرار، ولأننا نسافر كثيراً، يمكنني القول بــأن آلاف النسوة تقدمن من زوجتي وهن يقلن: أتسمحين يامدام أن أقبلها.

ثــم تأتي امــرأة أخرى وهــي تنظر إلى أخيها قائلة: أتسمحين يامدام أن أقبله؟

وعند الموافقــة أرى المرأة تحمل الطفل في حضنها، وتقبله، ثم تعطيه هدية صغيرة مثل قطعــة سكر، أو شوكــولا، أو بسكوت. عندئــذ أرى بــأن صدر المــرأة انشرح وهي تمضي بسرور.

وما كان يحدث بتكرار مع ابنتي، يحدث الآن مــع ابني لأنه يجذب عيون النساء أكثر بسبب صغر سنه.

أذكــر هذه الوقائــع الشخصيــة لأنني أرغب في أن أعزّز فكرة إمكانية كتابة المرأة للطفل بدرجــة أبلغ وأعمق مما قد يقوم به أي رجــل في العالم، في الوقــت الذي لاأكاد أذكــر فيه رجــلاً واحداً تقــدم من زوجتي واستأذنهــا كي يظفر بقبلة من ابنتي أو من أخيها مقارنة بــكل تلك الأعداد الهائلة من النسوة المختلفات الأعمار والمواقع والألوان واللغات والأديان.

وأمــام جواب واحد كنــتُ أردد لنفسي: الرجل الذي يتهرب مــن مسؤوليته الأبوية بعد منتصف الليل، لايصعب عليه ألاّ تنتابه

مشاعر أبوية تجاه طفل رآه صدفة في حافلة نقل ما، أو في حانوت ما.

إذاً، هذا الرجل إذا كان كاتباً للأطفال، هل سيبلغ المبلغ الذي تحققه المرأة في التعبير عن عالم الطفل، وفي اعتقادي أن الأمومة ذاتها هي لمسة ناعمة قادمة من بستان الطفولة، في حين أن الأبوة هي كلمة تحتمل الخشونة والرعونة أكثر مما تتسع لها كلمة «الأمومة».

من جهة أخرى، فإن شخصية الأم تذكرنا بسنوات الطفولة أكثر مما تذكرنا شخصية الأب، فإذا نظرنا إلى أمهاتنا، تذكرنا ملامح الطفولة وفيض براءتها، وفصول سنواتها.

لذلك فإن أول ما يوجه للرجل العاق بأمه: تذكّر بأنها حملتك تسعة أشهر في بطنها، وأرضعتك حليباً من ثديها.

بمعنى تذكّر سنوات طفولتك فيها، ولاتنس تلك البصمات الخالدة التي تركتها على بدنك، وعلى نفسك أيضاً.

إذا نظرنا إلى غالبية الكتابات التي كتبها الرجل للطفل، سنرى ملامح الموعظة، وإن بدت مغلّفة بأغلفة فنية، وتقنيات أدبية، نشعر بأن الكاتب لم يتخلص من مشاعره بأنه كبير، ويريد أن يسدي نصحاً، أو موعظة لطفل صغير، وفي بعض الأحيان، نراه يتعامل مع الطفل كما لو أنه (يأخذه على قدر عقله) كمن يمسك بيد طفل ويعبر به الشارع، أو كما يمكننا القول: إنه يضحك على الطفل، ويستهزئ به بطريقة غير مباشرة.

ومعلوم أن الطفل ليس من اليسر الضحك عليه مهما كان صغيراً، وهو عندما يرضى عن تصرفات معينة، يرضى عنها برضى تام، وبذكاء أيضاء، أعني الذكاء الفطري للطفل، وهو ليس غبياً بأي مقياس من المقاييس، وهو ليس مجنوناً لأنه يمتلك عقلاً قابلاً للنمو والتطور والانفتاح. ولعلي أذكر مقولة لأحد الفلاسفة عرّف فيها الطفل قائلاً بأن الطفل في حقيقة الأمر هو فيلسوف صغير.

وكما في وقائع التعامل اليومي، يمكن للطفل أن يشعر بأن الذي يتحدث معه يكذب عليه، فلا يصدقه، ولايثق به، ويبقى مصراً على موقفه، فإنه كذلك في القصة التي يقرؤها، يشعر بأن هذه القصة تستهزئ بمدركاته، لذلك لايكمل قراءتها، ولايصدّق كاتبها، ويتحاشى أن يقرأ له مرة أخرى.

ثمة فكرة يمكن العمل عليها لتنمية خصلة الوفاء لدى الطفل، وروايتها له بشيء من الحذر كقولنا:

جلست الجدة نجاة جوار حفيدتها منار حتى تروي لها قصة جديدة ريثما تعود أمها التي أخذت أختها الصغيرة براءة إلى المستوصف من أجل تلقيحها.

قالت لهـا: اليوم يا حفيدتـي الصغيرة أروي لك قصة الظبية

قالـت منـار: قصصك كلهـا جميلة يا جدتي، أريد أن أتعرف على هذه الظبية.

قالت الجـدة: كان هناك صياد يصطاد الغزلان مـن الأودية والجبـال، وذات مرة اصطـاد غزالـة فربطها حتـى لا تهرب، ويستطيع أن يصطاد غيرها.

هزت منار رأسها قائلة: نعم يا جدتي

قالت الجدة: مرّ رجل من المكان الذي فيه الظبية، ولمّا رأته، أحست بأنه رجل غير عادي، نظراتها إليه جعلتها تشعر بأنها أمام رجل أرسله الله لنجدتها.

/رجـل ظاهر الوضاءة، أبلَـجَ الوجهِ، لم تَعِبـه نُحلَة ولم تُزرِ به صُقلَـة، وسيمٌ قسيم، في عينيـه دَعَـج، وفي أشفـاره وَطَف، وفي صوته، و في عنقـه سَطع، وفي لحيته كثاثة، أَزَجُّ أقرَن، إن صَمَتَ فعليه الوقار، و إن تَكلم سمـا، علاهُ البهاء، أجمـل الناس و أبهاهم مـن بعيد، وأجلاهـم و أحسنهم من قريب، حلـوُ المنطـق، فصل لا تذْر ولا هـذَر، كأنَّ منطقه خرزات نظم يتحَدَّرن، رَبعة، لا يأس من طول، ولا تقتَحِمُه عين من قِصر، غُصن بين غصنين، محشـود محفود، لا عابس ولا مُفَنَّد/.

عندئذ نادت بأعلـى صوتها وهي تنظر إليه بدهشة: ياسيدي.. النجدة.

سمع الرجل صوتهـا ودنا منها فأردفت الظبيـة: يا سيـدي، لقد اصطـاد ني ذاك الصياد وربطني هنا.

وقف الرجل بجوارها يلقي نظرة إليها، ثم إلى الصياد، فقالت الظبية والدموع تملأ عينيهـا: استيقظت باكراً يـا سيدي، وكنتُ جائعـة، لم أستطع أن أرضع صغاري، تركتها خلـف ذاك الجبل وجئـتُ باحثة عن طعام حتى أعود وأرضعها.

ثـم بلعـت ريقهـا الجـاف واستأنفت: لقد وجدتُ طعاماً يا سيـدي، تناولته على عجل وسلكتُ طريق العودة راكضة، وصوت صغاري لا يفـارق سمعي، وهنـا يا سيدي فوجئـتُ بهذا الصياد الـذي نصب لي فخاً واصطادني.

كل هذا يا بنتي والرجل يستمع إلى هذه الظبيـة التي استأنفـت حديثها وهي تنظر إليـه متوسلـة: أسألك يا سيـدي أن تشفع لي وتطلـب من هذا الصياد أن يفك أسري حتـى أذهب إلى صغاري التي تتضور جوعاً بانتظاري، أرضعها حتـى تشبع، وأعاهدك بأننـي سأعـود إلى مـكاني هذا بـين يدَي الصياد.

نظـرتْ منـار إلى جدتها قائلـة: هه يا جدتي، هل عادت إلى صغارها؟

قالت الجـدة: طلب الرجل من الصياد

أن يحـــل رباطها لتذهب فترضـــع صغارها وتعـــود، وتعهّد للصيـــاد بأنـــه يكفل عودة الظبية، ويتحمّل مسؤولية عدم عودتها.

أمام ذلك راح الصياد يحرر الظبية التي هرعـــتْ كالسهم حتى توارت عـــن الأنظار خلف الجبل.

بعد حين من الانتظار تراءت الظبية من خلف الجبـــل حتى وصلـــتْ إلى ذات المكان الذي كانـــت مربوطة فيه، وتقـــدّم الصياد ليربطها، لكن الرجـــل أراد أن يكافئها على وفائها بعهدها معـــه، فطلب من الصياد أن يطلق سراحها ثانية.

استجاب الصياد لتوجيه الرجل بسرور، فهرعتْ الظبية وهي تشدو: حقا إنك رحمة مهداة يا سيدي، وراحت تروي ما وقع معها لصغارها.

توظيف الخيال في قصة الأطفال

لوقلنـــا بأننا نصـــدق أطفالنا في جل ما نقول لهم، فإننا لانصدق أنفسنا، ولانصدق الآخرين.

إننا نضطر أحياناً إلى شيء من التحايل على أطفالنـــا في مواقف مـــا حتى نتجنّب الصـــدام المباشر معهـــم، وحقيقـــة الأمر، فلايمكننـــا القـــول بأنهم لايتعاملـــون معنا التعامل ذاته وفـــق ذات المنظور، فهو أيضاً قد يقبل هـــذا الاتجاه بشيء مـــن التحايل حتى تهـــدأ الأمور، ثم يشعلها كرة أخرى في وقت آخر.

إنه وهو يقبـــل لاينسى، بل يتناسى حتى تنتهي الأمور على خير.

عندما ينظر ابنـــك إلى طائرة تحلّق في السماء، فيطلب منك أن تشتريها له.

الشعور الأول الذي ينتابك، هو إحساس ابنـــك بأنـــك الأب -السلطـــة العليا- التي بوسعهـــا أن تقدم كل شيء لـــه، وتحقق كل طلباتـــه، وإذا أحســـ بغير هـــذا الإحساس نحوك، فإنه قد يوجه هذا الإحساس، وهذا المطلب لشخص آخر يحتل موقع قدرة الأبوة لديـــه لأن الطفل يحتاج إلى شعور بالحماية الأبوية، وبالمقدرة الأبوية غير المحدودة، إنه «رب» البيت.

عندئذ تقول له: نعم يابني، سوف أشتريها لك، وأنت تدرك بأنك لاتصدقه القول، ولكن حتى لاتخيّب ظنه فيك، وتجنبه التفكير في منعرجات غير محمودة.

توافقه وتعـــده بأنك ستشتري له طائرة، لكنها مختلفة عن تلك الطائرة التي يريدها، وهو أيضاً عندذاك يدرك مقدرتك المحدودة للتو على جلـــب مطالبه، فيرضى بما دعتك قدرتك عليه.

ثـــم لنفرض أن هـــزة أرضية وقعت فإن الطفل بشـــكل عفوي يرمي نفسه في حضن

أبيه حتــى يحتمي به، وإذا وقع حادث سير، فإنه يفعل ذلك لأنه يشعر بأن أباه قادر على حمايتــه وأن قوته تفوق قوة الحوادث، وهو كائن خارق القدرات لذلك يأخذه الخيال إلى تلك المواطن، وهو حقيقة الأمر يرغب في أن يكون أبوه كذلك، ولكن أمام سطوع الحقيقة يرضى بالأمر الواقع على مضض.

لذلــك عندمــا يقول طفل لأبيــه: أريد نجمة.

يمكــن للأب أن يرفع كفه، وكأنه يقطف تفاحــة من شجرة البيت قائــلاً لابنه: هذه نجمة.

فيضحك الابــن برضى رغــم أنه يرى الكف فارغة، بل يعيد المطلب مرات عديدة، حتى يقوم الأب بالفعل ذاته.

إنه حوار داخلي بين الابن والأب، يختبر فيها الطفل من خلال لاوعيه مقدرات الأب الحقيقية، وهو يفعل ذلــك بذكاء أكثر مما يفعله بغباء.

وفي الحروب عندمــا يسمع الطفل وقع انفجار، يهرع الطفــل إلى حضن أبيه ظاناً بأنه يستطيع أن يمنع عنه شظايا الانفجار، وهو يظــن- ويرغب أن يظــن، وأن يمسي الظن حقيقة ولو مرة واحدة- بأن قوة الأب هي أعلى من قوة ترسانات الحروب.

الطفل هنا يدفــع بأبيه كي يستجيب له حتى لايفقد الثقة بقــوة أبوته، والأب يقدم علــى ذلك حتى يتعرف ابنــه على الحقيقة بشكل متدرج.

وأحيانــاً تضطــر الأم إلى التحايل على ابنهــا وتحذيره كي ينام قائلة له: نم قبل أن يأتي الكلب الذي يعض الأطفال.

وهي عبارة موجهــة إلى الطفل بامتياز، يوجههــا النســوة الريفيــات علــى الأغلب لأطفالهن حتى يناموا، فإذا نظرنا إلى العبارة سندرك بأنها موجهــة إلى الطفل، والطفل قد لايستقبل هذا التحذير ويستجيب له من منطلق الغباء، بل قد يستقبله ويستجيب له من منطلق الذكاء، لأن الكلب يعض الإنسان النائــم بيسر أكثر مما يتمكن من اليقظ، بل قــد يفعل ذلك حتى يغمضــ عينيه ولايرى الكلــب يدخل الحجــرة، وحتى تتــولى أمه الدفاع عنه لأنه عنــدذاك يكون نائماً، وما دام هو نائم، فإنه في حماية أمه التي لاتنام وفــق مفهومه، أمه التي تتولى مهمة حمايته سواء إذا كان نائماً، أو كان يقظاً.

وقــد يحــدث أن تريد أم أخــذ طفلها إلى الطبيب، فيرتعــد الطفل ويمتنع، لكنها تقــول له: سنذهب إلى بيت جدك. فيرضى ويمضي معها بيسر.

هناك طرق أخرى قد يستعين بها الأبوان في التعامل مع الطفل، وهي طرق تحايل غير

مباشرة. يحدث ذلك على سبيل المثال عندما ينشج طفل بشكل متواصل، ومن دون سبب.

هنـــا تلجأ الأم إلى معالجـــة هذه العادة بطريقة تحذيرية موظفة بشكل دقيق، وغير مباشرة، فتقول له: البارحة فقد (إقبال) ابن جارنا صوته؟

يقول الطفل: كيف فقد صوته يا أمي؟

تقول: صوته زعـــل منه، لأنه كان يبكي دائماً، وذات ليلة بكـــى كثيراً، وعندما أفاق من النـــوم صباحاً أحس بأنـــه فقد صوته، وعندما أراد أن يطلب من أمه قطعة حلوى، لم يستطـــع لأنه فقد الـــكلام. بقي من دون حلوى، ومـــن دون أن يتنـــاول الطعام، حتى إنـــه لم يعد قادراً على البكاء، فكيف يبكي يا مسكين من دون صوت.

بعد يومـــين أغمي عليه وأخذته أمه إلى الطبيب الـــذي حقنه، وعادت معه ومع أبيه إلى البيت.

في صباح اليوم التالي خرجوا جميعاً إلى الحديقة يبحثون عن الصوت.

يستغـــرق الطفل في الإصغـــاء وهو يرى هذه المراحل التي مر بها (إقبال) الذي تركه صوته.

يقول الأب: أجل يابني بحثوا عن الصوت حتى وجدوه مختبئاً بين أوراق شجرة الخوخ في حديقة البيت، كان الصوت حزيناً، ويبكي بمرارة، وهو يرتجف من البرد.

قالـــت أمه للصـــوت: لمـــاذا زعلت من إقبال، وهجرت حنجرته؟

قـــال الصوت: لقـــد أزعجني بصراخه المستمر حتى مرضتُ، وهربتُ منه.

قالـــت: إذا وعدتـــك بـــأن إقبـــال لن يزعجك مرة أخرى، هل ستعود إلى حنجرته، إنـــه مسكين، يجـــوع ولايستطيـــع أن يطلب الطعام، يعطش، ولايستطيع أن يطلب الماء، إنه لايطلب شيئاً حتـــى مرض وأخذناه إلى الطبيب، هل تريد أن نأخذه إلى الطبيب كي يحقنه مرة أخرى؟

قال الصوت: إذا وعـــدني بذلك، سوف أعود إليه.

عندئذ قال إقبال: أعدك ياصوتي بأنني لن أزعجك مرة أخرى، أرجوك عد إلي، لقد اشتقتُ إليك كثيراً.

عندها نـــزل الصـــوت من بـــين أوراق الشجـــرة، وعاد إلى حنجـــرة إقبال، وعادوا جميعاً إلى البيت وأقاموا حفلة بهذه المناسبة دعوا إليها أصدقاء إقبال.

مـــن يومها لم يعد إقبال يصرخ في البيت، ولا يبكـــي، وعندما يريد شيئـــاً، يطلبه من أمـــه بصوت هادئ حتى لايهجره صوته مرة أخرى.

إن المتعامـــل مع الطفل عليه أن يلجأ إلى شيء من الخيـــال حتى يستطيع أن يتواصل

مع الطفل، وبالنسبة لكاتب قصة الأطفال، فهو يحتاج إلى توظيف هذا الخيال بشكل إيجابي أكثر من الأبوين، لأنه يمد حبلاً إلى عالم الطفل من بعيد، ويفترض أن الطفل سوف يتناول منه رأس الحبل كي يغدو جسراً تواصلياً بينهما، وهنا قد يعفي الكاتب الأبوين من الكثير من المشقة بقصصه الهادفة.

إن كاتب قصة الأطفال عليه أن يتمتع بخيال خصب معافى يشطح به في أفق واسعة شطر اكتشاف مساحات سحرية الواقع كما الحال في الكثير من القصص التي خلدت في ذاكرة مكتبة الطفل.

المراجع والمصادر:

١- حنان عبد الحميد العناني- أدب الأطفال- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- عمان- الأردن ١٩٩٦
٢- عبد اللطيف عاشور- قصص الأنبياء للأطفال – مكتبة القرآن- القاهرة ١٩٨٦
٣- ابن حجر العسقلاني- لسان الميزان- مؤسسة الأعلمي- بيروت ١٩٧١
٤- محمود عطا حسين عقل- النمو الإنساني- دار الخريجي- الرياض ١٩٩٦
٥- حامد زهران- علم نفس النمو - منشورات عالم الكتب ١٩٨٦.
٦- د. سعد أبو الرضا - النص الأدبي للأطفال أهدافه ومصادره وسماته، رابطة الأدب الإسلامي العالمية - عمان ١٩٩٣.
٧- نبيلة إبراهيم - أشكال التعبير في الأدب الشعبي - ط٣، دار المعارف - القاهرة
٨- فون دير لاين فريدرش- الحكاية الخرافية - ترجمة نبيلة إبراهيم - دار القلم - بيروت ١٩٧٣.

الحواشي:

- يمكن اعتبار أن جان جاك روسو هو من روّاد الدعوة إلى العناية الأدبية بالطفل من خلال كتابه الرائد (إميل)
- يمكن الاطلاع على بعض كتابات (لافونتين) الموجهة للأطفال وهو صاحب لقب: أمير الحكاية الخرافية في الأدب العالمي.
- برز الشاعر تشارلز بيرو ليؤسس لحركة أدبية للطفل من خلال كتابه (حكاية أمي الأوزة) وقصة (سندريلا).



الإبداع

الإبداع



موجات قصيرة

شعر

سليمان العيسى*

أَلِجُ الغابة

أَلِجُ الغابَةَ.. لا أَرْهَبُها

شوكةً تُدْمي..

وصخراً أَمْلَسا

إنَّني أَبْحَثُ عن نَرْجِسَةٍ

* شاعر العروبة والطفولة الكبير

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

خَبَّأتَها لي..

كم أُحِبُّ النَّرْجِسا

حزيران ٢٠٠٦

❀ ❀ ❀

شَجَر الغَضَا

فليتَ الغَضَا لم يَقْطَعِ الركبُ عرضَهُ

وليت الغَضَا ماشَى الرِّكابَ لياليا

ما لك بن الريب

(صدر الإسلام)

أَقِمْ في ضُلُوعِ الأرضِ

يا شَجَرَ الغَضَا!

ومُدَّ جناحيْكَ العتيقَيْنِ لِلسَّمَا



تُهَشِّمهُ الدنيا.. ويَقْتُلُه الظَّمَا

تَظَلُّ حنينَ الرَّكْبِ..

أنَّى تقاذَفَتْ

بِنا البِيدُ..

نَبْقى فيكَ لحناً مُنَمْنَما

وأَنْتَ مَدانا..

شاعراً ومقاتلاً

ويخضَرُّ في أعماقِهِ

ألفُ مالكٍ..

وألفُ حَبيبٍ يَشْتَهي ثَغْرَهُ اللَّمَى

أَقِمْ في سكُونِ الأرضِ..

يا شَجَر الغَضَا

سَنُرغِمُ هذي الأَرضَ أَنْ تَتَكلَّما

٢٠٠٥

❁ ❁ ❁

أقدامهن قصائد

إلى الفنان العربي عبد الحليم كركلاً

في صَميمِ التُّراب.. كنتَ تُغَني
مِنْ صَمِيم التُّراب قُلْتَ الشوارِدْ
الجُسومُ اللِّدَانُ.. كيف اسْتَحالَتْ
صَلَواتٍ.. تَمورُ فيها المعابِدْ؟
والصَّبايا.. كيف اخْترقْت. بِهِنَّ-
الشعر.. صارَتْ أَقدَامُهُنَّ قصائِدْ؟
الجذُورُ التي أفاقَتْ على الضَّوْءِ
قُدُوداً سكرانَةً.. وسواعِدْ
أَنتَ رَقْرَقْتَ فوقَها لُغَةَ-
العصرِ، وفَجّرْتَ بالحياةِ الهَوامِدْ
كَيْفَ أطْلَقْتَ مُهْرَةَ المُتَنَبِّي
في سماواتِنا.. بوثبةِ ناهِدْ؟
برفيفٍ من الأَنَامِل يَهْمِي
يَمْلأُ الليلَ فِتْنةً وقَلائِدْ؟
كيفَ؟ دَعْني في الخيمةِ البِكْرِ-
سَهْرانَ، وأَمْطِرْ في مُقْلَتَيَّ الفراقِدْ

الإبداع



محطّات لِلتَأمُّل

شعر

عبد الكريم النّاعم ❁

صاحبي

لي صاحِبٌ عَتَّقَهُ الفَقْرُ،
وَصَلَّتْ باسْمِهِ الحاناتُ
حتّى صارَ قِدِّيساً
إذا مامَرَّ باليبابِ

❁ شاعر وناقد وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.



أَعْشَبِ اليَبابْ

عَتَّقَهُ الفقْرُ
وَطافَتْ حَوْلَهُ الحاجاتُ،
أَغْناهمْ جميعاً كانَ،
لاتَراهُ إلاّ عاشِقاً،

فَما الذي يَشُدُّهُنَّ
فِتْنةُ المَجازِ
أمْ تَفَتُّحُ الألْغَازِ،؟!!

لم يَروْهُ إلاّ مُعْشِباً،

يَفورُ بالحديثِ والغِناءِ
حينَ تَدْخُلُ الفُصُول
دَوْرَة الشّرابْ

إيوانُهُ
في أوّلِ الحانات
تَحْتفي بِقوْسِ تَوْقِها،
بزَهْوةِ اكْتمالِ قَفْزةِ
الوعول في السّرابْ

وصاحبي هذا
أخافُ أنْ أخونَهُ
إنْ بُحْتُ باسْمِه،
إنْ لم أبُحْ
أخافُ أن أكونَهُ......

❁ ❁ ❁

أجراسٌ بغيرِ قافِلَه

جَرَسُ الهاتفِ يَعْوي
في فضاءٍ من نُحاسْ

مَنْ تُرى يُدْلي بِغُصْنٍ مِن خَضيرٍ
بازِغِ النُّضْرةِ في هذا اليباسْ؟!!

جَرَسُ الهاتفِ يَعوي،
لنْ أَرُدّْ

منذُ أنْ أُقْفِلَتِ الآفاقُ
واكْتَظّتْ جُذاذاتُ الهواءِ المُرِّ
بالمُرِّ، الجُذاذاتُ على بوّابةِ الخوْفِ
المُحمّى دونَ حدّْ

جَرَسُ الهاتفِ يعوي،
لن أَرُدّْ

يتمادى الصّوْتُ،

ذرّاتُ الهواءْ
تتلظّى،

جَرسُ اللّحْظَةِ يعدو في سديمٍ
من عُواءْ

لنْ أردْ

تُلْحِفُ الأجراسُ، تَشتدُّ،
اشْتعالٌ في الرّنينْ

لنْ أردْ

خَذَلَتْني زهرةُ الصّبرِ،
اشْتعالٌ في اليدينْ

سأردْ
- «ألو نعمْ»
- «أتَجيءْ»؟
- «أعْذروني»
- «لماذا»؟!!

- «تَدْخُلُ اللّحظةُ في المَوْتِ
على كفِّ السنينْ..
قبلَ أنْ نَفْتَتِحَ البُرْهَةَ،
خمرٌ، وطعامٌ، وعيونٌ
تَخْتفي خلفَ معانيها،
انْكِسارٌ في القناني،
وهمومُ اليومِ...
ماااااااأكْثَرَها!!
لم يَبْقَ مايُبْهِجُ فاعْذرني،
سأوي للصّدى المُرِّ الحزينْ»

أَغْلَقَ السّمّاعةَ،
الصَّمْتُ اكتشافٌ
وبلادٌ لم أكنْ أَعْرفُها،
خُذني بعيداً أيّها الصّمتُ
إلى العُزْلَةِ والصُّفْرَةِ خُذني
لِمَواتِ الصّمتِ قَهْراً،
لِبلادٍ تَحْفُرُ الأنفاقَ
كي يُدْخِلنا فيها العدوّ

لصحارى تُنْبِتُ السُّلْوانَ
من غيرِ سُلُو

كِدْتُ أنْ أَخْلدَ للصّمتِ المُسَمَّمْ

مرّةً أُخرى هو الهاتفُ يَعْوي،
يَفْرُدُ الأسودُ سُجّادَ لياليهِ
ويمشي دونَ ضد~

جَرسُ الهاتفِ لايَسْكتُ،
شَعَّتْ لَوْحةُ الكاشفِ،
هذي وَعْلَةُ الرّوحِ
على الحدِّ المُفَغَّمْ

- «ألو نعم»
- «أتجيءُ»؟

- «آهِ يانَخلةَ روحي
آنَ تَستافُ البلادُ الخيْبَةَ الكبرى
يعودُ الوعْلُ مكسوراً
إلى الكهفِ المُعَتَّمْ

فاعذُريني..»

جرسُ الهاتفِ كَفّ

عُزْلةٌ

صمتٌ

ثَوانٍ

منْ

خَزَفْ.

❁ ❁ ❁

بائعُ «البوشار»[1]

بائــع «بوشَارٍ» يتأبَّــطُ رائحةَ «الذُّرَةِ
الملْذوعةِ،
يَدْخــلُ في الشّارعِ مِــن أعلى مابعدَ
الظُّهْرِ،
وَيَهْمِزُ صَوْتَ التَّسْجيلِ العالي:
«طيرْ وْفَرْقِعْ يابوشارْ»[2]
أَخْرُجُ،
أرجــوهُ أنْ يُخْفِضَــ ذاكَ الصّــوْتَ
لكيلا
يُزْعِجَ مَنْ داهَمَهُ سرطانُ البنْكرياسَ
على قارِعةٍ.. أربعةٍ وثمانينَ،
يَشُدُّ لِجامَ الصّوْتِ ويمضي.
ذاتَ ظهيرةِ حَرٍّ،
رَكِبَ الصّوتَ، وَزَمْجَرَهُ،
أَوْقفَهُ قُرْبَ البابِ،
وَجَلْجَلَهُ،
لم يَخْرجْ أحدٌ،
قَرَعَ البابَ،
خَرَجْتُ،
بِوجهي صوْتٌ يُشبِهُ صوتَ
الخَشَبِ العابِسْ

في عينيَّ كُشوفُ ليالٍ، وظَهيراتٍ
من صمْتٍ يابسْ

أَطْرَقَ،
بعدَ قليلٍ قالَ:
«لماذا لم يَخْرجْ أَحَدٌ
كي أَرتاحَ قليلاً
من تَجْوالي،
وأُريحَ هواءَ الشّارِعِ من

فَرْقَعةِ السَّوْطِ»؟!!

قلتُ بِصوْتٍ يَحْملُ رائحةَ
الفَقْدِ الباهِظِ،
فَقْدٍ لايَرْجِعُ منهُ مَنْ يَدْخُلُ فيهِ،
قلْتُ: «انْقَطَعَ الخيْطُ

فأنا لايعنيني الآنَ ضجيجُ
السّاعاتِ المَهْموزةِ،
لاأسْمعُهُ،
لم يَخْرجْ مِن سمعي بَعْدُ
نُواحُ مودِّعَةٍ،
أمّي،
لم تَتْرُكْ سِتْراً لِنُواحٍ،
ظَلَّتْ تَحْنو فوْقَ القَبرِ،
وتَحْدو
حتىّ شمَّتْ رائحةَ النَّعْناعِ البريِّ
تَصاعَدُ من تُرْبتهِ،
فابْتَسَمَتْ بِحنانٍ لايَعْرِفُهُ
إلاّ قِدِّيسو الأحزانْ

فأنا
لاأسْمعُ
لايعنيني ماتَهْمِزُهُ
أنتَ الآنْ»

أطْرَقَ،
جرَّ حصاناً ليسَ يَراهُ
إلاّ نحنُ،
الْهَمْزَةُ تَخْذلُهُ،
غادَرَ يَنْفضُ رائحةَ الذُّرَةِ
المَلْذوعةِ عن ذرّاتِ هواء الشّارِعِ
غابَ وراءَ النّاصِيَةِ اليسرى....

❁ ❁ ❁

شَميم

طِفْلينِ كنّا كالجِداءِ (الدّاشره)[٣]
تَدْفعُنا الرّياحُ نَحْوَ الاختباءِ
مِن هديرِها
فَنَنْحني وراءَ شجْرة الكينا،
نُناوِشُ الهُروبَ

نَدّعي بأنّنا نخافُ،
نَدْفعُ الغيومَ خارجَ المدى،
لِضِحْكِنا
صهيلُ قريةٍ
تَطْفو على بياض لَوْزِها
وَوَرْدتا بَراءةٍ
و..سُلَّما مُغادَرَهْ
وَقامتانِ تَفْتَحانِ كُوَّتيْ جوريّةٍ
على تخومِ (العاشرهْ)...

فُجاءةً
تَجَهَّمَ الخريفُ،
غيْمةٌ شديدةُ السّوادِ
أطْلقتْ (شُواظَها)
فانْكمَشَتْ
تَمَسَّكَتْ بِمَنْكبيَّ،
ثمَّ شيءٌ يُشبِهُ الثُّغاءَ
في الحليبِ،

فَجَاةً
على فمي فراشةٌ
مِن فمِها،
وَ
غادرتْ
تَجري،

الرّياحُ لاتَلْحَقُها،
وَ
حالَ بيننا الهواءُ وابْتِناءُ
أنّ هذا الكوْنَ ليس مثلما
نُريدُ،

....
أمسِ كانَ (عُرسُ) بنتِ بنتِها،
هيَ المصادفاتُ،
لمْ أكنْ أعلمُ ماوراءَ ذلك
(الشُّواظِ)،

أطْلَقَتْ نَحوي ابْتسامةً،
على شفاهها الخريفُ يرتدي
تَفَتُّحَ الرّبيعِ خِلْسةً،

ستّونَ دَوْرةً

وَ

حالما شَهِدتُها

عَدَوْتُ

باتّجاهِ قُبْلَةٍ

فَراشةٍ

في (العاشرةْ)

* * *

غرفة نوم الضّيوف

الْغُرْفةُ جاهِزةٌ منذُ سنينَ انْسَلَخَتْ،

والبارحــةَ احْتَفَلَــتْ سيّــدةُ البيــتِ

بِتبْديلِ

الشّرْشَفِ بالبطّانيّاتِ الشتْويّةِ،

هذي الغرفةُ منذُ انْهارتْ كُتَلٌ

في الرّوحِ

تنامُ بلا أُنْسٍ،

نَسِيَتْ كيفَ يُقيمُ الضّيْفُ

أحياناً أَدْخُلُها،

أَتَمَدَّدُ،

أُصْبِحُ ضيْفاً،

تَضْحَكُ مِن وَلْدَنةٍ

جاوَزَتِ السّبعينَ

فَتَطْوي وحْدَتَها وتنامُ

على عَتَباتِ الوَحْشَةِ والخَوْفْ

لم يَعُدِ الأَضيافُ يجيئونَ كما

كانوا،

الْغُرباءُ عن المُدُنِ الفضّيّةِ

حينَ يجيء الليلُ

الْبعضُ يَروحُ إلى الفندقِ،

ثَمّةَ مَن لاتَطْرُدُهُ الأَرْصفةُ

التَّعْبى مِن أَقدام الخَلْقِ نهاراً،

كنّا قبلُ إذا مامرَّ نهارانِ

ولم يُقْبِلْ ضيفٌ

يسألني الأولادُ:

«نهارانِ؟!!

كثيراً» /

الأحفادُ الآنَ يَشِبّونَ،
وَأُوغِلُ بينَ الحَرْفِ
وذاك الجُرْفِ،
وأسأَلُ هذي الغرفةَ عن
وحْدتِها،
تَضْحكُ،
تَخْلَعُ عنها ثوْبَ تَرَقُّبها،
تستلقي كالضّيف القادمِ
تأخذُ شكْلَ الضّيْفِ،
وتَرْقدُ،
تِهْمسُ:
«أَطْفِئ هذا النّورَ
وأَبْعِدْ عنّي ذاكَ الطّيْفْ».

❁ ❁ ❁

نَمُوذَج

أنتَ المُتَورِّطُ،
تَمْخُرُ عتْمَةَ وَعْدٍ
يُوغِلُ في ظَلَموتِ الرَّغْبةِ
آنَ بَرازِخُها تَتَفَسَّخُ
قبْلَ دُخولِ البَرْقِ
وَميضَ البَرْقْ

أنتَ المُتَوَزِّعُ
بينَ السّمِّ الطّازَجِ
والرّأْسِ المَحْشُوِّ بأفكارٍ خَمَّتْ..
تَرَكَ النّاسُ المُعْتَبَرونَ،
وَبُرِّزَتِ الطُّرُقاتُ،
وقامَتْ أَسْئلةٌ كُبرى
فَانْصَدَعَ الطَّوْقْ

مِن أَلْفٍ مازِلْتَ رَهينَ الصُّفْرةِ
تِلكَ المَدْهُونةِ بالإطراقاتِ الفِئويّةِ،
والأحكامِ المُطْلَقةِ العَرْجاءِ،
تُغَلِّقُ أبوابَ الرَّحمِ المَرْجُوَّةِ
حينَ يجيئُكَ خَبَرٌ عن أَنْباءِ الطَّلْقْ

ماذا تَتَنَظَّرُ مِن صَوّانٍ،؟!!

أَغْلَقْتَ بَصيرتَكَ. البَصَرَ، الأبوابَ،

نَوافِذَكَ العُليا،
تَنْدَهُ في ظُلُماتٍ كُبرى
وَطَرَدْتَ العَقْلَ،
راكَمْتَ تَفَوُّرَها:
وَرُحْتَ تُطَوِّفُ ملءَ صُراخِ
«سَرقوا الأُفُقْ».!!
البُؤسِ النّابي..

الهوامش:

١- البوشــار: ذُرَةٌ صفــراء تُحَمَسُ بطريقة خاصة، فتبدو منفجرة من الداخل، مغلفــة بباطنها الأبيض، وتُؤكل، ولها باعة ينادون عليها.

٢- طير وفرقع يا بوشار   ما بيصير أكثر ما صار

أغنية خفيفة اشتهرت في سورية ولبنان، وربما خارجهما في سبعينيات القرن العشرين.

٣- (الداشر): لفظة شعبية في سورية تعني الذي ليس له مَن يرعاه.

الإبداع



هــي والآخــر

قصة

عزيز نصار*

تلاشى وقع خطواته على الدرج منذ ساعات. تأخر في الرجوع إلى المنزل. أُزيحُ الستارةَ وأنظر من النافذة المغلقة ينهمر المطر في الخارج. يرن الهاتف. يسأل عنه أحد أصدقائه. هل أعلمه أني اشتهيتُ زجاجة عطر في هذا الجو العاصف. اشتهيت عطري لأستعيد الأوقات العابقة برائحة الحب، وتركض الذكريات. لماذا لا يمتنع عن اصطياد النساء السمراوات منهن، والشقراوات السمينات منهن والنحيلات؟ هو لا يزال جذاباً وأنيقاً. لبس معطفه الكحلي الجديد قبل الخروج. ألستُ أنا السبب في الذهاب إليها.

* قاص وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.



ظننـت أنـه نسيهـا. يحسب أن النبـأ لن يصـل إلى مسامعي وأن صدري سيظل ينبوعاً يفيض بالحب كل تعاويذ السحر لا تبعده عنها.

سأجعلـه يعترف حـين يعود، سأبحـث عن شعـرة عالقة بثيابه وأستنشق رائحة المرأة الأخرى.

تهاجمنـي مشاعـر عبرت في حياتـي.. أستطيـع أن تذكـر كل مـا قالـه وأستعيـد التفاصيل. تسـاورني الهواجس هـو لا يفهم اللهـب المشتعل في نفسي. ينتابني شعور بالمهانة والغضب فهل تشفى روحي الممزقة؟ أكتوي بنار الخداع والخيانـة. يظـن أني مستغرقة في أحضان النـوم أجلس علـى المقعد وأقـف. أجلس وأقف. أمشي في الصالة. إلى متى سأتحمل العذاب؟ إنه لم يعد يهتم بي منذ وقت طويل. متـى كان الرجال أوفيـاء لزوجاتهم؟ إنهم يلاحقون الأقل جمالاً ونضارة. لا يمكن لهم أن ينضجوا ويتركوا لهو الشباب ومجونه. ألا أستطيع أن أكون هادئـة وأضبط مشاعري الهوجاء؟ يتهاوى حبنا فماذا أفعل؟ هزمتني خيانته فهل أستسلم؟

لست مغفلة بلهاء، ولا يمكن للأخبار أن تتوارى. كل شي يصبح معروفا. تمر لحظات قاسيـة. بدا لطيفاً قبـل خروجه بدا ودوداً كعصفور وديع. هـل أسامحه على خطيئته؟ إنه كبقيـة الرجال من منهـم بلا خطيئة؟ ماذا أفعـل؟ هل أسامح مَـنْ يسيء إلي؟ لا بـد أن أسيطر على نفسي لا بد أن أستقبله بـكل الحب القـديم بكل الشغـف القديم. سنتغلـب على هذا الأمر التافه. ليست هذه أول مرة نتغلب فيها على العقبات الصغيرة. سيحتضننـي وينسـى تلك المـرأة. وأسمع ضحكاته الصافية، وننعم بحياة هانئة. أدنو من النافـذة. أمد بصـري إلى الشارع أراه

خالياً وكئيباً، وأرى الأشجار ترتجف وتغتسل بالمطـر أبتعد عن النافـذة ربما رحل هربا مني. أتصوره مـع تلك المرأة تلفّهما سحابة مـن العطر. تعصف بي الغـيرة. يحيط بي اللهـب من كل جانـب. كان ملاكا. إنه ملك مذنـب ضال وأصبـح شيطانـاً. إني امرأة مخدوعـة. ستترك خيانتـه جرحاً غائراً في نفسي. لماذا لا يأتي بزجاجة العطر دون أن أطلبها كما يليق بـالأزواج؟ يحتج بالنسيان حينـا، ويزعم أنه لم يكتشـف انتهاء العطر حينا آخر.

أصغـي إلى صـوت الرعـد وأرى البرق يخطـف الأبصار يخطر ببالي إني سأجد له عـذرا وتنتهي المشكلة. لـن أتصرف كامرأة جاهلـة حمقاء تعميها الغيرة سأكون عاقلة. لا لن أكون ساذجة. لن أبادله حرفاً واحداً، فهذا يجعله يطمع بـي ويستمر في ضلاله. تلاحقنـي الأحزان. إنه يكرهني ولن أصفح عنـه. سئمت وجوده. هو ليـس جديراً بي. اقـتراني به خطيئة فاحشة سأتخلى عنه ألا يكفي هذا العذاب؟

يرن الهاتف أرفـع السماعة يتناهى إلي صوت يقول:

- أنـا الطبيب المناوب وعـلاج زوجك العجوز قد انتهى.

اسأله بصوت مخنوق:

- هل أجيء إلى المستشفى؟

يخـبرني الطبيب أن سيـارة ستنقله إلى البيت بعد أن جعلوا رجله المكسورة في قالب من الجصـ. أغلق الهاتـف يطغى السكون الرهيب. أستغرق في تفكيري. حظك عاثر يا زوجي الحبيب لا بد أنك سقطت على الأرض المبتلة مسكين أنت لم أكن واثقة من خيانتك. إنك تعاني آلاماً مبرّحة. أكان من الضروري أن أشتهـي العطـر. يجـيء الشـوق إليك مشتعلاً. نحن نعيش حياة رائعة. أليس هذا هو الفرح؟ تغمـرني بهجة خفية ماذا أريد؟ أيامـي ملأى بالحـب. سألبس ثوبي الجيد لاستقباله. اشتقت إلى ابتسامته العذبة. هل أطمئن إلى كلام الطبيب؟ هل كان يمازحني حين قـال إن زوجي عجوز؟ إنه ليس مُسنّاً، وليس كهلاً. إنه قديس طاهر. إنه وفيّ حقاً، ولا وجود لامرأة أخـرى. سأتزين من أجله الآن. وأنـا ماأزال مشغوفـة به. أعيش معه عمراً جميلاً، وحـين يسافر لا يفارق طيفه خيالي. تزوجنا بعد حب عاصف كهذه الليلة المجنونة.

رجـل عطـوف عاشـق. إنه يتـألم لكن الحظ حالفنـي، فقد أعلمنـي الطبيب أن رِجْلاً واحدة قد كسرت. سأعد له طبقا من الحلوى اللذيذة.

وأسمـع صـوت الجرس يـرن. ها قد

جاؤوا به. أفتح الباب يطل جاري في الطابق الأعلــى، وابتسامة خفيفة تعلو وجهه ويقول لي:

- هذا هو كلبنا ترسله زوجتي لك.

أحمل الكلب الأليف وأمسح بيدي فروه الناعــم أتوجه بالشكر للرجــل، وهو يغادر عتبة البيت. يخف توتري.

أســارع إلى الهاتف وأتصــل بالمستشفى وأسأل عن زوجي أكتشــف أن هناك خطأ، وأن المصاب شخص آخر. هذا خبر طيب.

يزول قلقي يسري الأمن في عروقي ولكن أين ذهــب؟ تأكدت لي خيانتــه هو يستلقي الآن في حضن تلك الفاجرة.

أضــمّ الكلــب الجميــل. إني أكره هذا الرجل سأحطم صورته. أبحث عنها لا أجد لها أثراً.

ليلــة عاصفــة. مطــر يغســل المدينة، والهاتــف مقطوع منذ أيــام ولا أحد يتصل بي. إني امرأة وحيدة لم أتزوج أبداً. سأتناول دواء يمنحني الهدوء والنوم.

الإبداع



صَيْدُ إِبْلِيْس

قصة

خالد زغريت ❀

إذا كانــت الحياة رحلة، فحياة (مهر) كما يقول: رحلة صيد كلاب، وعلى الرغــم من أن هذا القول ليس مثلاً، إلا أنــه يصح أن يكون مثلاً، لأنه ناتج عــن قصة تجعله كذلك، كما يحكــي (مهر) طالباً إضافته إلى مجمع الأمثال العربية، فقد كان جــده يعمل في صيد الثعالب، ليبيع جلدها، حيث يذهب مساء إلى الكــرم مصطحباً أحد أحفاده فيكــون دوره حمل الطعم، وينسب صيد اليــوم إلى حظّه، فيعيد الجدّ صَلي الفخ ويقول للحفيد المرافق: صيد

● أديب وقاص سوري.

∞ العمل الفني: الفنان جورج عشي.



الليلــة حظك، لذلــك عليك تفقد الفخ صباحــاً، إن صاد ثعلباً، فقم بضــرب رأسه بالعصا حتى يموت، لكن إياك أن تشــوّه الجلد، من ثم تحملــه وتساعدني في سلخه، وبعد إتمــام تجفيفه وتمليحه تنزل معي إلى السوق لنبيعه ونتغدّى كباباً، أما عندما

يكون دور (مهر)، فيقول له جده: لولا مخافة الله لحرمتك من الدور، فحظــك سيِّئ ففــي دورك إما أن يكسر الثعلب قدمه ويخلّص نفسه من الفخ، وإما لا يوجد صيد، وإما أن يصيد الفخ كلبــاً، أنت إبليسك كبير يا بني دائماً يحرمك الكباب، وفعلاً لم يخــرق الفخ في أيام حظ مهــر القاعدة، والأسوأ هو حين يصيد الفخ كلباً، فهذا يعني أنحس النحس، وتضاف إلى ســوء الفأل عقوبة تخليص الكلب من الفخ، فهو لا يصلــح صيداً، وحــرام قتله، لذلك سيضطــر (مهر) لتخليصــ الكلب الذي لا بــد أن يعضّه ويخمشــه مهما كان حذراً في عمليــة فكه من الفخ، وعلــى الرغم من أن مهر بلغ عقده الخامســ إلا أنه مازال على اعتقــاده بأن إبليسه كبير، وهو الحاجز بينه وبين النجاح، فهو يجد في نفسه كل مؤهلات المسؤولية والنجاح، إنه بطول مترين وعرض ثلاثة أرباع المتر، وهيبــة المسؤولية صارخة في هيئته، فلــو رأيته خلــف مكتبه لظننت أنك أمام أبي الهول الذي لابد أن يبعث بك الروعة والرهبة، ولكــم كان مهر يحاول أن يظهر لطفه للمراجعين، لكن محاولاته كلها تذهب عبثاً، فهيبته أكبر من أي تلطّف، وكثيراً

ما كان يؤلمه تردد المراجعين عن مقابلته، بل بعضهــم كان يمضي أسبوعاً في توقيع طلبه وما إن يعرف أن التوقيع وصل إلى مهر حتى يرمي بإضبارته، ويقول: لا أريد هذه الرزقة مادامــت من مهر، مقابلة أنكــر ولا مقابلة مهر. وحين رقــي مهر إلى رئيس قسم، قال له أصدقــاؤه: كفاك تذمــراً، ها قد صرت مســؤولاً، ردّ عليهــم: تستكثرون علي رئيس قسم مراقبة عســل الزلوع، وزملائي الذين كانوا ينقلــون مني في الامتحانــات صاروا مديرين عامين أو عميدي كليات استرزقوها بدكتوراة رومانية أو قرقيزية بزوج جرابات، ويبــدو أن الزمن رغــب في الاقتصاص من مهر على نكرانه نعمة ما هو فيه، فعينوا له مساعداً في القسم، تفاءل عندما سمع الخبر لكن عندما رآه، وتعارفا، ردد في نفسه: المرة صيد كلاب مسعــورة، أن تعاشر إبليس خير من أن ترى (زحلوق) والله اسم على مسمى، بينما كان مهر يشــرح له مبادئ العمل، كان (زحلــوق) يتزحلق على شعارات تبرأت منها عظــام أرسطــو، وكان (زحلــوق) يقاطعه، ليحدثه عن ضــرورة تحديث المكتب وأثاثه، ومــا هي إلا ساعة حتى جاء مسؤول اللوازم مــع جيش مــن المستخدمين يحملــون أثاثاً فخماً لزحلوق، وهاتفاً خاصاً، وبدأت قوافل المهنئــين يتقاطــرون على زحلــوق محملين بالورد والسبحات المعتبرة والكرافيتات ووو، وأدرك مهر أن (زحلــوق) ليس مساعداً بل رئيساً له، فقد كان الاهتمام بالمساعد يفوق الاهتمام برئيس المؤسسة، انتهى اليوم الأول من تسلم (زحلوق) سدة كرسيه، وتأكد مهر أن السكري بدأ رحلته في دمه، حاول مهر كثيراً استيعاب زحلوق لكن بلا جدوى، فزحلوق لا يفقه بعمله شيئاً، ولا يريد، فهو يرهن وقته لتيسير أمــور معارفه في الدائــرة وحسب، فهاتفه لا ينقطع عــن الرنين، والزوار كلهم يسألون: مكتب الأستاذ زحلوق أين؟ وهم في الغالــب لا عمل لهم في مكتبــه بل يطلبون منــه تيســير أمورهم في مؤسســات أخرى، وكان يطقق مهــراً زحلقته على كلمات كلها مبلَّطــة بياء النسبة تفلســف قدسية العمل ونوازع الزعامــة في نفوس المراجعين، ومما يجنّن مهــراً بطء زحلوق في تخــيّر ألفاظه المشددة بياء النسبة التي يلصقها بالكلمات كالتصاق كرشــه بجسمه، فهو حتى إذا ذكر طبخة المقلوبة يقول مقلوباتية، لكن زحلوق –للحق– بارع وماهر في حسن التخلص من المراجعين عندما يعجز عن مساعدتهم، فهو

يرضيهم مـــن كيسهم كما يقـــال، فيجعلهم يرجعون من عنده ممتنين شاكرين وسلالهم معبأة بالهواء، وفرحتهم لا تسرق بما كسبوا من حسن استقبال ونية صادقة في مشاركتهم آلامهم، والسعي في تحقيق أحلامهم بشمس يوم مشرق حتى لو ذهـــب إلى تايوان لشراء شمســـ صناعية لفجرهم القادم على صهوة كلماته، ومرة راجعه عجوز طاعن في القهر وكبر الفقر يشكو إليه تسمم نحله، وهو على يقين بأن التسميم قام به جاره المسنود بأناس سياراتهـــم تقطع الضنـــى بفخامتها، هدأه زحلـــوق بكلمات تقطر زلوعاً إنسانياً، وزجر المستخدم: أين الشـــاي لأبينا؟ قائلاً: هؤلاء بركتنـــا أصلنا، تجاعيدهـــم رايات تاريخنا، دعني يا عمّ أقبل يدك الطاهرة، في شقوقها خبأت أمجادنا وعرق جبينك مطر مستقبل، ألا ترى الشباب يستشهدون دفاعاً عنها، هم يدافعون عن عرقك في ذراتها. بكى العجوز وتأتـــأ: الله يكرمك يا بني، ردّ زحلوق: والله زعلتني، هذا واجبنا نحن وجدنا لخدمتكم، هـــذه الكرافيت التي تتـــدلى من رقبتي هي وسام خدمتكم، العجوز المسكين لم يعرف ماذا يقول: أنا يا بني من حقي التعويض فمنحلتي مؤمنة في مؤسستكـــم، والله استدنت أجرة الطريق ديناً، ردّ زحلوق: اطمئن يا أبي حطّ رجليك ويديـــك بماء ثلجي، قل لي كم أجرة الطريـــق؟ خجل العجوز، مدّ زحلوق يده إلى جيبـــه استل خمسين ليرة وأقسم أن يأخذها العجـــوز، تيسر ياعم أنتم أنبل من في الدنيا لأنكم شهداء أحياء، ذهب العجوز الذي جاء ليقبض مئة ألف ليرة تعويض تسمم منحلته، بخمســـين ليرة لكـــن شكره لزحلـــوق يوحي بأن العم لم يعـــرف أن يعد الخمسين الليرة، عندهـــا تيقن مهر أنه تزحلق على درب أبي مـــوزة، وأن إبليس الـــذي يزحلق الحظ عنه هو الذي زحلق زحلـــوق إلى حياته ليزحلقه إلى جهنم بالألوان، فقرر أن يأخذ إجازة حج ليرجم إبليس لعله يتخلص من مطاردته، ولم تفت هذه الفكرة أيـــاً من رفاق مهر، فكلهم كانوا يوصونه بأن يرجمـــه بعشرة أضعاف، وفعـــلاً لم ينم مهر في الليلـــة السابقة لرجم إبليس أمضاها في جمع الحصى حتى بلغت المئـــة تأبطها وراح إلى إبليســـ وبدأ برجمه حتى انتهى من الحصى ثم رماه بما يحمل، بالقداحـــة، والسبحـــة، والطاقيـــة، ولم يبق معه إلا الجـــوال، قرر أن يكلم رفاقه مبشّراً إياهم، من ثم يرميه بالجوال لعله المرة يحس على دمه، فتح الخط لاهثـــاً: ألو ألو شباب

أكلمكم من عند سيدنا إبليس ما خليت شيئاً إلا ورميته به، قاطعه على الطرف الآخر: مبارك يامهر ظننا ذلك لقد صار زحلوق مدير مؤسستك، زحلقته حجارتك إلى فوق، قطع مهر المكالمة تأمل نصب إبليس تمنى أن يأكله، لكن بدا له النصب مبتسماً بشماتة وكأنه وجه زحلوق، اتصل بزحلوق: ألو سيدي مبارك، والله أنا مَن زحلقك من تحتي إلى فوقي، والله حجارتي عليك صارت ورداً، لكم رجمتك هنا بالورد يا سيدي مبارك مبارك، وحين عاد مهر من الحج مدد إجازته، وقرر أن يزور صديقه الذي يقطن ريفاً من الأرانب البرية، فهناك لا بد أن يصيد أرنباً، سيجلبه و(يحنّطه) في زاوية مكتبه ليتبرك به، ترى أيخرج من كل هذه الحياة حتى بلا أرنب، فكان كل صيده كلاباً، ولم يربح في حياته إلا خسارة الفرص، وصل إلى صديقه مساء، حدثه برغبته العارمة بصيد أرنب، قال له: ألم تقل إن الأعور يصيد بالطلقة الواحدة أرنبين، يا أخي أريد أرنباً أعور، طلب مرافقته، فأبى. حمل البندقية والمصباح الذي يثبت بضوئه الأرنب، ووصايا صديقه بالطرق المثلى لصيد الأرانب، وبالحذر من الاقتراب من المحمية، فمراقبها أجنبي وما إن يسمع صوت الرصاص قريباً منه حتى يطير بنفسه إلى الصياد، وهو رجل مهم تابع لكوفي عنان مباشرة، مشى مهر ونظره يراقب حركة أرنب، وكان يحدث نفسه: لو اصطدت مرة واحدة غير الكلاب ربما لتغيرت كل حياتي، أجفله كيس طيّره الهواء كاد أن يطلق النار عليه، لكنه تذكر وصية صديقه عليك بالتمهل، خطر له ماذا لو صاد كلباً، ارتجف لهذا الخاطر وقال: العمى! معقول! لا أميز بين الكلب والأرنب، طيب هذه بندقية وليست فخاً حتى وأمر الصيد بيدي! تعوّذ من إبليس، وتابع السير ولم ير أرنباً سأل نفسه: يعني أكلهم إبليس أم زحلقهم زحلوق عن طريقي، لم يقنط مهر بل غامر في التوغل في منطقة لا يعرف أين تقوده، وفجأة رأى ما يسرع صوّب المصباح ثبته توارى الصيد وراء حجر صوب البندقية، وأطلق النار فر الصيد قليلاً وسقط، ركض إليه بخفة نمر وكم سبّ حظه العمى، هذه بومة ما هذا الفأل بومة! لكنه قال لنفسه: والله هذه فأل، ليس الصيد الوفير بل القضاء على إبليس بجلال قدره، وما لبث أن رأى أرنباً، بلى إنه أرنب قال لنفسه: ما قلت لك بدأ الخير يهلّ،

إذاً قتـل البومة بداية نهايـة إبليس، صوب نحو الأرنب أطلق النـار، أصابه، لكن يبدو أن الإصابة لم تكن قاتلـة، فقد تابع الأرنب ركضه، أراد أن يثني عليه، لكن فاجأه شيء كأنـه القرد لم يميزه جيداً يصرخ: بليز بليز، قال لنفسه: طلع الأستاذ أخيراً، وهو ألثغ لا يعرف أن يلفظ السـين، صوّب نحوه، وراح يطلـق النار عليه، ولم يرفع يـده عن الزناد حتـى أفرغ المخزن، وذهـب نحوه متبختراً، أخـيراً شرفت يا بليز الكلـب، وما إن وصل إليـه وتأمله تحت المصبـاح حتى تيقن من أنه إنسان أفريقـي، معقول خرج إلي بهيئة إنسان! لكن قطعت تفكيره جلبة قوية، سأل نفسـه: ترى أطلعـت لي قبيلته، لكن عندما رأى السيارات الفخمـة والشرطة وصديقه يلطـم على وجهه نادباً: آه يا مهر ألم تصطد إلا زلمـة عنان، يا الله ما أكبر إبليسك، صار بحاجة مجلس أمن أبالسة.



آفاق المعرفة

آفاق المعرفة



خصوصية الأسلوب في شعر بدوي الجبل

د. خليل الموسى ❁

من المفيد أن يتكلَّم الدارس على أدب الأديب من دون أن يتعرَّض لحياته، وخاصة إذا رحل الأديب من جهة، ثمَّ إنَّ دراسة الأسلوب تنتمي إلى علم الأسلوبيات المعاصر، وهي دراسات نَصّيّة. تنطلق من النص وتتجه إليه من جهة أخرى.

وعلينا في كلامنا على شعر بدوي الجبل أن ننطلق أيضاً من المدرسة الكلاسيكية التي ينتمي إليها شعرُ الشاعر مضموناً وشكلاً، مع الإشارة إلى

❁ باحث وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أنَّ الشاعــر العربي في العصر الحديث يعبُّ من المدارس الوافــدة رومانسية وكلاسيكية ورمزية وواقعية وسريالية دفعةً واحدة، وهو لا يتخلَّى عن تراثه الشعري المعبود من جهة وتجربته من جهة أخرى، مما

يشكّل خصوصية صوته الشعري، ولكنّنا نُصنّفــه ضمن هذه المدرســة أو تلك لغلبة طابعها علــى شعره، فبــدوي الجبل شاعر القيــم والملحمية من جهــة، وشاعر العمود الراسخ في جذور التراث من جهة أخرى.

وإذا وضعنــا شعر بــدوي الجبل ضمن المدرسة الكلاسيكية فهــذا لا يعني أبداً أنَّ شعره لا يفيضــ أحياناً ويتجــاوز الحدود المرسومة لهــذه المدرســة، فالشعراء ضمن المدرسة الواحــدة يتشابهون ويختلفون وهم ينطلقون من المبادئ الكبرى التي تنتظم هذه الجماعة، ولكنَّهم يتمايزون في الخصوصيات والأساليب وليس هذا الأمر غريباً، فالشعراء الرومانسيون الفرنسيون جماعة محافظة إلى حدّ ما، ومنها شاتوبريان ولامارتين وألفريد دي فينــي، وجماعــة ثائرة، ومنهــا فكتور هوغــو وألفريد دي موسيــه وجورج صاند، ومن هنا علينا أن نتبيَّن خصوصية الأسلوب في شعر بدوي الجبل والعوامل التي أسهمت في حيويته وانتشاره ومنها:

أولاً: غــزارة المــاء في شعــره وطلاوته وسلاستــه وبُعده عن الجفــاف والخشونة والوعــورة التــي اتصف بها بعضــ الشعر الكلاسيكــي في مدرسة الإحياء، وهذا يعود من وجهــة نظري إلى ثلاثــة عوامل رفدت هذا الشعر بماء الحياة، ومنها الطبيعة الثّرة التي عاشــ في أحصانها، وخاصةً حين كان يافعاً، فهو من طبيعة جبلية غنّاء قريبة من البحــر وتقلّبات المناخ بــين صيف وخريف وربيع وشتاء، ولكــنَّ هذا العامل وحده غير قــادر على خلــق المناخــات الإبداعية لو لم يرافقــه عامل ثانٍ، وهــو الثقافة الصوفية التــي تربَّى عليها تربيــةً واضحة في أسرته وبيئته، وربمــا كان أيضاً للتجربة الحقيقية التــي عاشها، وهي العامــل الثالث، دور في هذه الحيويــة والحياة، والشعــر -قبل أي شيء آخر- تجربة.

ثانيــاً: مساحــة الصــوت الكلاسيكي في شعــر بدوي الجبــل- شاسعة، فهو يمتدّ مــن الغنائيــة إلى الغناء، ومــن الذاتية إلى الموضوعية، ومن الإشارة إلى الرمز والرمزية،

فإذا كانتِ الغلبة في قصائده للطابع الغنائية التـي عُرِف بها الشعـر العربي منذ القدم، فإنَّ بعض قصائده نُظمت بقصد الغناء، أو هي صالحة له، كما هي الحال في قصيدته «أغنية البردوني» (ص ٥٠٤) أو «لا تحبّيني» وهي موشّح، ومن الأخيرة:

لا تُحبِّيني ففي حُبِّي الشَّقَاءْ يا فَتَاة
واطْرُديني تَطْرُدِي عنكِ البلاءْ في الحياةْ
قَلْبُكِ القلبُ الذي يَخْفُقُ لي وَحْدَهُ
دَمْعُكِ الدَّمْعُ الذي يَنْهَلُّ لي عِقْدُهْ
أنتِ مَنْ يرثي لدمعِ البُؤَسَاءْ يا فتاةْ
أنتِ من يَشْقَى لحزنِ الأشقياءْ في الحياةْ..

(ص ٤٩١).

وهــو يشبه في ذلك ما نظمه الشاعران: أحمد رامي والشاعر القروي.

ويمتدُّ شعــره من الشعــر الذاتي، وهو سائد في ديوانه، إلى حدود الشعر الموضوعي في بعض الملامــح الملحمية التي نجدها في شعــره القومي والدعوة إلى ضرورة المواجهة والدفــاع عن الأرضــ في قصيــدة «جلونا الفاتحــين» وفي بعض مراثيــه، وهو يصوِّر البطــل الملحمي النبيــل، كما هي الحال في رثائه لسعد الله الجابري، كما يمتدّ شعره من حدود المباشــرة والإشارة الواضحة الدقيقة إلى حدود الرمــز والرمزية، كما هي الحال في قصيدته «العذراء الخائنة» التي تتجاوب فيهــا المفردات التي تضــجّ على الرغم من بساطتهــا وعفويتها في السيــاق بالدلالات المتزاحمة على الدال من كل حدب وصوب:

أحْـبَـبْـتُـهـا سـاحـرةً كـالـرُّؤى
مُـبْـهَـمَـةً غـامِـضَـةً كـالـظـنـونْ
مجـنـونـةً والحـسـنُ لم تكـتملْ
فِـتْـنَـتُـهُ إلّا ببعـضِ الجُـنُـونْ
طَـرُوبَـةً ضَـحَّـاكـةً كـالـصِّـبـا
كـئـيـبـةً قـاتِمَـةً كـالمـنـونْ

(ص ٣٦٦)

ثالثاً: شعر بدوي الجبل حضاري منفتح علــى الآخر بمحبَّة لما يحتويــه من عناصر ومفــردات ونزعة إلى التصــوف، فهو يبني عماراته الشعرية على الحبّ والمحبَّة، وينظر إلى الآخــر على أنه كائن إنساني وشريك في هــذا العالم، فالظلــم الواقع علــى الإنسان العربــي واقع أيضــاً على ســواه، والمصير الإنساني واحد، ولذلــك كثرت في قصائده عبــارة «آمنتُ بالحبّ»، وقد يجد القارئ في ديوانه بعض القصائد التي تُشير من خلال

سطحها الظاهــر إلى أنه يشمت بمصائب الآخر، ولكنّنا إذا بحثنا في البنية العميقة وجدنا أنَّ هذه الشماتة ناجمة عن أنَّ هذا الآخر لا يســير في تصرفاته وسلوكه إلا من مبدأ الطمع بثروات الشعوب المغلوب علــى أمرها واستعبادها وإذلالها، كما هي الحال مثلاً في قصيدتــه «إني لأشمت بالجبار» التي نظمها سنـــة ١٩٤١ بعد أن سقطت باريســ في يد الألمان في الحرب العالمية الثانية، وكانت تنكّل بأحرار سورية وهــم يدافعون عن حريــة بلادهم، فقال فيها:

قُلْ للألى اسْتَعْبَدوا الدنيا لِسَيْفِهِمُ
مَنْ قَسَّمَ النَّاسَ أحراراً وعُبْدَانَا؟
إنِّي لأشْمَتُ بالجبَّارِ يَصْرَعُهُ
طاغٍ ويُرْهِقُهُ ظُلْماً وطُغْيَانا
لَعَلَّهُ تَبْعَثُ الأحزانُ رَحْمَتَهُ
فَيُصْبِحُ الوَحْشُ في بُرْدَيْهِ إنْسَانا
والحزنُ في النَّفْسِ نَبْعٌ لا يُمرُّ به
صَادٍ من النَّفْسِ إلَّا عادَ ريَّانا
والخيرُ في الكونِ لو عَرَّيْتَ جَوْهَرَهُ
رأيتَهُ أدمعاً حَرَّى وأحزانا



سَمِعْتُ باريسَ تَشْكُو زهوَ فاتحِها
هلَّا تذكَّرْتِ يا باريسُ شكوانا
والخيلُ في المسجدِ المحزُونِ جائلةً
على المُصَلِّينَ أشْيَاخاً وفِتْيانا
والآمنينَ أفاقُوا والقُصُورُ لَظىً
تهوي بها النَّارُ بُنْيَاناً فَبُنْيانا

(ص ٨٢-٨٣)

رابعــاً: الحسّ القومي في شعره وحياته: لاتنطلــق الدراسات النقديــة المعاصرة، ولا سيّمــا الأسلوبيــة منها من حيــاة الشاعر وتجاربــه الواقعيــة، وإنمــا تنطلــق مــن القــراءات النصية، ومع ذلــك لا بأس هنا مــن أن نذكّر بأن لبدوي الجبل صلة بالثورة العربيــة الكـبرى، وهو مــا زال يافعاً، فقد

كان مؤمنــاً بأن العرب أمة ذات تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد، ولا بدَّ من أن يعود هذا التاريــخ إلى أصحابه، أمة ضجّت الصحراء ببطولاتهم، ومن هذا المبدأ كان من الرعيل الثاني بعد المرّاش واليازجي وشهداء الثورة العربية ورجالات التنوير الذين حملوا شعلة الثــورة وساروا بها إلى الأمــام، ولذلك كان من أعضــاء الكتلة الوطنيــة، وناضل ضد المستعمر الفرنسي الذي أراد تقسيم سورية إلى دويلات طائفية صغيرة، فاعتقل وسُجن ونفــي وتشرّد مــرات، وكان جريئاً في نقده، فتعرّضــ للاغتيــال، ومن نافلــة القول أن نذهب إلى أنَّه نظم، وهــو منفيّ في النمسا وسويســرا، عدداً من القصائــد الوجدانية التي تقترب كثيراً من حدود الرومانسية، كما هي الحال -مثــلاً- في شعر محمود سامي البارودي حين تعرّضــ للنفي إلى سرنديب، فــإذا قصائــده حنين جــارف عاصف إلى بغداد ودمشق وحلب وحمص واللاذقية في قصيدة «ابتهالات» التــي نظمها في جنيف سنة ١٩٦٤، أو قصيدة «البلبل الغريب» التي أهداها إلى حفيده محمــد، وقد نظمها في فيينا سنة ١٩٦٣.

أما نزعته القومية فهي تتجلّى في شعره واضحــة صافية، وهــي مختلفة عن النزعة القومية عند أقرانه من الشعراء الذين تغنوا بالنزعة القومية ممتزجة بالنزعة العثمانية والفرعونية عند أمير الشعراء أحمد شوقي، أو ممتزجــة بالنزعة الشرقيــة عند شاعر النيل حافظ إبراهيم، ولبدوي الجبل قصائد ماثلة في هذا المجال، وحسبنا أن نذكر منها قصيــدة بعنوان «تعالوا نعــدّ الصَّيد» التي ألقاها في قاعة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٢٤، وهذا المقطع الأول منها:

أهَــذِي مغـاني جِـلَّـقٍ والمعـالِمُ
لـكَ الخـيرُ أم أنـتَ وَسْـنَـانُ حـالِمُ

بَـلَـى هـذه أمُّ الـعـواصـمِ جِـلَّـقٌ
وهذي لُيُوثُ الغوطَتَيْنِ الضراغمُ

هُنا عَرْشُ أقمارِ العلى من أُمَيَّةٍ
هنا ارتكزتْ سُمْرُ العوالي اللَّهَادِمُ

هُنا ابْنُ أبي سُفْيانَ أشرقَ تاجُهُ
تُـؤَيِّـدُهُ البيضُ الرِّقاقُ الصَّوَارِمُ

هُنا اليَعْرُبِيُّونَ الأُلَى عَزَّ جارُهُمْ
فليسَ له في غوطةِ الشَّام هاضِمُ

هنا النَّفَرُ البِيضُ الميامينُ، للعُلَى
مَـلَامِـحُ في غُـرَّاتِـهِـمْ وَعَـلائِـمُ

هنا العربُ الأَنْجَادُ إنْ قامَ ظالِمٌ
مَشَوْا بالقَنَا أو يُرْجِعَ الحقَّ ظالِمُ
منَ القَومِ ما زُفَّتْ لغيرِ كِرَامِهِمْ
حِسَانُهُم البيضُ الغواني الكرائِمُ
إذا انْتَسَبُوا في نُدْوةِ المجدِ حَلَّقَتْ
بِهِمْ للعُلى قَيْسٌ وَذُهْلٌ ودارِمُ

(ص ٥٣٤)

خامساً: انتصاره للمرأة: بدوي الجبل شاعر تنويري بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، هو تنويري لا يختلف أو يتناقض مع نفسه، فهو لا يكون تنويريّاً مرَّة، ويكون مرة أخرى على موقف محايد أو معارض للتنوير، فقد ذهب المفكّرون العرب إلى أن التنوير يشمل الأصعدة كافة، ونهضة المرأة -وهي تشكّل نصف المجتمع- في مقدمة القائمة، وهذا ما ذهب إليه الشيخ الإمام محمد عبده وتلميذه قاسم أمين في كتابيه «تحرّر المرأة» ١٨٩٩ و«المرأة الجديدة» ١٩٠١ ولكنّ بعض الشعراء تحفّظ على هذه الحرية، كما تحفّظ على المساواة بين الرجل والمرأة، فذهبوا إلى أنَّه من الضروري أن تتعلَّم المرأة شيئاً من مبادئ القراءة والكتابة ليكون لها عوناً على مساعدة أطفالها في المنزل، وكانت لهم مواقف من سفورها وعملها، وبالمقابل فإنَّ من شعراء العربية من ذهب إلى درجة المساواة في التعليم والعمل واختيار الزوج، كما هي الحال مثلاً عند معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي اللذين ذهبا إلى أن تكون المرأة نـدّاً لرجل في كلّ شيء، وإلا فإنَّ الكلام على النهضة وهم وإنشاء خطابة فارغة.

بدوي الجبل، وإن كان أقلّ حدَّة من الرصافي والزهاوي في خطابه عن المرأة، هو من الشعراء القلائل في سورية الذين وقفوا إلى جانب المرأة، فهي في شعره كائن نوراني جميل لا يجوز بأيّ حال من الأحوال أن تُهمل، فلما نظم قصيدته «إيهِ حكيم الدهر» التي قيلت في مهرجان المعري الألفي خاطب الشاعر العباسي خطاباً عاتباً عليه في موقفه من المرأة، وخاصة في «اللزوميات» وأخذ عليه موقفه المتطرِّف من هذا الكائن الإنساني، فقالِ:

إيهٍ رهينَ المحبسيْنِ ألَمْ يَئِنْ
إطلاقُ مأسُورٍ وفَكُّ سَرَاحِ
ظَفِرَتْ بِرَحْمَتِكَ الحياةُ وصُنْتَها
عن كُلِّ ناعسةِ الجُفُونِ رُدَاحِ

أَتَضِيقُ بالأُنْثى وحُبُّكَ لم يَضِقْ
بِالوَحْشِ بينَ سَبَاسبٍ وبِطَاحِ
يا ظالمَ التُّفَّاحِ في وَجَنَاتِها
لو ذُقْتَ بَعْضَ شمائلِ التُّفَّاحِ
عِطْرٌ أَحَبُّ منَ المُنَى وغِلالَةٌ
بِدْعٌ فمنْ وَهْجٍ ومن أَفْرَاحِ
هيَ صورةٌ لله جَلَّ جَلالُهُ
عَزَّتْ نَظَائرُها على الأَلْوَاحِ

(ص ٣١٢.٣١٣)

سادساً: أثر التربية الصوفية في شعره:

تربَّى بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) في بيئة مشبعة بالتعاليم والرؤى الصوفية الخالصة، وفي أسرة ذات دراية بهذا المجال، فكان في طفولته قارئاً ومستمعاً يعيش مع المكزون السنجاري وأقطاب التصوّف، بل عاش حالماً بالقيم الروحية التي سعى إليها هؤلاء، فتشبَّع بها زاداً وافراً في شعره إلى نهاية حياته، ولا يمرُّ القارئ في قصيدة من قصائده، إلا وجد آثار هذه التربية في شعره، فهي تشكّل اللوحة الخلفية التي تمدُّه بالمعاني والأفكار، وكأنَّ هذه التربية قابعة في عمق القصيدة وثقافته، وهو لا يستطيع الخروج عليها وإن شاء ذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوّعة، فغزله مثلاً بعيد عن الجسدية والمادية اللتين نجدهما في الشعر الكلاسيكي، ففي قصيدته «خالقه» تقترب صورة المرأة من صورة المعبود أو تحلّ بها، وهذا مقطع من مقاطعها:

كَبَّرْتُ للطَلْعَةِ النشْوى أُسَبِّحُها
أكانَ لله أم للحُسْنِ تَكْبِيري؟
يا طِفْلَةَ الرُّوحِ: حَبَّاتُ القُلُوبِ فِدَى
ذَنْبٍ لِحُسْنِكِ عندَ اللهِ مَغْفُورِ
آثَامُكِ الخَفِرَاتُ البيضُ لو جُلِيَتْ
لِطُورِ مُوسى لَنَدَّتْ ذُرْوَةَ الطُّورِ
كأنَّها أُقْحُوَانَاتٌ مُنَضَّرَةٌ
بِمُخْضِبٍ عَبِقِ الرَّيْحَانِ مَمْطُورِ
يا نجمةً تختفي حيناً وتُشْرِقُ لي
حِيناً أَفانِينَ تَعْرِيفٍ وتَنْكيرِ
لقد هَجَرْتِ أخاكِ الفجرَ وانتبهتْ
شَمْسُ الصَّبَاحِ على أَنَّاتِ مَهْجُورِ
من مَوْطِنِ النُّورِ هذا الحُسْنُ أَعْرِفُهُ
حُلْوَ الشَّمائِلِ قُدْسِيَّ الأَسَارِيرِ
ففي السَّمَاءِ على مطْلُولِ زُرْقَتِها
أرى مَسَاحِبَ ذَيْلٍ منكِ مجرُورِ

(ص ٤١٤.٤١٥)

ولا تختلف قصيدته «اللهب القدسيّ»

عن قصيدته السابقة في موقفه من الحبّ والحبيبة، فالحبّ عنده شعلة إلهية لا تنطفئ جذوتها في حالي النعيم والشَّقاء، فلولا الحبُّ لما كان النعيم، ولولا التجاريب لما كان الشقاء، والشقاء في المحبة درب إلى الله، وإذا وصل المرء إلى حال الكشف والتجلّي فإنَّ النعيم حاصل لا محالة، حتى إنَّهما متداخلان في ثنائية تتوحَّد فيها الأضداد وتتلاقى:

يُحِبُّ قلبي خَبَايَاهُ ويَعْبُدُها
إذا تَبَرَّأَ قَلْبٌ من خَبَايَاهُ
طُفُولةُ الرُّوحِ أغْلى ما أُدِلُّ به
والحبُّ أَعْنَفُهُ عندي وأَوْفَاهُ
قلبي الذي لَوَّنَ الدُّنْيا بِجَذْوَتِهِ
أحلى من النُّورِ نُعْمَاهُ وبُؤْسَاهُ
غِرٌّ وَأَرْفَعُ ما فيهِ غَرَارَتُهُ
وَأَنْذَلُ الحبِّ -جَلَّ الحبُّ- أَدْهَاهُ
ما الْحُسْنُ إلَّا لُبَانَاتٌ مُنَمَّقَةٌ
لكنْ يُؤَلِّهُهُ أنَّا عَشِقْنَاهُ
لم يُرْدِهِ أَلْفُ جُرْحٍ من فَوَاجِعِهِ
حتَّى أُصِيبَ بِسَهْمٍ منكِ أرداهُ
(ص٣٩١)

وربما كانت قصيدة «الحبّ والله» أنموذجاً للتربية الصوفية التي تجلَّت بثقافتها وتاريخها وملامحها من الأنوار البهية التي يتوق إليها الصوفي مقتنعاً بالمحبة ناشداً ما فيها من روحانية عذبة مكتفياً بينابيعها عن ملذَّات الطبيعة ومادياتها، متطلِّعاً إلى الذات الإلهية من دون سواها من قشور لا تفيد ولا تُغني:

أسمَى العبادَةِ رَبٌّ لي يُعَذِّبُني
بلا رجاءٍ وَأَرْضَاهُ وَأَهْوَاهُ
وَأَيْنَ من ذِلَّةِ الشكوى وَنَشْوَتها
عندَ المُحِبِّينَ عِزُّ المُلْكِ والجاهُ
تَقَسَّمَ النَّاسُ دُنْيَاهُمْ وَفِتْنَتَها
وَقَدْ تَفَرَّدَ من يَهْوَى بِدُنْيَاهُ
ما فارقَ الرِّيُّ قلباً أنتَ جُذْوَتُهُ
ولا النَّعيمُ مُحِبّاً أنتَ بَلْوَاهُ
غَمَرْتَ قلبي بأسرارٍ مُعَطَّرَةٍ
والحبُّ أَمْلَكُهُ للرُّوحِ أَخْفَاهُ
وما امتَحَنْتُ خَفَايَاهُ لأَجْلُوَها
ولا تَمَنَّيْتُ أن تُجْلَى خفاياهُ
الخافِقَانِ -وفوقَ العقلِ سِرُّهُمَا-
كِلاهُما للغُيُوبِ: الحبُّ واللهُ

كلاهُما انْسَكَبَتْ فيه سَرَائِرُنا
ومـا شَـهـدنـاهُ لـكـنَّـا عـبـدنـاهُ

(ص ٣٨٥،٣٨٦)

سابعاً: الملامــح الملحمية في شعر بدوي الجبل: ينزع هذا الشاعر في قصائده نزعة ملحمية واضحة لا نجدها إلا عند الشعراء الذين كانوا يبحثون عن هويّة الأمة العربية في زمــن تكــون فيه هــذه الهويــة معرَّضة للانتهــاك أو المسّ بقدسيّتهــا، ويمكننا أن نتلمّس ذلك مثلاً في شعر أبي الطيب المتنبي في القرن الرابع الهجــري حين كانت الأمة مجزأة من جهة، ومطموع بسيادتها وقوانينها من الموالي والشعوبية وأصحاب المصالح من جهــة ثانية، وربما كان عصــر بدوي الجبل قريــب الشبه من ذلــك كلّــه، فالاستعمار جاثم علــى أرض الوطن العربــي من أدناه إلى أقصاه والمصالح الذاتية لبعض الحكام المتعاونين مع الغربــاء واضحة هنا وهناك، ولذلك كان شعــره تنويرياً مصطبغاً بصبغة ملحميــة واضحة، وربما كان في هذا المجال قريبــاً من شاعر العروبــة في المهجر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي).

تتجلَّى الملامــح الملحمية في شعر بدوي الجبــل في النزوع إلى المطــوّلات، وإذا كان الطول شرطــاً من شروط الملحمة فإنَّه ليس الشرط الأول أو الأهمّ، لأنَّ فيها شروطاً أخرى أكثر لزوماً والتصاقاً بطبيعتها النوعية التي تختلــف عن طبيعة الشعر الغنائي أو الشعر الدرامي، ولذلــك عليهــا أن تعتني بالقيم الروحيــة للأمة التي تنتجها، فالإلياذة مثلاً ذات قيم إغريقية خالصة، ولذلك هبَّ قادة الإغريــق للدفاع عن الشــرف المكلوم الذي دنَّسه باريس بن بريام حين اختطف هيلين، ومــن هنا كانــت القيم الروحيــة ممتزجة ومتداخلــة بالقيم القومية، وقــد تعرَّضت القيم العربية الروحيــة والقومية في عصر بدوي الجبــل للانتهاك، وهذا ما يتجلَّى في معظم قصائده.

ومن شروط الملحمة أن تقوم على غضبة ملحميــة وصرخة في الدفــاع عن الحمى، وهــذا كثير في شعر بدوي الجبل، ومن ذلك مثــلاً غضبته الملحمية حين تعرَّضت عروبة القدس للانتهــاك، وهــذا مــا عرضه في قصيدته «جَلَونا الفاتحين» فقال:

بِـطَـاحُ الـقُـدْسِ دَنَّـسَـها مـغيرٌ
فهل صانَتْ كتائِبُنا البِطَاحَا؟

وهل جَبَهَتْ بحدِّ السَّيْفِ دعوى
كعِرْضِ القومِ فاجرةً وَقَاحا؟
ولم نَغْضَبْ لها أيَّامَ كانت
حمىً نهباً وشَعْباً مُسْتباحا
ولا صَدَّتْ سرايانا عَدُوًّا
ولا هاجَتْ حميَّتُنا كِفَاحَا
ولا اهتَزَّتْ صوارِمُنا انتخاءً
ولا صَهَلتْ صوافِنُنَا مِرَاحَا
نُجَابَهُ باليهودِ دماً وناراً
فَنُغْضي لا إبَاءَ ولا طِماحا

(ص ١١٤-١١٥)

وعلى الملحمة أن تنهض من خلال بطل نبيل، كما هي الحال عند هكطور وآخيل وجلجامش، وكما هي الحال أيضاً في شعر المتنبي، وهو يبحث عن بطل نبيل لملحمته، ويرسم صوراً لازمة لولادته، في مثل قوله: «على قدر أهل العزم تأتي العزائم» أو «وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف».. إلخ، وفي شعر بدوي الجبل شيء من هذا القبيل، وقد كان الزعيم سعد الله الجابري أحد هؤلاء الأبطال النبلاء، فقد قال الشاعر في ذكرى وفاته:

خَلَقَ اللهُ للعظائمِ والمجدِ
فريقاً وللصغارِ فريقَا
يا زعيمي عندَ الدُّعاءِ ولو شِئْتُ
لناديْتُ في الزعيم الصديقا
كيفَ تغفو ألم تَرَ الشَّامَ في
النزعِ وتَشْهَدْ لواءَها المخنوقا
مزِّقِ القبرَ فالشآمُ تناديكَ
وتبكي مكانَكَ المرموقا

(ص١٢٥)

هذا فضلاً عن البلاغة الكلاسيكية التي ينبغي أن تتوافر في الملحمة، وبدوي الجبل شاعر البلاغة الكلاسيكية من دون استثناء.

لذلك كان هذا الشاعر ذا عمارات فنية شامخة في الشعر العربي الحديث، ومن هنا كان شعره يحتاج إلى دراسات شعرية تكشف عن خصوصية أسلوبه الفريد، لنفي هذا الشاعر بعض حقّه علينا، وقد ترك لنا إرثاً خالداً فريداً.

المراجع

- الشواهد الشعرية من ديوانه، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٨.

آفاق المعرفة



الكتاب الأخير

د. عبد الكريم الأشتر ❁

كانـت أحداث العام الأول من عـودة الشاب إلى القاهرة (١٩٦٠)، للعمل في معهد الدراسات العربيـة العالية (بصفته معيداً ينهض فيه ببعض مهام التدريـس التي توكل إليه، ويتقاضى من خزانتـه مرتباً محدداً لا يزيد على خمسين جنيهاً) تدعو إلى الترقب والقلق. فقد بدأت تصل إلى أسماع الناس، في إقليمـي الجمهورية العربيـة المتحدة، شائعات تنـذر بالسوء، ولمَّا يمضِ علـى قيام جمهوريتهم أكثر من عامين. وبدأت كلمة (الانفصال) المَقيتة تغزو

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

أحاديثهم، وتأخذ تتمدد في حياتهم يوماً بعد يوم، لتُجهضَ، في النهاية، أمنيتهم الوليدة بتحقيق الوحدة بين الإقليمين العربيين في الشمال والجنوب، مثلاً قائماً للوحدة الشاملة!

فما كاد العام الثاني، من عمله في المعهد، يشرف على نهايته، حتى بدأ الأمل يضعف، ووقع ما كان الناس يتمنون ألا يسمعوا خبره أبداً. ودخل ذلك اليوم (٢٨/ ٩/ ١٩٦١) تقويم التاريخ العربي المعاصر، موشَّحاً بالسواد والأسى.

يذكر الشاب أنه كان، قريباً من ذلك اليوم، في دمشق، في طريقه إلى عمله في القاهرة، حين قامت فيها مظاهرتان متعارضتان. وكان الشاب يزور صديقه الصحفي رجاء النقاش، الذي يزور دمشق، في أحد الفنادق، فاجتمعا في صالة الفندق. وكانت المطربة التي غنّت لدولة الوحدة (وردة الجزائرية) لجأت إليها، فرآها تسند وجهها بكفيها وقد غطَّته صفرة شديدة. واندفع يعانق صديقه وفي أعينهما دموع صامتة. وبقيا، من بعد، يذكران هذه الساعة، بأسًاها كله.

كانت الغرفة التي خُصصت للشاب في المعهد تجاور غرفة أستاذه الدكتور إسحق موسى الحسيني رئيس قسم الدراسات الأدبية، فرأى من عطفه عليه ومحبته له ما ليس ينساه. كان لا يناديه إليه إذا أراد أن يحدثه في أمرٍ من أمور القسم، ويختار أن يطرق عليه الباب، ويجرّ إليه كرسياً صغيراً، فيقعد إلى جانبه يعرض عليه برنامجه في تنظيم محاضرات المدعوين إلى المعهد، من الأقطار العربية المختلفة. ولم يكن يتردد في بيان ما يسرّه وما يَحزنه من سيرها فيه. وقد يخرجان من مبنى المعهد مترافقَيْن، فيقطعان الطريق إلى ميدان التحرير، وهما يتبادلان الحديث في صورة الواقع العربي، على نحو ما يريانه فيها ذلك اليوم.

في هذه الطريق استمع الشاب إلى ما نقل إليه من أخباره الحزينة. سمعه يقول، في لحظة من لحظات الندم الصادق: إنه لم يكن ينوي الخروج من بيته في القدس، وكان بيتاً جديداً بناه بعد أن فقد بيته في الجانب الحديث من القدس. ولكن فئة من اليهود «العرب»، يتحدثون العربية بلهجاتها الشعبية، دأبوا على الاتصال به، يحرِّضونه على مغادرة البيت، ويهددونه بقرب وصولهم إلى زوجته وابنته! فركبه الخوف وغادر بيته، كما فعل فريق كبير من الناس!

وعلمَ، من بعد، أنهم استولَوا على مكتبته في القدس، وكانت معروفةً بنفائسها، فضموها إلى مكتبة الجامعة العبرية!

ويذكر الشاب هنا، وهما في الطريق إلى ميدان التحرير، أن الدكتور الحسيني توقف يسترجع أنفاسه المجهدة، وقال بعدها: صورة جديدة لحكاية المكتبة التي حدثنا عنها أسامة بن منقذ، من قبل، في كتاب (الاعتبار)، فقد استولى عليها الصليبيون في البحر، بعد أن تعهدوا له بالأمان. وهي المكتبة التي أفاد من كتبها (أربعة آلاف مجلد) بعد أن تمّ نقلها إليهم، مؤرخهم وليم الصوري الذي كان يحسن العربية.

على هذا النحو، توثقت الصلة بين الشاب وأستاذه، فأصبح يزوره في البيت ويستمع إليه، ويراه في اللحظات الصعبة التي كانت تتخطفه فيها صور الماضي، في عام النكبة.

فأما عمل الشاب في المعهد، فسار على نحو مريح. أخذ يحاضر الطلبة في موضوع رسالته التي نال بها درجة الماجستير (النثر في أدب المهاجرين العرب إلى أمريكة) إلى جانب مناهج البحث الأدبي، والشعر المعاصر في العراق.

وتمَّت، من ناحية أخرى، طباعة رسالته في «النثر المهجري» بجزأيها، في المطبعة التي كانت تتولى طبع محاضرات المعهد، وقدّم لها الدكتور مندور تقدمة الراضي عنها، وكانت صلته به بلغت أيضاً حداً خالط فيه، هو وزوجه وبناته الثلاث، زوجة الأستاذ الشاعرة ملك عبد العزيز وبعضَ من عرف من أولاده، فأصبح بيتهم في الروضة بيتاً ثانياً لهم، وأصبح بيت الشاب الجديد، في الزمالك، بيتاً يركَن إليه أستاذه في ساعات التعب، فما يجد مانعاً من الاستراحة في فراشه، إذا أعياه العمل.

ويذكر أنه سأله يوماً عن عدد الساعات الأسبوعية التي يمضيها في إلقاء المحاضرات، فزادت على العشرين! ولم يملك الشاب يومها نفسه من الإشفاق عليه، خشية أن يقعده التعب المتصل، في المعاهد المختلفة!

وقد أُعلنت، في تلك الأيام، وفاة الأستاذ محمد شفيق غربال مدير المعهد، وشغلت مراسم التشييع رجال الإدارة في معهد الدراسات. وما يعرف الشاب ما شغله عنه، فلم يحضره. ورآه أمين المعهد بعدها، وكان يعرف ما كان الرجل يحيط به الشاب من أسباب الرعاية، فسأله على نحوٍ ما يزال

إلى اليوم يذكره فيحزنه حزناً شديداً:

- أين كنت؟

أين كان؟ ظل إلى اليوم يطرح هذا السؤال على نفسه، وتعسر عليه الإجابة! ولو أحبَّ أن يجمع اليوم ساعات الندم في حياته كانت هذه الساعة من أشدّها على نفسه!

وخلَف الأستاذ غربال، في إدارة المعهد، السياسي العراقي عبد الرحمن البزّاز، فكان الشاب قريباً من نفسه أيضاً. ويذكر أنه دُعي إلى بيته، مع بعض رجال المعهد والمحاضرين فيه، وكان فيهم الأستاذ ساطع الحصري والدكتور عبد الكريم اليافي، فأمضَوا الساعات في تبادل الرأي فيما تمر به أحوال الوحدة في الجمهورية العربية المتحدة. وقد أحصى الأستاذ الحِصري، تلك الليلة، أسماء من يقف إلى جانب رجال الانفصال، ممن كان يستمع إلى أصواتهم من إذاعة دمشق، فذكرهم واحداً واحداً! و كان بينهم مَن يعدّه



من أخلص مريديه وخاصة تلامذته! فبلغ أساه، والشاب يلحظه، حداً لا ينساه أبداً!

-٢-

كان المنزل الذي سكنه الشاب، في الزمالك، بعد عودته إلى القاهرة، من أحسن ما تُتاح السُكنى فيه لمثله. يقع في شارع أنيق

من شوارعهـا، واسع جميـل الإطلال على حديقـة جانبية مـن حدائق الحـيّ. وكان يستقبل من يزوره فيه، فينعمون معه بقضاء ساعات الراحة فيه.

وكانت زوجة الشاب وبناته الثلاث يزرْن الجيران، فيجدن الأنس عندهم. وقد نعِمتْ الأسرة بهذا الجـوار الصالح سنوات البقاء في البيـت، حتى إذا رحلـت الأم وبناتها في زيارة قصيرة إلى سورية، أرسلت الجارة إلى الشاب، في اليوم التالي، طعام الغداء، وقالت له حـين أبدى لها شكره وبقـاءه، في ساعة الغداء، قريباً من مركز عمله:

- اسمـع! «احنا ما عندناش رجّالة تاكل برّة»!

كأنها تعدّ نفسها من أسرة الشاب وأهله، وفاء لرابطة الجوار القائمة!

ومـا يذكر الشاب أنه نَعِـم في القاهرة، بأُنـس الجوار كمـا نَعِم به هــذه السنوات الثلاث التـي شغله فيها عملـه في المعهد، واستكمال عمله في رسالته التي يكتبها، عن كل شـيء من حولـه! كان يرحل في ساعات الصبـاح إلى دار الكتـب المصرية في ميدان باب الخَلق، فينكبُّ على فحص المخطوطات المتصلـة بها، واستخراج مـا ينفعه منها، إذ كان يلزمـه أن يجمـع شعر شاعـر عباسي مـن شعراء آل البيت، اسمـه دِعبِل بن علي الخزاعـي(*)، ويدرسه دراسـة نقدية عامة تستخلص خصائصه الأسلوبية والجمالية، وتحدد مكانته بين شعراء العصر العباسي.

كانت الساعات تطـول وهو منكبٌّ على عملـه، يكاد لا يعي معه شيئـاً من حاجات نفســه وحاجات البيــت، حتى أفــاق يوماً فوجد نفسه مرهقاً، وأحسَّ غلياناً في بطنه. فما كاد يقطع الشارع إلى باب الخَلق، ويقف أمــام دار الكتب، حتى غلبــه الغثيان، فلزم أقصى الرصيــف، ليُفرغ ما يغلي في بطنه. وأحسـّ أن الدنيا تدور به. ثم صحا، فوجد بعض من رأوه من حــول الدار، وقد حملوا في أيديهــم أواني تطفح بالمــاء ليصبّوه عل يديه ويغسلَ به وجهه. ثم لما اطمأنوا عادوا إلى أعمالهم في محالّهم القريبة!

ما مــرّ الشاب في هذا الشارع، من بعد، إلا ذكر هذه الوقفة الإنسانية الجميلة، وذكر مَــن حملَ الماء إليه وصبَّــه على يديه. وقد غلبته هذه الذكرى بعد سنين، وهو يجتازه، فوجد نفسه في حال شديدة من التأثر. لم يكن فيهم من يعرفه، ولكــنّ دفعهم إلى الجميل تهيؤهم له بحكم تكوينهم، أو بحكم الثقافة

الاجتماعية التي يستجيبون لقيَمِها!

وقد بذل له الموظفون في دار الكتب أيضاً، حين كان يكــون فيها، من رفْقِهم ومعونتهم، ومن تقديرهم لعملــه، ما يعود معه الفضل في بعض ما انتهى إليه، إلى ما بذلوه.

أما المساء، فكان الشاب يلزم فيه المعهد، ينظــر في عمل اليوم، ويَلْقى بعض مَن دعاه المعهد مــن المحاضرين العــرب. ويذكر أنه وجــد في صحبة الدكتور عمر فــروخ أنساً دفعه إلى مرافقتــه في بعض الزيارات، بعد الخروج من المعهد.

يذكر أنهما زارا، ذات يوم، الدكتور يحيى الخشّاب، في بيته، وكان يومها ينهض بمهام الإدارة في المعهد، ولقيا هناك الدكتورة سهير القلماوي زوجته. وقد شكا إليه ولدُه الصغير أمامنــا، افتقادَه كلبــه الصغــير، فأخبرنا الدكتور الخشــاب بأنهم عوّدوا صغيرهم أن ينام الكلب معه، إلى جانبه، ليدفئه ويؤنسه! خبر أثار عجب الزائريــن، فشغلهما الكلام في مثيراته مسافة الطريق في العودة.

وكان المعهد دعا الأستاذ سعيد الأفغاني ليحاضــر في شأن من شــؤون الواقع اللغوي في الشــام. فلمــا جاء عرَضَـ عليه الشاب أن يتــولى تقديمه إلى الطلبــة، فأبى، ولكنه قبِل أن يرافقه أحياناً إلى الفندق الذي نزل فيــه. ورآه، إذا أقبل الليــل، يتناول، قبل أن ينام، كأساً من الحليب وكعكةً واحدة لا يزيد عليها شيئاً.

ودعاه الشاب يوماً إلى بيته، وكان يسعى أن يجمعــه بالدكتــور مندور، فــردّ بلهجته القاطعة:

– عوّدت نفسي ألا أقبل الدعوات، فإني قلّما أستجيب لمَن يدعوني.

فسأله الشاب:

– ولكنــي أعلــم أنك تــزور، في دمشق، أستاذنــا الشيخ البيطار، في بيته، مع الشيخ علي الطنطاوي، وقد تطول جلساتكم فيه!

أجاب وهو يضحك: لذلك معنى آخر!

وعاد الشاب فألحّ في دعوته، فاستجاب بعد جَهد. واجتمع في بيته مع الدكتور مندور وعدد مــن الأساتذة الذين كانــوا في زيارة القاهرة، فجرى بينهم نقاش طويل في بعض القضايا العامة. ولحظ الشاب، أن الافتراق في الــرأي يعود، في الغالــب، إلى الاختلاف في الثقافة. فقد كان الأستاذ الأفغاني، فيما يذهب إليــه، يقف بعيداً ممــا يذهب إليه الدكتور مندور، في بيان رأيه والدفاع عنها.

وقــد سأله الشاب، في اليوم التالي، وهو لا يخفي حذره:

- وما رأيك في أستاذنا الأفغاني؟

فردَّ، في كلمة واحدة، لم يزد عليها:

- أمِّي!

ولم يقل بعدها شيئاً. على أن الشاب كان يقـدّر، وهو يطرح السـؤال موقف الرجلين أحدهما من الآخر، فإنه لـو سئل الأستاذ الأفغاني عن رأيه في الدكتور مندور، لأجاب، على طريقته في الردّ:

- لعلّي أعرفه منذ زمن طويل!

-٣-

اكتملتْ رسالة الشاب، وكانت في جزأين، حمل أحدهما اسم «شعـر الشاعر» الذي جمعـه من المصادر المختلفة، ولكنه لم يحمل اسـم «الديـوان»، إذ لم يزد الشعـر المحقَّق المجمـوع فيه على ألف بيـت، مما بقي من شعره، بعد أن ضاع الديـوان. وكان الشاب يعـدّ جمعـه وتحقيقـه بعيداً مـن عامل التأثـر بمذهب الشاعر، فضلاً على الدرس والتقـويم، والعودة فيهما إلى حقائق العصر العباسي الذي عاش فيه، من أسباب التقدير للعمل، في جملته.

ففي هـذه المرحلة، وقـد اقترب موعد المناقشـة، صدر في بـيروت للدكتور محمد يوسف نجم، كتاب باسم «ديوان دِعبل بن علي الخُزاعي»، ووصـل إلى القاهرة. فاستدعى الدكتور مهدي علاّم، المشرف على الرسالة، الشـاب إليه، وطلب منه التحقُّق من بواعث هذا الفعل المفاجئ، إذ كانت صنعة الديوان، واحدة من عوامل التقدير للعمل.

وحكاية هذا الباعث تقتضي الإشارة إلى موقـف سابق نقل الشاب فيـه إلى الدكتور مندور ما كتبه عنه نجم في كتاب أصدره مع الدكتور إحسان عباس، باسم «الأدب العربي في آثـار الدارسـين»، ورمـاه في كتبه التي يصدرها المعهد، «بالخضوع لمطالب العيش، والشعـور بدنـوّ الأجل، وإجبـال القريحة، وتعطُّل القدرة بعـد المرض». وتفسير الأمر يعـود إلى موقف قديم وقفه الدكتور مندور مـن نجـم، وكان عضواً في لجنـة المناقشة لرسالته عن المسرح. وبلـغ الدكتور نجم ما فعل الشاب، فحملها لـه، وجمع «الديوان» الـذي كان، فيما يبدو، على صلة به، ونشرَه قبيل موعد المناقشة بأيام قليلة!

ولم يغتفرْها الشاب للدكتور نجم، فكتب في نقد عمله سلسلة من المقالات، نُشرت في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، بلغ من أثرها، أن غاب ذلك «الديوان»، عن السوق، غيبةً مطلقة.

وقد أتيح للشاب، بعد أن اكتمل عمله في الرسالة، أن يستجيب لملاحظة صديقه حَمَد الكُبيسي الذي رافقه أيامه تلك، فيخلع عنه لباسه الذي كان يرتديــه هذه الأشهر كلها، دون أن يلقي بالاً إليه، وأن ينعم بقدْر واسع من الراحة، كان في أمسّ الحاجة إليه.

واغتنــم آنــذاك فرصـــة وجــود أخيه صالــح في القاهرة، مع بعض رجال الثقافة القادمين من «الإقليم الشمالي»، فزاروا بعض المســارح، وصعدوا البرج المطــلّ على النيل، فأمضَوا فيه وقتاً طيباً.

وأحب أخوه، ومعه الأستاذ محمد المبارك، أن يزورا الأستاذ العقاد في بيته، فاتصل به الشاب، وحــدد معه موعد الزيــارة. ولكن الموعد فات وقته وهم في الطريق إلى البيت، إذ لم يكونــوا يعرفونــه في «مصر الجديدة»، ولم يكونــوا زاروه من قبل. فلما وصلوا إليه، وجدوا العقــاد في انتظارهم على الباب، إذ قدَّر أن يكونوا تاهوا عن البيت.

كان حديث العقــاد، تلك الليلــة، حلواً ممزوجاً ببعضــ الذكريــات. أخبرهم بأن بعض الأصدقاء أهدَوا إليه تمثاله النصفي القائم في الغرفة علــى قاعدة خشبية، يوم خروجه مــن السجن. وأثــار قضيةً تتصل بالجلسة التي كانــت عُقدتْ في مجمع اللغة العربية في القاهرة لدراسة ما اقترحه عبد العزيز فهمي من استبدال الحرف اللاتيني بالحــرف العربي في الكتابــة، على نحو ما وقع في تركيّة في عهد أتاتورك. فقد عارضه العقاد بضــراوة. فلما خرج من باب المجمع وجد عبد العزيز فهمي في انتظاره، فحمله في سيارته وقال يعاتبه:

– يا أخـــي! أفهم أن يعارضني في الرأي شيــخ من شيوخ الأزهر، ولكنــي لا أفهم أن تجيء معارضته من رجلٍ ملحد كالعقاد!

فردّ عليه العقاد، في استغراب:

– ومَن أخبرك أني ملحد؟

ودافــع، في كلام طويــل، عن مذهبه في التمسُّــك بمكان الفــرد الممتاز مــن قيادة المجتمعــات الإنسانيــة، إذ التمييــز، بــين الأفراد واقــع في صُلب الطبيعة. فالمساواة، في الأصــل، لا ترد، فكيــف ترد في الفروع؟ وختم رأيه بالمحكيَّة المصرية فقال:

– (إنتَ جميل ونا وحش، أساويك إزاي؟ إنت ذكي ونا غبي، أساويك إزاي؟).

وأبــدى رأيــه أيضاً في تقوّضــ النظام الملكــي في مصر، من الداخــل، من قبل أن يتحرك الضباط لتقويضــه. كأنه رمى، في

النهاية، إلى رفض الحُجة في إقامة نظامهم العسكري!

وفوجئ الشاب يوماً، في مكتبه، بزيارة أدهم إسماعيل، أخي صدقي، إذ لم يكن قد لقيَه من قبل. فرأى فيه صدقي مرة أخرى: مرحه ودعاباته. وأحسَّ، وهو يستمع إليه، بحرارة الانتماء إلى العروبة، وحرصه على تراثها في ميادين الحياة المختلفة. وسأله يومها عن كدْمةٍ قاتمة تعلو جبينه، فردّ وهو يضحك:

– نعم! طَرق عليّ الباب أحد الأصدقاء في الليل، فنزلتُ عن الفراش، من الجهة التي تعودت أن أنزل منها، فارتطمتُ بالحائط، إذ نسيت أني كنتُ غيَّرت موقع السرير في غرفتي، قبل أن أنام!

كان يروي الواقعة وهو يضحك في ارتباك ومرح، كالطفل، إذ كان يرى أن ما وقع له لا يقع لغير الأطفال. وقرَّب رأسه يومها من الشاب، وهمس في أذنه:

– ولكن أرجو ألا تحدِّث بهذا الحديث أحداً!

❀ ❀ ❀

تمت مناقشة الرسالة في جلسة رأسَها الدكتور مهدي علام، وشاركه فيها الدكتور عبد القادر القط والأستاذ محمد خلف الله أحمد، وحضرها الدكتور مندور وزوجته، وكانا لقيا الدكتور القط عند الباب، فشكا إليهما من ألم في معدته، فقال له الدكتور مندور مداعباً:

– لعل اللّه، في هذه الحال يعطفكم على المتعبين من البشر!

لم يقع في المناقشة ما يستأهل أن يقف الشاب عنده، فقد جرت على نحو ما تجري عليه المناقشات في شتى الجامعات. وربما أعانه على استجلاء أحزان الشاعر الذي بكى مصارع آل البيت، وقضى عمره متخفياً في «قُم» أو مشرداً مقهوراً، ما كان الشاب يحس من حدّة خيبته وخيبة الناس من حوله فيما آلت إليه الأمور على الصعيد القومي العام.

ويعود الشاب اليوم، فيذكر ما لقي في مصر، خلال عمله في معهد الدراسات، من رعاية أساتذته فيه، فتفيض نفسه بأجمل ما تحمل النفس من مشاعر الحب والوفاء، ممزوجةً، وهو يذكرهم، بقدْر من الأسف العميق لغياب بعضهم عن الحياة في وقتٍ مبكر: محمد مندور، وإسحق موسى الحسيني، ومهدي علام، ومحمد خلف

اللّه أحمد، وساطع الحصري، ورعاية مَن عرف من العاملين فيه، ومَن كان إلى جانبه مــن رفاق المرحلة وزملائهــا : عمر الدقاق، ومحمد خير فارس، وشاكر الفحّام، وإحسان النص، ومازن المبارك، وصبري الأشتر. ومَن كان في عونه حين احتاج إليه.

ويقف عنــد أستاذه منــدور، فيراه وقد هاضــه المرض، فلم يقعده عــن صعود سُلَّم طويل، ليقف إلى جانب تلميذه في أمر أصابه. ويترك عمله، ويسعــى إليه، ليحذّره من شرٍ قريب. ويفتح له بيته ويخلطه وأسرتَه بزوجه وأولاده. وينقل إليه تجاربه ليجعله أقرب إلى حقائق الحياة ويحسن اختيار مواقفه منها.

ويأمل الشــاب، فيما كتب عنه، من بعد، في كتبــه، أن يكون قد وفاه بعض حقه، بصفته ناقداً شــارك في تسديد الحركــة النقدية، وخلّــف في النقــد العربي المعاصــر أثراً لم يخلِّفه، في ظنه، ناقد آخر.

وقد بــات يتعيَّن على الشــاب أن ينظر في إنهاء عمله في المعهــد، بعد أن تلقّى من الدكتــور يحيى الخشّاب الــذي انتهت إليه أمــور الإدارة في المعهد، كتابــاً يحمل هذا المعنــى، وإن وشّــي بعبــارات الشكر وحمْد الأثر الذي خلَّفه الشاب فيه.

وكان هذا هو الكتابَ الأخير.

الهوامش

* يعني الاسم الناقة الفتية.

آفاق المعرفة



مواجهات القيم في نهاية عولمة الحداثة الغربية

د. عبد الهادي صالحة ❁

يجد العالم نفسه منذ سنوات عدة في مواجهة البروز المفاجئ لقارة آسيا. هذا الواقع الذي يدخل بوساطة العولمة المعتبرة كحركة اقتصادية يسارع في الوقت ذاته في تقارب وتلاقي الأمم والثقافات ويعرض الاختلاف الثقافي للخطر ويؤدي إلى تجابه قيم الحضارتين الغربية والشرقية.

١- **خلود الغرب:** رأى كثير من فلاسفة القانون من بينهم هوبز (Hobbes) أن الإنسانية مرت في تاريخها بمرحلتين: الأولى مرحلة الحياة الطبيعية، والثانية مرحلة الحياة السياسية. كانت الحقوق في الحياة الطبيعية

❁ كاتب ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ترجع إلى القوة سواء كانت حسية أو معنوية. بحيث كان لكل الحق في أن يفعل ما يشاء حسب رغباته، لكن تعارض هذه الرغبات جعلت الناس يتطاحنون ويتربصون ببعضهم البعض الدوائر، فكانوا يعيشون في جو ملؤه الخوف والقلق، وبالتالي تعذر عليهم إرضاء رغباتهم في هذه الحياة الواقعية. وهذا ما جعلهم يطلبون الخروج من هذا النوع من الحياة المخيفة الرهيبة طالبين الأمن والطمأنينة، وعرفوا بالتجربة أن هذا الأمن لايمكن أن يتحقق إلا إذا تنازل كل عن حقه المطلق في كل شيء لصالح الأقوى الذي يجمع هذه الحقوق ويستمد منها السلطة المطلقة. وهذا هو منشأ الحياة السياسية وأساس السلطة السياسية عند هوبز. ونتيجة لمصدر السلطة هذا، فإن المتسلط يفعل ما يشاء من أجل المحافظة على سلطته. وهو الذي يقرر الخير والشر. إنه يحتكر كل شيء. وفي مقابل هذا تحصل الرعية على الأمن. لأن نشر الأمن يدعم السلطة. وقد نسج على منوال هوبز إلى حد ما كل من هيغل وماركس. فرأى هيغل أن الفكر يتحقق عبر التاريخ عن طريق إسهام الحضارات في تكوينه وفقا للتطور الجدلي وعندما يتمثل شعب من الشعوب هذا الفكر ويجسمه فإنه يصبح أقواها وبالتالي يهيمن على العالم ويمتلك جميع الحقوق ويقترح هيجل أطروحة مؤسسة في «فلسفة التاريخ» عندما يحدد «المراحل الثلاث الكبرى للتاريخ» مرحلة الشرق ومرحلة اليونان وروما القديمتين ومرحلة الغرب. فهو يرى تاريخ الإنسانية كحركة «دون عودة»، يرى هيجل أن كل مرحلة تلتقي مع صعود حضارة واحدة، وكل من هذه الحضارات المهيمنة تبدو فريدة في نوعها، وفي لحظة ظهورها تبدو كمهيمن وحيد على العالم. وينجم عن هذه الفلسفة أن الهيمنة على العالم لايمكن بحال من الأحوال أن تشاطر ولا أن تكون عملا مشتركا. وهي بهذا المعنى بالنسبة لهيغل الذي يرى أن ارتقاء العصر الجرماني كبداية عصر «الأزمنة الجديدة» في الغرب الأوروبي، يعتبر مرادفا للنهاية النهائية والحتمية للحضارات الأخرى. ولايوجد في التاريخ أي عود ممكن ولايمكن حتى التفكير فيه. بيد أنه في الفلسفة الهيجيلية لايمكن أبدا تطبيق هذه النهاية المفروضة على كل حضارات التاريخ الإنساني الأخرى في العصر الحديث. وهنا يكمن كل تعقيد فلسفة هيجل للتاريخ. وإذا بدت له الأزمنة الحديثة حية بشكل لامتناهي ومفتوحة بشكل خالد، فقد تصور بالمقابل أن الحضارات الأخرى وكأنها انتهت إلى غير رجعة، وكأنما أخلت

المجال لقوة تجاوز دون عودة قد تكون بدأت في التاريخ. ولكن لماذا تبدو هذه المرجعية إلى هيجل أساسية، لأنه في الواقع هوالذي يعيد للمرة الأولى وبشكل تنظيمي أكثر من الآخرين وبلغة فلسفية أسس الحداثة الغربية. وتاريخ الاستعمار أو الاستعمار الحديث بأكمله هو شهادة لفلسفة خلود الغرب هذه: خلال عصور تفوق المستعمرين بدت دونية المستعمرين بالنسبة لهؤلاء ولأولئك حتمية وأكيدة. والجوهر الأساسي هو أن هذه الفكرة حافظت دون شك على حيويتها لكثيرين حتى الوقت الحالي. وبهذا الشكل فإن أطروحة اللاعودة التاريخي ترتبط بأطروحة خلود الغرب النرجسي والمركزي. بيد أن أحداث ثلاثة متتالية في نهاية القرن الماضي تقودنا إلى اتهام أساسي لصحة هذه الأطروحة:

١- الحدث الأول هو أزمة أسس الحداثة التي دخلت على الغرب بشكل خاص منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حوالي السنوات الخمسين. لقد قادتنا أزمة هذا العصر نحو نقد مفهوم الذات ومفهوم التقدم وفكر النشوء والارتقاء للتاريخ؛ واتهمت القيم التأسيسية للحداثة.

٢- الحدث الثاني هو العولمة، تلك الحركة التي تبدو للوهلة الأولى اقتصادية. فالعولمة التي بدأت مع الاستعمار وتسارعت بشكل خاص انطلاقاً من السنوات ٧٠- ٨٠، منذ سقوط الكتلة الشيوعية صاغت تشكيلا جديدا للعالم تصعب مقارنته بشكل نهائي مع العصور السابقة. وأدخلت المناطق الحيوية للكوكب في «نظام واحد» الواقع الذي يقلل من قيمة السيطرة المطلقة التي لايمكن دحضها للغرب المستكبر على العالم.

٣- والحدث الثالث الذي يرتبط مباشرة مع الثاني، هو الظهور المفاجئ والمدهش تماما لعدد معين لبلدان آسيا على الصعيد الاقتصادي، انطلاقاً من سبعينيات القرن الماضي. وهذا قوى وعزز انتباه الغربيين نحو آسيا، ونحو الصعود الصراعي والتدريجي للبلدان الآسيوية والتي تتمتع بخصوصية حضارية موغلة في القدم. لقد دخل الغرب نقطة قريبة من مرحلة النهاية وإن القوى الآتية تتمثل في الصين والهند وإيران والتي تمتلك حضارات عريقة أصيلة دامت قروناً طويلة واتسعت حتى شملت مساحات شاسعة من العالم هي غنية بالتقاليد وهي عالم قائم بحد ذاته مليء بالألغاز والمفاجآت التي لاتخطر ببال الغرب. هذه البلدان أصبحت قوى لاعبة في منطقتها وفي العالم وقادرة على تغيير وخلخلة المعطيات الدولية، لابل أخذت تنافس العالم الغربي الذي أخذت



مخاوفه تزداد من صعود هذه القوى على الصعيدين السياسي والاقتصادي وأصبح ينظر إليها كعامل تهديد فعلي عكر مزاج الغرب الذي بدأ يتحين الفرص المحلية والإقليمية للنيل منها؛ فـ«النمر» الصيني الذي يغوي الغرب ويثير حفيظته في الوقت ذاته ينمو في اتجاهين ديموغرافي واقتصادي، زد على ذلك «اتساع التبادل التجاري بين الصين وقارتي أفريقيا وأميركا اللاتينية، وزيادة حضور الصين داخل منظمة التجارة العالمية».. وعديدون هم الذين يعتقدون أن الصين صارت تتحكم برقاب الغربيين من دون اعتماد نموذجهم السياسي كاملا، ناهيك عن احتفاظها بالوسائل العسكرية اللازمة لحماية ثروتها.. ويظهر التقرير الخاص بالصين الذي أعده القائمون على منظمة التنمية والتطور التابعة للأمم المتحدة: «أن الصين ستحتل هذا العام مرتبة متقدمة على صعيد الدول الأكثر استيرادا في العالم كما ستغدو قبل نهاية العقد القادم من أبرز الاقتصاديات الدولية وأوسعها نشاطا وتصب تلك المستجدات المتسارعة في خانة تقارير مصارف «غولدمان شاخص» الذائعة الصيت التي تجمع بشكل مبدئي بين أربعة اقتصاديات منبثقة تابعة لكل من البرازيل وروسيا والهند والصين الممثلة لأوسع أنشطتها في العالم حاليا. ويضيف التقرير: «إن تلك الدولة ستسبق الولايات المتحدة على صعيد إنتاج البضائع المصنعة، لتغدو رائدة تلك الصناعات

خـــلال فترة لاتتجاوز السنـــوات الخمس أو السبع القادمة.» «أما الهند فتعتبر العملاق الاقتصادي الثـــاني في تلك البقعة من العالم ولاتـــزال تشهد نموا يقـــترب سنويا من ٦٪، كذلـــك الأمر بالنسبة لروسيـــا وتشكل على الصعيد الاقتصادي جـــزءاً من آسيا... أما الدرســـ الثـــاني الذي يجـــب أن نتعلمه من الصين هو أننا بحاجـــة لنفكر ونعتمد على الإدخـــار ليس على صعيـــد الحكومة فقط وإنما أيضا على صعيـــد المجتمع أيضا.»[١] ولكن كيف استطاعـــت الصين شق طريقها بهذه السرعـــة لآفاق الألفية الثالثة وتخطي عتبة الفقر، وعقبة التخلف؟!! يقول د.سعد بساطة/ استشـــاري دولي في مقال له تحت عنوان «احذروا التنـــين الأصفر!»: مع ولوج الصين القرن الواحد والعشرين تغيرت الكثير مـــن السلوكيات تبعا للقـــول الصيني «إذا لم يكن بمقدروك أن تبتسم.. فلا تفتح دكانا!» هنالك رفض مـــن القـــوى التقليدية لموقع الصين الجديد، وخاصـــة الولايات المتحدة التي أدمنت وصايتها علـــى العالم. وهذا ما تتنبـــئ عنه النـــادرة التالية: سفـــن أميركية بمحـــاذاة المياه الإقليميـــة الصينية: أعلمها ضابـــط الاتصـــالات الصينـــي باللاسلكي يطلـــب «إلى السفينة (١) يرجى التحول ١٥ درجة شرقـــا، أنتم بصـــدد الاصطدام بنا» أجابه الأميركي «هنـــا السفينة الأميركية – انبيبيدينت– نطلب منكم التحول ١٥ درجة غربا». قال الصيني: يرجى التحول للشرق بمقـــدار ١٥ درجة. فالاصطـــدام محتم إذا استمريتم». عاجلـــه الأميركي بصلف «يبدو أنـــك لا تفهـــم.. سفينتنا هـــي درة البحرية الأميركيـــة، نأمركم أنتم بالتحـــول غربا!!» أجـــاب الصيني ببرود «أنـــت الذي لا يفهم، نحن لسنا سفينة، بل.. منارة»... تلخص هذه الحكايـــة طريقة تعامل أميركا مع الصين.. والعالم!! ويضيف د. سعد بساطة: «قد تكون الظروف العالميـــة التي مرت بالصين تشابه مامر بالعـــرب من ويلات ولكـــن.. أين هم وأيـــن نحن الآن!! فالصين التي تحتل الموقع الثالث في الاقتصاد عالميا. ونحن نراوح في ما نـــرزح تحته من تخلف علـــى الرغم من نفطنا وغازنا.»!!!![٢]

ووفقـــا لمقالة حديثة ومقنعة جداً نشرت في مجلة فوريـــن أفيرز، فـــإن هناك توجها مزدوجـــا ديموغرافيا واقتصاديـــاً سيؤدي إلى تحولات مدهشة بحلـــول منتصف هذا القـــرن «(...) إذ سيمثل العالم الغربي ١٢ ٪ فقـــط من سكان العالم، مع الأوروبيين الذين انخفضت نسبتهم إلى ٦٪،

(في عـــام ١٩١٣، أي قبل عام من اندلاع الحـــرب العالمية الأولى، كانـــت أوروبة أكثر

قليلاً بتعداد السكان من الصين). اقتصادياً، سيشكل الغرب نحو ٣٠٪ من الناتج العالمي – وهو مستوى يعادل حصة أوروبة في القرن الثامن عشر وأقل من ٦٨ ٪ عما كان عليه في عام ١٩٥٠. مانشهده الآن يمكن أن ينظر إليه باعتباره عودة إلى الماضي مع عودة الغرب إلى مكانه السابق عالميا، قبل بدء عملية الانحدار التاريخي الطويل للصين في بداية القرن التاسع عشر، ذلك أن الفترة الطويلة للهيمنة العالمية للغرب تنتهي، ونحن على أعتاب دورة تاريخية جديدة، إذ سيكون هناك عدد من الغربيين أقل نسبيا، وعدد أكثر من الأفارقة والشرق أوسطيين، والآسيويين- مع قدر أكبر من الأهمية اقتصادياً واستراتيجيا.» و«أمريكا التي ربما تمر بعملية الانحدار النسبي إن لم يكن المطلق اختارت تجاهل أوروبة التي لم تعد مشكلة في نظر الولايات المتحدة مقارنة مع آسيا أو الشرق الأوسط والتي لا تقدم سوى مساعدة بسيطة في إيجاد حلول للمشكلات التي تقلق معظم الأمريكيين.»

«في مواجهة التحولات الديموغرافية والاقتصادية الثورية، يجب على الأمريكيين والأوروبيين التصرف بطريقة مسؤولة أكثر من ذلك بكثير، بدلا من تجاهل الآخرين (على الطريقة الأمريكية) أو التباكي على الآنا المجروح (على الطريقة الأوروبية)، ينبغي عليهم مواجهة التحديات المشتركة التي يواجهونها نتيجة لعملية العولمة التي لم يعودوا قادرين على التحكم بها». (٣)

إن أزمة الرأسمالية تعصف بعالم أمسى يعيش حقبة انقلاب جذري: «فالدول الصناعية تخسر أكثر فأكثر هيمنتها،هذا في حين تبذل دول الاقتصاديات الناشئة الجهود لاحتلال المراتب المتقدمة. إنها عقدت العزم على إجبار العمالقة القدماء على التنحي جانبا، إنها تتطلع إلى الاستحواذ على مافي حوزتهم من فرص عمل، وعلى السيطرة على مصانعهم وأسواقهم أيضا. وتغتنم الأمم الصاعدة الفرص التي تتيحها العولمة، تغتنمها بالطريقة التي تحلو لها وتناسبها: من خلال رأسمالية ذات طابع استبدادي، من خلال شركات وصناديق تمتلكها الدولة. وفيما تغلق هذه الأمم اقتصادياتها في وجه المنافسة الأجنبية، فإنها تزداد توغلا في أسواق الغرب المحررة من القيود والحواجز. وتقوض هذه الأمم رفاهية الدول الصناعية بأساليب تزخر بالتفنن والمهارة». ويضيف المقال «وإذا صدق تكهن مؤسسة كارنغي Carnegie الخيرية، فإن الصين، وليس الولايات المتحدة الأمريكية، هي التي ستكون في العام ٢٠٤١ الأمة الاقتصادية العظمى

في العالم. لابل يعتقد مصرف غولدمان ساكس أن الصين ستتفوق اقتصادياً، على الولايات المتحدة الأمريكية في العام ٢٠٣٤ (...) وغني عن البيان أن المواطنين في الغرب يشعرون بالحيرة حينما يحيطون علما بحقيقة هذا الارتقاء: فهم مبهورون -ومرتاعون في الوقت نفسه. إنهم مفتونون- وفزعون في الوقت عينه. إنهم يثمنون عالياً إنجازات البلاد - ويخشون أن ينافسهم الصينيون على رفاهيتهم.

إن الصين وطن أكثر من مليار نسمة، وأمة شقت طريقها إلى الاقتصاد العالمي بكل قوة وإصرار. على صعيد آخر، تراكم في خزائن المصرف المركزي الصيني الاحتياطي الأجنبي ما مقداره ١،٨ تريليون دولار أمريكي، أي تراكم في خزائنها مايزيد على مجمل العملة الورقية والنقدية المتداولة في الولايات المتحدة الأمريكية. إن قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على تمويل إنفاقها صار مرهونا بإرادة الصين أيضاً، فالأمريكيون يستطيعون اقتراض ما يحتاجون إليه من أموال عظيمة الحجم فقط في حالة مواصلة المصرف المركزي الصيني شراء سندات الدين الحكومية الأمريكية. من هنا، فلو غير الصينيون موقفهم، ستكون الولايات المتحدة الأمريكية على حافة الإفلاس.ولم يسبق قط أن ارتقى بلد من البلدان بهذه السرعة الفائقة، لم يكن الفزع بهذا النحو قط. وينقل عن نابليون أنه كان قد قال «عندما تنهض الصين من كبوتها، سيرتعد العالم كله»[٤] كما أنه لابد من التذكير أن تطور إيران الملحوظ في الآونة الأخيرة يقض مضاجع الغربيين لأنها تخرج عن الخط الغربي في النزاعات الدولية وبدأت تظهر كقوة اقتصادية وتجارية وتكنولوجية في الشرق وأصبحت تشكل تهديدا للغرب ومصالحه ومصالح أزلامه.

أزمة هوية

نعود إلى الأطروحة التي تقول إن الحداثة من خلال عولمتها تفرض على «بقية العالم» وضعا للاعودة تاريخية، وهذا ماكان يبدو أن هيجل أهمله، إذ أن الأقطاب المكونة «لبقية العالم» لم ولن تبقى بأي شكل مكتوفة الأيدي أمام غزو الحداثة. أيتوجب الإشارة بشكل حذر أن الاتصال بالحداثة مع «عالم غير حديث تاريخيا» والتي كانت تبدو لهيغل مصدر سيطرتها العالمية، كان يبدو كأحد المحركات المسرعة والمتطرفة لدخول الحداثة في سيرورة أزمة ثقافية؟ ولقد وسم القرن العشرين، وبالتحديد أكثر فترة مابعد الحرب العالمية الثانية في الغرب بميسم تمزق هذه الأزمة. في الواقع، يقول هبرماس

إن أصل الحداثة غربي. وكان لظهورها حضورا عالميا؛ وعولمتها تبدو كأنها بالتالي حركة «إخراج» وتجاوز وأصبح حضورها الكوكبي ذو طابع صراعي، لأنها اتصلت بأقطاب مركزية لثقافات ذات منشأ مختلف بشكل جوهري. ومفهوم اللامتناهي المؤسس للحداثة يقود العالم الغربي و«بقية العالم» نحو شرط تاريخي جديد تماما ويهملها في حتمية موقف رابح على كل حال على التقليد والتجديد. ومصير بلاد شمال أفريقيا وآسيا نموذجي بهذا الخصوص في الواقع، إن انفتاح الغرب الحديث أنتج علاقات غنية جداً مع ثقافات بلدان مختلفة غير حديثة تاريخياً. وبهذا المعنى، فالعولمة تبدو لنا أنه لايمكن اختزالها إلى حركة اقتصادية. وبسبب وسمها بميسم الروح الفاوستية، فالأمر يتعلق بإخراج الحداثة، في المعنى الأوسع للكلمة. ونسميها «عولمة الحداثة». وهي تعني دخول الغرب في السيرورة الثقافية والسياسية والاقتصادية لبلدان غير حديثة تاريخيا التي أدخلت هذه البلدان في سيرورة «أزمة هوية».وهذه الأزمة التي تدل على وضع صراعي سجلت في سجل مقاومة واعية أو غير واعية في وجه غزو آثار الحداثة الغربية. وتشير أزمة الهوية هذه إلى أن ثقافة البلدان المعنية غير جاهزة لتسلم نفسها بسهولة إلى مقتضيات الظاهرة الغازية الحاملة للتغيير والقادمة من خارج تاريخها الذي يعتبر «تقليديا». وعلى عكس ما يقترحه بعضهم نظن أن هذه الأزمة هي علامة الحيوية الثقافية والمهارة الدائمة للبلدان غير الحديثة؛ وهي التي قد تفسر، من بين ماتفسره، الانتباه الشديد الذي يوليه الغربيون للشرق.

نحو الشرق

لم يتوقف الشرق عن استهواء الغربيين. هذا الهوى الذي يبدو لنا أنه لايمكن اختزاله لغواية وحيدة للسيطرة الاقتصادية السياسية للغرب على الشرق، التي قد نشتطها «نزعة الاستشراق» ويبدو لنا، تفسيران: أولا- ماجرى للمحدثين تحت تأثير الثقافة الفاوستية يعني بما يسميه غوته من خلال فاوست «مبدأ الحياة» الثورة والجهد الدائمين. يتعلق الأمر إذا بروح الحداثة ذاتها. وهذا يتطابق أيضا حول الحداثة ومايسميه «غير المنجز...»، أي الإرادة غير القابلة للانتهاء لكي تخرج من فضائها الجغرافي والثقافي عندما تنطلق إلى اكتشاف العالم. وهذا هو المعنى ذاته لاختراع الذات عند ديكارت الذي يرتبط بـ«العالم اللامتناهي» ومرة أخرى أيضا، عندما نصف الاستعمار فإننا نتكلم

عن «تضاعف الملذات» كما لوكان محركا عند الغربيين لاكتشاف أمريكا. ثانيا- إن اكتشاف الاختلاف وإيجاد فضاء ثقافي مبني انطلاقاً من قيم مختلفة بشكل أساسي عن قيم الحداثة. وهذا السبب الثاني مرتبط نسبيا بالأول، ولكن يسجل في سجل مختلف، متراسلا مع الأزمة الداخلية، مع طرح قيم الحداثة للمناقشة. وتعرف إذا في التواجه بين العناصر المكونة للغرب وعناصر العالم غير حديث تاريخيا. وبعبارات أخرى، يعرض الشرق في ذهن غالبية الغربيين كمخرج وحيد للأزمة، مخرج من الحياة الحديثة، معاش آخر غير الحداثة، غير عملياتي، وربما من وجهة نظر اللايقين الدائم للإنسان مقابل العالم. تمثل الحداثة في أسسها القلق واللايقين. ويجد الغربي في الشرق ما لايستطيع أبدا العثور عليه عنده: اليقين، يعني ماهو آت النقطة الحاسمة للاختلاف الأساسي للغرب وللشرق. لايصبح الإنسان الحديث أبدا شرقيا، ولكن يتنزه في الهواء الطلق في الشرق ويستريح هناك.فالشرق هو لحظة الراحة، لحظة غير غربية للغرب. ولكن ما الذي يفسر هذا اليقين، هذا «الهدوء الفكري» للشرق؟ يمكن أن تفسر عناصر هذا الوضع، من بينها، في تعريف الإنسان، معنى الحياة ومفهوم الطبيعة والعلاقة التي يقيمها الإنسان مع هذه الطبيعة. قد يقتضي وصف كل عنصر من هذه العناصر أبحاثا طويلة. ولايهمنا هنا سوى الطبيعة. كيف ينظر الغربي إلى الطبيعة في الحداثة الغربية؟

الغرب والطبيعة

في الواقع، إن إحدى الاختلافات الرئيسية للإنسان الغربي مع الإنسان الشرقي تسجل في سجل علاقتهما مع الطبيعة. ونحن نعرف أن الغالبية الغربية الحديثة تعرف وتحدد كـ«وحدة متجانسة». هذه الوحدة وهي بالتأكيد نسبية تتماثل رغم تنوعاتها الداخلية بهذا الشكل ومن وجهة نظر عناصرها المكونة الأكثر أساسية للحداثة. وبالشكل ذاته فإن الشرق، كما يصفه هيغل، ينبثق كقارة قائمة بحد ذاتها. وتبدو الوحدة النسبية للشرق أنها تتجاوز تنوعاتها الداخلية. هاتان الوحدتان للحضارتين الشرقية والغربية تقترحان إذا نمطان من الناس. وتدخلان مفهومان للعالم، وكذلك تعريفان للطبيعة: إن عمل بيكون وديكارت كونا مفهوم الذات، وهما يقترحان سيرورة معرفة وعلم ويهدفان إلى «السيطرة على الطبيعة». هذه السيطرة كانت تبدو لمؤسسي الحداثة العنصر الضروري والمحتمل لتقدم

العلم الحديث بأكمله. لقد نظر الغرب إلى الكون والوجود نظرة منطقية عقلانية تحليلية ووقف عند الظواهر مشاهدا لها ومجربا ومعللا، وأقام بذلك بينه وبين الكائنات حاجزا من قوانينه ونظرياته. لقد حاول فهم الحقيقة الخالدة «اللامتناهية» من خلال العقل القاصر العاجز عن إدراك الوحدة التي تشتمل الكون على اختلاف ظواهره وتعدد كائناته. لقد حول العالم الحديث الطبيعة إلى شيء موضوعي (ادورنو- هيدجر)، ولكن هذه السيرورة تعرف حقيقة أثارها. وهي تبعد الإنسان عن أية علاقة متناغمة مع الطبيعة، وذلك لأنها تجعله غريبا، ليس فقط عن الطبيعة، ولكن أيضا عن «طبيعته». يتعلق الأمر إذا بتبعيته وباستلاب مزدوج. فهدف السيطرة على الطبيعة الذي يمهر بإمضائه سلطان الذاتية الحديثة التي تعيدنا إلى «سيطرة الإنسان على الإنسان» رسمت طريقا خاصا لتغيير العالم الخارجي وللسيطرة على الطبيعة بغية إرضاء حاجات الرغبات، ولقد تقدم هذا الطريق وأصبح أولوية تقريبا عمياء على الطريق مما أدى إلى تضاعف لاحد له للرغبات وشحذ التنافسات بين الأفراد والشعوب. لقد ظل الغرب يشعر نفسه كرمز للعقل المنجز والشرق الذي مازال رمز الفكر الاستبطاني. إن حكمة العلم ستسمح له بألا يحبس العالم الخارجي في مفهوم مغلق وقطعي؛ وتسمح له أيضا، دون حكم مسبق يحدده، التقدم بصراحة في معرفة العالم الداخلي.

الشرق والطبيعة

الوحدة الذاتية التي نصفها عن الشرق تبدو في هذه الفضاءات الثقافية الثلاثة القديمة. لم تتجل الطبيعة في الشرق كهدف وكغرض للسيطرة. في الواقع، إن خيبة الأمل التي كانت في أساس تكوين الحداثة في الغرب لم تعرف تأثيرا حاسما في الشرق، لأن هذا الأخير لم يعش القطيعة التاريخية بين الفلسفة والدين، مثلما كان مصير الحداثة الغربية. ولقد أصبح هذا الوضع الميزة العامة للشرق بأكمله. إذ إن هذا الشرق ينظر إلى الوجود الخارجي ببصيرة تنفذ خلال الظواهر البادية للحس إلى حيث الجوهر الباطن، فيدرك ذلك الجوهر بحدس مباشر يمزج ذاته مزجا تفنى معه فردية الفرد لتصبح قطرة من الخضم الكوني العظيم، وهذا مايجعل منه فنانا يدرك الحقيقة بذوقه ويحس الكائنات بروحه. إن نظرة الشرق إلى الوجود هي نظرة الفنان المبدع. إن للشرق لونا ثقافيا واحدا تتحد فيه أقطاره جميعا وهو الروحانية التي

ظهــرت في أرضه دينــا وفنــا. إن عبقرية أهــل الشرق هي في التفاتهم إلى الوجود من حيــث هو حقيقة تمارس بالخــبرة الذاتية، لا مــن حيث هــو شيء يوصــف وتوضع له القوانين النظرية. والفرق بين ثقافة الغرب وثقافــة الشرق هو نفســه الفرق بين العقل والوجدان. فلئن كان الغربي يحكم بالنتائج، فالشرقــي يحكم بالشعور الراهن والوجدان العميق. يرى الإنسان الشرقي الكائن الواحد في مجموعــه كأنه حقيقة واحدة، فالحقيقة واحدة لاتعــدد فيها. والطابــع الذي يميز هــذه النظــرة الجماليــة للوجــود، فيميز بالتالي ثقافة الشرق، إنما يتمثل في الأسفار الدينية وفي الكتب المنزلة التي انبثقت منها نظــرة الشرقي إلى الحيــاة وإلى الفن وإلى الدنيــا وإلى الآخرة. هذه النظرة الوحدانية الصوفية التي تدمــج الكون في كائن واحد على اختلاف مافيه من كائنات.

وإذا نظرنــا إلى آسيــا الشرقيــة فإننا نقع على حقيقــة أن الثقافة المسيطرة هي الثقافة الصينية «مع فروعها الكونفوشيسية والتاوية» وهي ثقافة عبادة الطبيعة. حيث توجد في التاويــة وكذلك في الكونفوشيسية الحديثــة «موقــف عبادة الطبيعــة» وتفهم لمعناها الميتافيزيائي؛ فالتاوية تقدم: «بصورة بنــاءة، رؤية للكــون والإنســان باعتبارهما وحدة واحــدة. والمعرفــة الإنسانية تتجاوز حدود المدركات والتصــورات، فهي مباشرة وفوريــة، ولا تعتمد على ثنائيــة زائفة بين الذات العارفة والموضوع المعروف. والمبادئ التــي ينبغــي أن ترشد الحيــاة، وأن تنظم أفعال البشر هي المبادئ التي تنظم الطبيعة، فالحيــاة لا تعاش بصورة طيبــة إلا عندما يتوافق الناس بصورة كاملة مع الكون بأسره وعندمــا تغــدو أفعالهم هي أفعــال الكون متدفقــة عبرهم. ومؤسسات المجتمع تنتظم من خلال السماح لهم بأن يكون ماهم عليه بصورة طبيعية، فالمجتمع بأسره يتعين عليه بــدوره أن يتوافق مع الكــون.»(٥). فالإنسان الشرقــي الصيني يعيشــ في حالة انسجام وتناغم مع الطبيعة، ولهذا السبب يجب على «كل إنســان أن يعيش بانسجام مع السماء». إن هدف هذا الإنســان هو«تأمل الطبيعة» و«الذوبان فيها ليصبح طبيعيا». يرى بعض المفكريــن أن الفكر الصينــي الذي يقتضي قبــول معايــير الطبيعــة و«إيقاعاتها أكثر من البحث عن السيطــرة عليها وهزيمتها، فالطبيعــة لايمكن أن تحكــم تبعا لفائدتها للإنســان..». ويشــيرون أن التاوية ترفض تطبيق علوم الطبيعة على رفاهية الإنسانية المادية بشكل صــريح. إن الطابع الذي يميز كتابات كونفوشيوســ حكيم الصين هو أننا

عندما نقرأ لــه، فإنما نقرأ عبارات تنساب إنسياباً مرسلا. ونحن لانجد في أقوال حكيم الصــين تعميمات نظرية مجــردة بل يكتفي بتصويــر فني لفكرته. يقــول كونفوشيوس: «إنــه لاموضــع لإنسان في المجتمــع إلا إذا درب نفســه أولا علــى إدراك الجمال، فإذا فهمنــا «إدراك الجمال» علــى أنه الإدراك الــذي يتــم باللمسة المباشــرة ولايقوم على تحليــل وتعليل وحجة وبالبرهــان». وتشدد الكونفوشيسية على فلسفة معينة في التعليم، تؤكد أن الهدف الأكــثر أهمية هو الوصول إلى معارف الإنسان، فمن الضروري معرفة كل من الطبيعة الإنسانية، وطبيعة الأشياء. بحيــث يتم تنظيم الحيــاة على نحو موصل إلى الرفاهيــة الإنسانية، والقيــام بأفضل استخدام ممكن للأشياء في العالم».(٦)

وفيمــا يخص الهند نستطيع التأكد من وجود مذهب ميتافيزيائي مرتبط بالطبيعة. يشير جيدا أن المثل الأعلى للحكمة الهندية لاتتطلب ذات بالمعنى الحديث للعبارة. وبدلا من أية مقاربة قد تنــادي بتحويل الطبيعة إلى أدوات، فالطبيعــة بالنسبة للهنود تبدو جميلة جــداً لدرجة أنهــم يسمونها «مايا» يعنــي «سحر». الإنســان الصيني «مسحور بالطبيعــة» وهــو يسلم نفســه لتحمله تلك الطبيعــة؛ وهــذا يخلق وضــع انسجام مع الطبيعة.هذا الانسجام «يقابل ما يعرف في الثقافة الصينية بـ«لافعــل» هذا الـ«لافعل» هومــا يتجلى في الثقافــة الهندية بـ«فعل لا غائي».فنجــد في الهند وحدة الوجود بادية في كل كلمــة ينطق بها الهندي وفي كل نفس يتنفسه، وهي بادية في دينه وأدبه، فالهندي نفســه يمتزج بمحيطــه الطبيعــي مزجا، ويكتنــه الوجــود إلى سره الدفــين فيؤاخي بــين نفسه وبــين الحيــوان كأنهمــا أفراد أسرة واحدة هي أسرة الحيــاة. وأقدم آلهة ذكرتها «أسفارالفيــدا»(٧) هي قوى الطبيعة وعناصرها. وصــور الوحدانية التي تشتمل الكائنات الحية كلها في كائن واحد في سفر من أسفار «يوبانشاد»».

إن طابــع الشــرق الأول الأصيل هو أن ينظر إلى الوجود نظــرة الفنان التي تجاوز السطــوح الظاهرة إلى الكوامــن الخافية، فلئن كانت ظواهر الأشياء تدل على تعددها، فحقيقتهــا الخبيئــة هي أنهــا كائن واحد وهي وحدانيــة يدركها الإنســان ببصيرته النافــذة إن لم يدركهــا ببصــره.إن الوسيلة المثلى لإدراك روح العــالم نفسها هي وسيلة الطفــل في براءته، هــي الإدراك الحدسي المباشر، أو هــي البصيرة النافذة إلى جوهر الحق وصميمه بغــير مقدمات ولانتائج. إن جوهــر النفس الإنسانية هو الوجود العميق

الصامت الكامن في دخيلة أنفسنا، وذلك هو «أتمان»- كما يسمونه -أو هو روح العالم كله، هو القوة الواحدة التي هي فوق جميع القوى -روح الثقافة الهندية تكمن في دمج الفرد في الكون دمجا يزيل الفواصل التي تميز الفرد من محيطه. فإذا ما ذاب الفرد في الوجود فعندئذ يعود الجزء إلى الكل ويفنى في الكائن الواحد القدسي الذي هو فوق الجميع... وتلك هي النرفانا.

وفيما يخص الإسلام، فإننا نؤكد أن التقليد الإسلامي لايتناقض مع الفكر بالمعنى الديكارتي في التقليد الإسلامي... وحافظ دائما في القرآن على معناه العميق والقرآني. ولكن في العقلانية الديكارتية، هذا المعنى الخاص للفكر «يفقد مكانه ويحل محله العقل» وهكذا فالفكر الغربي الحديث هو فلسفي في أساسه، وهذه الفلسفة لاتعرف سوى العقل، في حين أن تاريخ الحضارة الإسلامية، لايمثل الفلاسفة سوى جزء من المفكرين، والمفكرون الآخرون لايسمحون أبدا للفكر الفلسفي أن يصبح مطلقا...، وخصوصا الصوفيون. بعض الوجوه الكبرى للعالم الإسلامي: ابن سينا، البيروني. منهج ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) بالنسبة للطبيعة يشبه كثيرا «المنهج التجريبي» للعلم الحديث، مع أن الفيلسوف الإسلامي لايسعى للسيطرة على الطبيعة. فالطبيعة بالنسبة له تكتسب طابعا سحريا وحميميا، ولم تكن أبدا «هدفا للسيطرة». والبيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) لايبحث عن وضع معرفة الإنسان مكان الطبيعة ذاتها، وهذا ما كان، على الأقل حسب هيدغر وأدورنو، نتيجة عمل ديكارت وغاليليه. الطبيعة هي قبل كل شيء عمل الله. والصورة التي ينتجها الإنسان عن الطبيعة لايمكنها أن تتطابق مع حقيقتها. وهكذا، نستطيع فهم بعض العناصر الأساسية عن الاختلاف الجوهري بين الشرق والغرب. وفي كل الحضارات الآسيوية لم يفكر الإنسان الشرقي ولم يرد معرفة الطبيعة انطلاقاً من ذاتيته الخاصة، لأن الانشقاق بين الإنسان والطبيعة كما نتحقق منها في تأسيس الحداثة لم تتحقق. إن ثقافة الشرق معتمدة على اللمسة الفنية والخبرة الذاتية الباطنية؛ فالحياة بالنسبة للمصري القديم هي حقيقة متصلة واحدة مقدسة أصولا وفروعا. كان الفنان المصري من سلامة الذوق والفطرة بحيث استطاع أن يقع على المبادئ الفنية التي غفلت عنها القرون الطويلة بعدئذ، حتى جاءت بعض مدارس الفن المعاصرة فالتقطت أطراف الخيوط من جديد لتستأنف السير في طريق شقها ذلك الفنان الأول. مواجهة الحقيقة

الوجودية:هي مواجهة مباشرة لاتتوسطها حلقات من تعليل وتدليل، هي لب الشرق وصميمه، ومن ثم كان إدراكه قبل غيره للألوهية، وإدراكه قبل غيره للعلاقة الرابطة بينه وبين الوجود من حوله. وسواء كان محور الإدراك المباشر هو الوجود الطبيعي أو النظام الاجتماعي، فالمدار في جميع الحالات هو اللمسة المباشرة بين الذات المدركة والحقيقة المدركة، وهي اللمسة المباشرة نفسها التي أدرك بها أنبياء الشرق وقديسوه ومتصوفته حقيقة الوجود الخافية وراء ظواهره العابرات. إن الفنان الشرقي يخرج إلى الطبيعة ويغرق نفسه فيما حوله حتى يصبح جزءاً منه، إنه يغمس نفسه في تيار الكون غمسا حتى لكأنه القطرة من ماء البحر، وعندئذ يتاح له أن يشهد الطبيعة في سيالها المتصل الدفاق. إنه يندمج بذاته وبروحه في حقائق الوجود، إن مصور الغرب يتفرج على الطبيعة ويفترض أن للأشياء الفلانية خصائص معينة درسها وقرأ عنها، بينما فنان الشرق يدنو من الطبيعة وذهنه خال من كل افتراض سابق عن حقائق الأشياء كما تقع له في ذوقه المباشر، وهو يدخل محراب الطبيعة متحررا من كل علم سابق ليتقبلها بكرا. إنه يدرك وحدانيته بالمجابهة الروحية المباشرة، يدركها باللفظة الوجدانية الواحدة، وتلك هي الصوفية الشرقية بأدق معانيها وأصدقها، فهي صوفية لاتلغي الواقع ولا تنسخه. إنه بفضل هذه النظرة الدينية الصوفية الفنية التي ينظر بها الشرقي إلى الأشياء، يستطيع إدراك الوحدة التي تشتمل الكون على اختلاف ظواهره وتعدد كائناته، فلئن كانت الحواس والعقل معاً من شأنها أن تجزئ الأشياء وتجرد العناصر بحيث تجعل من كل عنصر حقيقة قائمة وحدها، فإن الحدس عند من يستطيعه هو الوسيلة إلى إدراك الوحدة في الشيء الواحد، أو في الكون الواحد .إن صاحب النظرة الفنية يعلم أن الكثرة ليس من شأنها أن تفتت وحدانية الذات الفردية الواحدة. ويعلم أيضاً أن الذات والموضوع كليهما حقيقة واحدة عند الحدس المباشر. هذه الوحدانية الضاربة في صميم الحقيقة الكونية هي سر الشرق وروحه وهما في إدراك الجوهر الكوني الواحد المتصل اللامتناهي واللامحدود، الحق الواحد الذي هو جوهر الوجود يجاوز عالم الشهادة ليغوص في عالم الغيب. إن الحرية بمعناها الصحيح هي في اندماج الإنسان بروحه في روح العالم ليصبح جزءاً من مصدر الإمكانات التي بوسعها أن تكون أي شيء على وجه التعيين والتحديد. إن الإنسان الغربي يعطي الحرية للإنسان

الفرد ويسلبها من الكون في مجموعه، وآخر يعطي الحرية للكون في مجموعه بما فيه الإنسان نفسه باعتباره جزءا منه، ويسلبها من الإنسان الفرد من حيث هو فرد منعزل مستقل عن الكون العظيم.

يدل تاريخ الشرق عموما والشرق الأوسط خصوصاً على مزج بين إيمان البصيرة ومشاهدة البصر، بين حقيقة القلب وتحليل العقل، بين الدين والعلم، بين الفن والعمل. إن تاريخ الفكر في الغرب -إلا أقله- هو تاريخ العقل النظري، وتاريخ الفكر في الشرق -إلا أقله- هو تاريخ الإدراك الصوفي والحاسة الجمالية، فللغرب نزعة عقلية منطقية علمية إلا ريثما يثور على نفسه، وللشرق نزعة روحانية تصوفية فنية إلا ريثما يثور على نفسه، والنزعتان تتجاوران متكاملتين في الشرق الأوسط. إن كمال الإنسان مرهون بأن يسير الحدس مع العقل جنبا إلى جنب.

إن مفهوم الشرقيين عن الطبيعة الذين أدخلوا علاقة منسجمة مع الطبيعة يفسر يقين الروح الشرقية. وبالمقابل، إن دخول الحداثة الغربية في عالم غير حديث تاريخيا أنتج «أزمة هوية» على مستوى أقطاب الحضارات الشرقية، والتي تهدف إلى زعزعة الانسجام المفهومي والتاريخي للإنسان الشرقي مع الطبيعة. بيد أن هذا لم يؤدِّ أبداً إلى تقويض وبشكل نهائي أسس هذه الحضارات. والحداثة كظاهرة خارجية يمكن ألا تكون قادرة على قلب كيان الإنسان الشرقي. من جانب آخر، إن الغرض ذاته لأزمة الهوية تبدو موسومة بمقاومة العناصر المؤسسة للحضارات الشرقية. بيد أن هذه المقاومة تبدو أنها مؤهلة لإنتاج نوع من توفيق غير مسبوق وتكوين جديد للثقافة الشرقية ببصمات وعناصر يمكن أن تنال القبول لدى الحداثة الغربية. ومن المعلوم، أن عصرنا هو عصر العولمة. إنها توقع نهاية نهائية لكل نمط استعماري. إن ظهور بعض البلدان الشرقية في إطار المنطق الدولي الجديد، والتي أنتجت تكوين ثلاثية عالمية، يعني الكتل الثلاث الأمريكية والأوروبية والآسيوية، وأنهت السيطرة المطلقة للغرب. إن دخول آثار الحداثة في العالم تتجاوز من الآن فصاعدا مناطق التأثيرات الوحيدة المباشرة والتي يمكن مراقبتها من الغرب وتعيد تنشيط القيم والثقافات. فالحداثة تتجاوز من الآن فصاعدا الغرب: هذا هو المعنى النهائي والمخرج الوحيد لعولمة الحداثة يعني الحركة الطبيعية لتوسيع الغرب على صعيد الكوكب. وتبدو هذه الظاهرة كنتيجة ذاتها لسقوط كل «حداثة استبدادية» في البلدان غير الحديثة تاريخياً. في الواقع، نظن

أن أزمــة الهوية، قبل أن تكون، حسب بعض الناس، علامــة «هشاشة ثقافيــة» للبلدان المسماة «عــالم ثالث»، ربما يجــب أن نعتبر ذلك كعلامــة ذاتها مطالبــة زواج تاريخي بــين قيم الحداثة الغربية الغازية والتقليد وهنــا نستطيع أن نثبت فعليا صورة حيوية ومهارة الثقافة الشرقية. هذا الواقع يعيدنا إلى رفضــ نهائي لكل نزعة هيغيلية للتاريخ تتصور وصول الأزمنة الحديثة كما لو كانت نهاية ومــوت نهائي للحضــارات الأخرى. علــى العكس: نحن في عصــر ظهور جديد «لحضارات ميتة»! وإحياء للغرب المحتضر إن استيقــظ مــن غفلته قبل فــوات الأوان واستطاع إنقاذ حياته من الهلاك !

إن الفلسفة التي تــرى أن التاريخ يمثل حركــة دون عــودة كانــت في أساس تكوين الأزمنــة الغربيــة الحديثــة بأكملها .بيــد أننــا، كما حاولنا التفسير فــإن أزمة أسس الحداثة والعولمــة وكذلك الانبثاق المفاجئ لبلــدان آسيويــة في هذه المرحلــة النهائية للقــرن العشرين وضعت حــدا لهذا الوهم الفلسفــي. إن أزمــة الهويــة تقودنا بشكل حتمــي نحو تكوين غير مسبــوق. ونستطيع القول أن العولمــة تتخلى عن العالم في وضع لاعودة تاريخي. هذا الواقع يعمل بشكل ألا تكون أي عودة مكونــة ومستمرة للتقليد أو حتى التفكير بها ممكنــا بعد الآن. وربما لم يعد باستطاعة العالم تجاهل الحداثة. ولكن إذا قبلنــا هــذه الأطروحة، فلقــد رفضنا النزعــة الهيجيلية لعدم عــودة تاريخي في الوقت ذاته؛ لأن في سجل الفلسفة التطورية تبدو لنا فكــرة خلود الغرب وتفوقه الخالد في العــالم هي فكرة مسجلــة ويقينية، وهذا يتطابق مع وهم «الموت النهائي» للحضارات الأخرى. إن عصرنا هو عصر التكوينات غير المسبوقة. وبهذا المعنى فإن أي تكوين يمكن التفكير فيه قد لايبدو ممكنا إلا انطلاقاً من الاعتراف بالعناصر المكونة لكل قارة ثقافية، ولم يعــد ممكنا نفــي الحقائــق الجغرافية والتاريخية والسياسيــة أو إلغاء وجود رؤى العالم وأنماط التفكير الخاصة بالقارات غير الحديثــة تاريخيا. إن الواقع الآسيوي اليوم هو واقــع اختلال وتفاوت بــين الاقتصاد والثقافة. لم يكن تقدم آسيا الاقتصادي قد وصل إلى تكوين خطاب ثقافي مقابل ملائم. لكــن هذا التقدم الاقتصــادي الكبير لآسيا سيجد أخــيراً وبشكل لايقبــل الجدل لغته الفلسفية والثقافية.

الهوامش:

١- ريادة الاقتصاديات الصاعدة.. الصين والهند نموذجا!- تشرين في الاثنين ١ آذار- ٢٠١٠- العدد ١٠٧٣٧- مقال مترجم عن صحيفة الإندبندنت.

٢- أفكار اقتصادية متناثرة.دوت. كوم- احذروا التنين الأصفر!- د. سعد بساطة / استشاري دولي.- تشرين ١٠٧٤٢- الاثنين ٨ آذار ٢٠١٠).

٣- الانحدار النهائي للغرب- بقلم دومينيك مويسي- في صحيفة «The Japan Times on Line- ص ١٨- ترجمة عناية ناصر- ٢٠/٢/ ٢٠١٠)

٤- انهيار الرأسمالية- أولريش شيفر- ترجمة د. عدنان عباس علي- عالم المعرفة- العدد ٣٧١- يناير ٢٠١٠- ص ٣٣٩- ٣٤٠.

٥- الفكر الشرقي القديم- جون كولر- ترجمة كامل يوسف حسين- عالم المعرفة- العدد ١٩٩- تموز ١٩٩٥- ص ٣٧٥- ٣٧٦.

٦- الفكر الشرقي القديم- جون كولر- ترجمة كامل يوسف حسين- عالم المعرفة- العدد ١٩٩- تموز ١٩٩٥- ص ٣٦٠.

٧- الفيدا Vedas: كلمة سنسكريتية مشتقة من الأصل فيد Vid بمعنى «يعرف»: والمقصود الكتب المقدسة الهندوسية الأقدم، والتي تضم أربعة أسفار هي: الريج فيدا التي تضم مجموعة أناشيد لتمجيد الآلهة، والسمافيدا وهي ترانيم تصاحب تقديم القرابين، والياجور فيدا وهي نصوص إضافية مرتبة حسب القرابين وأخيرا الإترفافيدا الذي يعرف بسفر الفقراء والذي يضم نصوصا يفسرها البعض على أنها مادة للرقى السحرية (كامل يوسف حسين- المرجع السابق- ص ٣٥).

آفاق المعرفة



الجامعات الإلكترونية ومفهوم التعليم عن بعد

د. فايز حداد ❀

ظهـرت في السنوات الأخيرة العديد من الجامعات والمعاهد العلمية على مستوى العالم، تمنح درجاتها العلمية للطلبة، بناء على مناهج دراسة موضوعة داخل الشبكـة العنكبوتية، حيث يقوم الطالب بالتواصل مع تلك الجامعات، والتسجيـل فيها، ومن ثم تبدأ العمليـة التعليمية حتى يحصل الطالب على شهاداتـه العلمية، وهو ما يعرف بنظام التعلم عن بعد أو التعليم الافتراضي (الإلكـتروني). وقد كانت الجامعة البريطانيـة المفتوحة أول جامعة في العالم

❀ كاتب سوري.
العمل الفني: الفنان جورج عشي.

اعتمدت نظام التعلم عن بعد، وذلك في ثمانينيات القرن الماضي، ثم تبعتها بعد ذلك بعض الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، منها جامعة فيلادلفيا التي كانت في مقدمة الجامعات الأمريكية التي اعتمدت نظام التعليم

الإلكتروني. أما في عالمنا العربي، فقد ظهرت أول جامعة افتراضية في سورية عام ٢٠٠٢، وقامت بتخريج عدد كبير من الطلبة، ومن ثم تبعتها مصر في العام ٢٠٠٩ بافتتاح أول جامعة إلكترونية، والتي أقيمت بسبب تزايد أعداد الطلبة الذين يرغبون بالانتساب إلى الجامعات.

مفهوم التعليم الإلكتروني

يمكن النظر إلى التعليم الإلكتروني أو الافتراضي على أنه نوع من التعليم يعتمد على استخدام الوسائط الإلكترونية في الاتصال واستقبال المعلومات، واكتساب المهارات بين المعلمين والطلاب والمؤسسة التعليمية، وربما بين المعلمين والمؤسسة التعليمية، وهناك مصطلحات عدة تستخدم بالتبادل يذكرها دوبوز وفيليب منها: Virtual Learning وElectronic Education، On Lin وWeb based Education، وغيرها من المصطلحات ويميل البعض إلى استخدام مصطلح التعليم الإلكتروني بدلاً من التعليم الافتراضي، وذلك لأنه تعليم يعتمد على الوسائط الإلكترونية، فهو تعليم حقيقي وليس افتراضيا، ويؤكد هذا التوجه (لويس) عندما يتساءل عن طبيعة معنى كلمة افتراضي Virtual ويعد التعليم باستخدام التقنيات الإلكترونية أمراً حقيقياً، ولاشك أن نتائج هذا التعليم توحي بوجود تعليم حقيقي ربما يواكب التعليم المعتاد، على الرغم أنه لا يستلزم وجود مبان أو صفوف دراسية، بل إنه يلغي المكونات المادية للتعليم، ويرتبط هذا النوع من التعليم بالوسائل الإلكترونية وشبكات المعلومات والاتصالات وأشهرها الإنترنت التي أصبحت وسيطاً فاعلاً للتعليم الإلكتروني.

مجالات الاستفادة من التعليم الإلكتروني

تعد تقنية الإنترنت حديثة الاستخدام وهي تفيد كلاً من المعلم والمتعلم، في النمو المهني والمعرفي، وفي النمو الأكاديمي والتحصيل العلمي للمتعلم، ويمكن إجمال الاستفادة من الإنترنت في مجال التربية بشكل عام بالآتي:

١- خدمة البريد الإلكتروني، فعن طريقه يتم إرسال الرسائل وقواعد البيانات والبرامج، ويمكن لأي مستخدم للإنترنت أن يرسل ويستقبل الرسائل من وإلى أي مستخدم آخر.

٢- تقوم العديد من الجامعات في العالم باستخدام شبكة الإنترنت كمصدر هام من مصادر التعليم، فأصبح أكثر الطلاب لا يتعلمون عن طريق الكتاب المنهجي المحدد وإنما عن طريق جمع المعلومات الحديثة من خلال شبكة الإنترنت ومن مصادر متعددة وبشكل متكامل، مما يعزز ثقة الطالب بنفسه، ويقلل من وقت تعلمه.

٣- تقوم بعض الجامعات بطرح مناهجها التعليمية، والمواد الدراسية على شكل صفحات ويب، وبإمكان الطلبة المسجلين فيها تصفحها وهم في أماكنهم ومن خلال أوقات فراغهم أو وهم يعملون.

٤- توافر خدمات مجموعات النقاش، والتي تمَّ تطويرها لتشمل خدمات المؤتمرات عن بعد، والتي تمثل وسطاً ممتازاً للباحثين لتبادل وجهات النظر، وطرح المشكلات البحثية، وكذلك عقد مؤتمرات عن بعد دون إهدار للوقت والجهد.

٥- توفر خدمة الولوج عن بعد، حيث يمكن الدخول إلى كمبيوتر بعيد في أي مكان من العالم عبر الإنترنت، فعن طريق ما يسمى بالدليل العام الذي يحوي ملخصات الأبحاث، وأطروحات الدكتوراه، والماجستير التي أنجزت في الجامعات ويمكن الدخول إليها واستعراضها وطلب نسخة إلكترونية منها عن طريق خدمة نقل الملفات المعروفة اختصاراً بـ(FTP) كما تمَّ وضع الدوريات والمجلات، والصحف بشكل صفحات ويب على الشبكة، وهذا ما مكن الأساتذة من متابعة نشاطاتهم العلمية حسب اختصاصاتهم.

٦- توفر خدمة أنظمة الاستعراض، وهي أنواع يمكن من خلالها الحصول على المعلومات بطريقة سهلة، وذلك بكتابة الكلمات الأساسية (World Key) فيتم عرض المواقع التي تحتوي على الملفات المعنية المنشودة.

٧- مجموعات الأخبار، ومن خلالها نستطيع أن نتعرف ونتعلم أي شيء يجري في العالم.

٨- توفر شبكة الإنترنت جواً تعليميا غير تقليدي ويجعل آفاق التعليم مفتوحة، وغير

محددة بمــكان أو زمان أو منهج، مما يعطــي المتعلمين جــواً من التحفيز والتحدي والإثارة.

التعليم الإلكتروني وتعليم العلوم

تعــد مــادة العلوم مــن أكثر المــواد التي يمكــن أن تستخدم التعليــم الإلكتروني في تدريسها، فمواد العلوم تتميز باستخدامها للمختــبر العلمي، حيث يتم جمع المعلومــات وإدخــال البيانــات ومعالجتها، وهــذه الأمور يمكن تنفيذها بيســر وسهولة، وبوقت وتكلفة أقل باستخدام الحاسوب، كمــا أن تعلــم أنمــاط التفكير يحتمل أن يكون أهــم استخدام للحاســوب في التعليــم، وبهــذا فإنه يقدم للمتعلــم فرصة للابتكار وتحمل المسؤولية وتقدير الذات، وهذا بدوره يؤدي إلى تنمية أسلوب حل المشكلات لدى المتعلم وهــو من أهــم أهداف تعليــم وتعلم العلوم لجميع المستويات التعليميــة. ويعد أسلوب حــل المشــكلات أحد طــرق التدريس التي تساعد المتعلم على ربط ما يتعلمه بمواقف



الحياة اليومية وبمسائل حقيقية تتمثل هنا بســؤال لا يمكن حله بطريقة مباشرة، وإنما يتطلب تفكيراً ومعلومــات ومهارات سابقة، لذلــك فإن على المعلــم أن يكون على دراية تامــة بأسلوب حل المشــكلات، ويقصد هنا بأسلــوب حل المشكلات طريقة تعلم تتحدى البنى المعرفية والأطر المرجعية المعتادة لدى الطالب من خلال عرض مشكلة جديدة في الموقف التعليمــي التعلمي وذلك باستخدام

التفكير العلمي وليس بالتذكر والاسترجاع. ويؤكد عدد من التربويين على أن لأسلوب حل المشكلات نفس خطوات الطريقة العلمية في البحث والاستقصاء، ويمكن استخدام أسلوب حل المشكلات في التدريس باستخدام التعليم الإلكتروني من خلال:

- تقديم مشكلة (موقف يثير التساؤل) بصورة سؤال مفتوح النهاية Open Ended Question على أن تكون من واقع الحياة اليومية للطالب.

- صياغة المشكلة بشكل قابل للبحث والقياس.

- تنفيذ الإجراءات باستخدام الأدوات والقياسات.

- تسجيل البيانات وعرضها بشكل جداول ورسومات.

- تفسير البيانات واستخلاص النتائج.

- تقويم الخطوات المتبعة لحل المشكلات وتقويم النتيجة النهائية وهنا يصل الطالب إلى إدراك الحلول البديلة.

إن الميزة الأساسية لأسلوب حل المشكلات تكمن في نقل مسؤولية التعلم من المعلم إلى الطالب، وهناك عدة أنواع من المشكلات وهي:

- المشكلات المغلقة: وهي تلك المشكلات التي لها حل صحيح واحد، وطريقة صحيحة واحدة للحل، وتمثل أسلوب حل المشكلات بالنمط التقليدي.

- المشكلات المفتوحة: وهي المشكلات التي لها حلول صحيحة عدة كما لها طرق مختلفة عدة للوصول إلى الحل.

- المشكلات المتوسطة: وهي تلك المشكلات التي تقع بين النوعين السابقين.

محددات نجاح التعليم الإلكتروني

إن أحد أهم الأسباب التي أسهمت في ظهور مؤسسات التعلم عن بعد هو قدرتها على سد عجز مؤسسات التعليم العالي النظامية في استيعاب الطلبة، وفي توفير مقاعد للدارسين بتكلفة أقل من الجامعات النظامية وتعليم جيد النوعية، وبذلك يكون نظام التعلم عن بعد مكمل للتعليم الاعتيادي ولا يمكن أن يكون بديلا عنه، ولذا نجد أن التعلم عن بعد مثله مثل التعلم النظامي في الجامعات الغربية، ويؤكد الأكاديميون وخبراء التعليم على أن هناك محددات يتلزم توفرها لنجاح هذا النوع من التعليم، ومنها:

١- تصميم المنظومة المتكاملة للتعلم

عن بعد، وكذلــك تصميم النماذج المساعدة في توصيف البرامــج الأكاديمية والمقررات للمرحلة الجامعية الأولى، ومرحلة الدراسات العليا بالمؤسســة التعليمية لمختلف البرامج المعتمــدة، إضافــة إلى تصميــم استمارات الاستبيانات الذي تساعد في متابعة العملية التعليميــة، والخدمات الجامعيــة ومتابعة الخريجين وغيرها.

٢- ضبــط المعايــير الأكاديمية ومعايير الجودة في مراحل تصميم البرامج واعتمادها ومراجعتهــا في إدارة برامج التعلم عن بعد، والالتــزام بالأسلــوب الذي يحقــق المعايير الأكاديمية للدرجة الممنوحة.

٣- أن تراعي المؤسسة التعليمية القوانين السارية في البلد التي تقدم فيه برامج التعلم عن بعــد بتطوير وإدارة هــذه البرامج بما يتناسب مع الأســس المتعارف عليها للتعليم الجامعي.

٤- أن يعامــل طالــب التعليــم عن بعد مــن حيث القبول والتسجيل وغيرها معاملة الطالب المنتظم عدا حضور المحاضرات.

٥- أن تحرص المؤسسة التعليمية على أن تكون المعايير الأكاديمية للدرجات الممنوحة لبرنامج التعلم عن بعد متكافئة مع الدرجات التي تمنحها المؤسســات بالنظام التقليدي، وملتزمة بالضوابط والمعايير المعتمدة بالبلد الذي توجد فيه المؤسسة التعليمية.

٦- أن تكــون المؤسسة التعليمية المقدمة لبرنامج التعليم عن بعد معترفاً بها من قبل وزارة التعليــم في بلدها الأم أو هيئة اعتماد أكاديمــي معترف بهــا، ومعتمــدة من قبل المنظمات والهيئــات التي تشرف على نظام التعلم عن بعد.

٧- أن تحرصــ المؤسسة التعليمية على أن يتــم تقديم برامج التعليم عن بعد بحيث توفر للطلاب فرصاً عادلة ومعقولة للوصول إلى المستويــات المطلوبة لإنجــاز متطلبات التخرج.

٨- أن يمثــل التعليــم عن بعــد نشاطاً يمارسه جميــع المشاركين في النظام، بحيث تستخدم نتائج التقــويم والمراجعة والتغذية الراجعــة بشــكل مستمر لتطويــر مكونات التعليــم والتعلم كافة إضافــة إلى التقنيات المستخدمة.

٩- أن توفر المؤسسة التعليمية المعلومات الكاملة والواضحة للطلاب الدارسين عن بعد في المجالات التاليــة: طبيعة برنامج التعليم عن بعــد ومتطلباته، العلاقة بين التحصيل

والإنجاز والتقييم، وتحدد المؤسسة الوسائل والآليات المناسبة لتواصل الطلاب وتقديم أعمالهم بما يتلاءم مع الطلاب الدارسين من بعد، وأن تبلغ الطلاب بهذه الوسائل.

١٠- مراعاة التوازن بين القواعد الأكاديمية للتعليم العالي والمتطلبات الخاصة للنمط المعتمد للتعلم عن بعد، مثل العبء الأكاديمي وتجميع الساعات المعتمدة، وخصائص نظام التعليم عن بعد وكيفية التفاعل معه، كما يجب أن تقدم هذه المعلومات إلى الطلبة بحيث يتعين على الطلاب اتخاذ القرارات حول دراستهم وتقييم مسارهم الدراسي حسب معايير واضحة الأداء.

إيجابيات ومعوقات

لقد تجاوز العالم اليوم مسألة مناقشة أهمية التعليم عن بعد ومبرراته، وضرورة الأخذ به، وصار التركيز ينصب أكثر فأكثر على مسألة تجويد نوعيته وتحسين كفاءة مخرجاته، ليرتبط ارتباطاً عضوياً باحتياجات الدارسين وسوق العمل ومستلزمات التنمية، ويحدد خبراء التربية والتعليم مجموعة من الإيجابيات لنظام التعليم الإلكتروني، ومن أهمها:

- أن هذا النظام لا يواجد فيه المعلم والطالب في ذات المكان، وهو ما يقضي على كثير من المشكلات الناشئة عن السفر والاغتراب للحصول على شهادات دراسية بعينها.

- يمكن تقييم أداء الطالب بشكل أكثر دقة قياساً على نظام التعليم التقليدي، وذلك يستلزم وضع نظم تقييم أداء جيدة تناسب نظام التعليم عن بعد.

- وجود وفرة في الوسائل التعليمية والبرامج الحاسوبية والأفلام التعليمية والمكتبات اليومية، تتيح أكبر قدر من التعليم والتدريب للطالب، مما يساعد على إيضاح المادة العلمية بشكل أفضل، ومن ثم الارتقاء بالعملية التعليمية.

وعن معوقات نظام التعليم عن بعد، وخصوصاً في عالمنا العربي، يقول الخبراء إن أهم المعوقات أمام تطبيق التعليم عن بعد عدم وجود الخبرات المناسبة واللازمة والكافية من أعضاء الهيئات التدريسية المؤهلين للقيام بإعداد وتدريس المادة العلمية المناسبة لهذا النوع من التعليم، وضرورة حصولهم على دورات متخصصة في هذا المجال، لضمان إعداد مادة تعليمية تتناسب

مع حالة الدراسة عن بعد، ولضمان توجيه الدارس إلى المحاور الأساسية والضرورية أثناء الدراسة ضماناً لتحقيق أقصى استفادة ممكنة، وهذا يمكن التغلب عليه بتدريب هيئات التدريس على كيفية التعلم عن بعد، وهو ما يعتبر أساس عملية إعداد المادة التعليمية، وشرط أساسي للوصول لبرامج عن بعد ذات جودة عالية.

التعليم الإلكتروني في العالم العربي

يتفق معظم الأكاديميين وخبراء التربية والتقنية على المستقبل الواعد لنظام التعليم الإلكتروني في عالمنا العربي، وهناك محاولات جادة في العديد من البلدان العربية لتفعيل نظام التعليم الإلكتروني، إلا أنه لم يصل لمرحلة الثبات والاعتراف به في كل البلدان العربية، ومازال ينظر إليه نظرة ريبة وحذر من المسؤولين القائمين على التعليم، وذلك يرجع لمجموعة من الأسباب أهمها:

- ثقافة المجتمع، وصعوبة تقبل وجود خريج جامعة دون التزامه بدوام جامعي منتظم.

- عدم وضوح وتباين المفاهيم الخاصة بالتعليم عن بعد بين المؤسسات التعليمية التي تقدم برامجه من حيث آليات التطبيق والتنفيذ.

- هناك اختلافات في تلك المعايير بين هيئات الاعتماد والجودة في البلدان العربية المختلفة، مما قد يجعل بعضها يرفض الاعتراف بتلك الشهادات، وهذا بدوره كفيل بصرف الكثيرين عن اللجوء لمثل هذا النوع من التعليم. لكن ومهما يكن من أمر وسواء قبل البعض أو رفض مبدأ التعليم عن بعد، فإن الجامعات غير المنظورة قد أصبحت حقيقة راهنة وأن التنافس بينها وبين الجامعات النظامية جار على قدم وساق.

آفاق المعرفة



سيكولوجية الإبداع

معصوم محمد خلف *

الإبـداع هو قدرة الإنسان علـى تكوين علاقات جديدة استنادا إلى عقل ناقـد يتجاوز الوضـع القائم إلى الوضع القادر. وعرفـه آخرون بقولهم: إن الإبـداع ينشد التطوير والتحسين إلى الأفضل دوماً وفي تعريف ثالث أوضح وأشمل: هو النظرة المتكاملـة للتفكير والتي تحتم على المفكر تحليل وتقييم مـا هو كائن ليأخذ منه ما يصح وما يناسب ثم عليه أن يطور ويبتكر ما هو جديد. كما أن هناك تعاريـف عديدة للإبداع، منها «العملية التي تؤدي إلى ابتـكار أفكار جديدة، تكون مفيدة ومقبولـة اجتماعياً عند التنفيذ» وهناك

* باحث وخطاط سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

تعريف شامل للدكتور علي الحمادي، أورده ضمن كتابه الأول من سلسلة الإبداع ويقول فيه بأنه: «مزيج من الخيال العلمي المرن، لتطوير فكرة قديمة، أو لإيجاد فكرة جديدة، مهما كانت الفكرة صغيرة، ينتج عنها إنتاج متميز غير مألوف، يمكن تطبيقه واستعماله».

مَنْ هو المبدع؟

- هو شخص مفكر واع يتحدى المشكلات والمصاعب بإيجاد حلول جديدة ناجحة وقابلة للاختيار أو أفكار جديدة لم يطرقها أحد من قبل وقد أثبتت الدراسات أن الارتباط بين الإبداع والذكاء كبير.

فالإبداع هو إنتاج أفكار جديدة خارجة عن المألوف، على شرط أن تكون أفكاراً مفيدة، وقد يكون الإبداع في مجال يجلب الدمار والضرر وهذا لا يسمى إبداع بل تخريب، فلو قلنا إن موظفاً ابتكر طريقة جديدة لتخفيض التكاليف أو لتعزيز الإنتاج أو لمنتج جديد، فتعتبر هذه الفكرة من الإبداع.

كما يعد الإبداع والابتكار والتجديد.. عناصر أساسيّة لتطوير الحياة، وبعض من الناس قاعدون كسالى يعيشون على جهود غيرهم، ومنهم عاملون، على درجات متفاوتة في الجد والدَّأب والمثابرة، لكنهم نمطيّون تقليديّون، لا يملكون القدرة على تحسين الواقع وتقديم الجديد، فهم يكرّرون أنفسهم، ويؤدّون إلى زيادة في الإنتاج.

وإذا كان وجود القاعدين الكسالى ضارّاً بالمجتمع، فإن وجود العاملين، لاسيّما أصحاب الجدّ والدَّأب.. ضروري حيث لا تقوم الحياة من دونهم.

لكن ثمّة فريقاً ثالثاً، عليه مدار التجديد والتحسين. إنه فريق المبدعين، الفريق الذي لا يكتفي بالتعامل مع ما هو موجود، ولا بتكراره والسير على الأنماط المألوفة، بل يملك النزوع نحو التغيير والقدرة عليه، فإذا كان تغييراً نحو الأحسن فهو الإبداع، وأصحابُه صنف نادر في الحياة، وعليه المعوّل في تحويل تيّار المجتمع نحو الأفضل.

وإذا كان وجود المبدعين مهمّاً في كل ظرف، فإنه في ظروف الضعف والركود والإحباط.. يكون وجودهم في غاية الأهمية، إذ لا مخرج من الأزمات إلا بوجود أصحاب المواهب والكفاءات المتميّزة.

حين نقرأ عن أبي الأَسْوَد الدُّؤَلي الذي بدأ بوضع قواعد النحو، والخليل بن أحمد الفراهيدي الذي استنبط بحور الشعر العربي، والإمام الشافعي الذي وضع أول كتاب في أصول الفقه، وابن خلدون الذي أرسى قواعد علم الاجتماع، وابن الهيثم

ونظرياته في علم الضوء، وابن النفيس في اكتشافه للدورة الدموية الصغرى.. وحين نقرأ عن نيوتن وغاوس وآينشتاين الذين أبدعوا في الرياضيات والفيزياء.. فإننا نتحدّث عن أنماط فريدة، لم يكن إنتاجها مجرّد تكرار أو تجميع، بل هو تحويل للتيار، كلٌّ في ميدان عمله وإنتاجه.

وليس المراد أن يأتي المبدع بشيء جديد منقطع عما قبله، بل أن يبني على ما سبقه ويأتي بالمزيد، ويكون إبداعه بمقدار حجم هذا المزيد ونوعه وقيمته.

ومع هذا يمكن التمييز بين إبداع كلّي وإبداع جزئي. فالإمام الشافعي مثلاً وجد أمامه نتاج فقهاء مجتهدين اتّبعوا قواعد معينة في اجتهادهم فكان له فضل السبق في استنباط هذه القواعد وضبطها.. ثم جاء مِنْ بعده أصوليّون تقدّموا خطوات أخرى في علم الأصول فكان لهم إبداعات بقَدَر، وكان له فضلٌ في إبداعٍ أعمق وأشمل.

ومثل هذا يقال في الإبداع في أي مجال من مجالات اللغة والأدب والإدارة والسياسة والفيزياء والتكنولوجيا والطب والصيدلة..

هل الإبداع والابتكار كلمتان مترادفتان؟

قد يعدّ الابتكار إنتاج أي شيء جديد، من حل مشكلة، أو تعبير فني. والجدّة هنا أمر نسبي، فما يُعَد جديداً بالنسبة لفرد قد يكون معروفاً لدى آخرين. والطفل في كثير من ألعابه مبتكر أصيل، وكذا من يخترع جهازاً أو يضع نظاماً اجتماعياً أو اقتصادياً جديداً.

وأما الإبداع فهو حالة خاصة من الابتكار وذلك حين يكون الشيء الجديد جديداً على الفرد وغيره.

وكثير من الباحثين يجعلون الإبداع والابتكار مترادفين، إذ العبرة بوجود السمات العقلية والنفسية التي تؤهل صاحبها للإتيان بالجديد.

ونحن سنعتمد في هذا البحث ترادف الكلمتين. فنقول: الإبداع أو الابتكار هو النشاط الذي يقود إلى إنتاج يتّصف بالجدّة والأصالة والقيمة بالنسبة للمجتمع.

عناصر الإبداع:

وفي تقويم أي عمل إبداعي أو شخصية مبدعة ينظر إلى توافر عناصر الإبداع الأساسية وهي:

المرونة، والطلاقة، والأصالة.

فأما المرونة فتعني سيولة المعلومات المختزنة، وسهولة استدعائها وتنظيمها وإعادة بنائها والنظر إلى المسائل من زوايا عدّة.

وأما الطلاقة فهي غزارة الإنتاج،



وسرعة توليد وحدات من المعلومات، كإعطاء كلمات تتفق مع معنى ما، أو تضاده، أو تربط جزءاً بكل. والطلاقة تقارب مفهوم التفكير المتشعب.

وأما الأصالة فتعني التفرد بالفكرة. ولا يقصد بذلك أن تكون الفكرة منقطعة عما قبلها ولكن صاحبها زاد فيها شيئاً، أو عرضها بطريقة جديدة، أو وصل إلى نظرية تنتظم أفكاراً متفرقة قال بها آخرون، فالخليل بن أحمد مبدع حين استنبط قواعد الشعر التي كان يمارسها الشعراء، والإمام الشافعي أبدع في استنباط قواعد أصول الفقه التي كانت مختزنة في عقول الفقهاء، وماندلييف أبدع في نظم جدول التصنيف الدوري للعناصر التي كانت معظم خواصها معروفة من قبله، وفتحي الدريني أبدع حين وضع نظرية التعسف في استعمال الحق، مع أن الفقهاء منذ القديم كانوا يحكّمون هذه النظرية في كثير من الأحكام...

وتعني الأصالةُ في النهاية أن تكون الفكرة المبدعة جزءاً من شخصية المبدع.

والمفكرون الذين يتميزون بالأصالة هم أكثر تفتحاً، عقلياً وانفعالياً.

وبعض علماء النفس يزيدون على عناصر الإبداع الثلاثة المذكورة، عناصر أخرى مثل الفائدة (بأن يكون الشيء الجديد مفيداً للمجتمع)، والقبول الاجتماعي بأن يكون موافقاً لقيم المجتمع.

لكن مثل هذين العنصرين يبقيان محل جدل، فقد لا تدرك فائدة الجديد إلا بعد

حين، وقد يكون هذا الشيء مفيداً في مجال وضاراً في مجال، وقد يكون مرفوضاً من المجتمع اليوم، مقبولاً غداً، أو مرفوضاً في مجتمع مقبولاً في مجتمع آخر...

وبديهي أن الإبداع على مستويات شتى، منها البسيط الذي يقدر عليه كثير من الناس، ومنها المتوسط الذي تقدر عليه قلة من البشر، ومنها العالي الذي ينتجه العباقرة.

قد تقرأ قصيدة لشاعر عادي فتجد في أحد أبياتها صورة شعرية جديدة، وقد تجد شاعراً محلّقاً يهز مشاعرك ويأخذ بأحاسيسك وأنت تحلّق معه في صور ومعانٍ وتعبيرات فائقة.

فالإبداع نتاج عقلي مؤسس على التنظير بأدوات مناهج البحث المترتبة في نهضتها نحو الجمالية التي يستشعر المتتبع لها تطريب الوجدان ودفء الإيمان وصدق الانتماء.

وهو عمليّة يتدخل فيها اللاشعور بشكل كبير إذ إنه يختزن الكثير من الرؤى والأفكار في أعماق الفرد ثم تنبثق من أعماقه لينتج ويبتكر.

والشخص المبدع هو الذي يستطيع رؤية الكثير من المشكلات في الموقف الواحد، حيث يعي الأخطاء في الأشياء التي من حوله ويدرك النقص والقصور، ويحس بالمشكلات إحساساً مرهفاً، كما إنه يستطيع ترتيب عناصر سابقة غير مترابطة في صياغة جديدة.

والمبدع في حالاته الإبداعيّة قد يكون قد تحرر من المنطقية القديمة وانجرف بكل حواسه إلى الومضات التي تضيء أعماقه.

ومن المفيد أن نسعى لأن ندفع باتجاه فتح مزيد من النوافذ للعقل كي يبتعد رويداً رويداً عن الانغلاق على ذاته، فالعقل المنغلق هو سبب أساسي، بل وكارثي، في مسيرة المجتمعات الإنسانية نحو الإبداع و التجديد

إن الإبداع -في لغة العرب- يعني الإيجاد من عدم الإبداع -كما يقول الراغب الأصبهاني في مفرداته- «إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء» والبدعة في المذهب: «إيراد قول لم يستنَّ قائلها وفاعلها فيه بصاحب الشريعة وأماثلها المتقدمة. والبدع: الأمر الذي يكون أولاً»

وحمل قوله تعالى في سورة الأحقاف: «**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ**» على أن معناه: مبتدعاً لم يتقدمني رسول، أو مبتدعاً فيما أقوله (القاموس: بدع).

«الإبداع» هو الإيجاد من عدم. ومن أسماء الله تعالى (المبدع) لأنه يوجد الأشياء

جميعها مـن العدم، ومن غير آلة، ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان، والمبدع الحق من يدرك خطـوط الاتصال بين دواخلـه اللاشعورية والواقع فيترك الأعمـاق تسبح في الفضاء حتـى يقتبس منهـا ما يضيء بـه الملموس والواقع.

كذلك فالإبداع منطلق أساسي للطفرات الحضاريـة في حياة الأفـراد والجماعات والشعـوب، كونهـا يعتمـد علـى الموهبـة الفطرية، فالخط والشعر مثلاً لا يمكن تعلّم كتابتـه في المدارسـ أو الجامعات، وكذلك القصة والموسيقى والرسم والنحت، وغيرها مـن الفنون، ولكن الموهبـة كالبذرة لابد أن تسقى بمـاء الثقافة الواسعة التي تقوّي من مدِّ جذورها في العمق حتى تستطيع أن تنمو وتترعرع وتؤتي أُكلها،

فالمبدع كما هـو معروف هو الذي يأتي بجديد في حدود موهبته، فالإبداع لا يمكن أن يسقـط برديئـه ويسعى جهـده لإبراز محاسنه ويتجـاوز عن سيئه وذلـك تأكيداً للمصداقية، لا رغبة في الإساءة.

وهي الوشيجة الأقوى التي تربط المبدع بماضيـه، وهـي في الوقـت نفسـه تربطه بحاضـره إذا استطاع تحديثهـا أو تحديث دلالتهـا، إنه عـالم يسمو دومـاً كونه واسع الأرجاء، متعدد المسالك، متنوع الأداء.

فالإبـداع يشـير بوضـوح إلى القدرات الخارقـة التي يمتلكها المبـدع، لذلك يقول (غلفـورد): «إن القـدرات الإبداعية تحدد ما إذا كان الفرد يملـك القدرة على إظهار السلـوك الإبداعـي إلى درجـة ملحوظة، ويتوقـف إظهـار الفـرد المالـك للقدرات الإبداعيـة نتائج إبداعيـة، أم عدم إظهاره مثل هذه النتائج».

فالإبـداع استجابـة غـير مألوفة لكل انفعال، وبمعنى آخـر من العواطف الذاتية في البعـد النفسـي تعد الأصـل في إجراء التحـولات الإبداعية علـى مختلف الصعد النفسية والثقافيـة والاجتماعية والزمانية والمكانية...

فالتشكيـل الإبداعـي بأعظـم أبعاده الداخلية والخارجية ابـن الفطرة السليمة والموهبـة والـذكاء ورهافـة الحس وصحة الطبـع، وهو يستجيـب لنوع مـن الإبداع دون غـيره فكراً كان أم شعـراً ونثراً ورسماً ونحتـاً.... فهـو إشـراق نفسـي أو إلهام موضوعـي تنصهر فيه الـذات المبدعة في مخاطبة الآخر، ولهذا فالإبداع ميدان فسيح لعلـم النفس عامة حيـث لا يصدر إلا عن انفعال الذات المبدعة.

كما إن المبـدع يسعى إلى تحقيق التفرد والتميز لإبداعه الجديـد وقد حاز صفات

البهـاء والصفاء وفاح بعبير الأفكار الراقية المخترعة التـي يلتذ الناس بها ويحكمون له بالتقـدم.. فالإبداع الجميـل لا يُمنح صفة الجمال إن لم يعترف المجتمع به.

فالإبـداع هو نتيجـة لنشاطات الملكات الأرقـى في النفسـ البشرية، تلـك الملكات التي تميّز الإنسـان عن سواه من الكائنات، وهي المشاعر والأحاسيس المرهفة والعاطفة والعقـل الإنسانيين، ويحدث الإبداع بتعامل هـذه الملكات مـع مادة الإبـداع أو خاصّته الأوليـة، وخاصّـة الإبداع هـي الأشياء في وجودهـا المطلق وعليـه فالإتيان بجديد لا يكـون إبداعياً فنيّاً إلا إذا كان جميلاً، ذلك أن الفـن لا يكون دون الجمـال وبهذا فإن الإبداع الفني يكـون بالإتيان بجديد جميل عبر الملكات الواعية.

ولكـي يصل المبـدع إلى القـدر المتزن والمناسـب مـن الخبرة، يجـب أن يكون قد اجتاز أهم الشروط الآتية:

- ألا يترك عملاً يبدأه حتى ينهيه، ولعلَّ الكثير من المآسي التي يتعرّض لها المبدعون، خصوصاً المبتدئ منهم تكون بسبب إهمالهم للأخذ بهذا الشرط الهام الذي يمثل الخطوة أو الركيزة الأساسية التي تساعد المبدع على اكتساب الخبرة الإنجازية.

- الهضم الخبري: فالإنسان بشكل عام يمرُّ بمرحلتين وهو بصدد اكتساب الخبرات حيث تتمثل المرحلة الأولى بتحصيله لخبرات من الكتب أو من التعامل السلوكي والوجداني مـع العمل المعتاد أو العمل الإبداعي، أو مع الآخريـن من حوله، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الهضم الخبري، التي تحتاج إلى جهد ذهنـي ووجداني مختلف تمامـاً عن الجهد المبـذول في التحصيل، فهـو جهد هضمي، وليسـ جهـداً تحصيلياً، فبعـد التحصيل الخـبري يحفظ قصائد الشعـر أو قراءتها والتأثير بها مثلاً، تكون هناك عملية تأملية أخرى مماثلة تماماً لعملية الحفظ والقراءة حتـى لمن حفظ الشعر أو قـرأه وتأثر به أن يبدع الشعر بعد ذلك.

وإن لحظات الإبداع التي يعيشها المبدع أثناء ممارسته للعمل الإبداعي هي لحظات تجلٍ، لحظات يسمو فيها الإنسان أو الفنان مع نفسـه وفنـه وريشته وألوانـه وأحباره وهي لا تداهم الفنان إلا وفق أجواء وطقوس خاصّة، لحظات هي بمثابة بوح فنّي يوازيها في جـزء كبير منها طرائـق بوح الصوفيين، فالظاهـرة الإبداعيّة لهـا تعاريف عديدة، ولكن جوهرها الكشف والاختراع لكل ما هو جديـد، في أي علم أو فـنٍ أو فكر، بتطبيق أساليب وطرائق ومناهج مبتكرة في التفكير وحل المشكلات، حيث تتسم بالجد والأصالة

والمرونة والطلاقة، وتؤكد الدراسات النفسية المعاصرة وجود علاقة قوية بين الحلم والإبداع لا يمكن نكرانها، تتجلّى في رؤوس المبدعين بلحظات خاطفة كالبرق تخلف وراءها آثار النشوة والانتصار.

الصفات الشخصية للمبدعين:

تقوم الدراسة الإحصائية لشخصيات المبدعين على دراسة كل صفة عقلية أو نفسية من الصفات المتوقع تأثيرها، مقارَنَةً مع مجموعة ضابطة، بشرط أن يكون أفراد المجموعة الضابطة من المستوى العلمي أو التخصصي نفسه، كأن تقاس تلك الصفات لدى كيميائي مبدع وآخر عادي، وكلاهما يحمل الشهادات الدراسية نفسها، والدرجة العلمية ذاتها، وكذا تقاس لدى كاتب للقصص الخيالي مع قصاص آخر... وهما يحملان الشهادة الدراسية ذاتها.

ونتيجة الدراسة الإحصائية تلك تبين أن هناك زمرتين من الصفات الشخصية للمبدعين: الصفات العقلية، والصفات النفسية والمزاجية.

١- الصفات العقلية:

أساس الإبداع هو التفكير التباعدي أو التشعبي، وعناصره الأساسية ثلاثة هي: المرونة والأصالة والطلاقة. وهنا نستعرض عوامل وجوده.

فأهم عوامل وجوده العقلية هي:

١- الذكاء:

قد يبدو أن الذكاء الحاد والإبداع متلازمان! والحقيقة إن الارتباط بينهما ليس كما نتصور، والعلاقة بينهما تحتاج إلى توضيح وتفصيل.

إذا اعتبرنا الذكاء قدرة عقلية عامة فهو يختلف عن الإبداع، وإن كان يرتبط به، لأن الإبداع عملية أكثر تحديداً وأكثر خصوصية من الذكاء، كما أن الإبداع ليس جزءاً من الذكاء وإن كان مرتبطاً به.

فقد تبين بالاستقراء والملاحظة والبحث العلمي أن الأذكياء جداً ليسوا مبدعين دائماً، وأن المبدعين ليسوا دائماً من الأذكياء جداً، فمن يحصل على علامات مرتفعة جداً في روائز الذكاء ليس دائماً من المبدعين، وكذلك لم يحصل المبدعون على الدرجات العالية جداً في روائز الذكاء.

مع هذا كله، وُجدت علاقة بين الذكاء والابتكار في المستويات العليا جداً، وعندئذ يجتمع الاتزان النفسي، والاستقامة السلوكية والنتائج العبقرية، وهو ما كان عند أئمة وقادة عظام كأبي بكر وعمر، وخالد والمثنى، وأبي حنيفة والشافعي، وأبي الأسود الدؤلي والخليل، والشاطبي وابن خلدون، وغيرهم...

ويبدو أنه عندما لا يكون للذكاء أهمية ظاهرة في عملية الابتكار فإن خصائص الشخصية الأخرى، النفسية والمزاجية، تتدخل بشكل حاسم.

الذكاء شرط للإبداع، فلا بد من حد أدنى مقبول لحدوث الإبداع، فإذا تحقق هذا الشرط فإن الإبداع يتوقف على عوامل أخرى عقلية ونفسية.

ولابد من ملاحظة اختلاف هذا الحد الأدنى للذكاء بين ميدان وآخر من ميادين الإبداع.

مثلاً: لوحظ أن درجة الذكاء المطلوبة في الإبداع التقني، كاختراع الأجهزة، درجة قليلة نسبياً بالقياس إلى الدرجة المطلوبة في العلوم الفيزيائية والرياضية.

وكذلك فدرجة الذكاء المطلوبة في الإبداع الأدبي درجة عالية نسبياً أمام الدرجات المطلوبة في ميادين الإبداع التعبيري الأخرى كالرسم والتمثيل، وأمام الدرجات المطلوبة في الإبداع العلمي والتقني.

المدرسة والإبداع:

مما سبق نجد أن ارتباط الذكاء بالتفوق الدراسي ارتباط قوي، أما ارتباطه بالإبداع فليس كذلك. ومن المناسب ذكر بعض التكملات والتوضيحات لعلاقة المدرسة بالإبداع والذكاء.

التعليم المدرسي بالضرورة يعتمد على المنهاج، مهما كان في هذا الاعتماد من مرونة، ويقوّم الطلاب – بالضرورة – وفق التحصيل الدراسي واستيعاب المنهج مهما اعتمدت الاختبارات على الاستنباط والربط...

ونتيجة لذلك سيكون التعليم المدرسي كاشفاً للذكاء، مثمّناً له، مهملاً للابتكار، وربما قامعاً له! وكثيراً ما اتُّهم المبدعون العباقرة بأنهم أغبياء متخلفون... حينما كانوا على مقاعد الدراسة.

كذلك يجد المبدع أن التزامه بالمنهج المدرسي وضوابط الاختبارات التي تفرض عليه التقيد بمعطيات المنهج... تشكل تهديداً خطيراً لقدراته الإبداعية، يقول آينشتين عن ذلك:

«لقد كان هذا القيد مفزعاً للغاية، لدرجة أنني بعدما اجتزت الامتحان النهائي وجدت نفسي غير قادر على التفكير في أي مشكلة علمية لمدة عام تقريباً».

وفي سن السادسة عشرة رسب آينشتين في امتحان القبول في معهد الفنون التطبيقية بزيورخ، ولكنه نجح في العام التالي بدرجة مُرْضية.

وأعلَن آينشتين مرة «إنني لا أكدّس الحقائق في ذاكرتي، حيث إنني أستطيع

الحصــول على تلـك الحقائــق بسهولة في إحدى الموسوعات».

ومثــال آخــر: التحق الطفــل بمدرسة البلــدة، التي لم تكن تلقــن التلاميذ في ذلك الوقــت، أكثر من القراءة والكتابة والحساب أي استخــدام الأعــداد. وكانــت المدرســة تستخــدم العصــا لحــث الأولاد الكسالى والمبطئــين أو البلهاء - كما كانوا يسمونهم. وكان المعلمــون عاجزين تماماً عن قراءة ما يدور في عقل تلميذهم الجديد، فكان يجلس ثم يرســم صوراً، ويلتفت حوله، وقد يصغي إلى مــا يقوله كل واحد منهــم، وكان يوجه أسئلــة «مستحيلة» لكنه يأبى أن يجيب على إحداهــا، حتى لو هــدده المدرس بالعقاب. وكان الأطفــال يلقبونه «الأبله»، وبوجه عام كان في مؤخــرة صفــه. وذات يوم، زار أحد المفتشين الصف فتوجه إليه المعلم بالشكوى من سلــوك التلميذ الجديد قائلاً: «إن عقل هــذا الصبي مختل وهو غير أهل لإبقائه في المدرســة أكثر من ذلك.» ولكن بمرور الوقت أصبح هذا الصبــي عالماً ذائع الصيت، فلم يكن إلا «توماس أديسون» Edison المخترع الأمريكــي (١٨٤٧-١٩٣١)، وكلنــا يعلم ما قدمــه للبشرية مــن مخترعات يسّرت لها أسبــاب الحياة والرفاهيــة، ومنها: الحاكي (الفونوغــراف)، الخيالــة (آلــة السينما)، المحــرك الكهربائــي (الموتــور)، البطارية الكهربائيــة، الهاتف، والمصبــاح الكهربائي المتألق.. إلخ.

ومثــال آخــر: أحــد مهندســي المعمار الأمريكيــين الذيــن درسهــم ماكينــون Mackinnon. (١٩٦٢)، كان واحــداً من أكــثر التلاميذ تمــرداً، ولكن بمضي الوقت أصبــح من أكــثر مهندسي عصــره إبداعاً. وكان عميــد معهد الفنــون الذي يدرس به، قد نصحه بأن يترك دراسة الفن ويتجه إلى أي عمل آخر، حيث إنه لا يملك أية موهبة، بدلاً من تضييع وقته سدى.

فإذا سألنا بعدئذ: لمــاذا تفشل المدرسة عــادة في كشف المبدعين؟ كان الجواب: لأن المدارس تعتمد معايير نمطية لا بديل عنها، وهي تصلح للشريحة العظمى من الطلاب، وتركّز -في الدرجــة الأولى- على القدرات المعرفية (التعــرف، التحقق، اليقظة...) ثم على القدرات التقاربيــة (أي الانسجام مع معايير السلــوك المقبولة اجتماعياً ورسمياً، والقــرب مــن الاتجــاه الصحيــح والحل الصحيح) ثم على الذاكرة، ثم على القدرات التقويمية كالتفكير النقدي والمقارن، وأخيراً على القدرات المتعلقــة بالابتكار (كالتفكير المستقــل والمستفســر) وهــي التــي تسمى بالعمليــات العقلية التشعبيــة أو المتباعدة،

والتـــي يمكن أن تتوصـــل إلى نتائج مفاجئة غـــير مألوفة، وهـــي تقابل طرائـــق التفكير اللامّ أو القدرات التقاربية، التي تنتهي إلى نتيجة محددة سلفاً.

لذلك فإن كثيراً من المبتكرين لم يتوصلوا إلى مكانتهـــم المرموقـــة في الجـــو المدرسي وحتى نهاية المرحلـــة الثانوية، وأحياناً حتى نهاية المرحلة الجامعية.

ولكن هل يمكن التعامل مع التلاميذ في خطين متباينين: الخط النمطي الذي يشمل عامة التلاميذ، والخط المستقل الذي يصلح للتعامل مع مبدع في الرياضة أو الكمبيوتر أو الشعر...؟! الأمر ليس سهلاً، لكن ما يُقَرِّبُه هـــو نشر ثقافة تربوية بـــين المربِّين يعرفون من خلالها خصائـــص الشخصية المبدعة، ووجود مشرفين تربويين يتمكنون من كشف تلك الخصائص وتوجيهها ورعايتها.

وهذا يوصلنا إلى حقيقة أخرى وهي أن الإبداع الكامـــن في النفس لا قيمة له حتى يتحقق في واقع ملموســـ، لأن هذا التحقق يجعله محدداً واضحاً، فكما يقال: إن أفضل مـــا يحدد النـاســـ المبدعـــين موضوعياً هو أعمالهم. ويقول آينشتين في هذا: لكي يكون لمفهوم الابتكار معنى حقيقي، يجب أن يقدّم مقياساً لنفسه.

وإن لغة المبدع ليست لغة مؤسسة فحسب ولكنها أيضاً لغـــة كاشفة عن أسرار الإبداع بحيـــث يمكن أن يقال بنـــوع من المبالغة، إن الإبـــداع الحقيقي في مرحلـــة تكوّنه يحاور ذاته ويفضـــي أسراره وكأنـــه لا يمكن لغير الأدب الحق أن يتحدث عن الأدب.

ومما يساعد المبدع على اكتساب الخبرة الإنجازية، هو أن يحـــاول التمرس الدؤوب على مـــا يمكن تسميتـــه بتماريـــن الحسم الإنجازي، ولهـــذه التمارين أشكال عدّة لعلَّ من أهمهـــا محاولة المبدع وهو بصدد إنجاز تماريـــن التأمل اليوميّـــة في أن يضع عدداً من البدائل لحـــل مشكلة خاصّـــة أو عامّة ويفضـــل ألا يزيد عدد البدائل في مثل هذه الحالـــة عـــن ٧. ١٠ بدائل، ثـــم يمنح نفسه وقتـــاً ضئيلاً للغاية، لا يزيد عن عشر دقائق يصدر خلالها قراراً نهائياً حاسماً لا رجعة فيه باختيار حل واحد من بين بدائل الحلول الكثـــيرة والمطروحة أمامه، يـــرى أنه الحل الأمثـــل بعد إجرائه للموازنـــة السريعة بينه وبين بقية الحلول.

فخيـــال المبدع هو القـــوة الخلاّقة التي تقوم بفصل المـــدركات وتحليلهـــا للوصول بها إلى نوعٍ جديد من الخلق وفي هذا إتيانٌ بالجدة وتحقيق للعمل الفنّي.

ومـــن التمارين الهامة في هـــذا الصدد كذلـــك أن يتمرس المبدع علـــى ألاّ يشطب

مــا يكتب، وألاّ يبحث عــن بديل آخر لما تمَّ له إنجــازه بشكل جزئي في عمله الإبداعي، وإنمــا عليــه أن يرجئ عمليــة الشطب أو التعديل لحين انتهائه تماماً من اإنجاز عمله الإبداعــي، وذلك حتى لا ينقطع سبل الفكر المتسلســل في ذهنه، فيصعــب أو يستحيل عليــه استدعاؤه بعد ذلك مما يعطل إنجازه لعمله الإبداعي المتميّز.

المراجع

١- القرآن الكريم.
٢- صناعة الإبداع. د/ علي الحمادي. دار ابن حزم بيروت ١٩٩٩م
٣- صورة الإبداع من التراث إلى المعاصرة. د/ حسين جمعة، مجلة المعرفة العدد /٤٨٤/ دمشق.
٤- الخروج من الصندوق فرانك برنس ترجمة: نسيم الصمادي.
٥- أميرة كشغري - البنية الذهنية وتقبل التجديد موقع منبر الحوار والإبداع الإلكتروني.
٦- الإبداع والابتكار. (نظرات في خصائص المبدعين) محمد عادل فارس، شبكة صيد الفوائد الإلكترونية.
٧- كيفية تعزيز الإبداع لدى الطلاب، المجلس الأعلى للتعليم في قطر.

آفاق المعرفة



الثقافة العربية بعيون عربية

وسيم طاهر حسن ❀

انتشـرت في الفـترة القريبة شكـوى متزايدة من حـال الثقافة العربية المتدهورة وعلى كامـل مساحة الساحة الثقافية، وتناوبت الأسباب بين أزمة ثقافـة وأزمة مثقف، تترافق الشكـوى مع القلق على المستقبل والتحسر على الماضي، الشكوى القائمة والأصوات العالية المميزة هي أصوات روَّاد الصف الأول من المشاركـين في المشهد الثقافي العربي وليست من أصوات البسطاء والتلاميـذ، أما الذين من الجائز تصنيفهم أشباه أو أنصاف مثقفين، وربما

❀ كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

كنت منهم، فنجلس في الصفوف البعيدة من خشبة المسرح الثقافي نمد الأعناق لعلنا نفوز بمعرفة تزيد وتثبت ثقافتنا وتدفع بنا للأمام عددا من المقاعد، طامحين أن يكون لنا فخر المشاركة في صناعة الثقافة التي ننتمي إليها يوماً

ما. ونحن نراقب من موقعنا نسمع تلك الشكوى والأصوات التي تصدر عن الصفوف الأمامية من المثقفين، يربكنا أننا نشتكي ونتبادل نظرات الاستفهام والاستغراب متهمين أنفسنا بالعجز عن فهم ما نعتبره فوق مستوانا من الأعمال التي وصلت إلى مسرح الثقافة، ولكن رواد الصف الأول لماذا ومم يشتكون؟ أليست الثقافة العربية الحديثة صناعة أيديهم؟ أليست صورتها ونشاطاتها الحالية نتاج جهدهم في إعادة بناء القديم الذي يتحسرون عليه، والحديث الذي ينتقدونه مما يضيفونه بصناعة أيديهم أو ينتخبونه من البناء الجديد الحديث ليكون في قلب المسرح؟ أليسوا هم من يضع القواعد للثقافة الجديدة كيف يريدون وبكل قواهم؟ فلماذا أو مم يشتكون؟ ونحن نشاهد ونتابع هذا المشهد للثقافة والمثقفين،كيف نصف حالنا وكيف نقرأ المستقبل؟.. نحن.. أقصد أنصاف المثقفين الجالسين في الصفوف الخلفية، وحتى الواقفين والمنتظرين..

إن المشهد الثقافي العربي ضبابي.. يغلي بفعل المتتابعين على الصف الأول من المثقفين، لابد أنهم ارتكبوا ويرتكبون أخطاءً، مقارنة بشكواهم،كبيرة جدًّا، أخطاءً من نوع تقديم وتعظيم من لايستحق وتأخير وتهميش من يستحق.. لأن كل الأخطاء سهلة الإصلاح إلا هذا الخطأ.. عندها المشهد الثقافي لن يبقى مشهدا ثقافيا والثقافة لن تكون ثقافة، والباحثون عن ثقافة حقيقية يغرقون ويضيعون في متاهات الخطوط المرسومة على أنها الطريق للمستقبل الموعود. فهل وصلنا لهذه المرحلة؟

أم أن الغليان القائم ناجم عن حتمية احتكاك الآراء المختلفة حول رسم صورة الثقافة العربية المستقبلية، وخلاف حول تحديد الطرق الأسلم والأقصر للوصول. وستكون النتيجة ولادة الثقافة العربية الحديثة؟

إن حال القلق هذه مشروعة وطبيعية في مجتمع مهتم مازالت تنبض به الحياة، وعلينا أن نشارك هذا العراك الثقافي إن كنا مهتمين بنتيجته، وكما تعلمون السيل

الجارف يتجمع من ماء المطر قطرة قطره، والأهم أن تكون خياراتنا نابعة من حرصنا على هويتنا الثقافية وتحديثها. ومن منا لايرغب بالمشاركة؟ ونجد أنفسنا أمام حقيقة أن ثقافة المجتمع هي الروح التي تحرك وتوجه مجمل النشاطات التي يقوم بها مجمل الأفراد في مجتمع ما.. فالثقافة ليست نتاج المثقفين بمعنى الاقتصار على إنتاجهم وحده، ولكن هي مجمل إنتاج جميع الأفراد، بقيادة وتنظيم وتوجيه النخبة في المجتمع وهم من المثقفين. أساساً المثقفون هم المجموعة التي توجه إنتاج جميع الأفراد لما فيه خير المجموع فهي المجموعة التي تقود المجتمع.. فالمثقفون النخبة هم الحكومة في مجتمع سليم البناء.. أو الحكومة هي مجموعة المثقفين القياديين.. ولا يمكن أن توجه الثقافة إلا من خلالهم فهم المقرر النهائي لشكل الثقافة والمجتمع. فلو دققنا في تشكيلة الحكومة ووزاراتها وجدنا فيها كل أنواع العلوم والأدب والفن والصحة والعلوم العسكرية والهندسة والفلسفة والقانون والاقتصاد والتجارة، وكل وزارة مسؤولة عن جزء الثقافة التي تختص بها والوزارة تعني الوزير على رأس الهرم (الشخص الأكثر ثقافة والأوسع أفقا والأكثر قدرة على بناء نوع الثقافة التي هو وزيرها)، ثم معاونوه ونزولا إلى قاعدة الهرم الواسعة، فالوزارة هي التي تتحكم بالحاضر وهي التي تضع الخطط المستقبلية.. فالثقافة ليست الأدب فقط وليست حكراً على وزارة الثقافة. فالطبيب جزء من ثقافة المجتمع الصحية ورافد لها، وعندما يسافر طبيب متميز للعمل خارج حدود المجتمع العربي تكون الثقافة العربية قد خسرت رافدا لها، وعندما يسافر مهندس تكون قد خسرت رافدا لها وعندما يسافر شاعر أو قاص أو ممثل أو أي مبدع في أي مجال تكون الثقافة قد خسرت رافدا لها، صحيح أن هؤلاء يمكن اعتبارهم سفراء لثقافتنا، ولكن قبل أن نقول إنهم سفراء يجب أن نكون صريحين وواعين لأسباب سفرهم، وفي حال مشهدنا الثقافي هم مبعدين أو مبتعدين بسبب العراك الثقافي القائم، والمشكلة التي يواجهونها في بلدانهم أكبر من قدراتهم الشخصية فاضطروا لترك مواقعهم، ومشكلتهم هي أن القائمين على الثقافة لم يضعوا إنتاجهم الثقافي في موقعه الصحيح، فعندما لم يجد المثقف المبدع المناخ الثقافي



المناسب للإفادة من إنتاجه، بل وجد نفسه وسط صراع ينهك قواه ويستنفد طاقاته، ولم يجد الدعم المعنوي والمادي الكافي ليستمر صار مضطرا للبحث عن مجتمع آخر. عندها نكون قد فقدنا رافدا لثقافتنا وكسب المجتمع الآخر رافدا لثقافته. الثقافة إذاً مسؤولية الحكومات أولا، والمشهد الثقافي انعكاس لثقافتها وقدرتها على تمييز المثقفين المبدعين ورعايتهم والإفادة من إنتاجهم. فإذا كان المثقف في موقع القرار وتوجيه الثقافة لا يتمكن من التفريق بين الرشوة والهدية فلا نتوقع أن المثقف العادي وغير المثقف سيقدر، ولا نتوقع أن المجتمع مع الأيام سيبتعد عن الرشوة.. وإلا لا نكون مثقفين. فمن يميل للابتعاد عن الشبهة سيقلد من هو أعلى منه ويقع في ما وقع فيه قدوته.

المشهد الثقافي الأدبي هو مثال وصورة عن المشهد الثقافي العام، لذلك أرغب هنا أن أسوق مشهدا لما يواجهه المهتم بالثقافة من موقعه الثقافي العادي، وإن كنت لست من المتابعين إلا أنني من المهتمين، قرأت في العدد ٥٩٩ من مجلة العربي، والتي تساهم بدور كبير في الساحة الثقافية، عن الشاعر محمود درويش، قراءات متعددة لأعمال شاعرنا، كتبت بأقلام متعددة

لأسماء لها مكانتها في المشهد الثقافي العربي، ومن أقطار مختلفة، مابين يدينا آراء قبل مباشرتها أسأل من منا يعرف محمود درويش ولا يعرف «ريتا» التي تغنينا بها سنوات (بين ريتا وعيوني بندقيه) هذا الإحساس العميق المرهف هل سيبقى بهذه الصورة عندما نقرأ ما كتب؟، وعندما أدقق وأسأل المشاركين في الدراسة بين أيدينا.. هل «ريتا» اسم فتاة أم اسم مجازي للقضية والأرض المغتصبة الحبيبة فلسطين؟ وشتان بين التغني بحب فتاة هي الحب الشخصي لشاعر والتغني بحب قضيه وأرض هي حبنا ووجعنا جميعا؟ هل صحيح أن ريتا يمكن أن تكون، بل على الأغلب كما قرأت، هي الفتاة الإسرائيلية التي اغتصب أهلها البيت المجاور لبيته في ضيعته الفلسطينية حيث وقعت عينه ثم قلبه عليها؟؟؟ هل تبقى «ريتا» ريتا التي أحببناها؟؟؟. كل شيء سيصير له معان وتأثيرات ولن يبقى كما كان، وعندما تحدث عن الموت بحب وقبول كنت أعتقد أنه يقصد الموت في سبيل حبيبتنا فلسطين، وكان يتحدث بلساني كما لسان كل عربي، ولكن بعد ما تعددت الاحتمالات.. ربما كان يقصد حبيبته ريتا أو قرار الأطباء في حالته الصحية التي تعاطفنا معه فيها، عندها ينعقد اللسان، إن المبالغة بمديح وتفصيل كل حدث في حياته وأدبه سيكون سببا لمشكلة، صحيح أن كثرة الدراسات والتفاصيل تغني الموضوع وتزيد ثقافة القارئ وتسهم في تعزيز الثقافة، ولكن المبالغة فيها عادة تفقد العمل الفني الأدبي معناه وقيمته، وتغير توجه المشهد الثقافي وتجعله ضبابيا، وما بين يدينا دليل واضح على ذلك وهنا دعوة للجميع لقراءة العدد ٥٩٩ من مجلة العربي للاطلاع على مكونات هذا المشهد الثقافي.. المكون الأول دور الدولة في تبني الثقافة، لشاعرنا وضعه الخاص كونه فلسطينيا ونجد الشاعر متنقلا من مجتمع إلى آخر، فالشاعر لم يجد نفسه مستقرا في بلد يحتضنه كمثقف له إنتاجه الأدبي والنضالي، فكان متنقلا حسب التغيرات في القبول، مهرجان هنا وندوة هناك ودعوة عند ثالث، وفي كل مجتمع كان له حضوره الجماهيري من المحبين لشعره. والمكون الثاني المجلة ذاتها من أكثر المجلات الثقافية شيوعا وتداولا بين المثقفين، فلها دور كبير في المسرح الثقافي من خلال تجميع الأعمال من كل مساحة العالم العربي وإعادة

توجيهها لكل المثقفين علــى كامل مساحته أيضا، وحتى لــولم تكن تتبنى آراءهم بمعنى تحمــل مسؤوليتهــا فإنها تتبناهــا كقيمة ثقافية، فهي مشاركة إذاً في المشهد الثقافي العربي. وقولهــا إنها ليست مسؤولة يعفيها مــن المسؤوليــة القانونيــة ولا يعفيهــا من المسؤولية الثقافية التي تتصدى لها. المكون الثالــث الشاعر وإنتاجــه، الشاعر من كبار الشعــراء الذيــن تركوا بصمــة واضحة في المشهد الثقافي وهو فوق كونه شاعر بالمعنى الأدبي فهــو ملتزم بقضيــة إنسانية عربية اتخــذ فيها موقع المناضل بما يملك من قوة الكلمة، فأدبه الشعري له قيمة أداة نضالية، حياتــه وحبــه وتنقلاته وانتسابــه الحزبي والتجاذبات والتناقضات كلها ملفتة خلقت هــذا الشاعر، والحقيقة أن معظم المبدعين يسجلون أسماءهم في كتاب التاريخ بأعمال تكــون أحيانا قليلــة ولكن عظيمــة التأثير فنحن نعــرف الكثير من الشعــراء والأدباء والمبدعــين من خــلال عمــل أو قصيدة أو أحياناً أبيات شعر معدودة من قصيدة، هذا ينطبــق على شاعرنا الــذي سطر اسمه في كتاب التاريخ بشعر حفظه الجمهور ومازال «سجــل أنا عربي.. أنــا لا أكره الناس.. ولا أسطو على أحد.. ولكني إذا ما جعت أكلت لحم مغتصبــي.. حذار حــذار من جوعي ومن غضبي» علــى عدد سطورها وكلماتها القليلــة ووضوحهــا ومباشرتها انحفرت في كتاب التاريخ الشعري والنضالي والإنساني، ولم يبخــل بالمزيــد في شعره، ومــع تقدمه في مسيرتــه كأني أراه، حســب مــا وصفت المقالات، أغرته فكرة أهمية تحديث الثقافة العربيــة وتحديث لغة الشعر، فكرة ابتدعها قلق المثقفــين على العروبة المتهمة بالتخلف والعجز، فكان له ما وصف به شعره الجديد مــن المستقيم إلى المنحنــي إلى الدائري إلى المتكســر.. وكان ذلــك سببا لابتعــاد شعره الحديــث عــن الجمهــور وما زلنــا نسمع قصائده القديمة تغنى من القلب، فمحمود درويشــ، كما صــوره المشهــد في المقالات، انتقل من المناضل بالكلمة في ميادين القتال وقد سطر اسمه في كتاب التاريخ إلى الأديب الشاعر البــارع على مسارح الثقافة. المكون الرابع تقييم النخبة المثقفة لأعماله والتي رسمــت المشهــد بأقلامها في عــدد المجلة ٥٩٩، هــذه القــراءات والتحليلات جميعها تصــب في مديــح الشاعــر، ولــو اختلفت الاتجاهات والأسلــوب، ولكن عندما ندقق

فيما كتبــوه والمشهد الثقــافي الذي رسموه لإنتاج محمود درويش الأدبي وبأقلام مختلفة لأسمــاء مــن رواد المقاعــد الأمامية يتغير المشهد تمامــا: فالشاعر ممــدوح لأسباب مختلفة ومستمرة في جميع إنتاجه، وكأن كل مــا كان يقوله له قيمة أعلــى فأعلى، فإذا كان دخــل التاريخ منذ قصيدته الأولى فهل نتصور أين وصــل في آخر كتاباته؟، لدرجة التناقض والتمييــع والضياع بين التحاليل، فأحدهم يمتدح البساطة ثم يمتدح التعقيد وبعضهــم يمتــدح الكلمة البسيطــة المعنى المباشرة ثم يعود لامتداح الكلمة التي تحمل كل المعاني (درويشــ لاعب بارع بالكلمات)، (إلى جانــب احتمــالات رمزية أخرى تجعل الدلالة الشعريــة ليست محصورة في المعنى الحرفي بل قابلة للتمــدد والتجدد والتأويل طبقا لأفــق المتلقي وما ينتظره من النص)، مرة يمتــدح لمباشرته واستقامــة أسلوبه ثم يمتــدح لمواربته واستخــدام الدوائر ثم من الدوائــر إلى المتكسر ثم العــودة للمنحني،،، يمتدح لالتزامه المدرســة الشعرية القديمة ثــم يمتدح لاستحــداث مدرستــه الخاصة الحديثة، يمتدح لأنه ملتزم بهويته يأكل لحم مغتصبه ويدعونــا لذلك ثم يمتدح لتماهيه في الإنسانيــة وتخليه عــن هويته وتسامحه وتعاطفه حتــى مع سجانه، يمتــدح لتقبله الحقيقــة الأزلية (الموت)وهدوئه في اقترابه منه ويمتدح لتحديه الموت ورفضه له.. وقائع وآراء وتحليلات أدبيــة وفكرية كثيرة تجعل من المستحيل أن يصل القارئ لنتيجة معها، وبدل صفاء الرؤية من كثرة التحليلات نتيه في ضبابيتها؟ وهو مشهد من الصورة العامة للثقافة العربية التــي لاتختلف عنه، ويحق لنــا في المقاعــد الأخيرة والواقفــين القلق والخوف أمام مشهد يصعب وصفه لأعمال شخصــ لطالما أحببنــاه ووجدنــاه قريبا.

المكون قبل الأخــير.. الجماهير التي أحبت الشاعر الذي تحــدث بلسانها حديثا لم تكن تستطيــع التعبير عنه بقوة الكلمة والأسلوب كما فعل، فكان منهــا ولها في بعض شعره، ومنهــا ولها في كل قيمتــه وغايته ونتيجته، واتخذه رمزاً نضاليــا ومنارة شعرية تحدد القضية والعــدو وتحدد الطريــق والغاية، شاعــر القضية يتقدم عندمــا ترفع رايات القضية ودعوات النضال أما عندما تطوى، يطوى الشعر وينسى الشاعر. المكون الأخير في المشهــد الثقافي.. المثقفون من الجمهور، المثقفــون في المقاعد العادية والواقفون، من

هم مثلي والذين حاورتهم في ماهو مكتوب، هؤلاء انقسموا على بعضهم وعلى أنفسهم بسبب ضبابية التحليلات التي وضعهم فيها مثقفوا الصف الأول، فالجميع مجمعون على الواضح البسيط المباشر الجميل وعلى سبب وغاية الشاعر، ولكنهم وسط ضباب وضياع عندما تلونت معاني الكلمات وتغيرت الاتجاهات وتداخل المنحني مع المستقيم مع المتكسر، كل منهم يقرأ الشعر من مجموع معرفته بالشاعر وثقته به وانتمائه لقضيته، المعاني الأولى والإحساس الأول هو مخزوننا الواضح المحب للشاعر وإنتاجه، ولكن مع تقدم الدراسات وتعدد الآراء والعروض يطغى الأدب والكلمات على الموضوع والإحساس الأساسي، وبدل أن يبقى المعنى واضحا، صار للكلمات معان وصار المعنى لغزا.

ولكن مهما تغير أسلوب شعره، وأربكتنا التحليلات.. نعرف أنه لم يغير انتماءه وهويته ومازال «برأس الصفحة.. عربيا.. يأكل لحم مغتصبه..».. وكفاه فخرا.. رحمه الله..

بالعودة إلى ما كتب.. في المشهد بقعة ثقافية مختلفة رسمها أحد المشاركين نشاهدها وسط الضباب تزيد إرباك المشاهد، عندما استخدم قدرته على التلاعب بالكلمات والمعاني ليخلق لونا أو بقعة خاصة في مشهد ثقافي عام، عامدا أو غير عامد لنوع التأثير وقيمة الاجتهاد، حين ذكرنا بأهمية الأرض عند العربي مقارنة بأهمية ما لديه من عرض متعلق بالأنثى، على الرغم من أن هذا الاستخدام اللغوي قديم ومعروف عند الأدباء جميعا و(الأرض) لفظ مؤنث كما (السماء) نستخدم معها الإشارة (هي) ولانستخدم (هو)، والأرض والأم مترابطتان في الأدب، إلا أن الجديد الذي قدمه الكاتب هو الرجوع إلى الفعل، أصل الكلمة، لتوضيح تلاصق المعنى والتشابه العملي، عندما عرض بعض الكلمات التي تستخدم بطرق مختلفة وتوحي بمعاني ذات الدلالات المباشرة وغير مباشرة، فاستخدم كلمة (حرث) ليصل إلى مشهد لم يسبقه إليه أديب، الإغراق في التدليل على (أنوثة الأرض) بالتذكير بأصل الفعل للكلمة، وأصل الفعل لكلمات (الفتح والفتوح)، و(اغتصاب)، وصفة (بكر) ليؤكد على تكافئ قيمة الأرض والعرض عند العرب، فهل يطالبنا الأدب كلما استخدمنا لفظا مؤنثا (هي) أن نقرنه بالعرض، أو باستحضار قاموسنا وخيالنا العملاني لنبدع

فهما جديدا؟. هذا الإغراق والتغيير لأسلوب ومعنى الأدب ووظيفته يخلق عند المثقف العربي المتلقي (القارئ) شعوراً منفراً، واستهجاناً من الثقافة التي يتم اختيارها للمشهد الثقافي العربي، ويزيد الصورة ضبابية. وبالمناسبة هل التدليل على قيمة الأرض بالقياس بقيمة العرض صحيح؟، فالعربي يضحي بروحه لأسباب العرض أحدها وليس أهمها وإلا لما ترك عربي بيته للمشاركة في فتح، (بسبب الضباب الناجم عن، الحرث، لابد من توضيح أن بيته ليس عرضه ولكن من في البيت من، حرث، أو أخت وأم، وأن الفتح تعني الحرب).. حسب ثقافتي.. هكذا يزداد الضباب في المشهد.

هذا كان مثالا لما يواجهه المثقف العربي في المشهد الثقافي العربي العام ومثال لتغيير المفاهيم والطريق وبالنتيجة الهدف، واختلاط الحابل بالنابل دون رقيب سوى من لاقرار له، من هذا المثال أجد المبدعين مسؤولين عن المحافظة على قيمتهم وتوجهاتهم أمام التيارات والصراع الفكري الذي يحاول تحديث الثقافة لا يعرف بأي اتجاه، فهل يستهوي روّاد الصف الأول ما هم فيه؟. وهل نرغب باستمرار الغليان وهل من طريقة لإيقافه، في العدد ٥٥٩ من مجلتنا بين يدينا مقالة بقلم الدكتور منير سويداني يعرض فيها لسبب من أسباب الضبابية التي تعاني منها ثقافتنا وأسباب غليانها وهو عدم وجود معايير تقاس وتفاضل على أساسها القضايا الإنسانية لتكون ناظما لمستقبل خطواتنا المستقبلية، وهنا أود القول إنني أوافقه رأيه في صعوبة بل استحالة وضع معايير دقيقة، أو شاملة للثقافة، فكل أحداث الحياة حتى الموت يحمل قيمة نراها إيجابية من زاوية وسلبية من زاوية أخرى، وبين الزاويتين مسافة كبيرة، ولكن ماذا ننتظر حتى نتبع صاحب الرؤية.. هل ننتظر حتى يقنع الجميع بوجهة نظره، وغلبة وجهات النظر الأخرى؟ أم ننتظر أن يترك المعركة وينسحب يائسا مغلوبا؟ أم أن يبادر بسوق الآخرين معه إلى حيث يرى؟ وكل الاحتمالات ممكنة بغض النظر عن النتيجة فربما كان ينظر بعين مصلحته الشخصية وربما كان ينظر بعين مصلحة الجماعة. حتى ذلك الحين.. ثقافتنا العربية اليوم من الذي يديرها ويرسمها ويوجهها، أم أننا لانتحرك..ننتظر..!. أعتقد أن الحل بيد (رجل يدري ويدري أنه يدري) ويعمل

بما يدري دون الوقوف عند آراء الآخرين على الرغم من (ديكتاتورية) هذا الشخص أو الفكرة، وعلى الرغم من الصعوبات التي سيواجهها، لأن السير وراء شخص يدري خير ألف مرة من الوقوف وراء ألف يدرون، وخير ألف مرة إن كنا لانعرف اتجاه المرعى أن يسوقنا إليه سوقا شخص يدري من أن نموت ونحن نقف في مكاننا... وهي مقولة تستحق أن نوسع لها مقالا.

وبما أن مشهدنا كان في الساحة الثقافية الأدبية الشعرية، سأعرض لمشهد آخر ليس بعيداً نشاهده فيه حوارية صحفية مع مثقف من كبار الفاعلين في الثقافة العربية الحديثة.. مع أدونيس، وهو من المبدعين الذين بدأوا مشوارهم الثقافي من الساحة الثقافية العربية ثم انتقل ليتابع مشاركته في البناء الثقافي العربي من بعيد!. يشارك أدونيس الرأي القائل بضرورة تغيير صورة الساحة الثقافية العربية واستخدم تعبير (تهديم وإعادة البناء) لهذه الغاية، المشهد مختصر في المقالة عن الشعر وعن الثقافة وعن دور المرأة، لكنه ساطع وملفت بمواقف تحفزنا لقراءة رأيه وإمعان النظر، خاصة في تعبيره عن الشعر وضرورة تحديثه وجعله عميق المعاني، لا ينال غرضه بسهوله:

«الشاعر بطبيعته غريب دائما حتى في لغته لأنه يسير في المجهول وكلما تقدم في سيره يتحول، يتغير، فهو داخل ذاته وداخل لغته غريب».. أدونيس (جريدة الثورة عدد ١٠/٣/٢٠١٠).

هل صحيح أن وظيفة الشعر (أو حتى الثقافة عموما) تفكيك أو تهديم ما ألفناه لإعادة البناء؟ هل ينتقد الشعر الجماهيري لأنه يعبر عن أفكار عامة ولا يعبر عن فرادة الشاعر ذاته؟ أم صحيح أن الشعر هو فن القدرة على رؤية الجماهير في المجتمع (وجهة نظر)، والتعبير عن الرؤية بطريقة ذكية أو ممتعة أو فنية أو جميعها معا.. المهم أن تصل تلك الرؤى ليفهمها الناس عموما وأن تصل معها رسالة جمالية بمعنى القيمة والهدف لإفادة المجتمع (يحرضنا) ورفد ثقافته ببناء جديد؟. فالشعر والأدب أداة ووسيلة للشاعر للوصول إلى غرضه في التأثير على المجتمع، وسيلة ولكن بطريقة خاصة بالشاعر فالخصوصية هي خصوصية الأسلوب وليست بالضرورة خصوصية القيمة والهدف. فالأسلوب الشعري بهويته العربية الذي نتطلع إليه: أسلوب في الكلام

يحمل قيمة إنسانية (علمية أو تاريخية أو جمالية وغيرها) من خلال صياغة موسيقية جمالية تحرك الإحساس والشعور، الذي منه اشتق اسم الشعر، فالكلام المنمق، الموسيقيّ المغنّى، الذي يخلو من الفكرة والقيمة ليس شعرا (حضاريا) نتطلع إليه، كما الكلام المنمق الذي يحمل فكرة وقيمة إنسانية ولكنه يخلو من الموسيقى ولا يحرك المشاعر ليس شعرا. والمبالغة في الحالين تفقد الكلام صفة الشعر.

الفكرة أو القيمة التي يحملها الشعر أو يسلط عليها الضوء لها مستويات منها البسيط جداً ومنها العميق جدا، والأسلوب متدرج بمستوياته منه المباشر ومنه الرمزي، فالشعر جزء غني من الثقافة العربية وبناء عظيم. لعل أهم صفة فيه هي جماهيريته فالشعر العربي معروف بموسيقاه وشاعريته، أي الإحساس المرافق للكلمة والمعنى، مما خلق حوله دائرة جماهيرية واسعة أقل ما توصف به أنها اجتمعت على الجمال البسيط وهو صفة إنسانية سامية، أما الشعر المبتذل كما الشعر العميق (على تضاد النوعين قيمة) فله مجتمعاته الضيقة الخاصة، فالشعر بصفاته القديمة أطلقت عليه تسمية الشعر العربي هذه التسمية هوية لتلك الصفات كما يسمى العربي عربيا لأن له مواصفات الهوية العربية. وكما يستبعد الفرد لمخالفته صفات الهوية يستبعد الشعر. إن انتماء الشعر الحديث بالصيغة والأهداف التي ينشدها أدباء الحداثة للشعر العربي هو كانتماء العربي الذي يمضي حياته وعمله ولغته وزواجه في أوروبة للعرب، أو.. «كحداثة استخدام السيارة أو الطيارة بالنسبة للعرب»، وهنا الخطورة والمفارقة، فالأديب أو العالم العربي الذي ينكره مجتمعه وتتبناه مجتمعات أخرى تنصبغ ثقافته بثقافة المجتمع الذي تبناه، وعلى الأغلب تكون الصبغة طاغية على الأصل، وعندها تكون النتيجة تغييرا للثقافة وتهديما للأصل وليس تطويرا وبناءً، فأولى أن ينسب إبداعه للمجتمع الذي تبناه،.. والشكر للمجتمع العربي الذي يبعد مبدعيه.. أليس كذلك؟؟؟

الشاعر الكبير محمود درويش، بدأ مشواره الشعري: «سجل أنا عربي» وقال: «وإن لم يفهم البسطاء معانيها فأولى أن نذريها.. ونخلد نحن للصمت»، أبرز صفة أساسية للهوية الشعرية ولم يكن المقصود

استخدام الشعر استخداما سطحيا بسيطا، فالحرية والهويـة ومقاومة المستعمر ليست قضايـا بسيطة سطحية، ولم يعن عدم قدرة الشعر على حمل رسائـل عميقة لا يفهمها البسطاء، فالثقافة مستويات.. وكلما اتسعت دائرة الجماهير دلل ذلـك إما على بساطة الفكرة وعموميتهـا (وليـس سطحيتها)أو علـى قوة وقدرة العرض الشعري والتي هي أسلوب الشاعر وتمكنه من الكلمات لإيصال فكرته. الصعوبة تكمن في الصياغة الشعرية للموضـوع والقيمة المطلوب مـن الكلمات إيصالهـا أو إلقاء الضـوء عليها.. فعندما يختـار المثقـف الأداة الجماليـة الشعرية لإيصـال فكر عميق فلسفـي أو سياسي أو ديني وغيرها سيجـد صعوبة شديدة بسبب اختيـاره إن لم يكن متمكنا منـه، أو سيكون شعره إبداعاً مميزاً إن كان متمكنا من الفكرة والأسلوب. ومن أمثلة قدرة الشعر على حمل العميق والخاص، دون تغيير خصائص وهوية الشعر، الشعـر الصـوفي، الصوفية أعمق أنواع الفكر، يحوّل الصوفي معبوده الروحي إلى الصيغـة الجمالية الإنسانية العامة فهو قد يتحـدث عن عشق لمحبوبـه، وهو يعبر عن (شعوره)تجاهه وروعة صفاته واشتياقه إليـه وتأثـير العشق فيه كأنـه يتحدث عن شخص مثله، فتأثير الإيمان هو تماما كتأثير العشق بالنسبة للآخرين، فالشاعر الصوفي شخصـ مؤمن صاحب انتماء فكري عميق، ثم هـو متمكن من اللغة قـادر على تطويع الكلمـات لتحمل الفكرة وجمـال الصياغة معا فهو ليس (شاعرا صوفيا)بل هو (صوفي شاعـر)، وإن لم يعان القارئ، المتلقي، العشق لن يعرف ما يعانيه عاشق ولن يعرف عميق إيمـان المتصوف، ومن لا يعـرف المتصوف الشاعر لن يعرف أن معـاني ألفاظ العشق والهيام التي هي رموز وأدوات لفظية يقصد بها عبادة سامية، فهـي لغة خاصة لأمثاله من الصوفيـين وليست للجمهـور الذي لو عرف معانيها اللغوية وتمتع بعموم الإحساس الإنساني فيها إلا أنه لن يفهم عميق قيمتها ومعناهـا. فالشاعر المبدع قادر على تطويع الشعـر بمكوناته التي تعطيـه هوية الشعر العربي في شتى المواضيع الإنسانية القديمة والحديثة.

المشكلـة هي في تحميـل الشعر وظيفة تهديم وتكسـير وإعادة البناء لساحة ثقافية لم يتفق المشاركـون في بنائها حتى الآن على مكوناتهـا، فهـي مشكلة تحديـد القضايا

الحضارية ليتصدى لها هذا النوع من الأدب، خاصة وأن الحضارة العربية كانت حضارة ولم تعد، بل صار العرب متخلفين عن بقية دول العالم، ليس كل العالم حتى لا نحبط أكثر، ولكن كحضارة سبقنا الكثيرون وبما أننا لا نستطيع اللحاق بهم في مجالات العلوم التقنية توجهنا للشعر واللغة فحملناهما مسؤولية التصدي والمحافظة على كرامة الحضارة العربية لغوياً وتركيبياً. فاللغة العربية الآن تصارع جنباً إلى جنب مع الشعر العربي الغزو الثقافي الأجنبي المتطور ولا دعم آخر من أي اختصاص كان، ونعلم تماما، كما يعلم القائمون على الثقافة، أن اللغة والشعر أصلا نتاج الحضارة التقنية والفلسفية والروحية وكل العلوم، وأن التطور فيهما ناتج عن التطور في المجالات الأخرى، فكيف نتصور زيادة حجم قاموس لغوي كقاموس «لسان العرب» إذا لم ننتج ما نسميه؟ نعرّب ونترجم!!.. (شكرا لكم أحسنتم ثابروا)هذا ما تقوله الحضارة العربية.. طبيعي في هذه الحالة أن يكون المشهد الثقافي في الساحة الشعرية معتما وليس ضبابيا.. وبما أن معظم المواضيع الإنسانية هي مواضيع ثابتة متكررة فتكون إعادة تناولها تكراراً وجموداً للشعر (للثقافة)، يضاف مشكلة تجديد طرق الشعر والخروج من القوالب القديمة دون إخراجه من هويته، فما نراه من الحداثة إغراق بالرمزية لا لعمق الفكرة لا.. بل لرغبة الشاعر في خلق أسلوبه الخاص الجديد، ليكسر الجمود الذي تتهم به الثقافة العربية، ولعرض أفكار، على الأغلب سبقه إليها كثيرون، ولكن بأسلوب حديث مغرق في الرمز ليعطي مساحة لتعدد الغرض والفكرة المقصودة بتعدد القراء، فكل قارئ يفهم الرمز حسب ثقافته، وبالنتيجة قد لايصيب هدف الشاعر إلا واحدا من الكل، ويكون الشاعر سعيداً لأن الكثير من القارئين يقدمون فكرة وغاية تجاوزت مستوى ما أراده هو أصلا، وهذا بحد ذاته انتصار الأستاذ الذي حرض تلميذه للتفوق عليه، وهذا إبداع أو بدعة.. وكلما أمعن الشاعر أو الأديب بتعقيد أسلوبه وتعميق معانيه، كلما ابتعد عن قيمته الثقافية المتمثلة في إيصال الفكرة. عندما نقف أمام نص لا نستطيع تمييز محتواه، عندما نقرأ: «الشاعر بطبيعته غريب دائما حتى في لغته لأنه يسير في المجهول وكلما تقدم في سيره يتحول، يتغير، فهو داخل ذاته وداخل لغته..غريب» هذا التعبير المبتكر

نوع من الأدب الجديد الصعب على المثقف العادي، الذي لم يجد بدا من أن يتبع أدباء الحداثة الذين يستخدمون الرمز العميق، فاشتكل عليهم معناه وغايته، وتقاطعت طرقهم، وتقطعت بهم السبل، ومع تزايدهم واتساعهم تزايدت الشكوى من عدم القدرة على الوصول للفائدة. فهل المشكلة أن الجمهور يدعي فهم العميق، أم أن الأدب ليس عميقا أصلا بقيمته وغايته ولكنه مشكل مربك بمعانيه وألفاظه، وصارت الاتهامات توجه تارة للأدباء وتارة للجمهور، وحتى متبادلة بين المثقفين المؤلفين والنقاد، فهل المثقفون الذين يتبعون الشعراء ومنهم الذين أرهقوا أنفسهم في فهم شعر كشعر أدونيس أو شعر محمود درويش الحديث ليحولوه من فرادته العصية الغامضة إلى سطحيتهم هم من الغاوين المسيئين للفكرة والشعر؟ أم أنهم صعدوا درجة وجلسوا مقعدا ليس لهم؟. وهل من المعقول أن يقال إن الساحة الثقافية العربية تخلو من القراء المثقفين والقراء المتابعين، الذين يستحقون المخاطبة بمستواهم، وأنا على قلة متابعتي يدهشني دائما أن أي عمل ثقافي سواء كان معرضا فنيا أو موسيقيا أو شعريا.. إضافة إلى المحاضرات العلمية، النادرة،.. يدهشني أنه يجمع الكثيرين، وأن المدرجات تكون ملآى، بل مكتظة بالمهتمين المتابعين، ويكون الدخول إلى القاعات متعذراً، وعند الخروج تجدهم يتناقشون بنشاط كخلية النحل، فهل هذا النحل ليس نحلا أو ليس مأمولا منه عسلا؟ ولا يستحق أن تقدم له الورود التي يستسيغها ويفضلها!.

يبدو أن الثقافة العربية بكل مكوناتها واختصاصاتها تعاني من أن الحاملين لمشاعلها يجدون صعوبة في توجيه مشاعلهم، أو أنهم ينفرون من المشهد الثقافي العام فيخطئون في توجيهها، فإذا كنا نريد ثقافة عربية حديثة نفخر بها فهذا لا يعني أن نهدم الأبنية الثقافية القديمة لنبني مكانها، ولكن يجب أن نرى مجمل الساحة الثقافية، وحتما سنجد أنها واسعة وأن فيها مساحات شاسعة لبناء كل جديد ولا حاجة لبذل الجهد في تهديم القديم بما يحويه من نفيس ومن رث.. لعل أساس المشكلة الثقافية هو ذاته أساس انتشار الثقافة إنها الحداثة والتكنولوجيا والورق والطباعة والإنترنت.. نعم لقد يسر التطور انتشار الأفكار الهدامة التي تسعى للكسب المادي وبناء الثروات

أكثر بكثير مما سمحت للأفكار التي تبني الإنسان المثقف.. وأضيف ترك المثقفين في موقع المسؤولية مسؤولياتهم في مراقبة الثقافة.. إن دعم الثقافة لايعني الاكتفاء بتشجيع ودعم التأليف والترجمة ومنع ما هو واضح الإساءة للثقافة بمعناها الواسع. لأن ذلك أدى إلى اتساع المساحة الثقافية الرثة المحتوى على حساب الثمين، وذلك ما نعانيه عند دخول أي مكتبة بقصد الحصول على موضوع معين، فنجد عشرات الكتب المطبوعة وعشرات الكتاب والعناوين لا نعرف أيها يستحق القراءة، فنترك كل جديد ونعود للكتب المتداولة المعروفة وفي كثير من الأحيان المتوارثة.. وهذا أحد أسباب جمود الثقافة العربية، أو ربما نختار أحد الأسماء المتداولة الحديثة التي سطع نجمها ربما لقيمة محتواها وعلى الأغلب لشهرة كاتبها لأسباب سياسية أو اجتماعية أو مالية. فأين دور المثقفين القياديين الذين يملكون القدرة على التمييز بين الرث والثمين؟ إن واجبهم أن يساعدوا القارئ في اختيار كتابه ليس في المكتبة ولكن قبل ذلك.. عند الموافقة على طباعة الكتاب، بتوضيح الهدف الذي تسعى إليه الثقافة في مرحلة معينة والمواضيع التي يراد رفع أعمدتها، وتوجيه المثقفين للإبداع فيها، وبالمحافظة على قيمة تراثنا الثقافي وعدم السماح بتشويهه، وأن يصار إلى التأكيد على مستوى المنشور لا القول بزيادة عدد المطبوعات لتتسع أجنحة الكتاب العربي في المعارض الدولية بغض النظر عن مستواها، وبالتحفيز على تبسيط أسلوب تقديم المعلومة مهما كان نوعها لأن الإغراق في البساطة والوضوح خير من الإغراق في الرمز وأقرب للوصول للمعلومة المقصودة وأعم فائدة.

العراك الثقافي القائم، بل الصراع الثقافي القائم، ليس صراعا ثقافيا بمعنى النقاشات والنقد والانتقاد، وليس تفوقا لرأي على آخر، ونحن لسنا في سوق عكاظ.. نحن نتحدث عن ثقافة كاملة، نتحدث عن ثقافة تعني حكومة، نتحدث عن سيادة وتطور للدولة في كل مجال، في الطب والهندسة والأدب والصناعة، وعن نهوض وقوة، فالصراع الثقافي تتدخل فيه مصالح دولية، والشق الأدبي من الثقافة من أهم مكوناتها فهو المكون الذي يحتضن القيم الإنسانية والاجتماعية والفلسفية للمجتمع أي إنه هو الرابط بين أفراد المجتمع والذي يرسم

هويته، أود أن أذكركم كم كلف ويكلف العالم معنى كلمة الإرهاب، وكم يكلفنا تفريقنا بين الإرهاب والمقاومة كمعنى لفظي وكقيمة سيادية، وكيف يستخدم الأعداء الاختلافات الدينية والعرقية، هل أذكركم أيضا بمشكلة البطالة العالمية وحركة انتقال اليد العاملة، هل أذكركم بالضغوط التي تمارس لكي تدرس لغة أجنبية في هذا البلد أو ذاك.. وغيرها وغيرها، عندما تكون الصراعات دولية تكون دراسة إدارة الصراع على مستوى الدولة أي الحكومة، ونجد، نحن العرب، بعد أن تأخرنا عهودا أنفسنا أمام واقع مشكل: هل نحن دول منتجة أم مستهلكة؟ هل نجهد لنسلك طريقا سبقنا فيه غيرنا عهودا أم نكتفي بما نصل إليه منهم؟ هل نستطيع اللحاق بهم إن أردنا؟ أم سنبقى نتقدم ويتقدمون أمامنا؟ هل نغير هويتنا لنندمج بشكل أو بآخر مع من سبقنا فلا نبقى متخلفين؟ أم نتمسك بهويتنا ونصارع للتقدم؟ أسئلة ليست مطروحة للمثقفين في المقاعد الخلفية بل للقادة.. لذلك إذا لم يجد المثقف، أديبا كان أو طبيبا، مكانا في بلده فالمشكلة أكبر بكثير من أنه يريد أن يكون في مكتب أنيق وراتب يؤمن رفاهيته، فلا نلوم المثقف المبتعد، ولا نقلل من قيمة الضغوط التي يواجهها، بل يجب أن نقول بقوة المثقف المعرفية والنفسية والشخصية والأخلاقية لكل شخص يحمل مسؤولية ثقافية.. كلّ حسب موقعه، إن أقصى درجات الإبداع هي اكتشاف المبدعين.. وأترك لكم تقدير قوة شخصية وثقافة وبعد النظر اللازمة لمن هم في موقع المسؤولية في المقاعد الأمامية عن الثقافة.

فإذا كنا ننتظر ولادة الثقافة الحديثة، حسب قول الكثيرين، لابد أننا أخطأنا التقدير، فالثقافة العربية ليست في مرحلة المخاض بل قبل ذلك، وماذا قبل ذلك.. المثقفون المختلفون من أي باب يأتونها.. وإن تجرأ أحدهم «يدري ويدري أنه يدري».. تتراكم أمامه العقبات..؟.. فالعرب ينتظرون الاتفاق على وضع القوانين والمعايير المثالية المطلقة..ثم الاتفاق على شكل الالتزام المطلق بتطبيقها.. والشكر كل الشكر للمسؤول العربي الذي يبعد مبدعيه الذين لا يلتزمون الانتظار.. ويصر على أن الولادة في المشافي الأوروبية أسلم.. أليس كذلك؟؟؟.

آفاق المعرفة



مسار التعليم بين الحاضر والمستقبل

ياسر الفهد*

لسنا هنا بصدد تبيان أهمية التعليم في حياة الشعوب، فدوره أكبر من أن يحتاج إلى توضيح. وما نود طرحه في هذا المقال، عرض بعض المشكلات التي تعترضه في الحاضر والمستقبل، وهي كثيرة ولا تقع تحت حصر:

هناك، مثلاً، مشكلة عدم قدرة المتعلم على اللحاق بقطار المعرفة المتحرك ومجاراة العلوم الجديدة التي تعتق وتبلى مع مرور الزمن، وتقادم الأيام، مما يوجب على المدرسة تزويد الطالب بمعلومات صالحة مدى الحياة. ولما

* كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

كان هـــذا غير ممكن دائماً، فإن المتعلم يظل بحاجــة إلى تجديد تعليمه، حتى يتمكن من مواكبة التقدم المعرفي. والإشكالية هنا، أنه ليس مــن السهل على المعلم أن يمد الطالب بالمعلومات الحديثة التي تساعده على

التكيف مــع الظروف الراهنة، والتناغم مــع مستلزماتها، لأنه هــو نفسه يعاني من المشكلة ذاتها!

وهنـــاك أيضـــاً، مشكلة الطلـــب الهائل على التعليم الرسمـــي المجاني، مما يضطر آلاف الطلاب إلى البقـــاء خارج نطاق هذا التعليـــم، وصـــرف أمـــوال طائلة مـــن أجل الالتحـــاق بالمؤسسات التعليميـــة الخاصة، ولا سيما الجامعات. ونذكر كذلك، مشكلة تراجع دور الأســـرة وتقصيرها في واجباتها التعليميـــة، وما يترتب علـــى ذلك من زيادة الأعبـــاء الملقاة علـــى عاتـــق المدرسة، مما يجعـــل التقسيم المناسب للمهام بين المدرسة والأسرة، مـــن التحديات التربويـــة البارزة. ومن المشكلات الأخـــرى، تلك الناجمة عن استعمـــال التكنولوجيـــا في التعليـــم، ففي حين نجد معظم الأدبيـــات التربوية تصفق وتهلـــل لهذا الاستعمال، وتدعو إلى تشجيعه والتوسع فيـــه، يرى آخـــرون أن المبالغة في استخـــدام التكنولوجيا التربويـــة تؤدي إلى انعدام التفاعل بـــين الأستاذ والتلميذ، وإلى غياب الفرص لبناء جسور الثقة بينهما.

ولا ننســـى، أيضـــاً، مشكلـــة ضعـــف الاتصالات الشخصية بـــين صانعي القرار التربوي وبين المنفذيـــن، وذلك بسبب توسع النظام التعليمي وازدياد الوحدات الإدارية. وهنـــاك إشكالية انعـــدام التوافق بين الكم والكيف التربويـــين في البلدان النامية، فقد أدى الضغط، من أجـــل الالتحاق بالمدرسة، إلى التضحيـــة بالكيف لحساب الكم، مع كل ما يعنيه ذلك من إضرار بمستوى التعليم.

هـــذه بعض المشـــكلات التربويـــة التي نواجههـــا في عصرنـــا الحديـــث، وهنـــاك غيرها الكثير. ولا نريـــد أن نتوسع كثيراً في هذا المجـــال، لأن اهتمامنـــا الأساسي هنا منصب على المستقبل. وعندما يتعلق الأمر بمستقبل تطور التربية، فإن علينا أن نتوقع مواجهـــة صعوبـــات، لأن هـــذا التطور يتم بعملية معقدة للغاية، فالتربية ليست قطاعاً مستقـــلاً بذاته، بـــل إنها تتفاعـــل، بصورة مستمـــرة، مع قطاعات أخـــرى في المجتمع، كالاقتصـــاد والسياسة والثقافـــة وغيرها. ومـــن المتوقع أن يـــزداد دور التربية تعقيداً،

في المستقبل، لأنــه سيتعين عليها أن تتعامل مع موضوعات جديــدة نابعة من مشكلات المجتمــع المعاصر، ولم تكــن تتعامل معها في الماضــي... ومنها موضوعــات نزع السلاح وحفظ السلام والقضاء على العنف والفقر والبطالة وحماية البيئة، وإلغاء الفوارق بين الدول الغنية والدول الفقيرة، والسيطرة على التقدم العلمي والتقاني، ومواجهة مشكلات الطاقة. وهنــاك عدة عوامل يمكن أن تؤثر في تطور التربيــة حتى نهاية القرن الحالي. وتأتي علــى رأسها التغيرات الديموغرافية، فإحصاءات الأمم المتحدة الموثوقة، تشير إلى أن ســكان العالم سيــزدادون في بداية العقد الثاني من القرن الحــادي والعشرين بنسبة ٤٠٪ عن عددهم في عام ١٩٨٠. وهذا يعني ارتفاع أعداد من هم في سن التعليم، وبالتالي ازدياد أعــداد المسجلين في المدارس، مع ما يستلزمه ذلك من نفقــات وأمكنة ومعلمين جــدد. وتــؤدي العوامل الاقتصاديــة دوراً هاماً، فقــد أدى الكساد الاقتصادي العالمي في الماضــي إلى البطالة والتضخم وانتعاش الطلب على الوظائف، وكذلك إلى وضع قيود على الإنفاق على التعليم. وهذا كله يقتضي تخطيطــاً تربوياً جديــداً لمواجهة الأوضاع المذكورة، ولاسيما في الدول النامية.

ولا ننسى عامــل العلــم والتكنولوجيا، فازدياد دور هذا العامل في حياتنا اليومية، يجعل الإنسان بحاجــة إلى تعرف التقانات العلميــة المتحسنة باستمــرار. ولا شك أن السنوات القادمــة سوف تشهد تقدماً كبيراً في علــوم الطاقــة النوويــة والإلكترونيات والسيبرنيتيــة (cybernetics) والأتمتــة (automation) وغيرهــا. وهــذا يعنــي ضــرورة إدخال تغيــيرات في مناهج العلوم، كما يستلزم إعداد المتعلمين، لمواجهة التغير الحاصــل، ومواكبــة التطــورات الجديدة، والتكيف بفعالية مــع البيئة. ونذكر، أيضاً، العوامــل الأيكولوغيــة، فالاستثمــار غــير المعقول للمصــادر الطبيعيــة، والاستعمال غــير المنظــم للتكنولوجيا الملوثــة، أديا إلى الإخلال بتوازن البيئــة، وإلى إثارة التساؤل حــول علاقة الإنســان بها. وهــذا الوضع يضع علــى عاتق التربية، مهمة إدخال مواد خاصة بحماية البيئــة ومحاربة التلوث، إلى المناهج. وتوجد إلى جانب ما سبق، العوامل الاجتماعية، كنظم القيم والمعتقدات الدينية ونماذج السلوك والفقر والفوارق الاجتماعية وعدم تكافؤ الفرص، وكذلك الفراغ الناجم



عن زيادة الإنتاجية التي يحققها التقدم التقاني، وما يرافق هذا الفراغ من الإكثار من العطل والنشاطات الترفيهية، ولا سيما في الدول المتقدمة.

فكل هذه العوامل، يتوقع، أن يكون لها تأثير في مسار تطور التربية. وعلينا أن نستدرك، فلا نغفل دور العامل السياسي، وخاصة في دول العالم الثالث، فالتربية في هذه الدول تعتمد على المؤسسات المستقرة، وعلى التزام قوي من جانب الدولة. لذلك، فإن تزعزع الاستقرار، والناجم عن استمرار التمزقات الداخلية في الدول الصغيرة، يمكن، إذا استمر، أن يؤثر سلبياً في أوضاع التربية. ومن جهة ثانية، فإن العامل السياسي، كثيراً ما يكون حصيلة قوى اقتصادية واجتماعية، لها هي نفسها تأثير في التطور التربوي.

وأخيراً، لا يسعنا أن نقلل من دور العامل الدولي، فإذا تحقق نزع السلاح، وساد السلام النسبي في العالم، فإن كثيراً من الأموال المخصصة للإنفاق الحربي، سوف تُكرّس، للإنفاق على المشروعات التربوية.

وننتقل الآن إلى الجانب المتعلق بتحسين أوضاع التربية، في السنوات القادمة. ويمكن للمختص أن يتصور كثيراً من المقترحات والحلول لدفع عجلة التربية إلى الأمام، ومن ذلك مثلاً، اتخاذ خطوات عملية واسعة لتشديد ربط التربية بالتطوير العام

والتنمية، وتكييف نظام التعليم ومحتواه مع التقدم العلمي والتقاني، ومع حاجات السوق والعمالة. ومن الخطــوات الأخرى، تحقيق توزيــع أكثر عــدلاً وإنصافــاً في الخدمات التعليميــة، وكذلك تحقيق تــوازن أكبر بين التعليــم الابتدائــي والمتوسط، مــن جهة، والتعليم الثانوي والعالي، من جهة ثانية.

ومن الضروري أيضاً، توجيه التعليم نحو أهداف جديدة، مثل محاربة العنف والجنوح وتدهــور البيئــة، وكالاهتمــام بالاستثمار الزراعي وتطويــر موارد المياه، ولا سيما في الأقطار التي يهددها القحط والمجاعة. وفي مجــال الدوام، يجب أن تكــون هناك مرونة أكبر في الدوام المدرسي، سواء بالنسبة لسن الالتحــاق بالمدرســة، أو عدد أيــام الدوام الفعلي للطالب، في أثنــاء السنة الدراسية. ومــن الأفضل أن نعوض عن الدوام الطويل الذي يستنزف وقت الطالب، بتحسين نوعية التعليم ورفع مستواه. ولا بد أيضاً من إعادة تقييــم دور المعلم، فهنــاك ازدياد هائل في تكاليــف الموظفين، يقابلــه نقص في أعداد المعلمــين المؤهلين تأهيلاً جيــداً. وهذا ما يجعل من الضروري إيجاد الوسائل الكفيلة بالإفادة من وقت المعلم، بطريقة اقتصادية.

ومن بــين هذه الوسائل التوسع في استخدام وسائل وتقانات جديــدة في التعليم. وعلينا أن نضــع في أذهاننــا دائمــاً، أن مستقبل التنمية برمتــه، سوف يعتمد، إلى حد كبير، على النواحي المالية والاقتصادية، وقد بيّن أحــد الإحصاءات الموثوقــة، أن متوسط ما تنفقه الدول النامية على التعليم يبلغ ٤،١٪ مــن ناتجهــا القومــي GNP، يقابل ذلك ٥،٩٪ في الــدول المتطــورة. وإذا كان تكاثر السكان يوجب توسيــع التعليم، فإن الكساد الاقتصــادي، إذا حصل، لــن يسمح بزيادة الإنفاق علــى التعليم، بدرجة تكفي لمواجهة التوســع المرتقــب. ويقترح بعضــ الخبراء ترشيد الإنفاق، بدلاً من زيادته، على قطاع التربية. وهناك عدة طرق لتحقيق الترشيد، منهــا، تحسين الكم التربــوي، على حساب الكيــف، مع الحفاظ علــى معدل النفقات. وهــذا يعني زيادة أعــداد التلاميذ بالنسبة لكل معلــم، ورفع قــدرة استيعــاب الأبنية المدرسية للتلاميذ، وخفض أعداد الموظفين الإداريــين، وتقليصــ استخــدام الوسائل التعليمية.

أمــا خيار تحسين الكيــف على حساب

الكم، فيعني العكس، أي تخفيض نسب التلاميذ إلى المعلمين، وتحسين نظم الإدارة والتفتيش، والتوسع في استخدام الوسائل التعليمية... إلخ. ولا شك أن السياسة التربوية المتبعة في كل قطر، هي التي تحدد اختيار الاتجاه الكمي أو الاتجاه الكمي. ومن الحلول الأخرى التي يمكن اقتراحها، تعديل الهرم التعليمي. فنحن اليوم، نجد في كثير من الدول النامية، مثلاً، أن التعليم الثانوي والعالي أكثر توسعاً من التعليم الابتدائي والإعدادي.

ومن الطرق الأخرى، التوسع في التدريب المهني، نظراً لأن لهذا التدريب مردوداً مالياً بعيد المدى، لصالح الاقتصاد القومي. ويدعو بعض المخططين إلى السعي لرفع كفاية النظم التربوية، والعمل على إنقاص أعداد المتسربين والراسبين. وعلى الرغم من أن هذا ينطوي على زيادة في النفقات، على المدى القصير، فإنه يؤدي إلى تقليصها، على المدى البعيد.

وثمة حل تلجأ إليه بعض الدول الفقيرة، ويتمثل بالاستفادة من المتطوعين غير المأجورين، أو الذين يتقاضون أجوراً ضئيلة. ومعظم هؤلاء لا يحملون شهادات، ولكنهم قادرون على التعليم، ولا سيما في مجالات محو الأمية وتعليم الكبار. ويقترح بعضهم زيادة الضرائب على السلع الاستهلاكية لإنفاقها على برامج التعليم.

و بالنسبة للعلاقة بين التربية والإعلام، يدعو كثير من المختصين التربويين إلى إعادة النظر في هذه العلاقة. ويتهم المربون مؤسسة الإعلام، عادة بالتأكيد على التسلية والإمتاع على حساب الحقائق العلمية. وعلى كل حال، فإن وسائل الإعلام تستطيع أن تساعد التربية وتخفف عنها الأعباء، لأن بإمكانها أن تنقل الرسالة التعليمية نفسها، بملايين النسخ.

إن هناك، اليوم، حاجة لتعليم المزيد من الناس، وكذلك لتعليم المزيد من المواد والموضوعات الجديدة، مما يزيد الأوزار الملقاة على عاتق التربية. وهذا ما يوجب ضرورة تعميق التعاون بين التربية والإعلام، في المستقبل. ومثل هذا التعامل، محكوم، إلى حد بعيد، بتقدم التكنولوجيا، ولاسيما تكنولوجيا الكمبيوتر، لأن هذا من شأنه، أن يسمح، مستقبلاً بتوفير فرص جديدة لاستخدام وسائل الإعلام في المهام التعليمية.

ونعـود الآن إلى موضوع التدريب المهني وضـرورة وجـود ترابـط وثيق بينـه وبين التربية. ويوجد، في هـذا المجال، منحيان، منحى قديم يفصـل بينهما، ومنحى جديد يدمجهما معاً، ويؤكد تكاملهما، على أساس الجمع بين الدراسة والعمل، وربط التدريب بالإنتاج، بحيث تكون هناك فترات متعاقبة من التعليم والتدريب والعمل. وهذا المنحى الجديد ينطلـق من الوعي بخطورة الفصل بين التربية والعمل، والذي من شأنه أن يقود إلى نظام تربوي غير عقـلاني وإلى خسائر اقتصاديـة، ناهيـك عن توسيـع الهوة بين العمل الذهني والعمل الجسدي، وعن تزايد الوظائـف التي تعتمد على الشهادات، وعن إضفـاء الطابع البيروقراطـي على النظام التربوي.

وعلينـا أن نلاحـظ أن تحقيق التناوب بين الدراسـة والتدريب والعمل، إضافة إلى تحويـل التدريـب المهني والعمـل إلى إنتاج فعلـي، يثير العديـد من المشـكلات، كتلك التي تتعلـق بتحديد السن الـذي يجب أن يبـدأ فيه التدريب ثم الإنتاج، وكذلك تقرير نوع العمـل الذي يجـب ممارسته. ويقترح بعض المختصين، على الـدول النامية، من أجل تطوير تربيتها المستقبلية، أن تتبنى بعض العناصر المشتركة في استراتيجياتها التربوية. ومن بين هذه العناصر:

– ربـط التعليـم، ليس بالعمـل وحده، وإنمـا، أيضـاً، بالنشاطـات الاجتماعيـة والثقافية والعلمية وغيرها.

– جعـل التربية المستمرة، أساساً للنظام التربوي التعليمي.

– اتباع مبدأ المساواة والديمقراطية، في نظام تعليم الشبان والكبار.

– تصميـم أساليب تعليميـة تؤدي إلى تنمية روح النقـد والاستقلال والإبداع لدى المتعلمين.

– العمـل على تطوير نظـم التعليم غير النظامـي، وتحقيق أكبر قدر مـن التكامل بينها وبين نظم التعليم النظامي.

وننتقل الآن إلى جانب آخر، من جوانب التربيـة المستقبليـة يختلف عـن الجانب الذي عالجناه، فقد ألقينـا بعض الأضواء على الاحتمـالات المستقبلية لتطور التربية. ونريد، هنا، أن نتعرض للطرق التي يجب أن نعلـم بها طلابنا منذ الآن، وخلال السنوات المتبقيـة من القرن الحـالي، حتى يصبحوا مهيئـين للتكيـف مـع الأوضـاع التربوية

والحياتيــة التي يتوقع أن تســود في القرن الحادي والعشرين.

وحول ذلك، يبين مارك مولين، في كتابه (Educating for the 21 st century) أن هــذه المهمة تنطــوي على مشكلات عديدة، إضافــة إلى قضايا المــوارد المالية والإعــداد المهني وتســاوي الفرص، فهناك مشكلــة التوسع الهائل في المعرفة، ولا سيما المعرفة العلمية التــي تتضاعف مرة واحدة في أقل من سنتــين. وتكمن الصعوبة في أن التعليم، ليســ مطالباً بمواجهــة الانفجار المعــرفي، والــذي يأتي في الدرجــة الثانية مــن الأهميــة، بعــد الانفجــار السكاني، فحسب، وإنما، أيضــاً بالتصدي للتغييرات الاجتماعية والثقافية الناجمة عنه. وهناك، كذلك مشكلة تداخل العلاقات وتشعبها بين مختلف أمم الأرض، ممــا يجعل من واجب التعليــم، أن يقرر، كم مــن الوقت، وكم من المقررات الدراسية، يجب أن يكرس الطالب، لفهــم ثقافته الخاصة، المحليــة، وكم منها، لدراسة ثقافات الشعوب الأخرى. ولا ننسى مشكلــة هشاشــة البيئة الأرضيــة ومشكلة خطــر التدمير النــووي. وعلــى التعليم أن يواجــه المشكلتــين، معاً، عــن طريق حفظ الموارد وترشيد استخدامها.

ونذكــر مشكلة توسع الخيــارات، سواء في اختيــار المهنــة، أو في اختيــار مجالات إكمال الدراسة وفروع التخصص والدورات الدراسيــة والقضايا الأكاديمية المختلفة، أو حتى في اختيار طرق العمل.

ويقــترح مــارك مولــين، في كتابه الذي سبــق أن أشرنا إليه، ثمانيــة عناصر لمنهاج محتمل يعده ضرورياً لطلاب القرن الحادي والعشرين.

وهذه العناصر هي:

أولاً- الاتصــال الشفهــي: فمــن دون إحراز مهــارة في الاتصال، سيكون من غير الممكن، اكتساب المعرفة واستعمالها بفعالية. ومن بــين ما يتضمنه الاتصال، القدرة على القــراءة بفهــم، وعلــى الإدراك والتمييــز والملاحظة. فالطالب ينبغي أن يتعلم مهارة التعامــل مــع المناهــج الدراسيــة، وتقرير ما هو الأهــم، بالنسبة لأهدافــه الحالية. فمثلاً، عندما يقــدم معلم التاريخ لتلاميذه قائمة بالأسماء التــي عليهم أن يحفظوها، فإن ذلك لــن يساعدهم بقدر ما يساعدهم الطلب منهم أن يطوروا مقدراتهم بأنفسهم، وبالتــالي أن يقرروا أية أسمــاء تستحق أن يذكروها، وأيها يمكــن نسيانها. إن الطالب

في عصر المعلومات يتعامـل مع كمية كبيرة جداً من المعلومـات، وعليه أن يطور المهارة الخاصة التي تمكنه مـن معرفة المعلومات الأكـثر ضرورة من غيرهـا، وتتضمن مهارة الاتصـال، أيضـاً، القـدرة علـى الانتباه والمشاركة والكتابة بفعالية.

ثانياً- التركيز على الرياضيات والإحصاء والحساب: وهذا ضروري في عالمنا الثقافي المعاصر، فالرياضيات تعد لغة العلوم الطبيعية والاجتماعية، وهي تساعد علـى التفكـير العقـلاني والدقـة العلمية والمنطق التحليلي.

ثالثاً- وضع مقررات درسية في الثقافة القومية: وهذه يجب أن تبين من هم أفراد أمة ما، ومن هي هذه الأمة، وكيف نشأت وتطورت، وما الفئـات العرقية التي تتشكل منها..إلخ.

رابعاً- تعليم مبادئ الكمبيوتر: وهذا مهم بالنسبة للذين يعتزمون دخول الجامعة، ومن يودون الالتحـاق بموكب العمل، بشتى أشكاله.

خامساً- التوسع في العلوم الحديثة: وهذا يشمل التعريـف بمبادئها وتطبيقاتها وكذلـك تشجيع العقلانيـة، والحض على تجنـب العاطفيـة والمزاجيـة، إضافة إلى مساعدة التلاميذ على اختيار مهنة معينة.

سادساً- تخصيص مقررات في المعرفة العالمية، للتعريف بتاريخ العالم وثقافاته: وهـذا يستدعي، أيضاً، تدعيم اللغـات الأجنبية التي تساعد على الاتصال والتواصل بين مختلف الأمم.

سابعاً- وضع مناهج متقدمة للفنـون، كالموسيقى والدراما والحرف، وغيرها: وذلـك بهـدف تطويـر المهارات التقويمية والنقديـة والحس الجمالي عند الطـلاب، حتى يصبحوا أكـثر تقبلاً للفن. وهذه المهارات يمكن أن يتم تعلمها بوساطة التحاق التلاميذ بـدورات تركز على تاريخ الفنون وطرق تقويمها، كما يمكن تطويرها بالخبرة المباشرة والمشاركة العملية.

ثامنـاً - تعليـم التلاميـذ كيفيـة اتخـاذ القرارات: فنظـراً لكثرة الخيارات في مجالات المناهـج الدراسية والمهن وطرز الحيـاة، وغير ذلك، فقد بات من الضروري تدريب التلاميذ على تقرير ما هو الأفضل، بالنسبة لهم، في كل حقل من الحقول.

المراجع:

1- (for the 21 st century Educating)

تأليف مارك مولن.

٢- (مستقبل التربية وتربية المستقبل) تأليف مجموعة خبراء تربويين.

3- (Reflection on the future Development of education).

تأليف مجموعة من المختصين التربويين العالميين.

4- (Cost – analysis in education).

تأليف فيليب كومبس وجاك هلاك.

آفاق المعرفة



المعنى الفلسفي للاستنتاج والاستقراء في العلوم الطبيعية

معاذ قنبر ❀

إذا مــا حللنا مشكلة المعرفة نرى أن هنــاك مأثورين خصمين متجابهين في نظريــة المعرفة وهما التصور العقلاني مــن جهة والتصور التجريبي من جهة أخرى، ولكي نلخص توضيح تلــك المجابهة يمكننا القول بأن الكائنات الحيــة باعتبارها أفــراداً تكتسب معرفة حول العــالم بأسلوبين هما الفكر والمشاهدة، فإذا منحنا الأسلوب الأول امتيازاً عن الثاني نحصل على منهجية عقلانية كلاسيكية للمعرفة، وفي حال قدمنا الثانية على الأولى نحصل على منهجيــة التفسير التجريبي لفهم الواقع[1]، ويعبر دولوز عن المنهج التجريبي

❀ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

في العلـم والفارق بينه وبين المنهج العقلاني بقوله إن أكثر الجمل الخبرية دقة عن المنهج التجريبـي لا تتعلق في كيـف نحصل على معرفة من التجربة، ولكن كيف

يمكن اكتساب المعرفة عن طريق التجربة إن كنا نتحدث عن المعرفة كونها معرفة، لذا فـإن التجريبية هي نقد للفطرية بمفهومها القبلي للمعارف، ويمكن صياغتها في سؤال عمـا إذا كان يوجد من الأفكار شيء ما غير موجود في الحواس، أو فيما هو قابل للحس أولاً، وهذا المذهب التجريبي غالباً ما يوضع مقابل المذهـب العقلي، أو نقـول بأن هذه الصورة من مسألـة المنهج التجريبي توضع في تضاد مـع رأي سائـد للمذهب العقلي مفـاده أن بعض الأشياء تعـرف بالحدس، أو بوساطـة استنباطات من قضايا منطقية قائمة علـى الحدس(٢). ومـن هذا المنطلق يمكن التكلم عن استنتاج واستقراء.

والاستقراء هو مصطلـح فلسفي قديم قـدم الـتراث اليونـاني، حيـث استخـدم اليونانيون هذا المصطلح ليدل على القضية الكليـة التي تندرج تحتها الجزئيات المدركة إدراكاً حسياً، وقد تناول أرسطو الاستقراء في أكثر من موضوع في كتبه (التحليلات الأولى والثانيـة)، ونفهم من تناوله له أن الملاحظة والتجربـة تشكل الأساس المادي للاستقراء، وتعتـبر التجربـة بمثابـة الجانـب الفعّال للملاحظة، ويعرفها وارتوفسكي قائلاً بأنها «تجريد لمعالم معينه في مجـال شيء خاضع للملاحظـة والقياس» ويعرفها ريـد بأنها «ملاحظة نقوم بها تحـت شروط معلومة». وقد حـدد الفيلسوف جـون ستيورات ميل الاستقراء بعدة طرق هي:

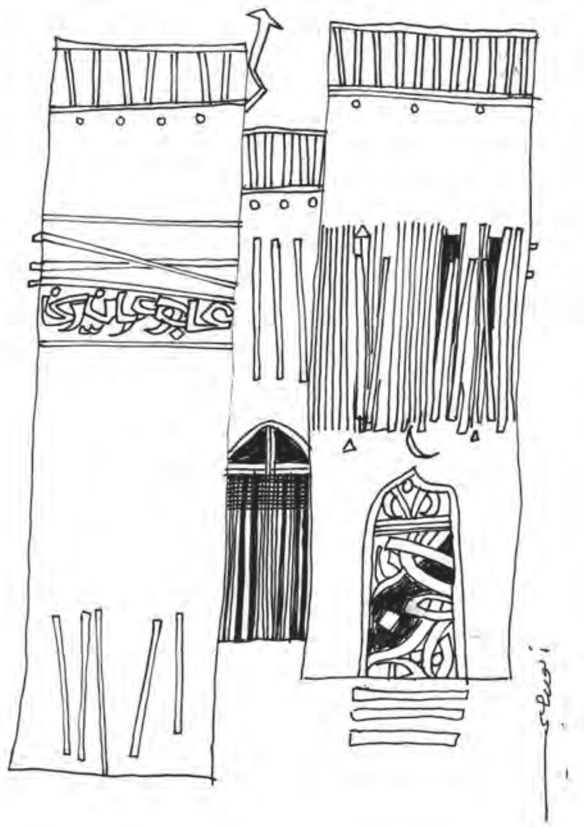
– طريقة الاتفـاق أو التلازم في الوقوع التـي تنص على أن العلة والمعلول متلازمان في الوقوع، فـإذا وجدت العلة وجد المعلول، أي إذا كان هنـاك ظاهرة تتفـق حالتان أو أكثر من حالتها في أمر واحد، كان هذا الأمر المشترك بينهما هو علة حدوث تلك الظاهرة، فإذا كان ب مسبوقاً تارة بالشروط (أ ب ج) وتارة أخرى بالشروط (أ د ه) لاستنتجنا بأن أ علّة ب لأنه اشترك في الحالتين المتقدمتين فمثلاً حرارة مع حديد يؤدي لتمدد الحديد، وحرارة مع نحاس تؤدي لتمدد النحاس، مما يـؤدي للاستنتاج بأن الحرارة تمدد المعادن، وقد أخذ على هذه الطريقة بأنها لا تختلف عن الاستقـراء العامي العفوي الذي يوقعنا بأخطاء تسمى بسفسطة التتابع كالحكم بأن أحد الأمرين علة للآخر لحدوثهما معاً، فإن أصيبت سيارة أحـد الناس بالحادث نفسه عـدة مرات وكان في كل مـرة بصحبة أحد أصدقائـه استنتج العامي من ذلك أن وجود هذا الصديق هو علة لذلك الحادث.

- والطريقة الثانية هي طريقة الاختلاف أو التلازم في التخلف وهي طريقة تقوم على عكس الطريقة السابقة حيث أن غياب العلة يوجب غياب المعلول معها، أي إننا لكي نبحث عن العلة بطريقة الاختلاف ندرس حالتين تقع الظاهرة في أحدهما ولا تقع في الأخرى ثم نحلل جميع ظروفها، فإذا رأينا أنهما متفقتان في كل شيء ومختلفتان بشيء واحد وكان هذا الشيء موجودا في الحالة التي وقعت فيها الظاهرة وغير موجود في الأخرى استنتجنا بأن هذا الأمر علة الظاهرة المذكورة أي إننا في الحالة الأولى نجد أن أ +ب +ج = د وفي الحالة الثانية نجد أن ب+ج=٠نستنتج بأن أ هي علة د.

- والطريقة الثالثة هي طريقة البواقي وتنص على أن علة الشيء لا تكون في الوقت نفسه علة لشيء آخر مختلف عنه، فإن كان لعلتين معلولان مختلفان وكنا نعرف أن إحدى العلتين علة أحد المعلولين، لاستنتجنا بذلك أنه من المرجح أن تكون العلة الثالثة علة المعلول الثالث، فإذا كانت الحادثة (أ ب ج) ناتجة عن الحادثة (د هـ و) وكنا نعرف بأن أ علة د و ب علة هـ فإن الشرط الباقي يكون بأن نستنتج بأن علة ج هو و، وكمثال لذلك يمكننا التحدث عن اكتشاف كوكب نبتون، حيث وجد الفلكيون من خلال ملاحظاتهم أن هناك انحرافاً في مدار كوكب أورانوس فاستنتجوا أن تطبيق القوانين الفلكية لا تنسحب على هذا الكوكب وهذا ما يميزه عن بقية الكواكب، ولكن لو فرييه حاول تفسير هذا الانحراف بوجود كوكب سير مجهول لم يلاحظ بعد هو سبب لذلك الانحراف، وهو ما اكتشف فيما بعد حيث تم تأكيد أن كوكب نبتون المكتشف هو علة وجود انحراف حركة كوكب أورانوس.

- والطريقة الرابعة هي طريقة التلازم في التغيير التي تقول إنه إذا وجد بين ظاهرتين أو حادثتين تلازم ما، فإنه يجب أن يكون كل تغير في أحدهما يقابله تغير مواز له في الثانية عندها نستنتج بأن الأولى علة للثانية، أي إذا ترافق ازدياد في أ ازدياد في ب، ونقص في أ نقص في ب يكون أ علة ب.

وينظر المناطقة وفلاسفة العلم إلى هذه الطريقة على أنها أهم طرق ميل لأنها تعبر عن الاقتران بين الظواهر بطريقة كمية، وهذا هو أساس العلوم الطبيعية التجريبية، وكمثال لذلك يمكن أن نذكر قانون بويل في الغازات الذي يحدد العلاقة الاقترانية الكمية بين ضغط الغاز وحجمه في صيغة دقيقة تقرر بأن الضغط والحجم يتناسبان تناسباً عكسياً في درجة حرارة ثابتة.



- أما الاستنتـــاج فهو مفهوم عقلي ينتقل مـــن المفاهيم الكلية إلى الحـــالات الجزئية ليشرحها، وأساسه المنهجي هـــي الفرضية التـــي تنتج عـــن تأمـــل وحدس وخيال نظـــري محض في صياغة النظريات، وقد تحدث تندال عن أهميـــة الفرضيـــة بالنسبة للعالم مكتشفـــاً مستويـــين يتحرك من خلالهما هذا العامل، الأول يكمن في الوظيفة الديناميكية للخيال، فالعالم فراداي تمتع مثلاً بموهبة الخيال التـــي كانت وثيقة الصلة بمرحلـــة التجريـــب ذاتها فضلاً عن كونها سابقـــة على التجريب ذاته، أمـــا المستوى الثاني فيتمثل في الوظيفة التركيبية التي جعلت دالتون يشيد البنـــاء الكامل للنظرية الذرية وأفضت بنيوتن إلى فرضـــ الجاذبية الذي ربط بقانون واحد حركة الأجسام الساقطة علـــى الأرض وحركة الكواكـــب في السماء، ذلـــك أن أصالة الكشف العلمـــي ترتد إلى الخيال الذي يتحلى بـــه العالم ويجعله يقوم بأشيـــاء جديدة ويتجرأ علـــى الخوض فيها وهي ليست ظاهـــرة في الواقع أصلاً، وهذا الأمر هو الذي يجعلنا نقول عن العالم المبدع والمكتشف بأنه موهوب[٣]. وهذا الأمر نفسه دفع العالم التجريبـــي الشهير كلود برنار إلى القول «على العالم أن يتخلى عن خياله عندما يدخل معمله تماماً كما يخلع معطفه، وعليه أن يستعيده ثانية عندما يغادر معمله تماماً كمـــا يرتدي معطفه، وأحياناً فإن على العالم أن يجعل خباله يعمل قبل التجربة وبعدها» وتقسم الفرضية إلى عدة أنواع:

١- الفرضـــ العلـــي: وهو النـــوع الذي يرجـــع إلى الفيلســـوف جـــون ستيـــوارت

ميــل الذي عرفــه بأنه افتراضــ نتقدم به لاستنباط نتائــج مطابقة للوقائع التي نعلم أنهــا حقيقيــة، وبالتالي فــإن النتائج التي تستنبــط من الفروض هي التي تحدد مدى صدق أو كذب تلــك الفروض عن طريق ما نكتشفه من تطابق بين النتائج التي نحصل عليها والوقائع الخارجيــة، حيث يرى ميل أن الفرضــ يرتبط بالبحث عن علة ظاهرة والتفسير العلّي هو الهدف الأسمى للكثير من الفروض، لذلك نجده يربط بشكل وثيق بين الفرض والتعليل أو العلية، وقد نظر للقانون العلمي على أنه تفسير علّي للظواهر، وبناء عليه فإنه يشترط علــى الفرض أن يكشف عن نتائج يمكن أن نختبرها بالخبرة الحسية، وألا يتعارضــ هــذا الفرضــ مــع قوانين الطبيعة التــي سلمنا بصدقها كما يجب أن تتفق نتائجه مــع الواقع. وبذلك يجعل ميل من الفرضية مجرد محاولة تفسيرية وليست إبداعيــة في العلــم، فهي عمليــاً هنا تتبع للاستقراء التجريبي الذي له القول الفصل في الحقائق العلمية.

٢- الفرض الوصفــي: ونجد أمثلته في علم الفلــك الذي هو علــم المشاهدة الذي لا يقوم على الاختبــار التجريبي للفروض، فالفلكــي يجمــع ملاحظاتــه وأرصاده، ثم يعتمــد على خيالــه في صياغــة مجموعة مــن الفروض، ويقــوم باستنباطها رياضياً، ثم يعــود بنظره إلى السماء لــيرى إن كانت استنتاجاتــه تتفق مع مشاهداته أم لا تتفق، هذا مــا قام به كبلر عندما اكتشف حركات الكواكب، فالفرض الوصفي لا ينطوي على علاقــات علّية للتفســير، ولا يمكن التحقق منــه مباشرة بالتجريب وإنمــا بعملية تأييد الملاحظــة لنتائج تلك الفرضية، حيث تلعب الملاحظة ما يلعبه التجريب في النوع الأول.

٣- الفرض الصوري: وهو تصور عقلي محض يتجاوز نطاق الملاحظة المباشرة، لكنه يفسر لنا الظواهر التي نلاحظها، فهو بهذا المعنى يقرر لنا وجود كائنات واقعية هي من حيث المبدأ لا تخضع للإدراك الحسي، ومن ثم لا تتصف بقابليتها للتحقيق المباشر ولكن يمكــن فقــط أن نقوم بإجــراء تحقيق غير مباشر لإثباتها علــى صيغة فرض بوساطة استنباط قضايا منه توضع موضع التحقيق، فمثــلاً يمكن اعتبار قانــون نيوتن العالم في الجاذبيــة القائل بأن «كل جسمين في الكون يتجاذبان بقــوة تتناسب طــرداً مع حاصل ضرب كتلتيهمــا وعكساً مع مربــع المسافة بينهمــا» بمثابة فرضيــة صورية نفسر على أساسها حركات الكواكب والأجرام السماوية في الكــون، والأمر نفسه ينطبق على معادلة أينشتاين الشهيرة القائلة بأن الطاقة تساوي

حاصل الكتلة بمربــع السرعة، كما يتضمن الفرض الصوري أيضاً تفسير بعض القوانين التي سبق التوصل إليها لتصبح بمثابة نتائج مباشـرة له، كقانون نيوتن الــذي حُدد بناءً على قانون غاليليو بالقصور الذاتيّ.

– مــن هــذا التوضيــح العــام لمعنــى الاستقــراء والاستنتــاج يمكننــا أن نستنتج أن جدليــة الفكــر العلمــي الفلسفية تدور حــول محورين تجريبيين يعتمــد غالباً على التصور الاستقرائــي، وتصور عقلي يعتمد غالباً على التصور الاستنتاجي الاستنباطي، الفكرة العقلانية تساعدنا على تنظيم فكرنا والتعبير عن معارفنا وإشراك الآخرين فيها، كمــا توحي إلينــا بفرضيــات أي باحتمال وجود بعض الوقائع غــير المكتشفة، ولكنها لا تكفــي للدلالة علــى هذا الوجــود، ولا تسمــح لنــا باكتشــاف حقائــق جديدة كل الجــدّة ومستقلة عن معارفنــا وهو ما أكده لافوازييه حــين صرح بأن «الوسيلة الوحيدة لاستــدراك الانحرافات بين الفكرة والواقع تقوم علــى حــذف أو تبسيــط الاستدلال (البرهنة) وإخضاعه دائماً لاختبار التجربة، حيث لا نبحث عن الحقيقة إلا في التسلسل الطبيعــي للتجارب والملاحظــات» ولكن ما يقال عن التفسير العقلي المحض يقال أيضاً على الملاحظة، فكمــا أنه من الصعب جداً أن يركن المــرء إلى برهنة عقلانية مغلوطة، كذلــك فإنه من السهــل أيضــاً أن ننخدع بملاحظــة غير كاملــة أو موجهــه توجيهاً سيئــاً[٤]. فالملاحظــة السريعة قــد تعطينا صورة غــير متناسقة عن الواقــع، ولولا أن الفكر العقلاني يقوم على تنسيقها لما وجدنا في الطبيعة غير نزوات، ولارتكبنا دون ريب كل الضلالات التي ارتكبها أسلافنا. ويمكننا أن نتمثل طبيعــة الضلالات التي تنجم عن الملاحظات المبتذلة للطبيعة وتنوعها إذا ما أصغينــا إلى الناس وهــم يتكلمون عن تأثير القمر في الزمــن أو تأثير الكواكب في حياة الناس أو الأرقــام في الحظ. وقد قام العالم كلود برنار بترتيب الفكــر التجريبي ترتيباً ثلاثيــاً يبدأ مــن الملاحظــة فالفرضية ثم التجريــب، على الرغم من أن الفرضية وإن كانــت سابقة منطقياً للتجريــب إلا أنها في الغالب قد تصاحب التجريب عملياً بل وقد تتبع التجريب نفسه في بعض الحالات، لأن الفكرة المسبقــة تختار مجموعة من الوقائع الملحوظــة التــي تسعــى إلى تفسيرهــا[٥]، والمسعــى الأول للفكــر التجريبي هو ارتياد الواقــع معترفاً بــأن الواقع لا يمكن تحديد هويته بالفكرة التلقائية ولا بالعقلانية، حيث تتضح نزعة برنار الاستقرائية نحو التجريب عندما أكد أنــه لا يمكن اكتشاف الواقع إلا

باستقصـــاء منهجي مختص بمركز الحواس أي بتحريـــات منظمـــة ومراقبـــة ومقابلـــة وتسجيل المشاهدات التي يمكن للإنسان أن يستخلصها من حواســـه ومن الأدوات التي تطيل وتضاعف وتحـــدد مداها الضعيف. والهـــدف الرئيســـي لمسعـــى التجريبي هو وصف الواقع وبيانه، ولا ريب أن هذه ليست إلا الوجهـــة الأولى للمحاكمـــة التجريبيـــة الكاملة، لكن تلك المرحلة الأولى بالذات هي التـــي من دونها لا وجـــود للمراحل الأخرى التالية، فلكي نتوصـــل إلى إظهار الواقع في مركـــز الإحساســـ في الدمـــاغ لا بد لنا من الاحتـــكاك بالواقع عن طريـــق الملاحظة. ويحدد فيلسوف العلـــم فوراستيه شخصية الملاحظ بقوله «إن البهجة والشغف بإعادة بنـــاء الواقـــع ذهنياً ووصف مـــا وقع ورسم أعداد وأوزان وأحجـــام الأجسام وحركاتها في الفراغ وتطور المادة الجامدة والحية كما حدثت بدقة دون أن يفلت أي عامل، والرغبة في استعـــادة حقيقة خارجيـــة وإحيائها في الفكرة بـــكل بهائها وتمام أبعادها، تلك هي الخطـــوط الرئيسة لشخصيـــة الملاحظ»، ويؤكـــد التجريبيون علـــى أهمية الملاحظة في العلـــم بقولهم أن الفرضية إذا ما جردت مـــن الملاحظة العلمية تصبح غير علمية ولا مراقبـــة، ويمكن اعتبارها حينئـــذ مؤسسة عقلانيـــاً أو رياضيـــاً أو بـــدلالات الفلسفة أو بالكشـــف الإلهي، لكـــن لا يمكن أن تكون نظريـــة علميـــة كما لا يمكـــن أن تسلك في عداد نتائج البحث التجريبي.(٦)

إن تأكيـــد المنهج التجريبـــي على أهمية المشاهدة وهو تأكيد حق لا أراه يلزم إضعاف قيمة الفكرة أو الفرضيـــات في العلم عامةً والفيزياء خاصة، فليس هناك نشاط علمي دون أفـــكار، ومـــن دون الفكـــر ليس هناك إدراك ولا استقصـــاء ولا معرفـــة، فكبلر لم يضع فرضيته الإهليليجية لتحرك الكواكب السيارة إلا بعد أن بحث في الأشكال الغريبة لخمسة أجرام متعددة الصفات، حيث رسم تلك الأشكال داخل دائرة كان خياله الرمزي يعرضها عليـــه، وليس ما يدعو للدهشة أنه استطاع بذلك أن يضع ١٩ فرضية متوالية، وكان يملـــك الإرادة والمواظبـــة لمقابلتها مع الواقـــع حيث طـــرح ١٨ فرضيـــة ليتمسك بواحـــدة منهما، كما صـــرح أينشتاين قائلاً «يخيّـــل إلي أن العقل البشـــري يبدأ قبل كل شـــيء ببناء الأشكال المتسقة عن الواقع قبل أن يستطيـــع إثبات وجودها في الطبيعة»(٧). وهذا ما أكده عالم الفيزيـــاء الشهير هوكنغ قائـــلاً «لم أسمع عن أي نظرية كبرى طُرحت علـــى أساس من التجربة وحسب، فالنظرية هي التي تأتي دائماً أولاً وتطرح بسبب الرغبة

بالحصول على نموذج رياضي رائع ومتسق، ثم نعطي النظرية تنبؤات يمكن اختبارها بالملاحظة، فإذا اتفقت الملاحظات مع التنبؤات، فإن هذا لا يبرهن على النظرية، وإنما تظل النظرية قائمة لتضع تنبؤات جديدة تُختبر بدورها مرة أخرى، أما إذا لم تتفق الملاحظات مع التنبؤات فإننا نتخلى عن النظرية».(٨)

وقد حاول عالم الرياضيات السويسري كونزرت أن يقدم تصوراً يربط بين التصورين التجريبي والعقلاني على ضوء بعض النتائج الابستمولوجية التي أسفرت عنها الفيزياء الحديثة حيث يرى بأن الصورية العقلية المحضة لا وجود لها، ففي كل بناء تجريدي يوجد راسب حسي يستحيل محوه أو إزالته، نعم إن الفكر ينشىء مفاهيم مجردة ولكنه لا يقف عندها، بل يعمل باستمرار من أجل إعطائها تحقيقات مشخصة أكثر مرونة من تلك التي استقاها منها، وتلك التحقيقات لا يلبث وأن يستمد منها تجريدات جديدة مستعيناً بالرموز(٩)، بحيث يستمر الأمر عبر العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع، وهو الأمر الذي لم يكن متضحاً تماما لدى مفكري وفلاسفة عصر النهضة والفلسفة الحديثة. وعليه ليست هناك معرفة تجريبية محضة وأخرى عقلية محضة، بل كل ما هنالك أن أحد الجانبين قد يطغى على الجانب الآخر دون أن يلغيه تماماً، فالفكر هو دوماً مشخص ومجرد، وفي كل معرفة عقلية يوجد راسب تجريبي كما أن في كل معرفة تجريبية يوجد علم نظري.

و لو أننا استطعنا أن نترجم بطريقة فلسفية الحركة المزدوجة التي تبعث الحياة في الفكر العلمي فسوف نلاحظ ما يلي:

١- إن التناوب بين القبلي والبعدي أمر ضروري.

٢- إن المذهب التجريبي والمذهب العقلي يرتبطان برباط غريب أشبه ما يكون بالرباط الذي يجمع اللذة والألم، فأحدهما لا يمكن أن يتدعم وينتصر إلا من خلال الآخر، فالمذهب التجريبي يحتاج إلى أن يكون مفهوماً، كما أن المذهب العقلي يحتاج إلى أن يكون مجرباً أو مطبقاً.

وهذا ما دفع باشلار للقول بأن العقل والتجربة النظرية من جهة والتطبيق من جهة أخرى متداخلان تداخلاً جدلياً في كل سير علمي، وبالتالي فإن كل اكتشاف علمي هو عبارة عن نظرية متحققة مادياً، ومجرد استعمال الأجهزة العلمية يدل على هذه الحقيقة، خذ مثلاً الترمومتر نجد أننا حين نقيس درجة الحرارة نلاحظ تمدد عمود الزئبق داخل أنبوبة مدرجة، ونحن

في هــذه الحالة إنما نقوم بملاحظة علمية، لكن هذه الملاحظة تفترض بدورها نظرية، فالترمومتر يفترض نظرية التمدد الحراري، وبالتــالي فإن الأدوات والأجهــزة ليست إلا نظريات متحققة مادياً.(١٠)

التجريبي والعقلي في الفيزياء المعاصرة

لا يمكننا أن نغفل أهمية الخيال والتأمل في الفيزيــاء كمــا في كل مجــالات المعرفة الأخرى، هذا الخيال الحدسي أو الرياضي بالإجمــال غالباً ما يسبق التأكيد التجريبي عــبر التطور التاريخي للفكــر العلمي، ومن هــذا المنطلق نفهم سيطرة أفكار أرسطو في الفيزياء على الفكر لفترة طويلة، قبل أن يأتي غاليليو الذي قلب هذا التصور بتأكيده على أن الجسم في الظروف المثالية إذا لم تؤثر فيه أية قوة خارجية فإنه يستمر بالحركة بانتظام وبسرعة ثابتة وفق خط مستقيم الأمر الذي أكــده نيوتن بقانونه الرئيســي عن العطالة الذي استعاض فيه عــن التصور الأرسطي بالبديهية العقلية القائمة على أساس عقلي وتجريبــي اختبــاري، حيث يتحــول الفعل هنا من أساس للحركــة إلى موجه في تغيير الحركــة الأمر الذي أوضحــه نيوتن بقوله إن كل جســم يبقى على حالــه من السكون أو الحركة المنتظمة علــى خط مستقيم إلا إذا أجــبر على تغيير هــذه الحالة بوساطة قــوى تتسلط عليــه، وبذلك يبــدو الجدل التاريخــي في العلم بــين التجربة والتصور الحدسي للعقل ومن ذلك المنطلق نظر العالم الشهير بولتزمان إلى بناء النظريات العلمية مؤكــداً على أنه إذا لم يكــن بإمكان حواسنا أو أدواتنا بلوغ الظواهر العضوية، فإن بناء نظرية يكون بناء تصور عن العالم، فالنظرية ليســت في نظره وصفــاً اقتصادياً كما رأى الوضعيــون، بل هــي بالأحــرى أداة بحث وتخيّل منظم وعقلاني حيث يقول «أفكارنا كلها ذاتيــة خالصة، وقدرنا أن نتجاوز على الدوام حدود التجربــة، ولا يمكننا صياغة قضية واحدة تكون نتيجة خالصة للتجربة، وعندئذ من أجل الاكتشاف لابد في البداية من الاختراع والذهاب نحو الواقع من خلال التخيلي».(١١)

من هــذا المنطلق تكون الفيزياء نموذجاً معرفيــاً متكامــلاً لا بد لــه أن ينطلق من منهجيتــين متقابلتــين ومتداخلتــين بنفس الدرجة، وهما منهــج التجربة الاستقرائي، ومنهــج التصــور العقلي باستخــدام اللغة الرياضيــة المتوافقــة مــع ملكــة الخيــال الفلسفي، وما يميز الفيزياء بشكل حاسم هو أن لغتهــا الأساسية هي الرياضيات مضاف إليها التصور الفلسفــي، فنحن لا نستطيع

أن نلغي دور الفروض الحدسية في إبداع ثورات فيزيائية عاصفة ما كان من الممكن أن تحدث من دونها، على الرغم من أن تلك التصورات لم يكن الغاية منها دوماً هو تفجير ثورة شاملة في الفكر الفيزيائي، بل من أجل حل بعض المشكلات العالقة في الفيزياء، فقد ظن بعض العلماء الكبار أنهم يحلون مشاكل الفيزياء الكلاسيكية بتصوراتهم النظرية إلا أنهم ودون أن يفطنوا فجروا بتلك التصورات الأساس الفكري والتجريبي لتلك الفيزياء، فنظرية الكم قد نشأت في جانب منها عن إحساسات أولئك العلماء الغريبة وأوهامهم الميتافيزيقية كأثير ماكسويل وأمواجه، ومدارات بور وأمواج دوبروي انتهاءً بأكوان أفريت المتعددة[١٢]. وعندما عاد المذهب الذري للظهور في العصور الحديثة على يد غاسندي كان ظهوره مرتبطاً دائماً بضرب من الحدس الهندسي الساذج المستمد من التصور الخارجي للعالم.

وإذا ما تتبعنا تاريخ العلم أمكننا أن ندرك الأهمية المتزايدة التي تلعبها التصورات النظرية للفيزياء، فبعد أن كانت النظرة القديمة لتلك النظريات تعتبر كفروض تمهيدية للبحث، أي إجراء مؤقت مساعد على تنظيم التجارب، نجدها أخذت بعد ذلك تندمج بالتدريج في الفكر العلمي إلى حد أنه لم يعد من الممكن فهم المعنى العميق للتجارب المخبرية المعملية دون الإلمام بتلك النظريات العلمية. وقد ترافق نهوض العلم وعصر العقل بفكرة النظام الخفي في الطبيعة، وهو نظام رياضي أمكن كشفه عن طريق البحث الحاذق، أما في الدراسات البدائية للعلة والمعلول فإن العلاقات المباشرة تتضح فوراً للأحاسيس، ولكن قوانين الطبيعة التي تُكتشف عن طريق العلم تكون عموماً أكثر مراوغة، فمثلاً يمكن لأي شخص أن يرى سقوط التفاحة إلى لأرض، ولكن قانون التربيع العكسي لنيوتن في الجاذبية يتطلب قياساً خاصاً ومنهجياً قبل إعلانه، وأهم من ذلك فهو يتطلب نوعاً من الإطار النظري المجرد كقرينه لتلك القياسات، ومن الواضح أن ذلك الإطار النظري يجب أن يكون ذا طبيعة رياضية مجردة، فالمعطيات الخام التي تجمعها الأحاسيس ليست واضحة بصورة مباشرة كما تبدو، ولربطها أي لنسجها إلى إطار الفهم نحتاج إلى خطوة وسيطة، خطوة نطلق عليها اسم النظرية التي ترى بأن قوانين الطبيعة مدونة في شيفرة ويتمثل عمل العلم بتفكيك تلك الشيفرة الكونية وكشف أسرار الكون، حيث ألح أينشتاين على رأي مفاده أن مشاهداتنا المباشرة للحوادث في العالم ليست واضحة

عموماً، ولكن يجب ربطها بمستوى نظرية مستنبطة.[١٣]

إذا «الحدس - التجريب - البساطة - الفهم» هم أدوات الفكر الفيزيائي، مع الاعتماد على التأمل الفلسفي ومنهجياته الذي تراوح بين سيطرة الجانب التجريبي طوراً والحدسي التصوري طوراً آخر بين عصر وآخر، وقد صرح دي بروي أنه من أجلّ الخدمات التي قدمها الفكر المعاصر والتطور الحديث للفيزياء أنه دمر الميتافيزيقا البسيطة ووضع بنفس الضربة مشاكل فلسفية تقليدية معينة موضع التأمل من جديد تحت أضواء جديدة وكلية، ومن ثم مهد الطريق إلى المصالحة بين العلم والفلسفة، إذ يجب علينا كي يستمر العلم أن نقترب على كل حال من المسائل الفلسفية[١٤].

ويرى كاسيرير أنه إذا تخيلنا كامل التجربة كما هي موجودة في أي مرحلة من الإدراك المعرفي، فهي ليست أبداً تجميعاً لمعطيات إدراكية، ولكنها مصنفة داخلياً وفقاً لوجهات نظر نظرية وتتشكل في وحدة، ومن دون وجهة النظر هذه لا يمكن أن يحدث أي تأكيد للحقائق ولا أي تحديد للمقادير.

ولاعتبار مجمل المعرفة التجريبية في لحظة ما، لابد من تمثيلها على شكل دالة تعيد إنتاج العلاقة المميزة التي يمكننا بفضلها التفكير في المصطلحات الفردية في تبعية متبادلة، ومعظم ما نسميه مسلمات ومبادئ تصح باعتبارها فرضيات تبسيطية مؤقتة نقيم عليها وحدة التجربة، ويمكن تصويب الصيغ الرياضية على أساس المشاهدات الجديدة ولكن وفقاً لمبدأ التقدم التدريجي المنهجي، وهذا يعني أن إعادة الصياغة يحدث من الداخل إلى الخارج، إذ نعيد صياغة العلاقات الأقل عمومية في حين نحافظ على العلاقات الأكثر عمومية مثبتين بذلك الاتفاق الدائم بين المشاهدة والنظرية، وهذا ما قصد بالقبلي بالمعنى الكانطي، أي الثوابت المنطقية التي تقع في صميم كل تحديد لرابطة تشبه القانون للطبيعة عموماً، إذاً الإدراك المعرفي لا يسمى قبلياً بسبب وقوعه بأي معنى قبل التجربة، وإنما لأنه يوجد باعتباره مقدمة ضرورية لكل حكم صحيح يتعلق بالوقائع، إنه مخزن مقيم مستديم، كما لو أنه نسق من الحجج يمثل التأكيد الحالي من أجله قيمة من الدوال مقابلة[١٥]، وهو ما يسمى بالكانطية الجديدة.

ولأن البساطة هي غاية الفكر في تحليله للأشياء فإننا نجد أن الفكر الفيزيائي لم يتنازل عن تلك الرغبة الملحة في فهم العالم وتبسيطه، حيث نجد على سبيل المثال أن

أفكار غاليليو حاولت تقديم مفهوم فلسفي في تحليل العالم فيزيائياً غايته بساطة قوانين العالم، كرد كل الظواهر الطبيعية لبضعة قوانين أساسية تحكم الحركة ممثلة بالقوة والمادة، كما قال هلمهولتز: «ما نريد التوصل إليه فيزيائياً في النهاية هو أن اكتشاف مسألة علم الفيزياء تعود إلى إرجاع كل الظواهر الطبيعية إلى قوى تجاذب وتنافر لامتغيرة تتعلق شدتها بالمسافة فقط، وإن حل هذه المسألة يقود إلى فهم تام للطبيعة»(١٦). وبتلك المحاولات إلى تبسيط العالم ظهرت مفاهيم فلسفية شمولية حاولت الفيزياء الاستفادة منها في تفسير العالم كمفهوم السببية الذي لعب دوراً هاماً ومفصلياً في التبسيط الفيزيائي للعالم في إثارة المشكلات في بنية التفكير الفيزيائي، تلك المشكلات التي ما لبثت أن عصفت بهذا الفكر وأعادت ترتيب قواعده من جديد.

الهوامش:

١- شالمرز، آلان: ما هو العلم- ترجمة: لطيفة ديب عرنوق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٧، ص١٥٩.

٢- هيلي، باتريك: صور المعرفة (مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة) ترجمة: نور الدين شيخ عبيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١ ٢٠٠٨، ص٧٦-٧٧.

٣- محمد علي، ماهر عبد القادر: فلسفة العلوم (المنطق الاستقرائي)- دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٤، ص٦٥-٦٦.

٤- فوارستيه، جان: معايير الفكر العلمي- ترجمة: فايز كم نقش، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط١ ١٩٨٤، ص٨٦_٨٧.

٥- فوارستيه، جان: معايير الفكر العلمي: مرجع سابق ص٩٥.

٦- فوارستيه، جان: معايير الفكر العلمي: مرجع سابق ص١٥٤.

٧- فوارستيه، جان: معايير الفكر العلمي: مرجع سابق ص١١٣.

٨- الخولي، يمنى طريف: فلسفة العلم في القرن العشرين- سلسلة عالم المعرفة، الكويت عدد (٢٦٤) ٢٠٠٠، ص١٧٢.

٩- الجابري، محمد عابد: مدخل إلى فلسفة العلوم (العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي)- مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٣ ١٩٩٤، ص١٢٦.

١٠- عبد الفتاح إمام، إمام: تطور الجدل بعد هيجل- مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧، ص٣١٨.

١١- الخولي، يمنى طريف: فلسفة العلم في القرن العشرين: مرجع سابق، ص٨٧.

١٢- هوفمان، بانيش- باتي، ميشيل: نظرية الكم وقصتها الغريبة، ترجمة: محمد وائل الأتاسي-هيئة الطاقة الذرية السورية، ص١٨٨.

١٣- ديفيز، بول: العلم والبحث عن المعنى الجوهري- ترجمة: أحمد رمو- منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٨، ص٩٠.

١٤- عبد الفتاح إمام، إمام: تطور الجدل بعد هيجل، مرجع سابق ص٣٢٤.

١٥- هيلي، باتريك: صور المعرفة، مرجع سابق ص١٨- ١٩.

١٦- أينشتاين، ألبرت- إنفلد، ليوبولد: تطور الأفكار في الفيزياء، ترجمة: د.أدهم السمان- دار طلاس، دمشق ط١ ١٩٩٢، ص٤٩.

آفاق المعرفة



الإشراق والإبداع في القصص الرمزي الفلسفي والصوفي

عبد الفتاح قلعه جي ❁

تنـــاول الأدباء والعلماء الفلاسفة والمتصوفون كثيراً من الموروثات الأدبية الدينية والشعبية وأعادوا إنتاجها نثراً وشعراً، محولين أحداثها وشخصياتها إلى رموز فلسفية وصوفيـــة، وأطلقوا على هذا اللون بالفارسية اسم (الأدب التمثيلي)، وثمة فرق بين الأدب الرمزي في هذه القصص (التمثيلية) والمنتج أصلاً ليكون وعاء لأفكار فلسفية واستسرارات صوفية، وبين المذهب الرمزي

❁ كاتب ومسرحي وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الذي ظهر في بداية القرن العشرين وهو مذهب يعبر عن حالات غامضة وعوالم عاطفية ورؤى غائمة يحملها الشاعر من قيعان النفس القلقة على رواحل المجاز، وقد برز هذا في الشعر خاصة، ومن شعرائه بودلير في ديوانه أزهار الشر، كما برز في القصة والرواية كما في بعض نتاج نجيب محفوظ وخاصة رواية أولاد حارتنا.

ثم تلاه المذهب السريالي وهو إملاء الفكر دون أي رقابة للعقل الواعي بعيداً عن القيود، معتمداً على منطق الحلم والكتابة الآلية.

أما القصة الرمزية -موضوع حديثنا- فإنها عمل إبداعي مثقل بالرموز والأفكار، وهي نتاج عقل واع في أعلى درجات اليقظة والتفكير، اعتمد كاتبها المجاز والتمثيل ليقدم أسراره وأفكاره وأشواقه ورؤاه مرمّزة ليخاطب بها الخاصة دون العامة لغاية تمثيل وترسيخ ومقاربة الفكرة، أو ضماناً للسلامة وتجنب أذى أهل الظاهر، وفي ذلك يقول السهروردي.

وارحمتا للعاشقين تكلّفوا
ستر المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباح

ومن هذه القصص قصة الغربة الغربية للسهروردي، وقصة سلامان وأبسال الواردة في حي بن يقظان، ورسالة الطير لابن سينا، ومنها أيضاً قصة يوسف وزليخا للجامي، وقصة ليلى والمجنون. وحي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي. وسنأتي على ذكر وتأويل بعض هذه القصص.

١- قصة سلامان وأبسال

تكتسب هذه القصة بمرجعياتها المتعددة أهمية خاصة فقد أغرت بكتابتها نثراً ونظماً أكبر الفلاسفة والأدباء، كابن سينا والشيخ نصير الدين الطوسي والشاعر نور الدين عبد الرحمن الجامي.

يقول الشيخ العالم نصير الدين الطوسي في شرح إشارات الفيلسوف ابن سينا، إنّ القصة جاءت في كتاب (النوادر) لابن الأعرابي، لكنه يقول سمع ذلك من أحد الأفاضل في خراسان ولم يقرأ النصّ هو شخصياً. ويقول: إنّ ابن سينا أخذ معنى القصة واسمها من ذلك النصّ. وقد وردت القصة في النمط التاسع من كتاب ابن سينا (الإشارات والتنبيهات) في مقامات العرفان،

ومــن المعــروف أن لابن سينــا قصة أخرى بعنوان حي بن يقظان.

أمــا القصة في كتاب النــوادر فهي كما يلي: إن رجلين أحدهما فاضل صالح والآخر شرير، وقعــا في الأسر. أمــا الصالح فكان اسمه (سلامان) والطالح كان اسمه (أبسال) وقــد أطلق آسرهما سراح الرجل الصالح لما عرف فيه من خير وصلاح، وأما أبسال فقد بقي في السجن حتى لقي حتفه.

وأصل هذه القصــة، يرجع إلى التراث اليونــاني، ترجمها عن اليونانية إلى العربية العالم والطبيب حنين بن اسحاق[1] في بداية القرن الثالث الهجري.

سلامـان وأبسـال في الأسطـورة اليونانية:

تقول القصــة اليونانية بأنه كان هنالك ملك على بلاد اليونان ومصر، وكان له وزير ذكــي عارف بالأمــور وقد استطــاع بفكره وتدبــيره أن يسيِّر أمــور المملكة، وكان الملك يتمنى أن يكون له ولــد دون أن يمس امرأة واستطــاع الوزير أن يدبــر الأمر فصار من نطفة ذلك الملك ولد لم يضمه رحم امرأة وكان اسم ذلك الولد سلامــان، فدفعه إلى امرأة شابة جميلة اسمها أبسال لترضعه، وعندما بلــغ الولد مبلغ الرجال تعلق بمرضعته. كما هامت هي به أيضــاً وكانا لا يطيقان فراق بعضهما. وساء الملك ذلك، وحاول منع ابنه مــن هذه العلاقة غير الشرعية فلم يستطع، واضطر سلامان وأبسال أن يهربا إلى الجانب الغربــي من البحر، قد جعــل الملك عليهما رقيباً ينزل بهما المصائب كي لا يلتقيا كثيراً، حتــى اضطر سلامــان إلى أن يأتي إلى أبيه معتــذراً، لكن أباه أنذره بحرمانه من الحكم بعده، لكن العشق بينهمــا استمر، وازدادت ملاحقة الملك لهما حتى قرر سلامان وأبسال أن يلقيا بنفسيهما في البحر وقد فعلا ذلك، لكن الملــك طلب مــن آلهة المــاء أن تنجي سلامان وغرقت أبســال في البحر وماتت. وبقي سلامــان حزيناً علــى أبسال، فطلب الملــك من الوزير أن يبحث عن حيلة تساعد علــى نسيانه أبسال، فقدم الوزير صورة من أبسال لسلامان ليتسلــى عن ذكرها. وبعد فترة قــدم الوزير صورة تمثل كوكب الزهرة رمز الجمال والسّرور والموسيقى، فانشغل بها سلامان ونســي أبسال، عند ذلك رضي الملك من سلامان وعهد إليه بولاية العهد.

سلامان وأبسال عند ابن سينا

خضعــت القصة عند ابــن سينا لإعادة



إنتاجها من جديد، وملخص أحداثها أن سلامان وأبسال كانا أخوين من أب واحدٍ وأم واحـدة وكان سلامـان الأخ الأكبر فتعهـد بتربية أبسال تربية صالحـة. ونشأ أبسال بديع الحسـن والجمال كبير العقل كثـير الـذكاء، شهماً شجاعاً. فتعلقـت به زوجة أخيـه سلامـان واقترحـت على زوجهـا أن يجعل أخاه أبسال جزءاً من أسرته ليتعلم الأولاد منه مكارم الأخلاق.

وعرض أبســال الأمر علـى أخيه سلامان فاعتذر لكنـه أقنعه. ولم يكـن أبسال يحب التقرب من النساء. وذات يوم عرضت زوجة سلامان حبّها على أبسال وراودته عن نفسه فساءه ذلك كثيراً وزجرهـا، وعندما يئست مـن الفوز بحبه، اقترحت علـى زوجها بأن يزوجه من أختها. وبعد ممانعة وإلحاح قبل أبســال الزواج بها، لكنهـا اتفقت مع أختها على ألا يكـون أبسال خاصاً بها، واشترطت زوجة الأخ ألا يلتقي أبسال بزوجته (أختها) إلا في الظـلام لأن أختهـا كثـيرة الخجل.

وفي ليلة الزفـاف، تقمصت زوجة سلامان شخصية أختهـا ووضعت نفسهـا مكانها. وعندما دخل أبسال عليها لاحظ أن سلوكها بعيـد عن سلوك الفتيات العذارى، وفي تلك اللحظة التمع الـبرق وكشف عن وجه المرأة فعرفها، لكنه وبعقله الراجح كتم هذا السر وقـرر الهروب من تلك البـلاد وقال لأخيه أريد أن افتح لك العالم. فزوده سلامان بجيش جـرار واستمـرّ أبسال بفتح البـلاد، وبعد الفتـوح التي استغرقت سنـوات طويلة قرر أبسال العودة إلى البـلاد ظناً منه أن زوجة أخيه قد نسيت حبه، لكنّه وجدها أكثر تعلقاً

به مما كانت عليه فلوى يطلب الهرب مرة أخرى، ورجع أدراجه ليقاتل الأعداء الذين هاجموا أرض أخيه سلامان وأغرت زوجة أخيه قادة الجيش ليتركوا أبسالاً وحيداً في الميدان، فأصيب بجراح خطيرة وظن الجيش أن أبسالاً قد قتل، لكن أبسالاً نجا من الجراح وعاد بعد مدة إلى بلاد أخيه الذي كان الأعداء قد أحاطوا به فهاجمهم أبسال وهزمهم. وفي هذه المرة تآمرت زوجة أخيه مع الطباخ والخادم، فأطعما أبسالاً السُم وقتلاه. وحزن سلامان على أخيه وترك الحكم فترة وراح يناجي ربه حتى تكشفت له الحقيقة وعرف قتلة أخيه فقتلهم بشيء من ذلك السُم.

تأويل الشيخ نصير الدين الطوسي لقصة ابن سينا[٢]

يعتبر الطوسي الأكثر معرفة بابن سينا وأفكاره وهو يرى في تأويل رموز هذه القصة أن سلامان يمثل النفس الناطقة الحاكمة على الجسم والنفس الناطقة هي أعلى مراتب كمال الروح. وأبسال يمثل العقل النظري وهو أعلى درجات العقل. أما زوجة سلامان فهي رمز للقوى الجسمانية الشهوانية. وأخت زوجة سلامان هي كناية عن العقل العملي، وأما وضع زوجة سلامان نفسها بدلاً عن أختها ليلة الزفاف، فهو يمثل تزيين النفس الأمارة للشهوات. والبرق الذي سطع من السماء هو تعبير عن الجذبة الإلهية التي تتجلى في النفس الناطقه لتسوق العقل النظري إلى الكمالات. وابتعاد أبسال عن زوجة سلامان يعبر عن ابتعاد العقل النظري عن اللذات والشهوات الجسمانية الناتجة عن القوى الشهوانية. وأما فتح البلدان التي استولى عليها أبسال لأخيه سلامان فيمثل سيطرة النفس الناطقة على الجسم بمساعدة العقل. أما بقاء أبسال في ميدان القتال وحيداً فهو تعبير عن أن العقل النظري عند السير والصعود نحو العالم المجرد من المادة لا تستطيع القوى الحسيه والجسمية أن ترافقه لأنها عاجزة عن الصعود إلى الكمال. وأما تدهور أحوال سلامان وحزنه الشديد على موت أخيه أبسال فكنايه عن عجز النفس الناطقة في تدبير الجسم. وأما عودة أبسال إلى أخيه في المرة الأخيرة، بعد أن عرج نحو العالم المجرد من المادة، وهذه تبدو نكسة في هذه الرحلة المعنوية؟ فإن هذه الرجعة تعبر عن أن النفس الناطقة (سلامان) كانت في

ألفة مع العقل النظري وهو أبسال، فعاد ليدير أمور مملكة البدن لسلامان (النفس الناطقه) وأما الطباخ والخادم فهما كنايه عن قوة الغضب التي تستغل عند مقاومة العقل لها. والخادم يمثل القوة الشهوانية التي تمتثل للنفس الأمارة. وقتل سلامان لزوجته والطباخ والخادم كنايه عن قتل النفس الأمارة وقواها.

سلامان وأبسال في قصة حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي

هو أبو بكر ابن طفيل المولود في العقد الأول من القرن الثاني عشر في وادي آشي، القرية الصغيرة الواقعة في الشمال الشرقي من غرناطة بالأندلس. درس الطب والفلسفة في أشبيلية وقرطبة ثم اتصل بخليفة الموحدين أبي يعقوب يوسف الذي اشتهر برعايته للعلم وشغفه بالفلسفة. وذكرت بعض المصادر أن ابن طفيل عمل طبيباً خاصاً لأبي يعقوب ومعاوناً ومستشاراً ولكنه لم يعين وزيراً. ولما توفي الخليفة سنة ١١٨٤ م بقي ابن طفيل في البلاط خلال السنة الأولى من ولاية ابن أبي يعقوب.

يُذكر أن ابن طفيل ترك عدداً من الكتب في الطب والفلسفة إلا أن مؤلفه الفلسفي الوحيد الذي وصلنا هو كتاب «حي بن يقظان». وهو رواية فلسفية رمزية. وكان المستعرب البريطاني بوكوك هو أول من لفت إلى أهمية هذا الكتاب. وتُرجم الكتاب إلى عدد من اللغات الغربية

حاول ابن طفيل في هذه الرواية أن يثبت أن المتوحد، متى أدرك الحقيقة بوساطة العقل يستطيع أن يتبين سر الاتفاق بين الفلسفة والعقيدة.

ولد الطفل «حي» في جزيرة نائية في المحيط الهندي تلقائياً من غير أب وأم فتعهدته ظبية فقدت رضيعها فأرضعته حتى كبر ولما بلغ السابعة اتخذ لنفسه رداءً من أوراق الشجر وجلود الحيوانات، ولما ماتت الظبية التي تعهدته وأرضعته حزن عليها حزناً شديداً وأخذ يفكر في سر الحياة والموت. وأدرك أن الموت يأتي نتيجة انتهاء العلاقة بين الروح والجسد. وهكذا اكتشف حي بن يقظان طبيعة الحياة. واكتشف «حي» بعد ذلك النار فرآها مرتبطة بمبدأ الحياة، وتعلم استخدام الأدوات وأن كل موجود يتركب من عنصرين: الجسمية وصورة الجسمية. بالنسبة إلى الكائنات الحية. أما الصورة فهي النفس التي لا تدرك بالحس

بل بالعقل. ثم تبين له عن طريق الاستدلال أن مرتبة كل طبقة من الكائنات الحية في سلم الحياة تتوقف على تعدد القوى النفسية التي تختص بها. ولما بلغ «حي» الثامنة والعشرين استطاع أن يرقى إلى إدراك عالم الأفلاك الذي لا يلحقه فساد، فأقر بضرورة وجود صانع له. وكان «حي» قد بلغ آنذاك الخامسة والثلاثين من عمره فأخذ يبحث عن السبيل الذي مكّنه من إدراك هذا الموجود فتبين له أنه لن يدركه بوساطة الحس والقوى الجسدية، بل بوساطة الروح التي تنزل بمنزلة «حقيقة ذاته». وهذا الاكتشاف فتح عينيه على سمو الروح وامتيازها على العالم المادي واستقلالها عن جميع أحوال الكون والفساد التي تلحق بالجسد. وأدرك أن السعادة النهائية والكلية للنفس مرتبطة بإدراك صلتها بواجب الوجود وإقبالها على مشاهدته وهو الغرض الأقصى للإدراك.

في ختام هذه الرواية الفلسفية انتقل ابن طفيل إلى عرض قضية الوفاق بين العقل والوحي أو بين الفلسفة والدين. فهو يروي على لسان بطله «حي» أنه كان في جزيرة مجاورة قوم أخذوا بإحدى الملل الصحيحة المتواترة عن أحد الأنبياء القدامى وكان من أتباعها شابان فاضلان هما أبسال وسلامان، وكان أبسال أشد غوصاً على باطن الشريعة، بينما اكتفى سلامان بالمدلولات الظاهرة فوقع بينهما الخلاف. ولما سمع أبسال بخبر الجزيرة التي نشأ عليها «حي» عزم الانتقال إليها كي يعتزل الناس وينقطع فيها إلى العبادة والصلاة، ولم يكن يعلم بوجود «حي» فيها. وفي ذات يوم شاهده عن قرب فلم يشأ أن يقلق راحته. أما «حي» فلم يدر أي نوع من الحيوانات هو هذا القادم الجديد. وبعد فترة التقيا وتعاونا وتصادقا وتولى أبسال تعليم «حي» الكلام، حتى إذا أتقنه أخذ يصف لأبسال مشاهداته واكتشافاته، لا سيما الصوفية منها. فدهش أبسال وأدرك أن إخبار الدين عن الملائكة والأنبياء والنعيم والجحيم هي مثالات حسية للحقائق الروحية التي اكتشفها «حي» بالسليقة. وأدرك «حي» من جهته أن كل ما أخبر به أبسال عن التنزيل والفرائض يوافق ما شاهده هو، فلم يسعه إلا التصديق بكل ما سنه النبي من شرائع وأيده بصدق رسالته.

كان سلامان قد أصبح في هذا الوقت رئيساً للجزيرة فبدأ «حي» في تعليمه.

إلا أن سلامان، وهو من دعاة الظاهر، لم يبد استعداداً للإصغاء إلى تأويلات «حي» الباطنية والصوفية. أما الآخرون فقد كانوا أسوأ حالاً إذ إنهم كانوا منغمسين في الملذات والمشاغل الدنيوية. عندها أدرك «حي» أن عليه أن يتركهم وشأنهم. وكانت وصيته الوداعية أنه لا حرج عليهم إن هم استمروا على ما درجوا عليه من التزام حدود الشرع الظاهرة. وهكذا تركهم هو وأبسال وعادا إلى جزيرتهما حيث استأنفا العبادة في عزلتهما.

في هذه القصة يؤكد ابن طفيل رأيه في أن الحقيقة هي خاصة بطبقة متفوقة، وهي وحدها تستحق هذه النعمة.

سلامان وأبسال عند الجامي(٣)

يقص علينا الجامي قصة سلامان وأبسال في إشارة إلى أن الحب الإلهي يسمو على الحب الدنيوي. وسلامان هو ابن شاه يون (أيونيا) وقد ولد من غير أم، وهذا أمر أكثر غرابة من ولادة العذراء. وتولت تربية الأمير المربية الشابة الجميلة أبسال التي افتتنت به حين بلغ الرابعة عشرة من العمر، وقد راحت تتجمّل له حتى غزت قلبه وأسرته بزينتها وجمالها. ويصف لنا الجامي ذلك فيقول:

«أحاطت سواد عينيها بسواد الإثمد
فحوّلته إلى ليل وهو في وضح النهار
وزينت وزججت الحواجب فوقهما.
تصيبه إذا ضل هناك
وشعرها الذي يتضوع منه المسك
صففته في لفائف أفعوانية كثيرة
كَمُن فيها «الإغراء» فوق خدها
الذي أضاءت ورده بندى قرمزي
ووضعت هناك حبة دقيقة من المسك
لتوقع في الشرَك طائرَ هذا القلب الحبيب
وقد تمر به أحياناً فتطلق ضحكة تكسر بها
ياقوتة شفتيها اللتين تحفظان بينهما اللآلئ
أو تنهض وكأنها على عجل، فتقعقع
خلاخيلها الذهبية،
وعلى نداءاتها المفاجئة تأتي
تحت قدميها الفضيتين بالتاج الذهبي

أما التاج فهو تاج الأمير وريث العرش بلا منازع، ويستسلم الأمير بيسر لهذه المغريات، ويغرق الاثنان -الولد والسيدة- في حب لاهب. فيؤنب الملك ابنه على هذا السلوك، ويأمره أن ينجو بنفسه إلى الحرب والحكم. ولكن سلامان بدلاً من ذلك يهرب

مع أبسال على ظهر جمل، «وكأنهما لوزتان حلوتان في قشرة واحدة»، حتى إذا وصلا إلى البحر صنعا قارباً وسارا به «شهراً» وأتيا إلى جزيرة مكسوة بالخضرة، مليئة بالأزهار العطرة والطيور المغردة، والثمار والفاكهة التي تتساقط تحت قدميهما بكثرة. ولكن في جنة عدن هذه يتحرك ضمير الأمير فيؤنبه، ويفكر في مهام الملك التي أغفلها، ويحث الأمير محبوبتَه أبسال على العودة معه إلى يون، ويحاول أن يدرب نفسه على الاضطلاع بأعباء الملك، ولكنه موزع بين الواجب والجمال، إلى حد أنه كاد آخر الأمر أن يجن، ويقرر العاشقان الانتحار، فيبنيان محرقة، ويقفزان إليها، ويد كل منهما في يد الآخر، وأتت النيران على أبسال فاحترقت وهلكت، ولكن سلامان يخرج سالماً من غير أن يصيبه أذى. والآن وقد تطهرت نفسه، فإنه يصبح مؤهلاً لأن يرث العرش. وكل هذا مجاز يفسره جامي بأن الملك هو الله، وسلامان هو النفس البشرية، وأبسال هي نشوة الشهوة، والجزيرة السعيدة هي جنة الشيطان التي تضل فيها النفس عن مصيرها الإلهي، أما المحرقة فهي نار تجربة الحياة التي تحترق فيها الرغبات الشهوانية، أما العرش الذي ترقى إليه النفس المطهرة فهو عرش الله، ولا يصل إلى هذا العرش إلا من سلك الطريق المهلكة وتطهر بالمعاناة والتجربة.

٢- قصة الغربة الغربية للسهروردي[٤]

هذه القصة هي نموذج للقصة الرمزية وكثافة الرموز الفلسفية فيها، والرواية فيها تتم بضمير الأنا، وملخصها: أنه سافر مع أخيه عاصم إلى بلد الظالم أهلها-قيروان- فقيدهما أهلها بالسلاسل ورموهما بالجب، وكان فوقه قصر، وقالوا لهما: لاجناح إن صعدتما القصر مجردين مساء، وفي الصباح لابد من النزول إلى الجب، وفي الصعود والهبوط أبصرا الهدهد مسلّماً ومعه كتاب في منقاره، وقادهما إلى الخلاص فركبا سفينة إلى طور سيناء، ورأيا أباهما شيخاً كبيراً تكاد السموات والأرضون تنشق من تجلّي نوره، وأنبأهما أنهما لابد أن يرجعا إلى السجن الغربي لكنه بشرهما بإمكانية الصعود إليه متى شاءا إلى أن يتخلصا نهائياً من السجن، ثم يقول في القصة: «اعلم أن هذا جبل طور سيناء، وفوق هذا مسكن والدي، ولنا أجداد آخرون حتى ينتهي

النسب العظيم إلى هذا الجد الأعظم الذي لا جد له ولا أم، وكلنا عبيده وبه نستعين ومنه نقتبس وله البهاء الأعظم والجلال الأرفع، وهو فوق الفوق، ونور النور، وهو المتجلي لكل شيء بكل شيء، وكل شيء هالك إلا وجهه».. ثم يقول: «نجانا الله من قيود الهيولى والطبيعة».

ومن الواضح أن هذه القصة هي تمثيل فني قصصي لفلسفته في الأنوار وتشعشعها وهبوطها وصعودها، وخلوص النفس من عالم الغواسق والأجسام.

ونورد مقطعاً من القصة مع الإشارة إلى بعض رموزها داخل الأقواس.

«لما سافرت (=الروح المسافرة الهابطة) مع أخي عاصم (=القوة الفطرية المعرفية العاصمة من الضلال) من ديار ما وراء النهر (=العالم الأعلى) إلى بلاد المغرب (=عالم الهيولى الغريب عن عالم الروح) لنصيد طائفة من طيورِ (=العلوم الجزئية، الكمالات الممكنة للنفس) ساحلِ اللجة الخضراء (=العالم المادي المحسوس، العقل المستفاد) فوقعنا بغتة في القرية الظالم أهلها أعني مدينة قيروان (=الدنيا، العالم الأرضي، الجسد) فلما أحس قومها (=القوى الترابية الجسمانية. غواسق الأبدان) أننا قدمنا عليهم فجأة، ونحن أولاد الشيخ المشهور بالهادي بن الخير اليماني (=الفيض الأول، العقل الفعال، واليماني لقول النبي «ص»: إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن) أحاطوا بنا، فأخذونا مقيدين بسلاسل وأغلال من حديد (=الغرائز والشهوات. الهيئات الدنيوية الرديّة) وحبسونا في قعر بئر لا نهاية لسمكها (=البدن، العالم الظلماني، عالم العناصر) وكان فوق البئر المعطلة التي عمرت بحضورنا (=بحلول الروح في الجسد) قصر مشيد (=النفوس الفلكية) وعليها أبراج عدة (=الأفلاك) فقيل لنا لا جناح عليكم إن صعدتم القصر متجردين إذا أمسيتم (=إذا نمتم وفي النوم تتعطل الحواس وتتحرر الروح) أما عند الصبح (العودة إلى أسر المحسوسات) فلا بد من الهويّ في غيابة الجب (البدن).

٣- قصة يوسف وزليخا للجامي

منظومة يوسف وزليخا للشاعر عبد الرحمن الجامي النقشبندي عبارة عن ملحمة شعرية فارسية مقتبسة من قصة يوسف مع امرأة العزيز في القرآن الكريم، مكتوبة بأسلوب أدبي ذي لغة شعرية رفيعة

المستــوى ودلالات وحكــم صوفيــة، وعـــالم التصوف والعرفــان مليء بالرموز والأسرار وسبب ذلـــك أن الصوفيين كانوا يريدون أن تكون أفكارهم ومعتقداتهم بعيدة عن تناول فهم العامة، وعلى الرغم أن القصة معروفة في القرآن الكريم وعلى الرغم من أن جامي أيضـــاً يقطع تسلسل القصة كما يفعل فريد الديــن العطـــار في منطق الطـــير، حين لا يفتـــأ يعظ نفسه بعد كل مقطع وكأنه يقص القصة على نفسه.

تبدأ الحكاية حين تراءى يوسف لزليخا في الحلــم قبــل أن تجتمــع بــه في الواقع فهامت به حباً وراح يتردد عليها طيفه عاماً كامـــلاً حتى ظن أهلها أنه قد اختلط عقلها فحبسوهـــا، ويصف الجامـــي جمال يوسف الملائكـــي الأبدي الـــذي خلب لـــب زليخا فيقول:

ذلك الجمال الأبدي أتى من الأماكن المقدسة
وبالأسرار يشع في كل الآفاق وفي كل النفوس.
ثمة شعاع واحد
انطلق من هذا الجمال الأبدي، واخترق الأرض والسموات،
ثم تكشف وظهر في مرآة المخلوقات. وأصبحت كل ذرات الكون
مرايا تعكس كل منها ناحية من نواحي العظمة الأبدية.
سقط شيء من تألقها على الوردة والعندليب، فأصابهما شيء
من جنون الحب البائس واتقدت حماستهما ناراً، وجاءت ألف فراشة
لتهلك في اللهب، وهي التي أضفت على قمر كنعان لمعانه
الساطع الذي أصاب زليخة بالجنون.

ثـــم شاهدت زليخا يوسف في منام آخر بعد عام وهو يخبرها أنه عزيز مصر، فطلبت من والدها الملك أن يزوجها به فأرسل لعزيز مصر يعرضها للـــزواج عليه فوافق ورحلت إلى مصر، وحين عقد القـــران اكتشفت أنه لم يكـــن هو، لأنهـــا لم تكن قـــد شاهدته من قبل، وأحســـت بالصدمة، ولما ظهر يوسف ورأته كعبد يباع كادت تفقد عقلها، واشترته وطلبت منه الوصال فأبى، فأصابها الهزال، وراحت تحترق كالفراشة في لهيب الحب.

كانت زليخا عجلـــة في الحب والوصال، لكـــن طريـــق العشق طويل وشـــاق، قال لها يوسف عبـــارة جميلة تـــدل على ذلك حين كانت تقول له هيت لك: لا تستعجلي، فليس هـــو الوقت الآن، إلى أن نجتاز طريق العشق

ويأتي وقت يصير الوصال مباحا لنا، اصبري فقط.. لكن خُلق الإنسان عجولا! ثم توالت الأيام وصـار يوسف عزيز مصر، أما زليخا فكانت قد يئست من الناس بعد موت زوجها وفقرها ومرضهـا وتوجهت إلى رب العباد، واستجاب الله لنـداء عشقها فأذن ليوسف بالـزواج منها وهكذا التقيـا أخيراً وسكنت روحها، وبعد مدة تسامـت روحها وصارت تطمح لصاحب الجمال المطلق والحب الإلهي الأكمل، وعاشت ويوسف بسعادة وصلاح إلى حين، وسرعان ما ينتاب الهزال الاثنين، إلى أن جاءهمـا الموت وبه عادت الروح إلى عالم الكمال وأتاهما اليقين.

علـى الرغم مـن أن القصة معروفة إلا أنها مصوغـة بلغة شعريـة باذخة، مفعمة بالدلالات والرمـوز الصوفية. إن حب الله هو الحقيقة وهو الحياة، وإن جمال يوسف لم يكن جمالاً بشرياً يستغوي المرأة، وإنما كان جمـالاً معجزاً ملائكياً مستمداً من صاحب الجمال المطلق (وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هـذا إلا ملك كـريم –يوسف ٣١) وكان كلما سُحـر الناس بجمالـه الدنيوي، قال: مـا أنا إلا صنيعـة لصاحب الجمال المطلق كنقطـة بائسـة في بحر لا حـدود له، فما كانوا إلا يؤمنون برب العالمين ويتحولون عنه عابدين لذاك الجميل.

في «القفر البدائي»، حيث لم تعط الحياة أية علامة على
وجودها، ورقد الكون مختبئاً منكراً نفسه، كان ثمة شيء.
إنه الجمال المطلق يظهر نفسه لنفسه فقط، وبنوره هو وحده.

ولهذا الجمـال الملائكي أنـت لا تدين زليخا علـى هذا العشـق، وإنما تحزن من أجلهـا، وتفـرح بلقائها أخـيراً بمعشوقها، والجامـي يأبى إلا أن يـبرز زليخا في هيئة تضارع جمـال يوسف، مستعمـلاً الألفاظ الحسيـة في تكرار وإسهاب يتقدان حماسة، حتـى إلى حد وصف «حصن العفة والملمس الحرام فيها».

مثل أجمل النساء في غرفة زفافها المحفوفة بالأسرار، كان ثوبها نقياً
لا تشوبه أية شائبة، ولم تعكس أية مرآة وجهها، ولم يمر
المشط قط بخصلات شعرها، ولم يحرك النسيم العطر قط شعرة
واحدة منها، ولم يأو قط أي عندليب على صفحة خدها الوردي..

ولكن الجمال لا يطيق أن يبقى مجهولاً. انظر
إلى زهرة التوليب
فوق قمة الجبل، وهي تنفذ في الصخر فرعها
الغض لأول بسمة من بسمات الربيع

وكان نهداهـــا بمثابة كرتين من نور بالغ
النقاوة أو فقاعتين
تقفـــزان حديثاً مـــن نافورة كافـــور، أو
رمانتين صغيرتين تنموان
علـــى غصن واحد، لا يستطيع أي طامع
جريء أن يمسهما بإصبعه

الجمال والحب والرؤيا والرؤى، بمعانيها الأسمى، وعذوبة الأسلوب الشعري، وروعة القص والتصوير، وعالم من الأسرار والرموز، هي السمات التـــي تجعل من هذه المنظومة الشعرية عملاً خالـــداً. والجامي في جميع منظوماته الشعريـــة القصصية يعيد تقرير النظرية الصوفية: نظريـــة الجمال الإلهي والجمال الدنيوي.

الهوامش:

١- هــو أبــو زيد حنين بن إسحاق العبادي ولد سنــة مئة وأربع وتسعين هجرية في الحيرة ودرســ الطب على يوحنّا بن ماسويــه في مدرسة جنديسابور، ولأنه أزعــج أستاذه بسؤال غضب عليه هذا الأستاذ وطرده من مجلسه واشتّد هذا الأمر على حنين فقرر أن يتعلم اللغة اليونانية، وتعلم العربية في البصرة وسكن بغداد. وأصبح طبيباً حاذقاً ومترجماً بارعاً، ترجم في عهد المأمون كثيراً من كتب أبقراط وأفلاطون وبطليموس وله آثار في الطب والفلك والفيزياء وكتاب في الصرف والنحو في اللغة السريانية.

٢- نصــير الدين الطوســي (٥٩٧/١٢٠١ - ٦٧٢ /١٢٧٤) محمد بن محمد بن الحسن ولد في طوس وتوفي في بغداد، جمعــت مؤلفاتــه العديدة معظم أبــواب المعرفة في عصره: العلــوم والهندسة والجبر والفلــك والفلسفة والتصوف والأخــلاق والمنطق..إلــخ، ومنها: الابتداء والانتهــاء، إثبات العقل الفعــال، اختبارات النجــوم، التجريد، تحرير المجسطــي لبطليموس.. كتب الشعر أيضاً، وهو فيلسوف ينتمــي إلى الفلسفة السينوية (ابن سينا) منهجاً وتطبيقاً، وهو مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي، ومؤسس المجمع الفلكي في مراغة. وبعد سقوط قلعة الموت في يد هولاكو خدم الطوسي لدى هذا الدموي السفاح وزيراً ومنجماً.

٣- الشاعر عبد الرحمن جامي بن نظام الدين أحمد ولد عام ٨١٧هـ/١٤١٤م، وتوفي في هرات عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م، وهــو من أصل عربي ينتهي نسبــه إلى الحسن الشيباني الفقيه. كان الجامي شاعراً صوفيــاً وفيلسوفاً إسلامياً، غزير الإنتــاج، له حوالي ٥٠ مؤلفاً نثرية وشعرية، في تفسير القرآن والحديــث الشريف، والعروض والموسيقى، والتصوف والفلسفــة، والتاريــخ. وله أيضاً مؤلفات كثيرة في النحو والصرف والفقــه والأصول والمنطق والتصوف، ومن كتبه:

تاريـخ هـرات، وديوان الجامي ويضم قصائد غنائية في ثلاثة أجزاء هي: فاتحـة الشباب وواسطة العقد وخاتمة الحياة. وكتابـه «بهارستان» (موطن الربيع)، وله آثار متميزة نذكر منها: سلسلـة الذهب، وسلامان وأبسال، وتحفة الأحرار، وسبحـة الأبـرار، يوسف وزليخا، ليلى والمجنـون، والحكمة السكندرية وهي سلسلة محـاورات فلسفية شعرية بين الإسكندر وعلماء الإغريق.

٤- شهاب الدين السهروردي (الحلبي) يحيى بن حبش ولد عام ٥٤٩هـ/١١٥٥م في سهرورد بإيران وانتهت حياته في حلـب عام ٥٨٧هـ/١١٩١م بشكل مأساوي بعد أن أوغر حسّاده صدر السلطان عليه. وهو فيلسوف حكيم وشاعر متصوف، وواضع أسس الحكمة الإشراقية في كتبه ومنها: حكمة الإشراق وهياكل النور. وتقوم أفكاره على فلسفة الأنوار وتشعشعها وهبوطها وصعودها، وخلوص النفس من عالم الغواسق والأجسام.

والفلسفة الإشراقية في تناولها للحقائق الكبرى وتفسيرها ترتكز على أمرين: أولاً الكشف والشهود والانطلاق من رؤية كونية قائمة على التفكر والحدس العرفاني والمعرفي، وثانيا الاستدلال والمنطق العقلي لتقرير الأصول والمبادئ، وفي تناول المسائل المعرفية.

المصادر:

- يوسف وزليخا: ترجمة عائشة عفة زكريا. دار المنهل. دمشق.
- حي بن يقظان: ابن طفيل.
- الأدب الفارسي منذ عصر الجامي وحتى يومنا هذا: د. محمد رضا شفيعي كنكي. ترجمة بسام ربابعة.
- مجموعـة دوم مصنفات شيـخ إشراق شهاب الدين يحيى سهروردي. ط تهـران ١٩٥٢ ويشتمل على كتبه: حكمة الإشراق، رسالة في اعتقاد الحكماء، قصة الغربة الغربية.
- مفاتيح الغيب: صدر الدين الشيرازي. طهران ١٩٨٤.
- من السعدي إلى الجامي: ترجمة المجلد الثالث من تاريخ الأدب لبراون.
- نصير الدين الطوسي: د. عبد الكريم الأعسم. منشورات عويدات. بيروت ١٩٧٥.

آفاق المعرفة



وحدة التشريع.. ضـرورة وطنيـــة ملحـــة

هائل منيب اليوسفي ❁

منذ أن عــرف الإنسان الحياة على وجه البسيطة، يعيش ضمن منظومة مــن القوانين، حتى مخلوقات الغابة تعيش وفق قوانين تضمن لها الاستمرار والبقاء، حتى الأقوام البدائية تخضع في حركتها إلى قوانين، ورئيس القبيلة يحكــم أفرادها وفق قوانين، والفوضى والظلم تحكمه قوانين فالبعض يقول حــين يصف هذه الفوضى إنها شريعة الغاب أو قانون الغاب.. وأخيراً سمعنا بالفوضى الخلاقة، وحــين يثور أفراد المجتمع على نظام ويقوضوه ويهدموه

❁ أديب ومحامي وصاحب برنامج (حكم العدالة) سورية.

❁❁ العمل الفني: الفنان مطيع علي.

يصفون مــا يفعلوه بالثــورة، وكثيراً ما كنا نسمع البعضــ يقول هذا قانــون دستوري وهذا قانون ثــوري، فالثورة إذاً قانون يقوم علــى أنقاض ما سبقه مــن قوانين وإذا ما استمرينــا في التمعــن والإبصــار نجد أن اللصوص لهم قوانين يقتسمون

ما سرقوه وفــق أنظمة بينهم، فلا شيء في هــذا الكــون إلاّ وله قانــون، فالأفلاك والمجــرات والكواكــب والشموســ تــدور وتسبح وفق قوانــين حتى إن جزيئات الذرة (البروتونات والنترونات والإلكترونات) تدور في هــذا الجزيء وفق قوانــين الله سبحانه وتعالى.

لا أريــد أن أستفيضــ في شــرح فلسفة القانون فالقوانين هي مرآة حضارة الشعوب فإذا أردنا أن نعــرف ما وصلت إليه أمة ما في الرقــي والحضــارة نظرنــا إلى قانونها وإلى طريقة تطبيقه، البعض من الدارسين يقول:

لــولا اللوائح الاثني عشر لما عرفنا شيئاً عن حضارة روما.

ولولا شريعة حمورابي لما عرفنا شيئاً عن حضارة بلاد ما بــين النهرين، ولولا شريعة الإسلام لما عرفنا شيئاً عن العروبة والعرب، ومن خلال هذا المنظار تبرز أهمية الحديث عن القانون وتطــوره ليأتي مرآة صادقة لما عليه المجتمع.

فلو لم تكن أهرامــات مصر التي تحكي تاريخ الفراعنة من خلال القوانين المنقوشة على جــدران الأهرامات لما عرفنا شيئاً عن تاريخ الفراعنة.

نحن الآن نسابــق الزمن لتطوير بلادنا في كل مرافقهــا ومناحيها ولا بدّ أن نعطي القوانين أهميتها التــي تستحقها ولا سيما التــي تتعلق بحياة المواطن وأسرته وعلاقاته الاجتماعيــة بعــد أن أصبــح تعديلهــا أو إلغائها أكثر من ضــرورة ملحة والتي يعاني منهــا الكثير من الناس مــن أبناء الطوائف في معرفــة شؤون علاقاتهم الزوجية خاصة النصوص التشريعيــة الأساسية وتفرعاتها، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن قوانين الأحــوال الشخصية بطبيعتها شعبية يحتاج إليها المواطن ليعرف ماله وما عليه.

هــل يكون التعديــل والتطــور أن تكون قوانيننا مستــوردة هجينــة..؟ أم أن تكون نابعة مــن حاجاتنا..؟ وفقــاً للقاعدة التي تقول:

«لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان».

نافلة القــول إن أي إصــلاح اجتماعي أو اقتصــادي أو إداري لابدّ له من أن يبدأ بإصلاح تشريعي يصلح القوانين الاقتصادية والاجتماعية والإدارية.

كل يقع على عاتقــه واجب وطني معين

ومحدد في أداء هذه المهمات حتى يكاد أن يكون تحديث القانون مهمة يومية لرجال التشريع بعد أن أصبح من غير المقبول تطبيق قوانين عفا عنها الزمن ولم تعد تلبي حاجات المواطن، بل على النقيض أصبحت تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهله.. ثم الأهم أصبح الكثير منها هجيناً بعيداً عن تراثنا.. وعن ثقافتنا.

وقد تكون أبرز هذه المهمات وحدة أجهزة القضاء، وإلاّ ماذا تعني محاكم الجنايات ومحاكم أمن الدولة والمحاكم الميدانية والمحاكم العسكرية حتى بات رجل القانون نفسه لا يعرف الفرق بين هذه وتلك وكلها تنظر في دعاوى ذات طبيعة واحدة ووصف قانوني واحد.

ماذا تعني المحاكم الشرعية والمحاكم المذهبية والمحاكم الروحية..؟

ماذا يعني تطبيق قوانين جاء بها الانتداب الفرنسي..؟

رحل الانتداب وبقيت القوانين..!! رحل الاستعمار منذ سبعين عاماً، وبقيت بعض قوانينه إلى اليوم..!!

ماذا يعني تطبيق قانون أصول المحاكمات الذي يجعل من تبليغ المخاطب في مدينة حلب مثلاً يستغرق شهراً؟ وإذا كان في القامشلي ثلاثة أشهر..؟

ماذا يعني أن يكون متوسط زمن حسم الدعوى من خمس إلى عشر سنوات..؟

ماذا يعني أن يحسم القاضي في العام بضعة مئات من الدعاوى ويتراكم في محكمته ثلاثة آلاف..؟

هناك قاعدة تقول: «عدل بطيء هو ظلم جائر».

وغني عن البيان أن سرعة الوصول إلى الحق هو جزء من أصل الحق، إذ من غير المعقول أن يبقى صاحب الحق سنوات في ردهات المحاكم وقد يموت ولا يصل إلى حقه.

البعض قال معلقاً وساخراً: إن عمر الإنسان لم يعد يكفيه إلاّ لدعوى واحدة، وأنا أقول جاداً قد لا يكفيه، والكثير من الناس تقيم الدعاوى ليس من أجلها إنما من أجل الورثة.

تحديث القوانين يعني إعادة ثقة المواطن بالقانون وبالتالي تعود ثقته بالقضاء، وعندما يشك المواطن بقضائه الوطني يشك بقوانين بلاده التي هي جزء لا يتجزأ من ثقته بالوطن.

تحديث القوانين يعني أيضاً تحديث وسائل القضاء وتحديث أجهزته، إذ من غير المعقول أن تعمل محاكمنا على نمط ما كانت

عليه أيام زمان وفي زمان دخل الحاسوب «الكمبيوتر» حياة كل الناس.

بتقديري إن في طليعة من تقع على عاتقه هذه المهمات المحامون أنفسهم باعتبارهم الأكثر تعاملاً مع نصوص القانون وتطبيقاته، فهم الذين يعرفون متاعبه وثغراته وتتوافر لديهم النظرة الأكثر شمولية، وبالتالي هم الأقدر على إدراك مدى صلاحية وسلامة أي قانون، ويأتي إلى جانبهم رجال الفقه والمشتغلون به.

لقد كتب الكثير من المحامين مقالات مطولة عن مساوئ بعض القوانين وعن عيوب القضاء الاستثنائي وعن ازدواجية أجهزة القضاء..إلخ.

ولكن ما من أحد وضع مشروع قوانين بديلة..لماذا..؟!

أذكر على سبيل المثال قانون الأحوال الشخصية الذي هو أكثر القوانين التصاقاً بحياة الفرد، إذ إنه ينظم شؤونه منذ أن يكون جنيناً في بطن أمه (أحكام الإرث ذكراً أم انثى) ويعين حقوقه مع سائر أطراف



أسرته وينظم أموره ما دامت الحياة قائمة.

لا بل يمتد في أحكامه إلى ما بعد الموت أيضاً (الوصية) وهي تصرف في التركة مضافاً إلى ما بعد الموت.

فإذا كان قانون الأحوال الشخصية على هذا النحو من الأهمية يحكم حياة الفرد منذ أن يكون جنيناً فمولوداً ويعين حقوقه طفلاً وفتى يافعاً حتى يتزوج وينجب ثم يتوفى وتوزع تركته من بعده ويتولى أمر أولاده من يتولاهم من الأولياء والأوصياء،

جديــر أن نوليه ما يستحقـــه من الاهتمام، وأعني بكلامي كل القوانين الناظمة لشؤون الأحوال الشخصية وما أكثرها:

١- قانون الحق العائلــي بطائفة الروم الأرثوذوكس.

٢- قانون الأحــوال الشخصية للطائفة الأرمنية الأرثوذكسية.

٣- قانون الأحــوال الشخصية لطائفة السريان الأرثوذكس.

٤- قانون الأحوال الشخصية للطوائف الكاثوليكية- السريــان- الموارنة- الكلدان - اللاتين.

٥- قانــون الأحوال الشخصية للمحاكم المذهبية الإنجيلية.

٦- قانــون الأحــوال الشخصيــة للموسويين.

٧- المحكمة المذهبية الدرزية.

وتبعاً لتعــدد قوانين الأحوال الشخصية تتعــدد المحاكم وكل محكمــة تطبق القانون الخاصــ بطائفتهــا وكأن المواطن يعيش في مجتمع غير الــذي يعيش فيه سواه من أبناء الطوائــف أو أن الانتمــاء الطائفي أولاً، ثم الانتماء إلى الوطن.

في اعتقــادي إن كل هــذا الوضع له ما قد يبرره في الماضي لكنه من غير الجائز أن يستمر في العصر الحاضر، وقد دخلنا عتبة القرن الحادي والعشرين.

ومــن خـــلال نظرة سريعة علــى تاريخ قوانين الأحــوال الشخصية في قطرنا نجد أنها مرت في ثلاث حقبات تاريخية واسعة.

في العهـد العثمـاني: جــرى التعامــل حتى أواخر أيــام الدولة العثمانية أن يكون للطوائــف غــير المسلمة حــق الاحتكام إلى محاكمهــا الدينية في كل ما يتعلق في دعاوى الــزواج والخطبــة والنفقــة، وكان للدولة العثمانية عذرها في ذلك، لأنها كانت الرجل المريض.

في العهـد الفرنسـي: انسلخــت بــلاد الشام عن الدولــة العثمانية وجاء المستعمر الفرنســي يحكم سورية ولبنــان منتدباً من عصبة الأمم.

وأول مــا فعلتــه فرنسا أن لجــأت إلى تقسيــم البلاد، حتى إنها لم تتورع عن إقامة خمس دويــلات في كل من دمشق واللاذقية وجبــل العرب..إلــخ.. كمــا هــو معروف، محاولة منهــا للتقسيم الطائفــي الذي هو أشد خطورة وأبلــغ أذى في جسم الأمة من التقسيم الجغرافي.

وصدرت عن المندوب السامي الفرنسي عدة قرارات في هذا الخصوص كان أهمها القــرار (٦٠ ل. ر) تاريــخ ١٣ /٣/ ١٩٣٦ الذي قسم المواطنــين السوريين واللبنانيين إلى طوائف: سنيّ، وعلوي، ودرزي، وشيعي،

وإسماعيلـــي، وكاثوليـــك، وبروتستانـــت، وأرثوذكس.. إلـــخ، وأنشأ تسلسلاً هرمياً في درجات الرؤساء الروحيين وطريقة تعيينهم.. إلى آخره.

وغني عن الشرح أن سياسة فرنسا (فرق تســـد) هي الهدف والدافـــع الأساسي لهذا القانون فقامـــت الاحتجاجات والتظاهرات في البلاد بدافع الحس الوطني العميق وتحت تأثير النهوض الوطني النسبي وقتئذ.

فاضطرت السلطـــات الفرنسية المنتدبة أن تتراجـــع قليلاً فأصدرت القرار (٣ ل.ر) تاريـــخ ٣٠ /٣ /١٩٣٩ ألغت بموجبه تطبيق قانون الطوائف على المسلمين، ولكنها أبقته معمولاً به على غير المسلمين لغايات لم تخف على أحد.

في عهد الاستقلال: بتاريخ ١٧ /٩ /١٩٥٣ صـــدر المرسوم التشريعي رقـــم /٥٩/ معلناً قانون الأحـــوال الشخصيـــة محل مجموعة قوانين الأحوال الشخصية المتناثرة.

وكان أول قانـــون يتمتـــع بصفة مدنية، استمد أحكامه من المذاهب الأربعة بما يتفق وحاجات الناس، مما أغنى رجل القانون عن الرجوع إلى المصادر التاريخية المتعددة ولكنه لم يتنـــاول شؤون المواطنين كافة إذ بقيت إلى جانبه مجموعة القوانين الصادرة بالقرارات التي سبق وأعلنتهـــا سلطات الانتداب منها القرار (٦٠ ل.ر) المعدل بالقرار (٤٦ ل.ر) الصادر بتاريخ ١٨/ ١/ ١٩٣٨.

وبقـــي هذا الازدواج بـــل هذه الكثرة في قوانين الأحـــوال الشخصية والتي بلغت ما يزيـــد عن أحد عشر قانونـــاً وفي بلد واحد وحتـــى يومنا الحاضر، فهل هنـــا ثمة مبرر لهذا التعدد..؟

إذا عرفنا أن قانون الأحوال الشخصية.. إنمـــا يتناول أحكام شـــؤون الأسرة من زواج وطلاق ونفقـــة ومهر..إلخ، نجد أنه القانون الأكثر أهمية.

ومـــن الرجوع إلى تعاريـــف عقد الزواج لدى كل الطوائـــف.. روم أرثوذكس أو أرمن أرثوذكس.. كاثوليك.. بروتستانت، نجد أنه لا خلاف علـــى الإطلاق من حيث المضمون إنما الخـــلاف في الألفاظ وصياغة التعابير ويرجع ذلك إلى سوء الترجمة عن الفرنسية، وربمـــا كان سوء الترجمة عـــن قصد لتبرير الكـــثرة والتعـــدد، وبالتالي لتبريـــر التفرق والتقسيم والتفتيت.

الســـؤال الآن ما هي مـــبررات استمرار وجود هذه القوانين..؟!

إذا كان الأمـــر مقبـــولاً في عهد الدولة العثمانيـــة فـــلأن الدولة وقتـــذاك كان لها مسحة دينية إسلامية استلزم الأمر التسامح مع بقيـــة المواطنـــين غير المسلمـــين في أن

يعيشوا وفق تقاليدهم تطبيقاً للآية الكريمة (لا إكراه في الدين).

وإن كان الأمر مقبولاً في عهد الانتداب الفرنسي فلأن المستعمر طبق بين المواطنين سياسة فرق تسد وأجبر الناس عليها وكان من المفترض أن تزول هذه السياسة بزوال صاحبها (المستعمر الفرنسي).

إذاً، ما هو مبرر بقاء قوانين لم تصدر عن الدولة الوطنية ولا عن جهاتها التشريعية إنما عن مراجع لا تملك حق إصدار التشريع.

لقد استلزم وجود هذه القوانين وجود محاكم تبعاً لها، يرأس كل واحدة منها رجل دين، والملفت للنظر هنا أن رجل الدين الذي يرأس المحكمة، ويطبق قانوناً لم يصدر عن السلطات الوطنية ذات السيادة ينطق أحكامه باسم الشعب العربي في سورية، والشعب العربي في سورية لا علم له بذلك..!!

ونجد هذه المحاكم أنها لا تخضع لسلطة تنظيمية ولا تفتيشية، والقضاة فيها لا يعينون من قبل الدولة ولا رقابة لوزارة العدل عليهم ولا تملك أية جهة حكومية حق مداعاتها.

ثم إن الأغرب من كل ذلك أن قضاة هذه المحاكم وموظفيها لا يتقاضون أي راتب عن عملهم، لذلك نراهم يستوفون أموالاً من المتقاضين تحت عنوان رسوم.. غالباً ما يكون مبالغاً فيها ومرهقة للمتقاضين، لأنها مزاجية وتختلف من دعوى لأخرى تبعاً لاختلاف وملاءة المتقاضين وإمكاناتهم على الدفع، وكم وجدنا نحن المحامين من خلال الدعاوى التي رافعنا بها أمام المحاكم مواطنين عانوا الأمرين ولم يكن أمامهم الخيار للخروج من أزمتهم إلاّ بالدفع، أو تغيير انتمائهم المذهبي أو الديني.

بكل ما يحتمل هذا التغيير من مآسي اجتماعية مفجعة ثم إن الغريب في الأمر حقاً أن قرارات بعض هذه المحاكم لا تقبل الطعن استئنافاً إلا أمام محاكم كانت تقع خارج القطر (كانت محكمة الاستئناف في زحلة- لبنان ومعظم الأحكام تخضع لتصديق الفاتيكان في روما)، وهذا ما لا نجد له مثيلاً في أي تشريع في العالم؟

فمن يملك حرية إبرام العقد يملك حق فسخ العقد وجميع هذه القوانين تؤكد على حرية عقد الزواج ولزوم شرط الرضا فيه.

(يقوم الزواج بالرضا الذي يبديه كل على مقتضى الشرع، فريقان قابلان لعقده شرعاً وليس في إمكان سلطان بشري أن يعوض عنه إذا نقض).

يلاحظ هنا التأكد على حرية التعاقد ووجوب الرضا الذي لا يمكن التعويض عنه في حال نقصانه وبالتالي فإن القول بأن

عقد الزواج هو سـر مقدس يعطيه الكاهن للزوجين لم يعد يأتلف حتى مع أكثر النصوص تشدداً وهذا ما أخذت به جميع التشريعات في العـالم الغربي (أوروبة وأمريكة) وأطلقوا عليه اسم (قانون الزواج المدني).

فـإن تحنيـط القوانين وإضفـاء صفة القدسيـة عليها مـا هو إلاّ أمـر مدبر في محاولة لإبقاء القـديم على قدمه بما يوفر لأصحابه من مزايا وعطـاءات، والتحنيط يخالف العقيدة.

الذي يعنينا من هذا الكلام أن لا قانون يحنـط ولا قانـون يبقـى على حالـه وأن التعديـل وارد حتى في أكثر القوانين تطرفاً وتزمتاً، وإذا استوعبنا هذه الحقيقة، وجدنا أن مهمـة صنع وحدة التشريـع سهلة، وفي متناول اليد.

الكثير من رجال القانون بدأ يتحدث عن ضرورة توحيد قوانـين الأحوال الشخصية، إن الزمن الذي كان يخاف منه رجل القانون مـن إبداء وجهة نظـره في كل تشريع لم يعد يأتلـف ونهضـة البلاد وقـد ولّى وإلى غير رجعة وها هـي مجلة المعرفـة الغراء تفتح صدرها لكل الآراء.

وإن كان لا بدّ مـن إعمال قانون خاص للأحـوال الشخصيـة فليكن واحـداً لكل المواطنـين وصـادراً عن السلطـة الوطنية ذات السيـادة، ويطبقه قضاة تعينهم الدولة ويتقاضون رواتبهم منها ويخضعون لقوانينها مـن حيـث الرقابـة والتفتيـش والمساءلة المسلكية مثل كل قضاة المحاكم الأخرى.

كلمة أخيرة أقولها.. وحدة السيادة تفرض وحـدة التشريع فالانتمـاء أولاً وأخراً لهذا الوطـن، وإلى تاريخه وإلى موروث الأمة من تراثها الفقهي العتيد.

عساي أكون بهذا الـكلام أضأت شمعة متواضعة لها بصيص ضوء خافت في مسيرة الصحـوة والتصحيح مـن عتمة الظلام في ظل مسيرة التطوير والتحديث.

آفاق المعرفة



العبقرية والعمى لدى الشاعر بشار بن برد

عبد الكريم إبراهيم قميره ❁

ولــد بشار أعمى فلم يَرَ من العالم الخارجي شيئاً وبذلك حُرم من التمتع بمباهــج الحياة البصرية، وعاش في ظــلام دامس لا يلمح خلاله إلاّ أشباحاً تتداخل في مخيلته ثم تعود فتتلاشى..

وأحسّ هو، بأهمية عينيه خاصة أنهما الوحيدتان اللتان كانتا ستطلعانه علــى الحياة الخارجية مــن مناظر فاتنة ورؤية لآيــات الحضارة الجديدة، وشعــر أيضاً بأن عماه سيبقيه أسير عالم الظلمات وسيمنعه من الوصول إلى عــالم النور.. ولكن هــل يرضى هو بما كتب له دهره الذي حرمه من التطلع

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

إلى وجــوه حســانٍ وثغور تطفــح بالرضاب الحصــب[1] ومنعه من رؤيــة النور في عالم النور؟

لقد شعر بشار بأنه منكوب في دنياه من عالمه ومعاصريه، لكن هل يتخاذل أمام عماه ويستكين بألم وحسرة كما يفعل بعض الناس، أم أنه يقف بصمود فيتحدى الأقدار مظهراً أنه لا يأبه لفقد بصره..!

إن آثاره الشعرية مزدحمة بأمثال عديدة تبيّن كيف أنه جابه القدر وبيّن للناس بوضوح أن فقــدان عينيه لا يوقفه كلياً أمام أحداث الحيــاة بل يزيده قوة وبأســاً وتفوقاً، وعزا ثقافتــه المفرطة وذكاءه العجيــب إلى عماه فيقول:

عميت جنيناً والذكاء من العمى

فجئت عجيب الظن للعلم موئلا..

ولاغرابــة أن يدعــي بأن الــذكاء نتاج للعمى، فهو يريــد أن يظهر للناس أنه رغم عماه يستطيع أن يلــم بالحوادث وبظواهر الحيــاة كالمبصرين، وقد درســ علم النفس الحديــث هذه الظاهــرة وأرجعهــا إلى أن المصاب بعاهة يتظاهــر للناس أنها لا تعيق نشاطه.. وقد أتى بشار بموصوفات متعددة لمظاهر مختلفة من الحياة وأحسن وصفها.. فما هي الطرق التي كان يتبعها للوصول إلى ذلك؟

لقد اتبــع بشار طرقاً عديــدة مستعيناً بثقافتــه الواسعة التــي اكتسبها من عصره ومــن مجتمعــه العباسي الــذي كان ملتقى الثقافات والحضــارات المتعددة من يونانية وهندية وفارسية.. ثــم إن عماه كان يدفعه إلى الاستزادة من ثقافة العصر الجديد، وإلى حضور المناقشات الأدبية والمساهمة فيها في أغلب الأحيان.. هذه العوامل ساعدت بشار على وصف الأشياء التي لم يرها، وإضافة إلى هذه العوامل ثمة عامل آخر على جانب كبير من الأهمية، وهو الخيال الخصب الذي كان يتمتــع به.. فهو أعمى، والأعمى لا يستطيع أن ينصــرف إلى مشاغل الحياة اليومية، بل إنه ينزوي في مجلسه لا يرى شيئاً، ولا مجال لــه إلاّ أن يسرح بتفكــيره، يتساءل عن شكل الأرض وما عليهــا من الأشياء، يتساءل عن شــكل الوجوه الحسان، وعــن كيفية إشراق الشمس..وهذا ما يزيد في مرونة خياله، وفي إعطائه القدرة الخلاقة والإرهاف المستدق على تصوّر الأشيــاء المادية والمعنوية، ثم إن فقدان بصــره زاد في قوة أعضــاء حواسه الباقيــة، وأكسبه قدرة خاصــة على إدراك الأشيــاء بوساطة هذه الحواس.. لذلك نراه يبيّن لنا كيف أنــه عشق فتاة لم يرها، وإنما سمع أنهــا جميلة فوقعــت في نفسه موقعاً حسناً، فيقول:

بلّغت عنها شكلاً فأعجبني
والسمع يكفيك غيبة البصر..

ويقول في موضوع آخر:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم
الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

إن بشار، لا شك يبالغ في قوله، إذ لايقوم مقام العين أي عضو، فهي المنفذ الوحيد للعالم الخارجي، ولكن ما حيلته وهو الضرير، ونحن نلاحظ كيف يُظهر عدم اهتمامه بعينيه، بقوله بأن أذنيه توفيان مكان العين، وهذا قول غير صحيح.. ولكنه يريد أن يفهم الناس أنه قادر على تحسّس الأشياء ومعرفتها رغم عماه، ولكننا لا نستطيع إلاّ أن نؤيده بعض الشيء، ذلك لأن السمع يساعد على إدراك حقائق الأشياء، إذا كان صاحبه يتمتع بتلك الفطنة التي كان يتمتع بها صاحبنا بشار.. ونذكر هنا حادثة جرت معه.. قال لأحد أصدقائه بأن تلك الفتاة التي تضحك جميلة جداً، فقال له صديقة، وكيف عرفت؟ فقال: إنها تكثر من الضحك لكي تظهر جمال أسنانها.. إن هذه الحادثة تبيّن لنا بوضوح كيف كان سمعه الدقيق وذكاؤه العجيب يساعدان على استنتاج الحقائق.. وكان إذا سمع صوتاً جميلاً وصفه مشبّهاً إياه بموصوفات مادية بحتة فيقول:

وحديث كأنه قطع الرو
ض وفيه الصفراء والحمراء

ويقول في موضع آخر:

وكأن برجع حديثها
قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها
هاروت(٢) ينفث سحرا..

إن الشاعر الضرير يشبه شيئاً يسمعه بأشياء لم يرها قط، لكنه كان يعرف أن الحدائق تكتسي بأبهى الحلل من أعشاب خضراء وأزهار متفتحة متلألئة، ولكن هل كان يعرف لونها؟! إن هذا الصوت الجميل أعجبه، فلم يجد له شبيهاً إلاّ الحدائق الغنّاء، كما إنه يرى بأن تحت لسانها هاروت الذي ينفث فيه السحر والرقة والحلاوة..

واستطاع الشاعر الضرير أن يعوّض فقدان البصر بحاسة الشم، التي تمكنه استنشاق روائح المعشوقة إذا جالسها، كما إنها تكون الرسول الأمين الذي يبلغه بقدومها، فيقول:

هوى صاحبي ريح الشمال وإنه
لأشفى لقلبي أن تهب جنوبُ
وماذاك إلاّ أنها حين تنتهي
تناهى وفيها من عبيره طيبُ



وهل هناك أقدر من الأعمى على استنشاق الروائح؟ لقد قويت عنده حاسة الشم لدرجة أنه يستطيع أن يعيّن ويحدّد صاحب العطر.. وإضافة إلى هذه الحاسة المرهفة، كانت حاسة اللمس تقوم بدور كبير في اطلاعه على حقيقية الأشياء، فإذا ما لمس أي شيء استطاع فوراً تعيينه ومعرفة خصائصه.. ألسنا نلاحظ كيف يتعلم العميان في هذا العصر، فهم يستعملون أطراف أصابعهم في إدراك معنى الأحرف ودلالاتها، خاصة أن حاسة اللمس في جلدة أطراف أصابعهم تزداد حدة بعد أن تعطلت قدرة العين، وهي أهم الحواس.. وليس بغريب أن يتمتع بشار بهذه الحاسة القوية المرهفة في اللمس فتساعده على معرفة ما يجول أمامه.. فيقول مخاطباً امرأة:

أمامةُ قد وصفت لنا بحسنٍ
وإنا لا نراك فألمسينا..

كما إنه استطاع أن يصف فتاة مرّت أمامه وهي تتثنّى في مشيتها فيقول:

ودعجاء المحاجر من معدّ
كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لمشيتها تثنّت
كأن عظامها من خيزران

وتشابيهه هنا مادية بحتة لأنه يشبّه الحديث بأثمار الجنان، وهذا، كناية عن جماله ثم يشبّه قدّها بالخيزران لمرونته في التثنّي.

وبالإضافة إلى لجوئه لحواسه الباقية، فقد كان يلجأ لثقافته الواسعة التي تحدثنا عنها سابقاً، فقد اطلع على دواوين الشعراء وآثار الكتاب وفهم آراءهم وهضم أفكارهم

وموضوعاتهم.. فعندما يصف الجيش وهو الذي لم يره في حياته نراه يصفه مشبّهاً إياه بالليل ويشبّه كثرته بالحصى، يقول:

وجيشٍ كجنح الليل يزحف بالحصى
وبالشوك والخطيُّ حمرٌ ثعالبُهْ(٣)

ولعل البيت الذي وصف فيه المعركة والذي اشتهر وتناقلته الألسن يبيّن لنا أنه اكتسب صوره البيانية من ثقافته ومن خياله الواسع الأجنحة؛ فيقول:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(٤)

إن الشاعر الضرير بشار لم يرَ الغبار في حياته كما إنه لم يرَ السيوف اللامعة ولا الكواكب التي شبهها بها.. وهذا يدل دلالة صارخة على أن تشبيهاته كانت تقليداً بارعاً لغيره مضيفاً إليها ما ينتجه خياله المتفوق من إبداعٍ وتصور.. ولكننا لا نستطيع إلاّ أن نعجب بهذا الوصف ونعترف بقدرته الخلاّقة على التخيّل. بل إننا نرى بأن أحداً لم يستطع مجاراة هذا الأعمى في وصف الجيش، اللهم إلاّ المتنبي الذي جاء وصفه واقعياً، ولا عجب في ذلك فهو الفارس المبصر الذي شارك الأمير سيف الدولة الحمداني في القتال وراقب الفرسان المقاتلين وتحركاتهم بدقة.. يقول:

أتوك يجرون الحديد فكأنهم
سروا بجياد مالهن قوائم(٥)

هل رأيت طوال حياتك خيلاً تسير من دون قوائم؟! أما المتنبي فقد رآها كذلك، فالخيل كانت مدرّعة بالفولاذ الذي غطّاها حتى قوائمها فبانت كأنها تسير من دون قوائم..

وعندما يقول عن الخيل أيضاً:

إذا زلقت مشيّتها ببطونها
كما تتمشى في الصعيد الأراقم(٦)

إن الشاعر المتنبي رأى هذه الخيول الزالقة المتعثّرة لكنه رأى أيضاً الأمير الهمام سيف الدولة يجعلها تتحرك وكأنها تتمشى على بطونها مثل الأفاعي التي تنساب على بطونها بسرعة وسلاسة..

طبعاً لن نجد عند بشار أي بيت شعري يعبّر عن صورة حية كما عند الشاعر المتنبي.. فإذا أردت أن تتخيل الصورة التي يقدمها الشاعر بشار في شعره، وجدتها باهتة الألوان غير واضحة المعالم، على عكس المتنبي الذي يقدم لنا الصورة واضحة براقة دقيقة التفاصيل والمعالم وجياشة بالمشاعر..

ولكننا، نتذكر أن المتنبي كان شاعراً فارساً فحلاً يبصر كالعقبان فيترصد أي حركة مهما كانت صغيرة.. أما الشاعر بشار فضرير لم ير الوجود مطلقاً.. فخياله المبدع،

المنفصل[٧] كما يسميه علماء البلاغة والبيان، استطاع أن يخترع الصور من ذاكرته الغنية بما سمعه من الآخرين عن تحركات الجيش والمعارك الحربية..

ولـــذا فإن بشـــار ينال درجـــة عالية في التفـــوّق ويقف بجانـــب الشاعـــر المحارب المتنبي.. ولذلـــك فإننا نستطيـــع أن نشهد لبشـــار بالقريحة الجيدة والمقـــدرة الفائقة في التـــلاؤم مع شـــروط الحيـــاة المادية من دون أن يشعـــر بأي انتقاصـــ لفقدان عينيه وهما المنفذان الوحيدان المطلاّن على العالم الخارجـــي فيعوّضـــ ذلك الخســـران ببقية حواســـه من سمـــع أو شم أو لمـــس من دون أن يظهر عليه العجـــز أمام مظاهر الحياة المتعددة.. فقد وصـــف الأشياء وصفاً رائعاً قد يعجز عنه كثير من المبصرين، يساعده في ذلك خيال واسع تشعبت أطرافه واتسع أفقه وخـــلا من أي سحابة داكنـــة تعكّر صفاءه.. ثـــم إن ثقافتـــه الزاخـــرة، وذكاءه العجيب وشعوره بعمـــاه.. وبقاءه في داره فلم يحضر المعـــارك، وإذا حضرها لا يراها.. أقول: إن كل هـــذه العوامل كانت سبباً وجيهاً لإبداعه في مضمـــار التشابيه الشعرية وسياق العمل الفني..

الهوامش:

١- الحصب: البارد.

٢- هاروت وماروت: ملاكان ساقطان من السماء يهتمان بالفنون.

٣- الجنح: قسم من الليل المظلم، الحصى: الكثير العدد كالحصى، الشوك: جمع شوكة- وهي السلاح الحاد، الخطّي: نسبة إلى الخط وهو مكان في البحرين رماحه مشهورة، الثعالب: جمع ثعلب وهو طرف الرمح الداخل في السنان..

٤- مثار النقع: الغبار المرتفع، النقع: الغبار والإضافة من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، واصلها: النقع المثار.

٥- سَرَوا: مفردها سَرى: أي ساروا في الليل.

٦- الصعيد: وجه الأرض، الأراقم: جمع أرقم: نوع من الحيات.

٧- المنفصل: الخيال نوعان: المتصل يذهب بذهاب المتخيل- والخيال المنفصل: حضرة ذاتية قابلة للمعاني كما شرحها الدكتور عبد الكريم اليافي نقلاً عن ابن عربي في الفتوحات المكية.

المراجع:

١- حديث الأربعاء الجزء٢، د. طه حسين.

٢- الرؤوس، مارون عبود.

٣- شعر الحرب في أدب العرب، د.زكي المحاسني.

٤- تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري.

٥- المحيط في الأدب العربي الجزء٢، جبران مسعود.

٦- شخصية بشار، د.محمد النويهي.

٧- دراسات فنية في الأدب العربي، د.عبد الكريم اليافي.

٨- معجم الأدباء ذوي العاهات، كارين صادر- نصير الجواهري.

٩- الرائد في الأدب العربي، نعيم الحمصي.





بين فرانكفورت والقاهرة.. تبقى دمشق
(ساعة الجامع الأموي)

عبد العزيز الجراقي ❊

(المثقف هو الذي يقوم بمهام لم يكلفه بها أحد)

جان بول سارتر

مؤخـــراً ومنذ حوالي السنتين أعلن بعض العاملين على التراث الإسلامي في القاهرة اكتشافهم لساعة الجامع الأموي المائية وأنهم قاموا بتنفيذ مجسم لهذه الساعة وقد تمَّ عرضه في أحد متاحف القاهرة على أنه ساعة الجامع الأمـــوي أي ما يعرف تراثياً بـ(ساعة رضـــوان الساعاتي) وأنه قد تمَّ تصنيع

❊❊ مهندس معماري وباحث في التراث العربي (سورية).

هذا النموذج بناءً على ما جاء في المخطوط الأصلي الذي وصفها فيه رضوان الساعاتي وتمَّ تنفيذ هذا المجسم بنفس طريقة الوصف الأصلية تماماً.

يأتـي هذا الإعلان بعـد أن قام السيد البروفيسور فؤاد سزسكين الألماني الجنسية بالإعلان عن اكتشاف الساعة المذكورة نفسها وتصنيع أنموذج عنهـا وذلك في ثمانينيات القرن الماضي ووضعه في متحف يخصه في فرانكفورت وسماه ساعة رضوان الساعاتي أي ساعـة الجامع الأمـوي ونشر صور هذا النموذج في مجلة العالم العربي الألمانية التي تصدر بالعربيـة إضافة لوضع صور لها في موقع خاص به على الإنترنت.

تأتي هذه المحـاولات وبغض النظر عن مـدى صدقها ودوافعها أو حتى الغاية منها كخطـوة جيـدة في بيان مـدى أهمية هذا الجهاز وإيضاح تقدمه العلمي مثيراً تساؤلات عديـدة إلى جانب التصورات المختلفة حول الموضوع.

وإذا رجعنـا إلى المحاولات الجادة والتي تمتعت بنـوع مختلف من المصداقية واتبعت المنهـج العلمي في البحث نجـد أن أول من تصدر لهذا الموضوع وبذل فيه جهداً صادقاً همـا البروفيسوران الأكاديميـان في ألمانيا (ايلهـارد فيدمـان وشريكه هاوسـر) فقد قامـا بنشر أبحاث علمية حول هذه الساعة ونشراها في عـام ١٩١٥ على شكل مقالات في صحـف ألمانيـة تشمل دراسـة تحليلية مستفيضـة ومحاولة جادة علمية لفك ألغاز مخطوطة رضوان الساعاتي مع وضع بعض الرسوم حول هذا الموضوع وعلى الرغم من وجـود كثير من الأخطاء في هذه التصورات وعـدم إمكانية تنفيذ هـذه الرسوم إلا أنها كانـت تسير بالاتجـاه الصحيـح ودون أي محاولة منهما لإسقـاط أفكارهما الخاصة على هذا العمـل أو التجـاوز بوضع حلول شخصيـة لمشـاكل لم يتمكنـوا مـن التغلب عليها.

في أواخر القـرن الماضي في عام ١٩٨٤ قام السيد البروفيسور فؤاد سزسكين بجمع هذه المقـالات على شكل مجلـدات نشرها بالألمانية.

إضافـة لقيـام البروفيسـور الإنكليزي الجنسيـة دونالدهيـل بتأليـف كتاب عن (الساعـات المائيـة عند العـرب) وقد تمَّ نشر هـذا الكتاب بالتعاون مع معهد التراث

بجامعة حلب بنسختيه العربية والإنكليزية.

تكلم في جزء منه عن ساعة الجامع الأموي ونشر رسوم الألمانيين فيدمان وهاوسر نفسها مصراً على أنه تمَّ وضع هذه الرسوم من قبله ولم يستطع أن يضيف أي إيضاح علمي ميكانيكي جديد سوى أنه خلص في كتابه أنه (على الرغم من كل ما سبق وتمَّ وصفه فلن يستطيع أحد إعادة إنشاء هذه الساعة) ومن ثم أتى الأستاذ والباحث الشيخ محمد أحمد دهمان وكتب عن ساعة الجامع الأموي مضيفاً إلى تحقيق مخطوطة رضوان الساعاتي بعض التوضيح التاريخي حول موضوع الساعات وبشكل عام ولم يقدم أو يضيف أي جديد على ما ورد في المخطوطة سواء في الشرح الهندسي أو التوضيح الميكانيكي.

من كل ذلك وبمتابعة هذا الموضوع منذ زمن بجمع كل ما قيل أو نشر حول ساعة الجامع الأموي سواءً كان وصفاً أم دراسة كان لابد لي من وضع استراتيجية لهذا العمل بدافع التوصل إلى حل ألغازه بشكل علمي مؤكد دون الخوض بتكهنات لا تخضع لواقع علمي أو دليل تاريخي.

من هنا كان لابد من دراسة الأعمال الميكانيكية المختلفة للعلماء العرب والمسلمين وفهم طرق المعالجة الميكانيكية وإيجاد الحلول.

كانت البداية مع بني موسى بن شاكر في كتاب (الحيل) ومن ثم كتاب الجزري (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل) وكتاب (ميزان الحكمة) لـ(أبي الفتح عبد الرحمن الخازني).

ومن ثم كتاب تقي الدين (الطرق السنية في الآلات الروحانية).

وبالتالي فإن هذا الفهم الهندسي في المعالجات الميكانيكية المختلفة لإيجاد حلول تعتمد على البساطة في المواد والذكاء في الاستخدام. وضمن الرؤى الميكانيكية للعلماء المسلمين أوجد الأسس الصحيحة لإعادة إنشاء هذه الساعة أو كما تسمى (الساعات).

هنا أجد أنه لابد من أن أبسط موضوع هذا الجهاز المذكور وأصفه بناء على المخطوطة التي وضعها أحد أبرز من عمل على تشغيل هذا الجهاز عام (٦٠٠هـ-١٢٠٢م) وهو (فخر الدين رضوان بن محمد

علي الساعاتي الخراساني الدمشقي) الذي كان يشغل منصب وزير في الدولة الأيوبية وهذه المخطوطة موجودة في ألمانية في مكتبة غوته إضافة لوجود مخطوطة ثانية منسوخة عن الأصلية من قبل المهندس المصري (بيلك عبد الله القبجاقي) بعد ٥٦ عاماً هجرياً من كتابة المخطوطة الأولى إضافة لوجود مخطوطة ثالثة منسوخة في مصر في زمن أحمد تيمور باشا موجودة في دار الكتب المصرية والمخطوطات الثلاث متطابقة تماماً.

تتألف ساعة الجامع الأموي من ثلاثة أجزاء أساسية وهي تتوضع (كما وصفها ابن جبير) على الجهة اليمنى بالنسبة للخارج من الباب الشرقي من الجامع الأموي وعلى طابقين.

ومن الوصف الذي ورد في المخطوطة الأصلية نجد:

١ً- الطابق العلوي ويحوي على:

- القسم المشاهد خارجياً والمطل على المارة والذي يتكون من لوح كبير أبعاده تقارب (٢٤٠ × ٢٤٠) سم من الخشب والنحاس.

وفيه الفعاليات الأساسية للساعة.

وهي من الأسفل إلى الأعلى.

أ- أبواب نحاسية تدور حول محاور وعلى وجه كل واحد رقم يظهر إلى المشاهد بمرور كل ساعة وهي بحسب ساعات النهار ١٢ باباً.

ب- في أسفل هذه الأبواب مؤشر عليه هلال ينزلق مع مرور الوقت ليبين أجزاء الساعة.

جـ- فوق هذه الأبواب قباب نحاسية تظهر عند مرور كل ساعة مع دوران الباب.

هـ- على جوانب هذه الأبواب يوجد طائران (بازان) مصنوعان من النحاس مسبلي الأجنحة يقومان برمي كرات نحاسية في كؤوس لإصدار الصوت عند مرور كل ساعة.

د- في أوسط القسم العلوي يوجد نصف قوس من دائرة نحاسية به ١٢ فتحة ثابتة تضيء كل فتحة بالتدريج ليلاً لمعرفة مرور الوقت وتسمى (دائرة الليل).

و- ضمن دائرة الليل المضاءة توجد دائرة مقسمة إلى أبراج (زودياك) وهي تدور لتعطي البرج المحدد لمعرفة تغير الفصول وبالتالي معرفة أوقات تغير الفصول.

- في مركـز الدائرة السابقة يوجد سهم يـدور مع مرور ساعات النهـار ليبين زاوية سقوط الشمس على الأرض من الشروق إلى الغروب.

يغطـي الدوائـر بشكل نصفـي قطعة خشبيـة لها أعمـدة جانبيـة تسمى سمت الأفق.

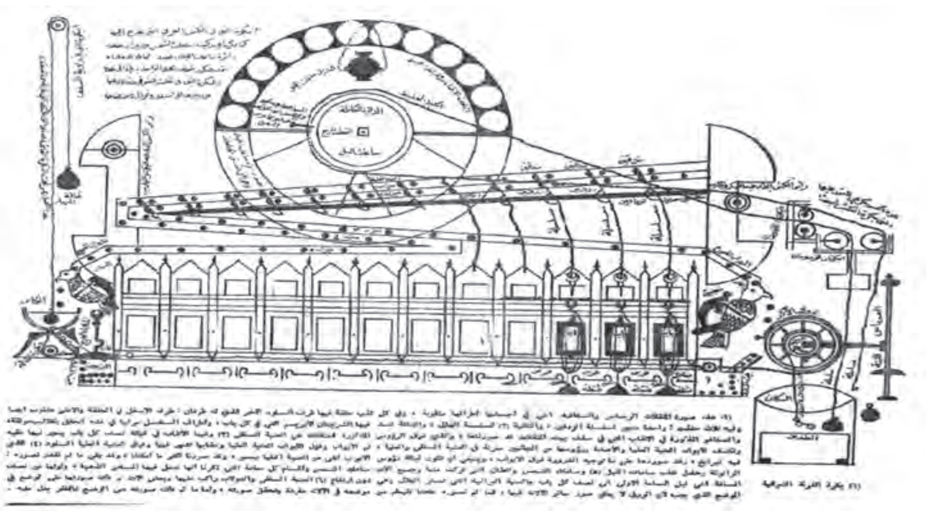
- أما في الخلف من القسم العلوي:

فهو يحتـوي على التركيـب الميكانيكي الذي يقوم بتحويل الحركة الآتية من الغرفة السفلى بوساطة الحبال إلى حركات مختلفة تدوّر كل الفعاليات السابقة.

٢ً- أما في القسم السفلي يوجد المحرك الذي يعطي الحركة للآلات العلوية بوساطة حبال وبكرات خشبية هـذا المحرك يعتمد على هبوط كتلة عائمة في خزان ماء (بنكان) بسبب نزح الماء من هذا الخزان.

إضافة لوجود فعاليات هيدروليكية تقوم بتغيير حركة هبوط الماء من حركة متباطئة بانتظام إلى حركة منتظمة وهي من النحاس إضافة لوجود قطعة أخـرى تقوم بالتحكم بعمل هذه الساعة.

هذا الوصف مختصر جداً ومبسط مأخوذ وبدراسة دقيقة عن المخطوط الأصلي



المخطط العام لساعة الجامع الأموي المائية

كما وضعه (رضوان الساعاتي) في مخطوطته الأصلية

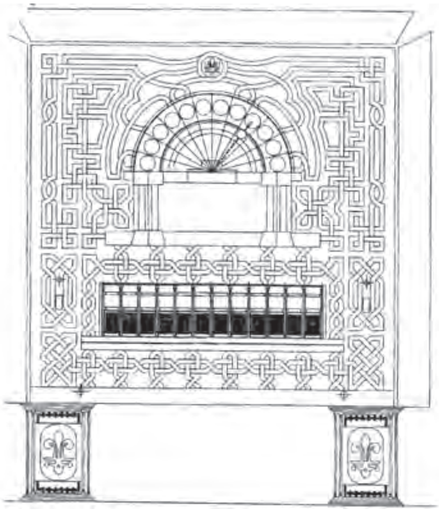
مؤخـــراً و بعام ٢٠٠٠ جــرى اتصال مع البروفيسور فــؤاد سزسكين عبر الهاتف في فرانكفــورت وبعد حــوار بيننــا أعلمته أن الساعـــة التي في متحفـــه ليس لها علاقة بـ ساعة الجامع الأموي ودعوته لزيارتي لرؤية الساعـــة الحقيقية في دمشق علماً بأنه يعلم تماماً ومـــن خلال جمعه لأعمـــال (ايلهارد فيدمان وهاوســر) أن ما يعرضه في متحفه غـــير متطابق مـــع الرســوم أو الوصف مع الساعة الأصلية سواء في أعمال الألمانيين أو في المخطوطة الأصلية لـ رضوان الساعاتي.

تمَّ في عـــام ٢٠٠٤ لقـــاء مـــن قبل أحد الصحفيـــين في دبي نشرت خلاله معلومات أولية حول هذه الساعة والمخطط الخارجي لها.

في عـــام ٢٠٠٦ قمت بنشــر تفصيلات ومعلومـــات أكثر حـــول هـــذا الموضوع عن الساعة المذكورة في مجلـــة المعرفة السورية في العدد (٥١٨ ـ تشرين الثاني ٢٠٠٦).

إضافة لنشر مقال بالإنكليزية حول هذا الموضـــوع لدى مؤسسة علمية إنكليزية تعنى بنشر التراث والعلوم الإسلامية.

وضمـــن موقعهـــا علـــى الإنترنـــت (muslimheritaje).



مخطط واجهة ساعة الجامع الأموي بعد إعادة إنشائه مطابقاً لمخطوط (رضوان الساعاتي)

كان لابد مـــن توضيح بعضـــ الحقائق حول هذا الموضـــوع دفعاً للالتباس من قبل جهات مختلفة عربية وغربية التي اعتمدت على ثقتها بعدم أهليـــة الآخرين في معرفة هـــذا العمل. وعلى الرغم مـــن الحاجة إلى صفحـــات كثيرة تقال حول ذلـــك يبقى من أهم ما يقال أن الساعات المائية التي عرفت تاريخيـــاً وامتد وجودها علـــى مدى قرون ابتداءً من ساعة هـــارون الرشيد إلى ساعة مدينة فاس بلغ المعروف منها حتى الآن أكثر من ٢٢ ساعـــة انتشرت على امتـــداد العالم الإسلامي اعتمدت على مبدأ عام مشترك:

ـ توليد الحركة من محرك مائي بسيط

. الآلات التي تسبب مختلف الفعاليات

. الحــركات المختلفــة التي تــدل على الوقت.

تختلف هذه الحركات والفعاليات حسب أهميــة وحجــم وموقع هــذه الساعة فمن ساعة صغيرة صندوقية إلى ساعة متوسطة للقصــور إلى ساعة أكــبر للمدينة توضع في المراكز الهامة.

(ساعــة رضــوان الساعاتــي توضعت بالقــرب من الجامع الأمــوي وبقرب الدار الخضــراء دار الحكــم ويديرهــا وزير في الدولة).

أما من ناحية التوقيت فمنها من يعطي التوقيت نهاراً فقــط (من الشروق للغروب) ومنها من يعطي الوقت نهاراً وليلاً.

يتنوع التوقيت بين تقسيم زمن اليوم إلى ٢٤ جــزءاً متساويــاً كالتوقيت الحالي لدينا وكان هــذا النظام يسمى (الساعة المستوية) أي المتساوية وتأخذ الأهمية الثانية.

أمــا التقسيم الأهم فــكان يعتمد على تقسيم النهــار إلى ١٢ جزءاً متساوياً والليل إلى ١٢ جــزءاً متساويــاً وبالتالي فإن ساعة النهار في أطول يوم صيفي تبلغ (٧٦) دقيقة أما ساعــة الليل ولليوم نفســه فتبلغ (٤٤) دقيقة.

ويسمــى هــذا الأسلــوب في التقسيــم للساعات بالساعــة (الزمانية) وهي الأهم يأخذ هذا التقسيم أهميته سابقاً بسبب:

١- الغايــة الوظيفية وهــي الاعتماد في الأعمال اليوميــة كافة على ضوء النهار أي كل الفعاليــات نهارية وبالتــالي تقسيم النهار من الشروق إلى الغروب إلى ١٢ جزءاً يعطي ارتباطاً حقيقياً بمرور الوقت وبالتالي ارتباط العمل بزمن إنجازه.

٢- يساعد هــذا التقسيم على تثبيت مواقيت الصــلاة فالظهر علــى الساعة ٦ بشكل ثابت على مــدار السنة والمغرب على الساعة (١٢).

٣- إن هذا التقسيــم (الزماني) وليد لقسمــة الساعــة الشمسيــة (المزولة) التي تعمل من الشروق إلى الغروب وتعطي ساعات متساوية للنهــار الواحد ومختلفة على مدار السنة.

ينبع جزء من أهمية ساعة الجامع الأموي في أنها يمكن أن تعمل بكلا الطريقتين بشكل تلقائــي وبالاعتماد على مبــادئ ميكانيك السوائــل وبذكاء علمي بسيــط إضافة إلى أنها تحــوي على ثمانيــة فعاليات خارجية تبين الوقــت وبصور مختلفــة وبالتالي فإن دراســة هذا الجهاز تبين أنــه فعلاً مواكب علمي ومكمل للجامــع الأموي ذلك الصرح المعماري الحضاري.


ساعة متحف فرانكفورت


ساعة متحف القاهرة

من ذلك وإذا ناقشنا صدق ما تمَّ عرضه في فرانكفورت أو القاهرة ودون أن نخوض مسبقاً بعمل هذه الساعة كما يريد عارضو هاتين الساعتين بالقفز إلى أن هذه الساعة تعمل ويمكن رؤيتها تعمل. (بغض النظر فيما إذا كانت هي ساعة الجامع الأموي).

فبداية ليس كل ساعة تعمل يجب أن تكون ساعة الجامع الأموي الأهم من ذلك تطابق في المواصفات وطريقة التنفيذ للساعة المذكورة.

إن أغلب الساعات المائية تعتمد على وجود أبواب تفتح وطيران يلقيان الكرات واحتمال وجود دائرة تضاء في الليل.

وبالتدقيق حول ما نشر سابقاً عن ساعة فرانكفورت (وبالمقارنة مع ساعة رضوان الساعاتي الأصلية) نجد ما يلي:

١- الحجم الكلي العام أصغر بكثير مما تم ذكره في أبعاد ساعة الجامع الأموي حسب المخطوطة (هذه الأبعاد مذكورة في الفصل الأخير من مخطوط رضوان الساعاتي).

٢- لا يوجد (لساعة فرانكفورت) محرك مائي منفصل خارجي ولا يمكن أو يجوز إقحامه ضمن خلفية الساعة لأنه مخالف لكامل التوصيف للساعة الأصلية.

٣- لا توجد قطعة منفردة خارجية تقوم بإدارة الساعة (تسمى الصينية).

٤- كامل الميكانيك تم تغطيته من الخلف بلوح خشبي (لإخفاء كامل التركيب الميكانيكي إذا وجد).

٥- الدائــرة العلوية وهي دائــرة الليل التــي تضاء تقع في أعلــى جسم الساعة في المنتصــف وهي مضافة وتشبه وصف ساعة (الجزري المائية).

٦- تخفي نصف الدائرة العلوية في ساعة الأمــوي قطعة خشبيــة ذات أعمدة تسمى سمت الأفق لتعيين شروق الشمس وغروبها وهذا غير موجود في ساعة فرانكفورت.

٧- الطائــران اللــذان يلقيــان الكرات (البازان) مثبتان في ساعة فرانكفورت بشكل مخالف عن ساعة الأموي.

٨- الكؤوســ التــي تُلقى بهــا الكرات لإصدار الصوت لا تحوي المرآة المذكورة في ساعــة الأموي وغير مرتبطة بجسم الساعة لإعادة الكــرات إلى الخلف إلى ما يسمى بـ (بيت الكرات) ولا يوجد لها أي قاعدة تثبت عليها كقواعد أعمدة الجامع الأموي.

٩- التركيب العام لــ الأعمدة والأبواب ودائــرة الليــل في ساعــة فرانكفورت غير متطابقة مع المخطوطة.

وعلــى الرغم مــن كل ذلــك إذا أغفلنا الأبعــاد المغلوطــة لهــذه الساعــة وعملها المختلــف (إذا كانــت تعمــل) وترتيب هذه الفعاليات نجــد أن هناك مشكلة أكبر وهي أن هناك فعاليــات متعددة غير موجودة في (ساعة فرانكفــورت) ومذكورة هذه الساعة بحسب وصف وتفصيل المخطوطة الأصلية لساعة الأموي وهي:

١- لا يوجــد قباب فــوق أبواب الساعة كما هو في ساعة الأموي.

٢- لا يوجــد مؤشر ينزلق تحت الأبواب ليعطي أجزاء الساعة.

٣- لا يوجد دائرة أبراج (زودياك) لبيان تغير الفصول.

٤- لا يوجد سهم ودائرة الشمس لإعطاء ميــلان سقوط أشعة الشمســ على الأرض وشروق الشمس وغروبها.

٥- لا يوجــد قواعــد للكؤوس مع الممر الذي تحويه لإعادة الكرات إلى بيت الكرات الخلفي.

هذه الفــروق تأتي مقارنة مع المخطوط الأصلي ودون الخوض في ميكانيك الساعة الخلفــي وبمقارنــة ساعــة فرانكفورت مع الساعة المائيــة للجزري فإنها تأتي مطابقة جزئياً لها في بعض فعالياتها.

وإذا انتقلنا إلى متحف القاهرة نجد أن هنــاك تطابق غريب بــين العملين (لساعة فرانكفــورت وساعة القاهــرة) سوى أنه تم تكبير أحــد الأبعاد الخارجية العامة لساعة القاهــرة إلى ٢٤٠سـم وهــو مــا تمَّ ذكره في مقالاتــي السابقــة في الصحــف وعلى الإنترنت مما يعطي انطباع فوري أنها لنفس

الصانــع المصري الــذي كان يعمل في ورشة عمل متحف فرانكفورت سوى أنه أدخل بعض التعديــلات غير المبررة ومزيــداً في الإساءة وذلــك باختصار عــدد فتحــات الساعات الليلية الظاهرة من ١٢ إلى ٥ فتحات وعدل أشكال الطيور التي كانت على قدر كبير من المطابقة والجــودة إلى أشكال لطيور غريبة مع طريقة تنفيذ متواضعة جداً وغير ملائمة لجهاز اقترن اسمه مع صرح الجامع الأموي ودار الحكم الإسلامي في دمشق.

تم سابقاً نشر معلومات مفصلة حول هذه الساعة من قبلي بالتعاون مع مؤسسة العلوم والتكنولوجيا البريطانية التي تُعنى بالتراث الإسلامي (Foundation for Science Technology and civilization) والتي يرأسهــا بروفيسور في الميكانيك وهو مدرس الحركة السريعة في جامعة مانشستر وقد واكــب نهايات عملي في إعــادة إنشاء ساعة رضــوان الساعاتي منــذ عام ١٩٩٩ مقدماً الدعم والتشجيع الكبيرين من خلال زيارات متعددة لدمشق ومتابعاته الجادة.

إن إعطــاء أبعاد هــذا الموضوع أهميته الحقيقية يحتــاج إلى كثير من الجهد ولكن علــى الرغــم مــن محاولتــي (فرانكفورت والقاهرة) ودون مناقشــة الدوافع والنتائج فقــد أعادت هاتــين المحاولتــين ورسخت أهميتــه إعادة إنشاء هــذه الساعة وأثارت التساؤلات علــى الرغم من الطريقة المتبعة وذكّرت بضرورة إعادة هذه الساعة بالشكل الصحيــح إلى مكانها الطبيعي لتكمل علمياً ذلك الصرح المعماري الكبير.. والزمن كفيل بذلك.

آفاق المعرفة



الأمثال والحكمة في الشرق القديم

ترجمة: محمد الدنيا*

كانت كتابة الأمثال في الشرق القديم تستند إلى الحكمة، وربما كانت تعود في جذورها إلى السومريين. ذاعت في الشرق كله، وانتشرت عبر نصوص ثنائية اللغة، فتناقلتها أطياف واسعة من السكان. نجدها في بلاد «كنعان» أيضاً، آتية من «بلاد الرافدين» منذ منتصف الألفية الثانية. نقرأها مثلاً في رسائل «تل العمارنة» حيث استخدمها ملوك «كنعان» عند مخاطبتهم سيدَ

* مترجم سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

إقطاعِهم المصري. تدافِع الحكمة الرافدينية عن القيم التقليدية، ولا تقبل بالمغامرة والإسراف، وتشدِّد على احترام السلطة الإلهية أو البشرية، وتأبى الخطر الذي يمثله أي مساس بالنظام من خلال عدم الالتزام بالقانون وأطر الحياة الاجتماعية.

نقرأ من بينها:

«إن مضيت وغزوت بلاد العدو: جاء العدو وغزا بلدك».

«من يملك مالاً كثيراً سعيدٌ بلا ريب؛

من يملك شعيراً كثيراً سعيدٌ بلا ريب،

ولكن من لا يملك شيئاً يستطيع النوم».

«بالنسبة للفقير، أفضل له أن يكون ميتاً لا حياً:

إن كان عنده خبز، فليس عنده ملح؛

إن كان عنده ملح، فليس عنده خبز؛

إن كان عنده لحم، فليس عنده «خردل»؛

إن كان عنده خردل، فليس عنده لحم».

«للمتعة: الزواج

للتفكير: الطلاق».

«تدوم الصداقة يوماً،

وتدوم القرابة أبداً».

شقاء وخطأ

البشر في الفكر الشرقي هم في خدمة الآلهة. إنهم «الرؤوس السوداء» têtes noires، الرعايا أو الخدم. وإذْ كان الآلهة كراماً، فإن وفاء البشر لهم يضمن سعادتهم، بينما يحل الشقاء بالمتهاونين. ومنذ نهاية الألفية الثالثة، في زمن أسرة «أور» الثالثة، نحو ٢١٠٠- ٢٠٠٠، بدأت تُطرح أسئلة فيما يتعلق بدقة العلاقة التي من المناسب إقامتها بين شقاء وخطأ. وكُتبت أناشيد شكوى، بالسومرية أو بالأكادية. ينتقد المستقيمُ الظالمَ، الذي يظلمه، يشكو أمره إلى إلهه إلى أن يعود فيحسن التصرف معه، يؤكد على براءته وعلى عجز الفانين عن معرفة الطريق إلى الإله. ووفقاً لأناشيد التوجُّع هذه، فإن الإنسان جاهل ولا يستطيع تمييز الخير من الشر، خصوصاً لأنه تخفى عليه معايير عالم الآلهة. يحث الشِفاءُ والسعادة المستعادان على الشكر، وعلى عدم العودة إلى التساؤل، ولكن لا إجابات بأي حال من الأحوال، لأن سبل الآلهة صعبٌ اختراقُها. يطرح تشكّي الملك «أور- نامو» Ur-Nammu، بوضوح، التساؤلَ حول العدالة الإلهية:

«ضرب البلاءُ سومر، كان الراعي العادل غاضباً، كان الراعي العادل أور- نامو غاضباً، نعم، كان الراعي العادل غاضباً! غيّرَ،، آن،، كلامَه المقدس، القلبُ بالغُ الأسى.

غيّر،، إنليل،،، مخاتلةً، الأقدارَ المحددة كلَّها. أما أنــا، (المدعو أور- نامــو) فها كم كيف عوملت. كنت وفياً في خدمة الآلهة، الآلهة،، الأنوناكــي، وأحقق ازدهاراً بنُبْل. مع ذلك لم يؤازرني ولا طمّأن قلبي أيٌّ من الآلهة. (...) أنا الذي كنت أخدم الآلهة ليلاً ونهاراً، كيف كوفئت على جهدي؟ (...).

«العدالة الإلهية»

أحد المكونــات الرئيسية لأدب الحكمة الشرقي هو ذاك المسمى «العدالة الإلهية» théodicée. هــذا العمل معروف من خلال مخطوطات مختلفة، يعود تاريخ بعضها إلى فترات حديثة. إنه قصيدة طويلة مكتوبة باللغة الأكادية، ومقدمــة على شكل حوار. مؤلفها معروف من خــلال مُطرَّزة(*) حيث يبتــدئ كل من الفقــرات الشعرية الإحدى عشــرة بالمقطــع اللفظــي نفســه، ويؤلف مجمــوعُ المقاطع اللفظية اسمــاً معروفاً في وثائــق أخرى علــى أنه ينتمــي إلى لائحة «كبــار حكمــاء» عصــر «نبوخذنصر» الأول (١١٢٦- ١١٠٥) و«أدد- أبــلا- إدينا» Adad- apla- iddina (١٠٦٩- ١٠٤٨). يتحادث مثقفــان ويتجادلان حول العــدل الإلهي، وفق نمــط أدبي قديم جداً يحضــره كيانان أو شخصيتان تتواجهان من أجل إثبات مزاياهمــا الواحد تلو الآخر في شــكل من المناظرة. هنا، المثقف الذي يفتتح الجدل متشائمٌ، ويعبر عن سوء حظه. يقول إنــه رأى الأقويــاء يضطهــدون الضعفاء، دون أن ينصفهم أحــد. ويسعى مُناظرُه إلى الدفاع عن الأخلاق، والدين والنظام القائم. وينتهي الحوار بإثبات مشترك للتعالي الإلهي والعجز البشري.

(...)

- عبثاً حاولت أن أتأمل العالم، متناقضةٌ صورُه،
لا، لا يسدّ الإلهُ الطريقَ على الشيطان!
انظر، أبٌ يجرّ المركبَ في القنوات، وابنُه الخليع في سريره!

(...)

- أيها الحصيف، أيها العالم، يا ملك الحكمة،
روحك معذبة، وها أنت
تقسو في معاملة الإله!
قلب الإله بعيد عنا بُعد أعماق السماء.
معرفته صعبٌ مرتقاها والناس يجهلون.

(...)

إحدى المؤلفات الشرقية الأخرى المتعلقة بالمصائب والعدل الإلهي قصيدةٌ مشار إليها بكلماتها الثــلاث الأولى: «لُدلول بل نمكي»



أو Ludlul bêl nêmqi «أريـد أن أسبّح بحمد سيد / رب الحكمة». هنا، حديث منفـرد (مونولـوج) لرجـل غـارق في المصائب ويتساءل عن العدل الإلهي، حيث الإله «مـردوخ» هو الإلـه الوحيد المسؤول عـن مصير البشر. فقد الرجل، وقد كان من قبل متنفذاً في البلاط، كلَّ شيء، ويشكـو من عـدم استيعابه العذاب الذي يعانيه. مكّنته ثلاثة أحلام متتالية من رؤية شخصيات تتشفع له وتطهّره. يعي أخيراً أن مقاصد الآلهة لا تدرَك.

«أريد أن أسبح بحمد رب الحكمة،
الإله (الفطِن)، الذي يذكي الليل، ولكن
الذي يبسط (النهارَ) رحباً،
(...)
غضبه لا يُردّ، غيظُه الطوفانُ،
ولكن دائماً ينفرج قلبه ويهدأ خاطرُه،
هو الذي لا تقدر السماوات على تحمّل صدمة يديه،
لكن في راحتيهما السَكينة، والصفح عن الأموات!
(...)
تخلى عني إلهي، وغاب إلى الأبد،
تركتني إلاهتي، ابتعدت (عني)!
لا همّ للحاشية إلا تكديس العداء عليّ،
يجتمعون ويتبادلون فيما بينهم
أشياءَ لا تقال؛
هكذا (قال) الأول: ،، سأذيقه الموتَ!،،
أعلن الثاني: ،، سأحرمه من منصبه!،،
وجاء من لدُن ثالث: ،، سأستولي على ما أُوكل إليه!،،.
(...) بعد أن كنت شامخاً، صرت عبداً.

وبدلاً من أسرتي الكبيرة (حولي)، غدوت وحيداً!
عندما أمشي في الشارع، يشيرون بالأصابع إلي، وإذا دخلت إلى القصر، يلمزونني!»

حكمة وشطَط

يمكن ذكر الكثير من نصوص حكمة الشرق القديم لإيضاح وجود هذا التقليد الطويل. تنطوي أنماط مختلفة من النصوص على هذه التعاليم الحِكمية، على شكل حِكم، وتساؤلات إشكالية أو أيضاً حكايات وخرافات. ومن الأمثلة الرئيسية على هذا الجنس الأخير تذكر «ملحمة جلجامش» حيث الملَكية والحكمة مترابطتان على نحو متقن. ووفقاً لهذه الملحمة، فإن حكمة البشري تقوم على عدم البحث عن الخلود، على عدم مشيئة التعالي على شرطه، وتقوم حكمة الملك على تعلم فن الحكم العادل، الذي لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال الحكمة، تلك التي تخفف المطامح المفرطة. الخلود، كبحث لا مبرر له، هو واحد من مواضيع التفكّر التي تفضي إلى الحكمة. نلمس أهمية المسألة، والقلق الذي تولّده، في عدد كبير من نصوص الشرق التي تتطرق إليها. لا يمكن للطبيعة البشرية بشططها أن تبلغ الخلود. وأوجد تأكيد استحالة الوصول إلى الحياة الخالدة في أثناء ذلك الشروط لظهور تيار فكري جديد تدريجياً الحياةُ الخالدة فيه متاحةٌ للمؤمن بعد الموت. وتعود جذور هذا الاستفهام حول الصيرورة بعد الموت، حالما أضحى هنالك تسليم به، إلى التفكّر الذي كان سائداً لدى المفكرين القدامى. ونجد فكرة عن ذلك في «القصة الشعرية لأبطال الزمن الغابر»، التي ألفت في زمن «أبي إيشوح» Abi- eshuh ملك «بابل» بين ١٧١١ و١٦٨٤ وهي معروفة بعدة نسخ بالسومرية والأكادية:

«(...)

أين هو الملك ألولو Alulu الذي حكم ٣٦٠٠ سنة؟
أين هو الملك إتانا الذي صعد حتى السماوات؟
أين هو جلجامش، السيد، الذي بحث عن الحياة الخالدة مثل زيوسودرا؟
أين هو هواوا Huwawa (...)؟ أين هو إنكيدو الذي أظهر قوته في البلاد؟
أين هو بازي Bazi، أين هو زيزي Zizi؟
أين هم الملوك العظام، لم يعودوا يولَدون، منذ الزمن الماضي حتى اليوم؟
لم يعودوا ينجَبون؟

حياة لا ألقُ فيها هل تساوي أكثر من الموت؟

(...)».

الحكماء والملِك

في الشرق القديم، شخصيات الحكماء التي تضع خبرتها وعلمها تحت تصرف المَلَكية هي تقليدية. يجيد الحكيم إدراك معنى الأحداث الماضية من خلال بناء التاريخ الذي يمارسه. يعزى لكل حُكْم حكيم، يسمى «أبكالو» apkallu، أو علاّمة، ويسمى «أومانو» umânu. كانت قد نوهت إليهم لائحةُ حكماء، ابتدأت بـ «أدابا»، معاصر «ألولو» أول ملك ما قبل طوفاني، وتنتهي بـ «أحيقار» (آبا- إنليل- داري Aba- Enlil- dari)، في عهد الملك «أسرحدون» (٦٨٠- ٦٦٩). كانت قد وجدت أسطورة متعلقة بالحكماء، غير أنه لا توجد أية وثيقة مسمارية تنوه إليها؛ وقد جاء ما هو معروف منها من خلال ملخص قدمه «بيروزس» Bérose بالإغريقية:

«في بابلونيا، كان كثير من الناس القادمين من أماكن أخرى قد أقاموا في كلديا (القسم الشاطئي من وادي الرافدين الأدنى)، حيث عاشوا حياة جاهلية، أشبه بالبهائم. في سنة أولى، آنذاك، ظهر هناك، على الشاطئ، مسخٌ غريب خرج من البحر الأحمر واسمه وانيس («أوانس») Oannès. كان جسمه كله جسم سمكة، وتحت رأسه (السمَكي) رأسٌ آخر (بشري) مولج فيه، مثل قدمين، شبيهتين بقدمي آدمي- صورة حفظتها الذكرى وبقي الناس يستنسخونها حتى يومنا هذا. علمهم هذا الكائن الحي نفسُه، ممضياً أيامَه بين الناس، دون أن يتناول أي غذاء، الكتابةَ والعلوم والفنون من كل نوع، وتشييدَ المدن، وبناء المعابد، والاجتهاد (القانوني) والهندسة؛ وكشف لهم، على النحو ذاته، عن طريقة زراعة الحبوب وجني الثمار؛ إجمالاً، أعطاهم كل مقومات الحياة المتحضرة. وعند مغيب الشمس، كان هذا المسخ نفسه وانيس يعود ويغوص في البحر ليقضي لياليه في الماء: لأنه كان برمائياً. فيما بعد، ظهرت كائنات أخرى مشابهة (...)».

يذكر «بيروزس» بعد ذلك ستة من هذه الكائنات المسخة، ويربط ظهور كل منها بفترة حكم أحد الملوك السابقين للطوفان. تتوافق هذه الكتابات التي رواها «بيروزس» وتلك الماثلة في اللوح الذي سجلت عليه لائحة الحكماء، وأسماء هؤلاء هي المذكورة

لديه، بغض النظر عن التغيرات التي نتجت عن النقل من السومرية والأكادية إلى اليونانية. إذاً، تشرح تقاليد حكماء الشرق القديم أن الـ «أبكالو» قد عاشوا في البدايات، هم حكماء أسطوريون من أزمنة ما قبل الطوفان، خرجوا من البحر ليطلعوا البشرية على العلم، والفنون والتقنيات. وعندما وقع «الطوفان»، عاد هؤلاء الحكماء إلى عنصرهم الأصلي، الـ «أبسو»، عالم المياه العذبة وميدان الإله «إنكي» / «إيا»، إله الذكاء والمعرفة، الذي يحميهم ويرعاهم.

أصبح الـ «أبكالو» إذاً، في التقاليد، نوابغ خيّرين، وسادة التطهير بالماء. كانوا عبر معارفهم الفنية أول من أجاد تشكيل صورة عن الآلهة، بنتيجة ممارساتهم الطقسية المرتكزة إلى الماء المحّيي الذي يمنح الصورة حياةً. كانوا إذاً وسطاء مفضلين عند الآلهة. وفي الألفية الأولى، نظر إليهم على أنهم الأسلاف الأسطوريون للمثقفين، الذين يمسكون مع الـ«أونامو» بزمام الأسرار. شهدت شخصية الحكيم آنذاك نجاحاً حقيقياً في الشرق القديم. يتمثل أحد وجوههم الرمزية لارتباطهم بالسلطة الملكية في الحكيم «أحيقار»، وزير الملك الآشوري «أسرحدون»، وقد فقد حظوته في أحد الأوقات بنتيجة وشايات، ثم أعيد إليه الاعتبار بعد ذلك. انتشر نموذجُه على نطاق واسع، خصوصاً عبر الأدب الآرامي. وكان الغرض من القصة هو الإشادة بالإخلاص للملك، أياً كانت تقلبات التاريخ.

السلطة الملكية والجزاء الإلهي

أفضى الرباط العضوي بين الملَكية والحكمة إلى إمكان إطلاق حكْم وتحليل لكل واحدة من فترات الولاية. كانت عبادة الآلهة في الشرق القديم، لاسيما عبادة إله الدولة، ضمانةَ نظام الكون. وكان على الملك أن ينتبه إلى الطريقة التي يمارس بها السلطة، وكان سلوكه يكيف صيرورةَ الدولة والشعب. كان مطلوباً منه أن يكون ورعاً في بنائه المعابد وصونها وفي تقديمه القرابين بانتظام وكثرة. وكان على هذه التقوى أن تواكب ممارسة العدل بلا ضعف، باستقامة، وإنصاف وذكاء. كان هناك إذاً نموذج أخلاقي للقيادة الصالحة وتوجب على الملك أن يكون متوافقاً معه. يستند بعض نصوص الشرق إلى حكم ملوك قدامى مشهورين من أجل التنويه إلى قضية نجاحاتهم أو إخفاقاتهم. المبدأ هو مقابلة نجاحاتهم الأولية بانكسارهم في

النهاية، وإظهار الأخطـاء التي أفضت إلى حالة الفشل. والأسباب الرئيسية هي بشكل عام انعدام الورع والكبرياء المفرط.

جلجامش: نموذج ملكي

«ملحمة جلجامش» قصيدة طويلة نعرف منها نسخاً عديدة، أكملها تلك التي أتت من مكتبـة «آشوربانيبال» في «نينوى». وكان قد عثر على أجزاء مـن هذه الحكاية الملحمية في مواقـع مختلفة من الشـرق القديم، مما يؤكـد انتشارها ونجاحها، حتى في «مجدو»، و«إيمار»، وأيضـاً «حتوشة» حيث عثر على ترجمات للعمـل بالحثية أو بالحورية. يعود أقدم مخطوطاتها المعروفة إلى الألفية الثانية وأحدثهـا إلى القـرن الثالث قبـل الميلاد. كتبـت في نحو ثلاثة آلاف بيـت من الشعر موزعـة على أحد عشر لوحـاً، ويعود تاريخ هذه النسخة من الملحمة التي عثر عليها في «نينوى» إلى بداية الألفية الأولى.

كان «جلجامشـ» دون شك ملكاً تاريخياً لمدينة «أوروك»، وقد حكم نحو ٢٧٠٠ ق.م. تنسب لـه «اللائحة الملكية السومرية»، التي حررت في بداية الألفية الثانية، ١٢٦ سنة من الحكـم وتضعه في الموقع الخامس من أسرة «أوروك». ووفقاً لهذه اللائحة، قد يكون ابنَ شيطان، «للو» Lilu (شيطان من «بابل» كان يبحث عن النسـاء المريضات ليؤذيهن ليلاً، حسبمـا كان معتقداً «المترجم»)، مما يضعه جزئيـاً في عالم فـوق طبيعـي. في الملحمة التـي كرست له، هـو ملـك «أوروك»، ابن الملك «لوجالباندا» Lugalbanda والإلهة «ننسـون» Ninsun. استبد بسكان مدينته ممـا دفع ناسَها للشكـوى إلى الآلهة، الذين خلقوا آنذاك رجـلاً، «إنكيدو»، القادر على مضارعـة المستبد، كي يجد هذا الأخير من ينصاع له. وإذْ كان «إنكيدو» يعيش في الفلاة مـع الحيوانات، التقت به كاهنةُ حُب علّمته مبادئ حيـاة المدن. سمع منهـا حديثاً عن «جلجامش»، فتوجـه إلى «أوروك» لملاقاته. تحدى الملك، غير أن البطلين، المتساويين قوةً، عرفا أنهما متكافئان، وقامت بينهما صداقة وأخوة لا تنفصم عراها. شرعا حينذاك في عـدة مغامرات كبيرة، منهـا رحلة إلى غابة الأرز، لملاقـاة حارسهـا، العملاق «هواوا / حواوا» Huwawa. ومتى بلغا الغابة، قتلا العملاق وقطعا أشجار أرز. أغرمت الإلاهة «عشتـار» حينهـا بـ«جلجامشـ»، لكن هذا صدها وذكرها بالمصير المشؤوم الذي تحمله لعشاقها، مثل «دمـوزي»، الذي أسلمته إلى

العــوالم السفلى. أهــان صــدٌّ «جلجامش» الإلاهةَ، التــي حصلت من الإله الكبير على قياد الثــور السماوي لتهلك به البطل. فتك البطــلان بالثور السمــاوي، بقوة مدمرة لا هــوادة فيهــا. وأمام هــذه الإهانة الكبرى، قرر الآلهة إنهــاء صداقتهما القوية وإماتة «إنكيــدو»، فيعاقبــون بذلــك «جلجامش» بانتزاعهم منه أغلى ما لديه في العالم. أغرق مــوتُ الصديقِ البطــلَ في تأمل حول الموت والتناهــي، وولّد فيه قلقاً دفعه نحو البحث عن الخلــود. وبعد رحلة طويلــة بحثاً عن ذاك الذي سلِم من الطوفان، «أوتانابشتيم»، البشــري الوحيد الذي مُنح الحياة الخالدة، التقاه «جلجامش» وعرف منه ما ثمن الخلود الذي أوتيه، أي دوره في «الطوفان». شرح له «أوتانابشتيم» إنه لا يمكن لأي بشر أن يطمح إلى حالة الخلود هذه، غير أنه أعطاه أخيراً نبتةً يفترض أنها تمنــح الشباب. في طريق العودة، ترك «جلجامشــ» النبتةَ على ضفة بركة ماء حيث كان يغتسل؛ فاختلستها حيةٌ. عــاد البطــل إلى «أوروك»، مدينته، دون أن يتمكن من نوال الحيــاة الخالدة، لكنه تعلم قبول وضعه البشــري والرضا بما هي عليه حياته.

إن كانــت هــذه الملحمة تنطــوي على جانب لا يستهان به من الأساطير، فإن فيها جانبــاً مــن التاريخية، خصوصــاً تاريخية «جلجامشــ»، الــذي كان ملــكاً حقيقياً لـ «أوروك»، أو أيضــاً تاريخية أسوار مدينته، التــي ذكــرت في الملحمــة، والتــي أتاحت التنقيبــات الآثارية العثــور عليها، والسعي أيضــاً إلى جلــب خشــب الأرز مــن لبنان، وهــو ما يتوافق أخيراً مــع أحد المشروعات الرئيسية للملَكيــة الرافدينية، التي اهتمت بتغطية وإكساء الأحياز المقدسة الشاسعة أو المنشــآت العامة التي كانت تبنيها. كان على «جلجامش»، الملــك التاريخي الحقيقي، أن يترك أثراً مــن شخصيته، وبعض الأحداث البطوليــة، في الذاكــرات، وأن تعــزى لــه مآثر، عند التخوم بــين الأسطورة والواقع، والتــي أمكن أن يكــون بعضها من إنجازات شخصيــات أخرى. وهكذا، يقدم هذا الملك علــى الأرجح شكلاً مــن التكوين التركيبي، حيــث تلخصــ مغامراتــه التمــرّنَ الملكي والبشري.

في أوقات حياتــه الأولى، كان «إنكيدو»، الــذي خلقــه الآلهــةُ، مثل بهيمــة برية. لم يرتــق إلى البشريــة إلا فيما بعــد، ويتخلى

منذئــذ عن رفقة الحيوانـات ليصير رفيق «جلجامش»، صنوه. في «ملحمة جلجامش»، يقدم «أوتانابشتيم» للبطل نبتةً تمنح الشباب الأبدي. وذاك الذي حـرم «جلجامش» من الوصـول إلى تجديد شبابه هو حية، بعد أن اختلست النبتة منه.

أخيراً، أصبح الملك «جلجامش» النموذج الشرقـي للملَكيـة، حيـث تقـدم ملحمته مطالعة للطريـق الواجب اتباعه كي يصبح الإنسان ملكاً عـادلاً وحكيماً. هذا الطريق مزروع بمغامرات استثنائية تبين ضرورة أن يكون المـرء مسيطراً على كل شطط. تُظهر المطالعـة أيضـاً العبثية والخطـر اللذين تمثلهما حالاتُ الإسراف والأعمال التي هي في غير أوانها أو من غير المناسب القيام بها. لا يأتي العنفُ ضد الخارج، بثقة متغطرسة، إلا بالخراب. تصبـح المعركة ضد العملاق «هواوا»، حيث يظهر البطلان قوةً لم يحسنا احتـواء إفراطهـا، غطرسـةً أولى، تخالف ممارسة السلطة المثالية للعدل والحكمة.

يذكرنا نصـ «جلجامشـ» أيضاً بدور مجلس الشيـوخ في اتخاذ القرار حين يتعلق الأمـر بالجماعة. قبـل أن ينطلق إلى غابة الأرز، يستطلـع «جلجامشـ» رأيهم، ويمكن أن نستنتـج مـن ذلك أنه كان علـى الملَكية في بداياتها، وقد مثلـت القوةَ القادرة على الشروع في القتال، أن تحصل على ضمانتهم مسبقاً.

الهوامش:

عن كتاب
De Sumer à Canaan, l`orient ancien et la Bible, seuil / Musée du Louvre, 2005

(❀) المطـرزة قصيـدة تكوّن حروف أبياتها الأولى المتتالية عبارةً أو كلمـةً؛ فإن كانت الحروف الأولى من الأبيات المتتالية تسير وفق الترتيب الأبجدي سميت بالمطرزة الأبجدية، أما إذا كانت الحروف الوسطى هي التي تكون تلك العبارة أو الكلمـة فإنهـا تسمى بالمطرزة الوسطى، بينما تسمى بالمطرزة النهائيـة إذا كانت الحروف الأخيرة هي التي تكون العبارة أو الكلمة. «المترجم».

حوار العدد

عمر حمدي: الفن يتحول إلى دم

حـــوار: عادل أبو شنب

حوار العدد

عمر حمدي:
الفن يتحول إلى دم

إعداد: عادل أبو شنب ❀

أرسل إليّ الفنان الكبير عمر حمدي «مالفا» من فيينا (النمسا) كتاباً تضمن رده على أسئلة كنت وجهتها إليه في دمشق، قبل عودته إلى مهجره بيومين، ويبدو أن أجوبته لم تكن تقليدية.

«إلى الأخ عادل أبو شنب

في فيينا، وأنا أقرأ الأسئلة التي وجهتها لي في دمشق عرفت أنك مثلي لا نعرف سوى أسمائنا، كان اسمك واقفاً أمامي عبر مجلة أسامة والصحف

❀ أديب وقاص سوري.

اليومية، ولكن هذا الاسم نائم في ذاكرتي المتعبة وأنا في المغترب بعد ٣٢ سنة، وجدتك جالساً في «الآرت هاوس» كانت اللوحات في تأملك تمنحني سعادة كبيرة».

عزيزي. كما تعرف، لكل قصته، ولهذا أرسلت لك جانباً من قصتي، وهي تحمل أجوبة لأسئلتك كلها، شاكراً لك، مع خالص تمنياتي ومحبتي.

عمر حمدي

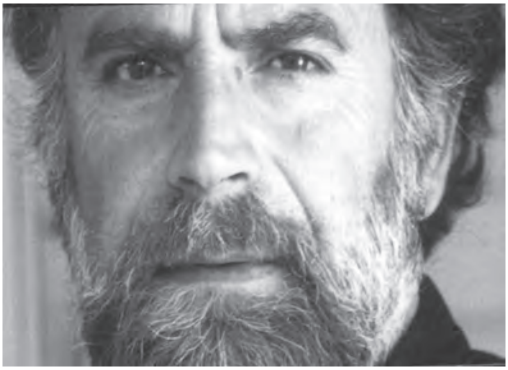
❁ ❁ ❁

مفاصل في حياته

أرسل إلي الفنان ملفاً كبيراً، يكاد أن يكون كتاباً، يتضمن سيرة حياته منذ ولادته حتى معرضه الأخير فانكببت على هذا الملف أدرسه، وألخصه، حتى حصلت على عدة أجزاء، تشكل مفاصل في حياته.

(حين جلست مع والدتي «نورة»، منذ سنة في دمشق، في منزل أخي «عصام»، وهي تجلس كعادتها على الأرض، واضعة يديها على وجع ركبتيها. سألتها: ماما، حدثيني عن ولادتي، وكيف كانت طفولتي؟ أجابت، بأنني ولدت في آخر الليل، في الشتاء، في بيت صغير من طين، سقفه من خشب، في قرية صغيرة، اسمها «تل نايف»، الواقعة في الشمال من مدينة الحسكة، في أقصى الشمال السوري، كانت الغرفة مقسمة إلى جزأين، قسم للنوم، وآخر للغنم، لم يكن والدك موجوداً، كان بعيداً، قالوا لي بأنه في الجيش، لم أعرف لماذا..، كان جدك «حمدي»، وجدتك «يازي» معي، كنت سعيدة بك، كنت وسيماً مثلما الآن، رضعتك أكثر من سنة، في النهار كنا مع الغنم، وفي المساء ننام، لم تكن لنا سوى إنارة قنديل صغير، وموقد جمر، ارتمت فيه عمتك «حليمة»، مرة، ولم تكن بعيداً عن الموقد، فوقعت عدة جمرات على رقبتك، وظلت آثارها ماثلة إلى الآن..، «يازي» كانت قاسية عليك وتنتظر يوم قدوم والدك، حتى تتخلص منا، ونسكن بمفردنا في مكان آخر.. لم تكن القرية كبيرة، عدة بيوت فقط، معزولة في أرض مستوية، كانت القرية تتألف من ثلاث أو أربع عائلات، تعيش حياتها على الغنم والقمح، أو تهريب التبغ، وقد مات بعض المهربين على الحدود التركية، عند خط القطار- سكة الحديد. لقد هجر بعض سكان القرية بيوتهم بسبب شحة الأمطار، إلى مدينة «عامودا» أو إلى «تل

حجر»، على أطراف مدينة «الحسكة»، ثم ذابت تلــك البيوتات المهجورة مع السنوات في التربــة، كذلك البيت الذي ولدت فيه.. كنت حافياً، ترتدي رقعاً من ثياب خيطتها بيــدي، كنت تلعب مع الأغنــام والعقارب، حتــى صنــع لك جــدك لعبة مــن غطاء علبــة الحلاوة المستديرة، مع قطعة خشب ومسمار، في الخارج، كنــت دائماً محمولاً على ظهر «حليمة». عــاد والدك بعد زمن، وقتها كنت تقول لجــدك «بابا». تركنا بيت جــدك، وسكنا على أطــراف نهر «خابور»، في قرية «أم حجــرة»: حمار، فراش واحد/ لحاف، وبضعة أغنام، كان هذا كل ما نملكه، والدك لم يكن يتحدث معي، وكنت حزينة في «أم حجــرة»، كنت ترعى الغنم، وكان والدك يعمــل مــع الحصادين في الصيــف، وجاء الشتاء، فتزوج فتاة من الجيران.. كنا جميعاً نسكن في غرفة واحدة، كنت تنام باكياً، لأن والدك كان يضربني بسبب الزوجة الجديدة، كان أصدقاؤك الجدد «حسنو وبرو» شباباً، لكنهما كانــا مجنونين، كنــت تمضي أغلب أوقاتك معهما، تحت ظلال الجدار الخلفي، أو تجلبون من الدروب الترابية روث الحمير، كنت أجففها، وأستخدمها وقوداً للتنور.



ذهب، مرة والدك إلى الحسكة، وأحضر لوحاً من الخشب مدهوناً بالأسود، وطباشير بيضاء، وراح يعلمــك الكتابة والقراءة، لأنه لم تكن، بعــد، في القرية مدرسة.. كان ظالماً وقاسياً عليك..

- ولماذا كان يضربني الوالد، ماما؟

- لأنــك كنت ترسم بالطباشير على تلك اللوحة، أثناء غيابه.

- وماذا كنت أرسم..؟

- لا أعرف.

جميــل بــأن والدتي لا تعــرف القراءة والكتابة حتى اليوم..

- ومــاذا تتذكر أنــت من طفولتك، بعد ذلك؟

(أتذكــر بأننــي ربما كنــت في السابعة مــن عمري، حين أنشئــت غرفة من الطين في القريــة، لتكون مدرسة، وجاءنا معلم من المدينة، يتكلم بالعربية، لكننا -أطفال القرية - لم نكن نتكلم إلا بالكردية..).

دار المعلمين

أعتقد اليوم، بأن والدي كان على صواب: لقد أمضيت حياتي، وأنا أحمل لوحاتي وأدواتي، من مكان إلى آخر..

في الصيف.. وفي الصباحات الباكرة، كانت والدتي تضع لي رغيف خبز، وحبتي بندورة في ربطة قماش، وأنتظر مع مجموعة من بنات، لتنقلنا شاحنة مكشوفة مغبرة إلى حقول القطن، كانت الأغنيات والغبار يملأ، بانحناءة ظهورنا إلى الأرض، فراغ المكان، كانت ثياب الصبايا بلون العرس، ودكاكين السكاكر. في المساء، نعود مع الصمت، كومة يلفها التعب والغبار.

بعد «الإعدادية»، كان لي خيار واحد: أن أدخل إلى مدرسة تأهيل المعلمين، لأنها كانت تقدم راتباً شهرياً بسيطاً للطلبة، وكان إلزامياً بأن نتخرج معلمين، توزعهم وزارة التربية، من دمشق، حسب ما تراه مناسباً. كان راتبي هذا مساعدة صغيرة لراتب والدي المرهق دائماً، فذهبت إلى «دار للسينما» واستطعت العمل فيها كخطاط ورسام وقاطع تذاكر وكناس، كنت أتمتع في أوقات الفراغ بمشاهدة كل الأفلام مجاناً، ثم أركب دراجتي، آخر الليل، إلى «تل حجر»، حيث كانت والدتي تنتظرني، لتضع على قدمي المتورمتين عجيناً من سمن ساخن وشعر ماعز وملح، أتعشى بخوف، حتى لا يفيق والدي، وتبدأ الشتائم، وأنام..

كنت قادراً على الرسم

في المعهد، كان يدرسنا أساتذة قادمون من دمشق، ومن الجنوب، كان من بينهم أساتذة رسم مختصين، إلا أن اهتمامهم لم يكن واضحاً بما كنت أرسمه بشكل دائم. كنت مع صديق لي «بشار»، أكثر الطلاب قدرة على الرسم، وكان الأساتذة، حين تقام المعارض السنوية في آخر السنة الدراسية، يحتفظون بأعمالنا، بمبرر أنها كانت ترسم بمواد يقدمها المعهد لنا، إلى أن بكيت مرة على باب غرفة المدرسين، مطالباً بلوحة واحدة لي، كانت اللوحة لـ «والدتي وهي تعجن» بيدين مكسورتين من ضرب الوالد لها.. كان يرميها بأي شيء يقع تحت يديه.

تعلمت الرسم على الأحجام الكبيرة في تكبير ملصقات أفلام السينما، وتعلمت البكاء أكثر، وأنا أكنس تحت مقاعدها، بعد انتهاء الفيلم، في هذه الفترة، بدأت أوجاع في ظهري، في الفقرات القطنية، ولم أذهب إلى طبيب، لأنني لم أكن أملك نقوداً، ولم أذهب إلى المستشفى الذي كان يدخله المريض،

ليخرج ميتاً، وما زلت أشتكي من آلام ظهري كل يوم، كلما حملت شيئاً، أو بردت..

كنت أرسم في السر، بعيداً عن معرفة والدي، كنت أشتري ما أستطيعه من ألوان، وأرسم بشفرة حلاقة على قماش أكياس السكر. التي كان أخي «عصام» يجمعها لي، أرسم وجوهاً لحصادين ورعاة غنم، كنت أرسم والدي أو إخوتي، وبدأت أحلم بأن أقيم معرضاً في دمشق العاصمة، المدينة الكبيرة، التي كان يعيش فيها فنانون كثيرون، وفيها صالة عرض خاصة تابعة لوزارة الثقافة، حسبما كنت أسمع ذلك من خلال الراديو، الذي اشتراه والدي، ببطاريته الكبيرة، مثل قطعة بلوك الإسمنت، كنا نجلس حوله، ونتأمله بدهشة، كنا نظن أن ثمن من بشر صغار يسكنون في داخل الجهاز، نستطيع سماعهم.. وحين انتهت صلاحية البطارية الكبيرة، فتحتها، كان فيها مادة بلاستيكية سوداء، جعلناها في أفواهنا مثل اللبان.. وأشياء أخرى، لم نعرفها، لها رائحة غريبة.

كنت أحلم بأن أعرض أعمالي في دمشق، فليس في الحسكة، من يبدي اهتماماً بالرسم، كان الرسم عاراً، غير أن كنيسة أرثوذوكسية، كلفتني ذات مرة برسم القديسين، ثم لم توافق على ما رسمته، لم تكن لوحاتي تناسب تصورات القيمين، فمزقت اللوحات بسكين صغيرة حادة، مرة، أذكر، قدم لي محافظ «الحسكة»، مئة ليرة سورية، لأرسم لوحة كبيرة بقياس متر مربع على لوح من الخشب لوجه «غيفارا»، وبعد انتهائها، حملت اللوحة ليلاً على رأسي، من تل حجر إلى الحسكة، مشياً تحت المطر، وسلمتها إلى حراسه، بعد أيام، وصلتني هدية منه: نسخة من كتاب «الأم»، لـ مكسيم غوركي، قرأت الكتاب السميك، كانت أول رواية أقرؤها، ثم قرأها والدي، وأعجب بالكتاب، ثم حاول كثيراً جمع الروايات الروسية المترجمة، التي كانت توزع بالمجان آنذاك، وعن طريق والدي، قرأت «أرض الأم»، لأنطون تشيخوف، ورسمت مجموعة «مالفا»، اسم الوردة التي ذكرت في الكتاب، ثم رميت بهذه المجموعة في البئر، خوفاً من الوالد.. قرأت كتباً كثيرة، ثم تعرفت على رسام اسمه «صبري»، وآخر اسمه «عمر حسي»، كان «صبري» يأتي إلي غالباً، وهو يحمل لي من المدينة سندويشاً وخياراً وخبزاً

أبيضــ، كان يرسم بفطريتــه، كنا لا نعرف حدوداً للفن، أكثر مــن لوحاتنا، لم نكن نرى يوماً كتاباً أو مجلــداً عن الفن،كنا نعلن بأن دمشق هــي المحطة الرئيسيــة لأحلامنا.. وكنا نحلــم بقطعة قماش، بماسورة لون من صنع «الصــين». كان صبري متزوجاً، يهرب من زوجته إلي.

أول معلم في الرسم

قبل تخرجي من المعهد، بقليل، سكن في بيتنــا، في الغرفة الثانية، بالإيجار، شاب في العشرينيــات، مع زوجته، قادماً من عامودا، اسمه «عبــد الرحمن دريعــي»، كان يعزف علــى الناي مساء، ويرســم في النهار، وكان يضــرب زوجته كثيراً، فسألــت والدتي مرة عن السبب، فأجابــت: «لأنها تحبه، وهو لا يحبها».

كان «عبــد الرحمــن» أول معلــم لي في الرسم، كلمــا غاب عن البيــت مع زوجته، إلى المستشفــى، وضعت حجراً تحت قدمي، ونظرت عــبر أسفل النافــذة العريضة إلى لوحاته، مرة سمعته يقول لوالدي: «دع عمر وشأنه، دعه يرسم، سيأتي يوم، ليتركه، حين يكبر».

كان «عبد الرحمن» فقــيراً مثلنا، وكان حزينــاً في عزفه للناي الخشبي.. سافر إلى مكان آخر لم أعرفه.

أنهيت سنتي الأخــيرة في المعهد بنجاح، وكنــت سعيداً بأن أصبــح معلماً، وبأنني لن أذهب إلى المدرسة بعــد الآن، ثم عملت في الإحصــاء، ومضــى الصيــف، منتظراً مع زملائي نتائج التعيينات، كانت والدتي قلقة، حين عرفت بأن علــى المعلمين في الشمال، العمل في الجنوب، وعلى المعلمين في الجنوب، العمــل في الشمال، لم أكن أعــرف لماذا!!.. لكننــي، كنت أنتظر قوائم التعيينات كل يوم أمــام اللوح الزجاجــي المعلق على جدار في مديرية التربية في مدينة «الحسكة»، وجاءت القوائــم من دمشــق.. بحثت عــن اسمي، فلم أجده، كنا اثنــي عشر معلماً، لم يوافقوا علــى تعييننا، عدت باكياً إلى البيت، أحست والدتي بأن شيئاً ما قد حدث.

- خيراً، يا بني..

- لم أجد اسمي في القائمة، ماما.

أهالــت والدتــي بالتراب علــى رأسها، وشدت شعرها، جرحــت وجهها بأظافرها، مزقت ثياب صدرهــا، وهي تولول: «لماذا..

لماذا، ماذا فعلت يا بني؟ ماذا سيفعل والدك لو سمع بذلك؟ لقد خرب بيتنا عمر.. عمر..».

خرجت مع حزني من البيت، ومشيت طويلاً، وطيلة أيام لم آكل شيئاً، نمت على الأرض، ثم عدت، كانت والدتي عند الباب، وهي تصرخ: «عمر.. فدتك روحي، لا تفعل ذلك أبداً»، ثم قدمت لي صحناً من البرغل وبصلة حمراء، ووعاء نحاسياً فيه ماء.

معلم الرسم

في اليوم التالي، ذهبت إلى مدير التربية كان اسمه «خضور» وكان سابقاً مديراً للمدرسة التي كنت أدرس فيها، امتزجت كلماتي بالبكاء، فوعدني بكفالته الخاصة أن أتعين معلماً حراً للحصص الفنية في مدارس المدينة.

وبالفعل، مع بداية السنة الدراسية الجديدة، عينت معلماً لمادة الرسم، وبدأت أرسم بغزارة من راتبي الذي منحت جزءاً قليلاً منه لشراء المواد الفنية، وتسليم الباقي للوالد.

رسمت خمساً وثلاثين لوحة (مجموعة الحصاد)، بعت دراجتي، وضعت اللوحات في صندوق خشبي، صنعته بيدي، وصعدت مع الصندوق إلى ظهر باص قديم طويل، متجهاً إلى دمشق، ولم أكن الوحيد على ظهر الباص، كان معي آخرون يحضنون غنماً أو دجاجاً، وهي المرة الأولى التي أبتعد فيها عن والدتي وأخوتي، وحيداً مع صندوق مليء بالعذابات والآمال والأحلام الكبيرة.

أول معرض

كان الطريق إلى دمشق طويلاً، لم أر شيئاً بسبب الظلام، وعند الصباح الباكر، ونحن ندخل المدينة الكبيرة، توقف الباص في مركز المدينة «المرجة»، أنزلت الصندوق بمساعدة عتالين، وضعناه في عربة مكشوفة بثلاث عجلات، جلست قرب السائق، طالباً منه إيصالي إلى قاعة المعارض الخاصة بوزارة الثقافة في شارع «أبو رمانة»، وضعت الصندوق على مدخل الباب، دخلنا غرفة المدير «عفيف بهنسي»، كانت ثيابي وسخة، غبار على لحيتي وشعري وحذائي، كان يشبه صندوقي في الخارج.

- «نعم؟!»، قال المدير.

- اسمي عمر حمدي، من الحسكة، من الشمال، أحضرت لوحاتي، لإقامة معرض

هنا.

- مـن الحسكة؟! سـأل مستغرباً، وهل حصلت على موعد للعرض؟

- لا.. كيف يمكنني ذلك..؟

- يجب إحضار اللجنة- لجنة التحكيم، لتوافق علـى صلاحية اللوحات للعرض، ثم يحدد موعد العرض.

- أنا هنا، للمرة الأولى، ولا أعرف أحداً، هل يمكن أن يتم ذلك بسرعة..؟

هـزّ رأسه، نظـر إليّ بعينـين حادتين، فخفت أن أبلل بنطالي، لكنه، ابتسم بهدوء، ربما لحالتي البائسـة، ثم وعدني أن يتصل باللجنة، طالباً مني العودة بعد يوم.

وضعـت اللوحـات في صالـة العرض الفارغة، لم يساعدني البواب بجر الصندوق معـي إلى الداخل، خرج المديـر من غرفته متأمـلاً اللوحات الحمـراء، قائلاً بصوت مريـح: «غريب.. هذه مجـزرة..» ثم تابع : «أنا أيضاً أرسـم، وأحمل دكتوراه في تاريخ الفن..».

ودعته بصمت وخرجـت.. خرجت إلى الشـارع الكبير، تأملت المبنى، مشيت ببطء، عائـداً إلى مركز المدينـة، أبحث عن فندق رخيص أنـام فيه، في فنـدق «دار الفرح»، حصلـت على اسفنجة وسخـة دون غطاء، مددتها علـى أرض باحـة الفندق، ونمت، كما أنا، في الصباح أيقظتني أصوات الباعة وصخب المدينـة، بحثت عن مكان آكل فيه، اشتريت سندويشة «فلافل» كبيرة، جلست في حديقـة، وأكلت مثل رجـل قادم من العصر الحجري، ذهبت إلى قاعة العرض، انتظرت خارجاً، إلى أن جاءت اللجنة، وكانت مجموعة من الفنانين وناقـد، كنت أقرأ أسماءهم في الصحافـة، وكنت سعيداً بأنني الآن بينهم.. تذكـرت كلمات والدي، قبـل سفري: «أنت فنـان فاشل، ونهايتك ستـؤول إلى أن تكون حمالاً في سوق الخضرة».

كان مـن بين اللجنة «غـازي الخالدي، عبـد يعقوبي، ممدوح قشلان، وعبد العزيز علوان».

تقدم غـازي بحيويته، ورحب بي بشدة، مادحـاً أعمالي، وبأنهـا مفاجأة في الحركة الفنيـة السوريـة، «مفاجأة مـن الشمال»، فأحببته على الفور.. ثم قررت اللجنة مراعاة لظروفي الخاصة، إعطائي مدة أسبوع واحد للعرض، أي في الفترة الشاغرة بين عرضين.

ثم أخذني غازي معــه إلى جريدة «البعث»، حيث كان يكتب فيهــا، وأحضر المصور، ثم أجــرى «غازي» حواراً مطــولاً معي، بعدها أخذني إلى بيتــه في المساء، وقدم لي طعاماً كثيراً ومتنوعاً، لم أذقه من قبل.

علقت اللوحات، وعلــى عجالة، طبعت بطاقة، تحمل أسماء اللوحات والإهداء، كان الأمر هكذا سابقاً، أذكر بأن الإهداء كان:

«إلى والدتــي.. التي حمّلتنــي كل هذا العذاب».

افتتح المعرض في اليــوم التالي، وحضر عدد كبير من الفنانين، كما حضر وزير الثقافة آنذاك، وبعثة تلفزيونية، كانت اللوحات مثل شريط أحمر ملتهــب، تغلف جدران القاعة بالوجوه المتراصة، وجوه الفلاحين والرعاة، وفي أيديهــم عناقيد، نايات، أو أرغفة خبز، لم يقدمنــي أحد للحضور، فخرجت، أخذني عبــد يعقوبي مع مجموعة مــن طلاب كلية الفنون الجميلة إلى مرسمه، حيث كان هناك «يوسف عبدلكي»، أحــد أصدقائي الجدد، في اليوم التــالي، زارني «يوسف عبد لكي»، وتغديت عنــده في البيت، لمحت شقيقته من خلال مصراع البــاب المفتوح من غرفة إلى أخــرى، تأملت رسومــه الكاريكاتيرية، التي كان ينشرها آنذاك في الصحف.

في هذه الفترة بدأت الصحافة السورية، تنشــر أخباراً ومقالات عــن المعرض، وعن عملية الحرق، لأنه يبــدو أن سائق العربة، قد عاد إلى صالة العرض، وأخبرهم بتردد، بــأن الشــاب الــذي حمل صندوقــه معي، أحرق اللوحات والصندوق في قمامة «زقاق الجن».

المسؤول

في هــذه السنــوات لم أكن قــادراً على استئجــار أي مكان أنام فيــه، أو أرسم فيه، أمضيــت أوقاتــي في غــرف الأصدقاء، أو تحت درج القبو التابــع للمجلة، على سرير حديــد أو في الحدائق في فصــل الصيف، ثــم على كرسيين في مكتبــي، أو على أوراق التلف في المطبعــة العسكريــة. كنت أرسل القســم الأكبر من راتبي المتواضع إلى أهلي، وكنت أرسم لمجلة أطفــال، وأكتب عن الفن في الصحافة اليومية، وأرسم لوحاتي، كلما توفــرت لي المــواد أو المــكان.. شاركت في معارضــ كثيرة، كانت تقيمهــا نقابة الفنون الجميلــة في صالتها «الشعــب»، وأصبحت

اسمـــاً معروفاً خلال هـــذه السنوات، لكن، عملـــي في المجلة والأجـــواء العسكرية التي كانـــت حاضـــرة في مجال عملـــي، لم يسمحا لي يومـــاً بزيارة أهلـــي في الحسكة، إلا مرة واحدة، أصبت بحادث سير، كُسرت فيه يدي وقدمي، وبعـــد المستشفى، رموا بجسدي في مطـــار دمشق على مقعد من الحجر البارد، أمضيت ليلتي هناك، لآخذ مكاني في اليوم التالي في الطائرة صوب مدينة «القامشلي»، القريبة مـــن «الحسكة»، في هذه الأثناء كان صديقاي «عبد الغني شعبان» و«عبد الحكيم الحسينـــي» يسدان الفراغ الـــذي تركته في المجلة.

أمضيت في الحسكـــة أسبوعاً، وازدادت أوجاع يدي داخل القالـــب الجبصيني، إلى أن حضـــر جدي، فك القالـــب، ثم شد يدي بطريقـــة ما، فبدأت بالتحسن، ثم عدت إلى عملي، «ينتظرني العقـــاب»، لتأخري.. بعد خروجي مـــن مرضي، كان «حنـــا الحائك» يشغل مكاني، ثم بدأت أعمل تحت إشرافه، مـــع أننـــي أنا الـــذي جلبتـــه لمساعدتي في العمـــل بشكل مأجور، حتى يتمكن من إعالة عائلته.. ثم طرد، لرداءة قدراته، وعدت كما كنـــت.. كنت حزيناً شروداً في شوارع دمشق، كنـــت أكتب شعـــراً وهذياناً.. كنـــت غريباً، أحلم بقدوم الموت، بدلاً من الانتظار اليائس لخلاصي من عملي في الخدمة العسكرية.. كنت أحلـــم بالتفرغ للرسم مثـــل أصدقائي «لؤي كيالي» و«وحيد مغاربـــة»، وأحلم مثل الذين يسافرون في بعثات إلى أوروبة لدراسة الفن، كنت أحلم بالسفر إلى أي مكان يبعدني عـــن كل شيء.. كنت سجـــين عملي، سجين الألم والآمال المقتولة.

ذات مســـاء، كنـــت نائمـــاً كعادتي على الكرسيـــين العزيزيـــن علـــي في مكتبي في المجلة، يمـــر المسؤول بصحبة آخرين، ويبدأ بالصـــراخ في وجه مدير مكتبـــه «لماذا ينام عمر هنا؟»

- يبدو أنه تعب من العمل فنام..

فتحت عينـــي وصرخت: «لا»، وأنا أبكي «لا.. ليس لي مكان آخر أنام فيه، سيدي».

فوجئ المسؤول بما قلتـــه، فأمر بتأمين سكن لي بأسرع ما يمكن، وتمَّ ذلك في منطقة «دمر» الواقعة غربـــي دمشق، حصلت على شقـــة صغيرة غـــير مكتملة، سكنـــت فيها، وجمعت لوحاتي الموزعة بين الأمكنة المهملة

عنـــد أصدقائي، وعدت أرســم من جديد، وأجهز الشقة تبليطاً ونوافذ وحماماً.. إلخ. رسمت لوحات كثيرة، لم أستلم مقابلاً لها ليرة سورية، ورسمت لوحــات أخرى، أقمت بها معرضاً في دمشق، ثم في متحف حلب، هناك، تعرفت علــى فتاة ضئيلــة الحجم «جانيت كوركيس»، كانت تأتــي مع صديقي «صلاح الدين محمد»، إلى دمشق، لتنشر مقالاتها في المجلة، ولأنها لم تكن تعرف أحداً في دمشق، عرضت عليها أن تنام عندي، فقبلت، كانت تنتظر من صديقة مهاجرة لها في كندا، مبلغاً من المال، لتتمكن من السفر، ولتتزوج هناك أحد أقاربها، سافرت، لكنها تركت فراغاً ما، كنت أرسمها طيلة تلك الفترة، وسميت هذه المجموعة بـ«مالفا»، وبيعت كل هذه الأعمال، ثم عرفت بأنها في «رومــا» بعد ذهابها إلى كنــدا، وصلتني رسالة منهــا، تتحدث فيها عن حالتها الصعبة، وبأنها تعاني من مرض مــا، لم يكن عندي سوى مجموعة أعمال غير منجزة بالكامل، أرسلتها مباشرة لها، لتبيعها هناك، وتيسر بأثمانها أمورها هناك.. وذات صبــاح، فوجئــت بأنها واقفــة أمام مدخل المجلة، تنتظــرني، لم أصدق عيني، وفي تلك اللحظة، مزقت جــواز سفرها، لئلا تسافر ثانية، كانت «جانيت» حزينة، لأنها لم تستطع العودة إلى كندا، وأنها لا تعرف أحداً سواي، كانت «يتيمة» كما تقــول، ومن خلال الأيام القادمة اقترنت بها، ثم رزقنا بطفل أسميته بــ «ليبرتي»، بينما أسمته هــي بـ «أوليفر»، بعد أشهر قليلة، سافرت مجدداً مع «أوليفر» إلى بــيروت، حيث أقاربها هناك، ولم تستطع العودة بسبب الحرب الأهلية آنذاك.

دون أي جــواز سفــر، دون أي وثيقــة رسمية، سوى هويتي الصحفية، التي عبرها اجتزت الحدود إلى لبنان، في بيروت الحرب والدمار الكبير.. استطعت الاتفاق مع سائق تاكســي، أو «مهرب»، بإيصــالي إلى المكان الذي توجد فيه «جانيت وأوليفر».

لم يكن ذلك سهلاً، انتظرت أياماً، اختبأت فيها في الأقبيــة المتهدمــة، إلى أن أخذني السائــق الأرمنــي، وسلمني عــدة هويات بأسمــاء مختلفة، طالباً مني بــأن أظهر كل واحدة حسبمــا يقوله لي في الطريق، وعند الوصــول إلى كل نقطة تفتيشــ عسكرية.. أخيراً وصلت إليهمــا: كانا يختبئان في قبو إحــدى الكنائســ، أمضينا أيامــاً مرعبة،

وتعرفت على الراهب «جورج صليبا»، وساعدنا في شراء جوازات سفر لبنانية، وفي ليلة داكنة، خرجنا من بيروت، حيث كانت تنتظرنا سفينة صيد السمك، لتنقلنا إلى قبرص.. كان البحر الذي أراه للمرة الأولى قاتماً ومخيفاً، وأنا أحضن طفلي متكوراً، أقنع نفسي بالراحة المميتة، ممتلئاً بالخوف، لوحة «الأزرق الكبير»، تلاشى الأفق الجبلي، أحسست وكأنني أترك جسدي دفعة واحدة، أحسست بأن الملايين من الذكريات تخرج من الزرقة الداكنة، وجه أمي، إخوتي، لوحاتي، أصدقائي، فقراء قريتي، حقول القمح الأليفة، أعشاب السطوح، تداعيات وهواجس مبعثرة، ظلت يقظة معي مثل الليل..

الوصول إلى فيينا

في فيينا، كان الوقت مساء، فوجئت بكآبة المدينة القديمة وخلوها من البشر، أوصلنا سائق التاكسي إلى العنوان الذي كنت أحمله معي، من الراهب «جورج صليبا» إلى الراهب «آيدين» في فيينا، الذي أرسلنا إلى قرية «ترايسكرخين»، التي كانت تشبه ثكنة عسكرية كبيرة، مكتظة بالمهاجرين، من أنحاء العالم كافة، وبعد إتمام الإجراءات والأسئلة الكثيرة منحونا ثياباً وأغطية.

بعد حوالي الشهر من وصولنا، سلمت لنا جوازات خاصة بلون أخضر، خاصة بالمهاجرين أمثالنا، وكان علينا أن نترك هذا المقر الكبير، الذي كان يضم قصصاً بعدد نزلائه من كل أنحاء العالم، كان هذا المقر معسكراً خاصاً بالأمم المتحدة، خرجنا نبحث عن سكن في فيينا، وعن طريق الراهب «آيدين»، حصلنا على شقة قديمة رطبة. لم تبق معي أية نقود، وكان علي البحث عن عمل، فسألت «آيدين»، عن معنى كلمة الفنان بالألمانية، فقال: «مالر»، سجلت الكلمة على قصاصة، وذهبت إلى مركز تأمين العمل للعاطلين، سلمت القصاصة للسيدة الموظفة هناك، فأعطتني ورقة فيها عنوان ما، في إحدى الضواحي، فذهبت، فكانت شركة لدهن البيوت، فعملت دهاناً، ثم التحقت «جانيت» بمعهد لتعليم اللغة الألمانية مجاناً، وكان «أوليفر» يبقى عند سيدة نمساوية عجوز، كانت جارتنا في البناء الذي نسكنه، وكانت هذه الجارة تطلق عليه اسم «آرنست»، وهو

اسم نمســاوي، لأن «أوليفر» كان أقرب إلى الشقرة، وتقول بأنه يشبه النمساويين. كنت أرسم مجموعة لوحات كلما توفرت لي المادة والوقت، وذهبت بلوحاتي إلى صالات العرض ودكاكينها، واحدة تلو الأخرى، لم تقبل صالة واحدة بعرضــ أعمالي، إلى أن تعرفت على دكان صغير لبيع اللوحات التجارية، فطلبوا مني بأن أرسم زهــوراً وأشجاراً.. لم أكن قد رسمــت ذلك مــن قبل، ومع ذلــك، وضعت لوحاتــي في زاوية الغرفة الكبــيرة، وبدأت أنســخ لوحات لفنانــين انطباعيــين، بعد أسبوع، ذهبت بعشر لوحات صغيرة طرية إلى الدكان، اشــترى صاحب المحل مني لوحتين بسعــر رمزي، وأعــاد الباقــي إلي، مضت الأسابيع وأنا أرسم، لم أترك تجربة أو تقنية، إلا وحاولــت العمل بها في رســم الطبيعة، لكــن المحل، ظل يشتري القليل مني، ولم يكن ذلك يكفي لتسديــد التكاليف التي أصرفها ثمن القماش والألــوان، ثم عملت «جانيت» في معمل للمخللات، ثم عملت أيضاً هناك، وفي المســاء، كنت أمر على محطة القطارات الكبيرة، كنت أنتظر مع المتسولين والسكارى، وجبة شوربــة ساخنة أو ثياباً، كانت توزعها علينا إحدى الدور الخيرية.

اسم مالفا

تعرفــت على تاجــر لوحــات تجارية، كانت له عدة دكاكين في فيينا، ويعمل عنده رسامون كثيرون، أغلبهــم قادم من المعسكر الاشتراكــي آنذاك، حملــت لوحاتي الملونة مثل دكان الأقمشـــة أو السكاكر، وانتظرت مع غــيري، في ساحة للمبنــى الكبير الذي يسكنه تاجــر اللوحات.. حين تأمل لوحاتي وهيئتي.. سألني، لماذا لا أوقع على لوحاتي، فأجبته لأنهــا بمثابة الخبــز، وليست مما أريــد رسمه، ويمكنك أن توقع عليها بالاسم الذي تريد، فطلب منــي أن أوقع بأي اسم، شريطــة ألا يكــون اسمــاً شرقيــاً، فقلت: «مالفــا»، ووافق، بدأ التاجر يشتري لوحاتي بسعــر زهيد، وكان يهبني القماش والألوان، تركــت العمل الآخر، وبدأت أرسم ليل نهار، وبجانبي أوليفــر، تعلمت منه اللغة الألمانية التي ينطق تأثراً بجارتنا العجوز، ثم أدخلته إلى دار للحضانــة، وراحت «جانيت» تدرس في الجامعــة، خرجــت إلى الطبيعة، ورحت أرسم مــا أراه مباشرة: كروم العنب، وحقول عبــاد الشمس، وقتها، أحسست بأنني أرسم

بحرية جيدة، بعيداً عن عذاب نسخ اللوحات الرديئـة، وكان تاجـر اللوحـات مسـروراً بتجربتي الجديدة، وبدأ يدفع لي سعراً أعلى للوحة التي يختارهـا، ثم بعت أربعة أعمال جديـدة لصالة عرض صغيرة، وقد عرضها صاحب الصالة في المهرجان السنوي للفنون في مدينة «فرانكفورت». بعدها بأيام، حضر إلى فيينا، رجل أمريكـي عجوز، كان اسمه «هربرت آرنـوت»، أظهر حزنه، عندما رآى المكان الـذي أعيش فيـه، والحالة الفقيرة التي كانت تعيشها عائلتـي الصغيرة، وقال بحـرارة: «منذ الآن، أريـدك أن تكون ابني الثـاني بعد «بيتر»، وكل ما ترسمه بعد الآن، ترسلـه إلى عنواني في نيويـورك»، دفع لي ثلاثة آلاف دولار، وذهب..

بعد أزمة الفقر

اشتريت بهذا المبلغ الكبير كمية كبيرة من الألـوان والقماش، وحاملة لوحات، اشتريت كل ما كنت أتمناه، وكل ما كنت أحبه من مواد الرسم.. وبدأت أخـرج كل يوم إلى الطبيعة والحدائق، أبحـث عن منظر يشدني.. كنت أتأمل كل شيء، وبسرعة عجيبة، كنت أرسم، قبـل أن يغـير الضـوء المشهد الـذي كنت أحتويـه. بعيني وبعشق كبـير وحب، تعلمت تفاصيـل الأشيـاء وحركتهـا، تعلمت كيف يكون اللون مشبعـاً بالضوء والغبار ورائحة الأشياء.. كنت أتأمل حقول شقائق النعمان، بجـوع كبير، وكأنني أسكن مـكان ولادتي.. أخذتني الطبيعة بسرهـا الكبير، ومنحتني آفاقاً جديدة للتعبير..

حصلـت علـى الجنسيـة النمساويـة، وكذلك «جانيت» والأطفال، بدأت أبني على الأرض التـي اشتريتها بقرضـ من البنك، وبيـديّ، وضعـت حجرة تلو الأخـرى، بدأ القبو يكتمـل ببطء، ثم سكنت فيه بدلاً عن المرسم الذي استأجرتـه، كان الوقت شتاءً، وكان القبو بـارداً، ولم تكن نوافذه الصغيرة مغلقـة بعد، سـوى بطبقة مـن البلاستيك الشفاف، وكذلـك الباب، فسقطت مريضاً، كان الجيران يجلبون لي الدواء والشاي..

بعدهـا، ذهبت كالعـادة، لزيارة أطفالي بنهايـة الأسبوع، لكنني هذه المـرة لم أسمع صوتاً، إلى أن خرجت جارتنا العجوز، وقالت: «جانيت وأولادهـا سافروا إلى أمريكا، هذا كل مـا أستطيع قوله لك، يا بني، أنا آسفة»، وأغلقت الباب.

ماذا أحكي لك؟.. لقد كان أطفالي كل ما كنت أملكه، كانوا عزاء لاغترابي. ملامحهم.. حركاتهم.. رائحتهم..

نزلت إلى الشارع مثل طفل يتيم. لم أعرف ماذا أفعل غير البكاء.

أحلم بمكان أودع فيه جسدي وحيداً، مكاناً تخرج منه رائحة الغنم والدجاج والزعتر، مكاناً أعرف حدوده وتضاريسه، كلما نظرت إلى وجهي في المرآة.

كل صباح.. حين أواجه المساحة البيضاء في مرسمي، يستحضرني الوطن، وأقنع نفسي بالانتماء ولعبة الزمن، لكن، وطني لا يزال مرسوماً، أسكنه بصمت.

كنت وحيداً مثل الكلمات والأنهار التي تخترق مفاصل المدن الكبرى، الحقول والوديان، قبل أن تصب في بحر كبير.. لم تعد المدن وزحام الناس، أو أمكنة القتل والإرهاب، تعذبني، أو تثير اهتمامي كما كان من قبل، أتأمل لوحاتي، وأسمع موسيقاي، وأعرف كيف يكون الفن مخبأ، هروباً من الذات، وكيف يكون موتاً يقترب من الواقع، وكيف يكون وطناً لم أتمكن من التعرف عليه بعد!

إيه.. أيها الزمن، أعرف كيف يكون الفن لوناً يتحول إلى دم.

وبهذا الدم، مازلت أرسم وردة بيضاء.

بعد أعوام من الاغتراب، وصلتني دعوة رسمية من وزارة الإعلام السورية، كضيف شرف على مهرجان المحبة والسلام الأول في اللاذقية.. بكيت حين لمحت عيناي الحدود السورية عبر نافذة الطائرة، أخيراً.. في المطار كان أهلي وحشد كبير في انتظاري، التقيت بأهلي بعد كل هذا الغياب في اللاذقية، ثم في دمشق، شاركت في المهرجان بأربعة أعمال من القياسات الكبيرة، كانت أياماً غنية، وأبدت أجهزة الإعلام اهتماماً خاصاً بزيارتي تلك، عدت بعد أسبوعين إلى فيينا، منتظراً الوعود التي قدمت لي بمنحي جواز سفر سوري.

الرسم في الآرت هاوس

ثم، سافرت مجدداً إلى سورية، لأقيم معرضاً في مكتبة الأسد بدمشق، ثم معرضاً آخر في غاليري «أتاسي»، وتجولت مع أخي «عصام» مثل سائح أجنبي، يتعرف على معالم سورية الهامة، سافرنا إلى الساحل السوري، وأعجبت بطبيعته الساحرة، واشتريت

قطعة أرض، في منطقة خلابة، صخورها بيضاء، وماء بحرها بلون «التوركيز»، وبدأت الإجراءات القانونية الرسمية وتقديم الأوراق إلى الجهات المختصة للحصول على الموافقة لبناء متحف، يضم المقتنيات الخاصة من الفن السوري المعاصر، على هذه الأرض.

بعض ما قالوا فيه

هذا الدفء الشرقي الذي ينبت من غير توقع، حين تسافر عيناك في امتدادات اللوحة، ما هو إلا نوع من الإيماءات التصويرية في العمل الفني، وبالتالي، للتركيز على الطرق المجردة للتعبير عن «المحتوى» كوجود إطار، أو لوحة داخلة في لوحة، انعطاف قسري لحركة اتجاه اللوحة لفرشاة ذات عنف مفاجئ، وأحجام متراكمة، وكأنها أكوام بشر، لها انعطافات حادة نحو الأسفل (الجهة اليمنى من أسفل اللوحة)، وكأنها تحمل عبثية «جامسون، بولوك»، وصخب «روبرت راشنبرج»، وتصويرية «فرانز ملاين، أو ويليم دي ونيك»..

يطالب عمر حمدي، حين يتكلم باللون، بأن تكون اللوحة، وكأنها المخرج القدري للتعبير، البقعة اللونية- الضوئية، لون محايد، ومتلاش، وكأنها القلب في محيط داكن، كل هذه الفاعليات الحسية، وهذا القبول الشكلي لبناء اللوحة وحشدها بالألم، تمثل، باختصار، ملحمة موسيقية، حين تتدفق كل عناصرها في منتهى الصعود دفعة واحدة، تجعلك أمام فنان كبير، يمارس فعله الإنساني من أجل أن تكون الحياة أكثر أهمية وخصوبة..

عمر حمدي «مالفا» الذي يرسم تحت تأثيرات بصرية متعددة، والتي تمنحه الخروج من الجلد الخارجي، إلى المتعة الداخلية بالألم، وحرية التعرف على النفس، «عندما أرسم، لا أريد أن أعرف ما الذي أفعله»، بين تماثل سطح اللوحة، الذي هو حقل نشاط انفعالي متفق مع الداخل، وبين القدرة المتميزة للسيطرة على فوضى المشاكل التصويرية لعملية الإبداع..

النبرة، التدرج، الصفاء، الكثافة وخصائصها المتدفقة والمنحسرة، التمدد، الدفع، الجدب، الانقباض، الوزن، الحرارة، الأبعاد: (قريب- بعيد)، كل هذه القيم دفعة واحدة، وفي تداخل غريب لخلق «تجريدية» تحمل لغتها الواقعية وتأثيرها. «ينبغي أن

ترسم بإحساس، وليس بمعرفة». الرسم بهذا العمق من أجل أن تكون كل لوحة، كلاً عضوياً. هذه الحقول اللااتصالية، تتعلق على نحو صارم بالوحدة، وعلامات متسربة في الداخل، من ذكريات وآلام. «وأدخل مرسمي كئيباً.. أضع اسطوانة.. وأتجول مثل طفل فقد أمه..»، مثل اللحظات الكثيفة التي تسبق الموت، أو حالة قبل الإعدام، أي اللحظة التي تسبق هبوط الخطر.. هذه اللحظات، هي محور اللوحة.. حين تكون اللوحة دفاعاً عن النفس.

عمر حمدي «مالفا»، مخزون كبير، تتداخل في هندسته، مفاهيم اللوحة «الشكل واللاشكل»، تتوضح علاماتها من خلال ثقافة بصرية، طويلة العمر، بدأت بتأمل الجدران الطينية، ومروراً بالأسرة والسجاجيد الملونة، التي كانت والدته تصنعها، وتضعها فوق بعضها البعض، والثياب الملونة في السينما الهندية، الطبيعة، وجوه الحصادين، وأفلام الكابوي، مساحات اللون في الطبيعة، كثافة المؤثرات من تاريخ الفن، الحضارة، التجربة، عشقه للفراغ، لصخب اللون، وصراحة الشكل، كل هذا، لا يزال يتحرك بخصوصية على أجساد لوحته، ويجعله، يفكر، بأن اللوحة ستبقى معبداً.. طقساً بدائياً، مسكوناً باحتمالات جديدة، وثنائية الحياة والموت..

« لا جديد في الفن.. أكثر الفنون بدائية، هي الأكثر معاصرة، اليوم..»

د. سعد الله الطويل. لندن ١٩٩٣

❁ ❁ ❁

محطات

• تزوج الفنان عمر حمدي ثانية من سيدة أجنبية.

• افتتح آخر معارضه في صالة «آرت هاوس» في دمشق في أيار ٢٠١٠ ولم يقم مع المعرض سوى خمسة أيام، وتركه تحت إشراف أخيه السيد عصام حمدي، حتى آخر أيار.

• يبيع لوحته الكبيرة بـ ٣٠ ألف دولار، كما قيل، ويبيع الصغيرة بنصف هذا المبلغ.

• يعتبر بارعاً جداً في رسم البورتريه، وقد أقام معارض كثيرة في الوطن والمغترب.

• أضاف إلى اسمه كلمة «مالفا» فصار يعرف في أوروبة وأمريكا به.

• أراد إنشاء مكان للفن السوري المعاصر.



متابعات

- صفحات من النشاط الثقافي — إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

- العلمانية في المشرق العربي — إعداد وتقديم: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

- الأغنية العربية.. لا حسد — رئيس التحرير

متابعات



صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ❋

مؤتمر العرب والأتراك:

في إطـــار التطور المتنامي لعلاقات التعاون والانفتاح المشترك بين سورية وتركيا على مختلف الأصعدة الاقتصادية والثقافية والفكرية، احتضنت مكتبة الأسد بدمشـــق فعاليات مؤتمر العرب والأتراك /مســيرة تاريخ وحضارة/ الـــذي أقامتـــه وزارة الثقافة السوريـــة بالتعاون مع مركـــز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية أرسيكا في اسطنبول.

واستعرضـــ الدكتور رياضـــ نعسان آغا وزير الثقافـــة في افتتاح أعمال المؤتمـــر تاريخ العلاقات العربية التركية منذ مـــا قبل الإسلام وحتى الوقت

❋ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

الراهن موضحاً أن هذه العلاقات لم تقتصر على الأمور السياسية فحسب، بل تعدتها إلى الجوانب العلمية الوافرة، مستشهدا بمساهمات الأعلام الأفذاذ التي أغنت القواسم الثقافية والفكرية المشتركة، وفي مقدمتهم الفيلسوف الفارابي كأول فيلسوف مسلم في حضارتنا، والبيروني الذي يعد أكبر عقلية علمية عرفتها البشرية.

وقال وزير الثقافة: إن الدماء التركية التي بذلت في قافلة الحرية تعبير عن الخيارات الجديدة لتركيا التي جاءت كتحالف حضاري يقف مع العدل ضد الظلم ومع الحضارة الإنسانية ضد الحضارة المادية مؤكداً ضرورة التركيز على الإيجابيات في العلاقة بين العرب والأتراك من أجل أن نمضي بعلاقة وثيقة معا في المستقبل محاولين زيادة التدفق في الترجمة بين الطرفين.

من جانبه قال عمر أونهون سفير الجمهورية التركية بدمشق: إن العلاقات بين العرب وتركيا مهمة جداً وقد تطورت بشكل ملحوظ وهي تستند إلى روابط تاريخية بين العرب والأتراك بشكل عام وبين الأتراك والسوريين بشكل خاص ولاسيما من خلال الثقافة والعادات والتقاليد.

وأوضح الدكتور عفيف بهنسي الباحث في التاريخ أهمية قيام المؤتمر في هذا الوقت الذي يشهد تعاونا قويا بين العرب والأتراك لضرورة إثبات حضورنا في نظام عالمي يكفل حقوقنا المشروعة لافتاً إلى أهمية ما يقوم به مركز الأبحاث أرسيكا في التأكيد على المسيرة المشتركة والسعي الدائم لتجديد هذه العلاقات.

وأكد الدكتور نزيه معروف نائب مدير مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية أرسيكا أن زيادة أواصر العلاقات السورية التركية تأتي تجديداً لمسار هذه العلاقات الطيبة لما نلمسه من شغف وسعادة بين المجتمعين السوري والتركي اللذين يتبادلان الزيارات للتعرف على خصوصيات بعضهم ورسم أسس المحبة والصداقة والتفاهم حول المصالح المشتركة.

وقد تضمن برنامج المؤتمر عدة جلسات بحثية شارك بها باحثون من سورية وتركيا والبلدان العربية، تناولت أواصر العلاقات العربية التركية، حيث تحدث الدكتور وليد رضوان في مداخلة له بعنوان العرب والسلاجقة والدفاع ضد الغزو الأجنبي حول الدور التاريخي للأتراك السلاجقة في التصدي للحملات الصليبية في بلاد الشام مبينا أن بلاد الشام ظلت محتفظة بهويتها العربية والإسلامية رغم كل الحملات الصليبية التي استهدفتها.

وتطرق الدكتور جنكيز تومان من تركيا في مداخلته العلاقات التركية العربية قبل الإمبراطورية العثمانية مشيراً إلى الجذور التاريخية العميقة للعلاقات التركية العربية

مبينا عمق العلاقــات التركية العربية ليس من الناحية السياسية فقط وإنما في التعليم والفن والثقافة.

وتحــدث الدكتــور نذيــر العظمــة في مداخلــة بعنوان العرب والأتــراك والدفاع عــن الدولة ضد الغزو الأجنبي عن اشتراك العرب والأتراك في الدفــاع والمقاومة ضد مراكــز النفوذ والقــوة في العهود التاريخية المختلفة، وأشــار إلى الدور الهام الذي لعبه الأتراك للتعبئة ضد بيزنطة وروما وأوروبة التي حاولت أن تخرج من أزمة تزايد سكاني وفائض قــوة معرفي واقتصادي وتكنولوجي بالسيطــرة على العالم الأمــر الذي أدى إلى نشوء حركــة الاستعمار في الأزمنة الحديثة ملقيــا الضوء علــى هذه الرؤيــة في سياق تاريخي لتعاون العــرب والأتراك معا لصد العدوان عن أرضهم وحقوقهم.

وأشــار الدكتــور توفال بوزنبــار إلى أن العــرب والأتراك أسسا علاقتهما قبل وبعد الفــترة العثمانية كأعضــاء في دول مختلفة ولكن أثناء الحكم العثماني كانوا رعايا دولة واحدة وقد ناضل العرب والأتراك كأعضاء في دولة واحدة من أجل القضية ضد الأعداء الخارجيين.

وناقش المشاركــون في المؤتمر مجموعة مــن المحاور التي ركزت على التأثير المتبادل بين الثقافتــين العربية والتركية في مجالات الأدب واللغة والفنون والعمارة، حيث تحدث الدكتور علي القيّم معاون وزير الثقافة حول القواســم المشتركــة بين الموسيقــى العربية والتركيــة، ورأى القيّــم أن تطــور الموسيقا العربيــة جاء علــى مرحلتــين الأولى تتسم بالأصالة العربية والثانية بالتفتح والتداخل مــع مختلف العناصر المكونة للعالم الإسلامي تمكنــت بعدهــا بالاستفــادة مــن الثقافة الموسيقيــة العثمانيــة من التألــق ثانية في مجال الخلق والإبداع حيث كانت هذه الفترة بمثابة تحــول جذري تعانق فيهــا الشعبان العربي والتركي تحت راية الدين الإسلامي وامتزجت ثقافتهما امتزاجا كليا وظهر ذلك جليا في نظم الأغاني والتأليف الموسيقي وفي مستوى الترنيمات الموسيقية وتوحيد أسماء درجــات السلم الموسيقــي وأسماء المقامات الموسيقية أو المصطلحات الفنية.

وأوضح القيّم أن الغناء التركي دخل شتى أرجــاء الوطن العربي عن طريــق التهاليل المستعملة في المساجد وقبيل صلاة العيدين مشــيراً إلى أن جسور التبــادل بين الموسيقا العربية والتركية مكنــت من ازدهار وتطور الموسيقــا علــى يد عبده الحمــولي ومحمد عثمان وتم تهذيب التواشيح والقدود وتبادل ترجمتهــا بين الشعبــين معتــبراً أن التأثير التركي في الموسيقا العربية يبرز في القوالب الآلية مثل البشرف والسماعي واللونغا.

كما تطرق الدكتور برهان كور أوغلو من تركيا في مداخلته إلى إسهامات الأتراك في

تطـور الفكر والعلـم الإسلامي في مجالات العلـم والفنون والآداب مبينـاً دور المدارس النظاميـة التي أنشأها الوزيـر السلجوقي نظـام الملك في بغـداد في تدريـس العلوم العلميـة إلى جانب العلوم الدينيـة، وأشار الباحث التركي إلى دور حركة ترجمة الكتب والتيارات الفلسفيـة للحضارتين اليونانية القديمة والهلنستية في تطور الفكر الإسلامي لافتـا إلى دور العالم التركي الشهير البيروني في مجالات الرياضيات والطب وعلم الفلك والهندسة وآثـاره التي مازالت تثير إعجاب علماء العصر الحالي.

أما الدكتور خسرو صوباشي فتحدث في مداخلته التـي حملت عنوان «فن الخط في مؤثـرات الثقافة التركيـة العربية» عن دور الخطاطين الأتراك في تطور الخط العربي خلال فترة الحكم العثماني ووصوله إلى قمة الجمـال والإبداع حيث ساهمـوا مساهمة كبـيرة في تثبيت قواعد الخـط المتمثلة في أشكال الحـروف ونظـام الأسطر وتركيب الكلمـات وغـير ذلك من مظاهـر الجمال والإبداع.

وحـول الترجمة بـين الأدبـين العربي والتركـي رأى الدكتور نـور الدين جفيز أن كثيرا من الإبداعات الفنية التي كتبت باللغة العربيـة أو التركية ترجمت إلى كلتا اللغتين ولاقت اهتماما كبيراً مـن قبل القراء سواء من العرب أو الأتـراك لكن هذه الترجمات كثيرا ما تمت عن طريـق لغة ثالثة وسيطة ما يخلق مشكلة لدى القارئ الحقيقي لافتا إلى أن مشكلـة الترجمة المباشـرة لها صلة حقيقية بالمثقفـين والمشتغلين باللغة بصفة عامة ولأجل هذا عليهم أن يكثفوا جهودهم على الترجمة المباشـرة دون استخدام لغات وسيطـة لتأخـذ الإبداعـات الفنية دورها الحقيقي في مساهمتها في تعزيز العلاقات بين الشعوب.

أمـا بخصوص فـن العمـارة فقد بيّن الدكتور عفيـف بهنسي أن الطراز المعماري في سوريـة شهد تطـوراً كبـيراً منذ القرن السادسـ عشر مستوحيـاً عناصره وأسلوبه من العمارة العثمانيـة، مشيراً إلى مجموعة المساجـد التي أنشئـت في دمشق وفق هذا الطراز مثـل جامع الشيخ محـي الدين بن عربـي والتكية السليمانية وخان أسعد باشا وقصـر العظم إضافة إلى مسجد الخسروية في حلب ومجمـع العثمانية الذي يقع ضمن متحـف التقاليد الشعبيـة في حلب وكذلك جامع خالد بن الوليد في حمص الذي أعيد بناؤه كلياً حسب الطراز العثماني.

فيما اختارت الدكتورة بغداد عبد المنعم محور أوهـام الاستشراق عن المدينة العربية في العصـر العثمـاني أكدت فيـه أن الفترة العثمانية لم تمثل انحطاطا للمدن مثلما عم الخطاب الغربي الاستشراقي، وقدمت نقدا لمفهوم اللامدنية الاستشراقي ونقد النظرية

الاستشراقية التـي تقارن المدينة الإسلامية مـع المدينـة الكلاسيكية القديمـة إضافة إلى نقـد مصطلح القـرون الوسطى المعمم حاليـا وعلاقته المشبوهـة بالمدينة العربية في هـذه الفترة ونقـد دور السوسيولوجيين والانثربولوجيـين الذين ربطـوا دراساتهم ونتائجها بدراسة أي مدينة.

وتطرق المهندس المعمـاري محمود زين العابديـن إلى مساجـد سوريـة في العصر العثمـاني، وختـم الدكتور يوسـف نعيسة الحديث حـول ملامـح فن العمـارة عند العثمانيـين وآثارها في دمشق ما بين القرن السادسـ عشر ومطلع القرن العشرين مبيناً أن العثمانيـين استخدموا في مجال العمارة أشـكالا وتعابـير موروثة جـرى تطويرها فكانـت مزيجا مـن الحضـارات الآشورية والأوروبيـة السابقـة فحصل ذلـك النتاج من تلك الحضـارات والتقاليـد العثمانية والإسلامية.

هذا وكان العماد حسن توركماني معاون نائب رئيسـ الجمهورية قد أكد في كلمة له أن المؤتمر وما تناوله الباحثون خلاله سلط إضـاءات قيمة وغنية علـى الثقافة والفن والتاريخ والموروث المشترك للعلاقة التاريخية بـين العرب والأتـراك، وأضـاف إن هناك حاجة إلى مزيد من هذه الفعاليات الثقافية لتوسيع الموروث والتاريخ المشترك الذي كان يجمع العرب والأتـراك عبر التاريخ والذي يجذر العلاقة ليس فقـط بين الدول وإنما بـين الشعوب المرشحة للتطـور والاستمرار مؤكداً أن مثل هذه النشاطات الثقافية تلبي ما تتطلبه العلاقات الجديدة والمتجددة بين العرب والأتراك وتحديداً بين سورية وتركيا، مؤكـداً أن العلاقـة السوريـة التركية التي تشهـد تطوراً سريعـاً ومتنامياً تأتي ترجمة لرؤية السيد الرئيسـ بشار الأسد وبرنامج قيادة حزب العدالة والتنمية وتحظى بدعم جماهيري وتستنـد إلى أساس متين وراسخ وإرادة سياسية وتوافـق سياسي ومساحات واسعـة ومشتركة بين سوريـة وتركيا لافتا إلى أن هـذه العلاقة تشكل نموذجا يحتذى لعلاقات الشعـوب والدول المتجاورة وتمهد لعلاقـات أوسـع لأنها وصلـت إلى مستوى استراتيجي في مختلف المجالات.(١)

اكتشافات أثرية جديدة:

أثمرت أعمـال البعثة الأثرية الأمريكية الهولندية المشتركة للموسم الحالي في موقع تـل أم المرا شرق مدينة حلـب عن اكتشاف مدفنـين أثريين يعودان إلى الفترة البرونزية القديمة حـوالي ٢٨٠٠ قبـل الميلاد داخل أحدهمـا قطعة ذهبية ولقـى أثرية وعشر جماجـم بشرية تعود إلى الفترة ذاتها، وذلك حسب ما صرح بـه رئيس شعبة التنقيب في مديرية آثـار ومتاحف حلب، الذي قال: إن المدفنين المكتشفين يقعان في منطقة المدافن الرئيسية من التل ويعتبران من أهم المدافن

المكتشفة خلال عمل البعثة سابقا والتي يزيد عددها على عشرة مدافن لافتا إلى أنهما مبنيان من الحجر ويحتويان لقى جنائزية ما يدل على أنهما لشخصيات مهمة في ذلك الحين موضحا أن المكتشفات في الموقع الأثري تدل على أن مدينة أم المرا كانت جزءاً من الإمبراطورية الميتانية التي قضى عليها الحثيون، مضيفاً أن البعثة عثرت خلال أعمالها التنقيبية السابقة والتي بدأت عام ١٩٩٤ على أربعة هياكل لحيوانات تشبه الحمار الوحشي ضمن مدفن للحيوانات وسط منطقة المدافن المركزية للتل يعتقد أنها حيوانات هجينة كانت قد تحدثت عنها النقوش المكتشفة في إيبلا أيضاً والتي دلّت هياكلها على استخدامها آنذاك لأغراض النقل فقط ثم تطورت فيما بعد لاستخدامها في الزراعة.

وعلى صعيد آخر عثرت البعثة الأثرية السورية السويسرية المشتركة خلال أعمال هذا العام في موقع بئر الهمل بمنطقة الكوم في البادية التدمرية على لقى أثرية وعظام حيوانات تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

وبهذا الصدد أوضح مدير آثار تدمر أن البعثة التي أنهت نشاطها عثرت على أدوات صوانية مشغولة وعظام حيوانات منها الجمل وحمار الوحش ووحيد القرن والغزلان تعود إلى عصور ما قبل التاريخ الأمر الذي يؤكد التنوع الحيوي في المنطقة وغناها بمصادر المياه اللازمة لقيام تجمعات بشرية وتطور ثقافتها عبر العصور، لافتاً إلى أن البعثة كشفت عن هذه اللقى في ٢٣ طبقة متعاقبة على عمق يزيد على ٢٠ متراً وهي لا تزال غنية بالمعطيات والمعلومات الأثرية التي تحتاج إلى المزيد من التحاليل المخبرية والأبحاث الجيولوجية اللازمة.[٢]

الثقافة الإسلامية إلى تلمسان:

دعت وزيرة الثقافة الجزائرية خليدة تومي الدول العربية والإسلامية إلى تقديم ما تزخر به من ثقافة والمشاركة بقوة في تظاهرة «تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١١».

وقالت تومي: إن الجزائر مقبلة على احتضان فعاليات هذه التظاهرة الكبرى الرامية إلى تفعيل النشاط الثقافي والتعرف على الآخر، وأضافت أن التحضيرات جارية على قدم وساق لإنجاز المشاريع الثقافية وترميم المعالم الأثرية والمنشآت الثقافية لاستقبال ضيوف الجزائر كتهيئة وترميم «قصر السلطان» و«المدينة العتيقة» و«دار الحديث» التي كانت قلعة علم وتربية تستخدمها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في بث الوعي الديني والوطني لمحاربة الاستعمار الفرنسي، مشيرة إلى أن الحكومة الجزائرية رصدت مبلغا ماليا ضخما من أجل إنجاز مشاريع ثقافية من بينها إنشاء المركب الثقافي الضخم ببلدية

المنصورة وهي من البلديات التاريخية في ولاية تلمسان وإنشاء مركز للدراسات الأندلسية الذي يعتبر الأول من نوعه في الجزائر والمغرب العربي والذي أنجز على النمط المعماري العربي الإسلامي، وبينت تومي أن الجزائر سبق لها أن احتضنت عاصمة الثقافة العربية سنة ٢٠٠٧ لتكون عاصمة الثقافة الإسلامية إضافة ثقافية للجزائر وللدول العربية والإسلامية.(٣)

قلعة الجاهلي تفوز بجائزة العمارة الدولية:

أعلن متحف شيكاغو للعمارة والتصميم، والمركز الأوروبي لفنون التصاميم المعمارية والدراسات الحضرية عن فوز «قلعة الجاهلي» في مدينة العين بإمارة (أبوظبي) بجائزة العمارة الدولية ضمن أفضل الإنجازات المعمارية الحديثة لعام، ٢٠١٠، وقد جاء اختيار قلعة الجاهلي من ضمن ٩٥ مبنى ومشروعا حضريا حول العالم تعد معالم معمارية متميزة تم إنجازها مؤخرا.

واستقطبت المسابقة المئات من التصاميم من أكثر من ٤٥ بلداً من القارات الخمس، وذكر منظمو المسابقة التي اعتمدت أسلوب استفتاء آراء كبار المعماريين، أن الاختيارات راعت عوامل كثيرة وضمن شريحة واسعة من المباني التي تشمل ناطحات السحاب ومبانيَ لكبريات الشركات والمكاتب والمتاحف والمؤسسات والمنشآت الثقافية. كما شملت المسابقة المعارض الفنية والملاعب والمستشفيات ومحطات القطار الكبرى والجسور وأبنية المصارف والتصاميم الحضرية والأسواق، إضافة إلى إعادة إحياء المراكز التراثية والتاريخية والمسارح والمطارات والجامعات. ودخل المنافسة العديد من الكنائس ودور العبادة ومبانٍ حكومية وصروح ومنشآت ترفيه.

وتعد «قلعة الجاهلي» علامة معمارية وتراثية مميزة خصوصا بعد انتهاء عمليات الترميم والتجديد التي قامت بها هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث، حيث أعادت الهيئة افتتاح القلعة للزوار في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨ بمناسبة العيد الوطني لدولة الإمارات، مما حولها إلى متحف دائم ومعرض يستقطب الزوار والسائحين في مدينة العين.

وأوضح محمد خلف المزروعي مدير عام هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث، أن مشروع تطوير قلعة الجاهلي يأتي في إطار جملة من المشاريع الثقافية الهامة التي باشرت هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث بتنفيذها في مدينة العين، وأكد أن النقلة النوعية التي بدأت تشهدها الحركة الثقافية في مدينة العين تشمل تأسيس وإطلاق العديد من المشاريع التراثية الثقافية المتميزة، حيث تعمل الهيئة على توفير الأماكن المناسبة

لاستضافة الأنشطة الثقافية وتقديم مختلف أشكال الدعم اللوجستي.

ويعود تاريخ «قلعة الجاهلي» عام ١٨٩٨ وتعتبر أحد أهم المعالم التاريخية في مدينة العين وأكبر قلاعها، حيث قام الشيخ زايد بن خليفة (زايد الأول) حاكم إمارة (أبوظبي) في الفترة الممتدة من ١٨٥٥ إلى ١٩٠٩ ببناء هذه القلعة بالقرب من إحدى المستوطنات حول واحة الجاهلي، وجعل منها محل إقامته الصيفية وباشر منها بالعديد من المشاريع التطويرية بدءاً بالأفلاج وانتهاءً بالمباني الدفاعية، وتدل النقوش المكتوبة على البوابة الجنوبية للقلعة على أن القلعة المربعة الداخلية تعود إلى تسعينيات القرن التاسع عشر ميلادي، وكانت القلعة تستخدم كاستراحة صيفية للعائلة الحاكمة، كما كانت تمثل رمز الاستقرار السياسي الذي حققه الشيخ زايد بن خليفة خلال فترة حكمه الطويلة، وتعتبر القلعة المربعة الداخلية والبرج الدائري المنفرد من أقدم أجزاء هذا الموقع التاريخي، ومن المرجح أن يكون قد تم بناء هذا البرج لمراقبة وحماية الواحة من المغيرين والغزاة.(٤)

حال الموسيقى:

ناقشت مجموعة من الباحثين والفنانين والأكاديميين وعلماء الموسيقى من السنغال وأوزبكستان وفرنسا والصين والأردن وتركيا في مؤتمر حوار بمدينة أصيلة في المغرب ضمن فعاليات مهرجانها الثقافي للعام الحالي، وذلك في إطار مشاركة هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث من خلال مشروعها «مركز العين للموسيقى في عالم الإسلام»، والذي يهدف إلى إتاحة الفرصة للفنانين للنقاش وتبادل الرؤى حول حال الموسيقى في عالم الإسلام، وما يجب حمايته من هذا التراث والحفاظ عليه.

وتحدث رئيس المجلس الاستشاري لمركز العين للموسيقى في عالم الإسلام، شريف خزندار، عن مهام المركز ونشاطاته التي تشمل في بعض جوانبها تنظيم ورش عمل وحفلات موسيقية، وتنفيذ مجموعة من المشاريع المتمثلة برقمنة كل المحتويات المسجلة بمؤتمر الموسيقى العربية في القاهرة سنة ١٩٣٢، وإتاحتها لعلماء الموسيقى في أقراص مدمجة خلال السنوات القادمة،وذلك إلى جانب مشروع حماية ترانيم المهد أو ما يعرف بالهدهدة في البلدان الإسلامية، حيث أن الكثير من هذه الترانيم وغيرها من أغاني الأطفال الكثيرة الأخرى آخذة في الاختفاء بحيث يستخدم الآباء الأقراص المدمجة وغيرها من الوسائل الإلكترونية بدلاً من الغناء لأطفالهم قبل النوم».

أما بابا ماسين سين، مستشار رئيس وزراء السنغال فقد اقترح آلية للطريقة التي يجب اتباعها من أجل صون الموروث

الموسيقـــي، تقوم على تسجيـــل هذه الأنواع من الموسيقى من أجـــل الباحثين والمتاحف في المقام الأول، موضحاً أن هذا الموروث من صميم مسيرتنا في التطور، وينبغي الحفاظ عليـــه دوما باعتبـــاره وسيلـــة للتعرف على جذورنا الفنية والتراثية.(٥)

سـلا تسـتـذكـر تـاريـخـهـا مـع القراصنة:

استضافت مدينة سلا المغربية مهرجانا فريـــدا من نوعه إحيـــاء لتاريخ المدينة التي ازدهرت من خلال التجارة وأعمال القرصنة في مطلع القرن السابع عشر.

واحتفـــى مهرجـــان القراصنـــة الثالث بتاريخ المدينة التـــي كانت قاعدة للقراصنة البربـــر الذيـــن كانـــوا يسطون علـــى سفن معظمها أوروبية ويغيرون على قرى أوروبية منذ بداية القرون الوسطى إلى أوائل القرن التاسع عشر، حيث شارك عشرات الراقصين والعازفين وفناني السيرك المحليين في عرض مثير خلال المهرجان حضره آلاف المتفرجين الذيـــن عاشوا مجددا جو أساطير القراصنة الذين صنعوا شهرة مدينتهم عالميا.

ويهدف المهرجان الذي انطلق عام ٢٠٠٦ ويقام مرة كل عامين إلى الترويج لمدينة سلا التي كانت ميناء مهماً وأصبحت الآن مدينة فقيرة، إلى جانب ذلك فهو يعد فرصة لفناني المغرب الشبان ومنهم طلاب المدرسة الوطنية لفنون الســـيرك وهي الوحيدة من نوعها في المغـــرب، وقد استغرق مصممـــو الرقصات سبعـــة أشهر للإعـــداد لعروضـــ المهرجان التي قدمها طـــلاب المدرسة الوطنية لفنون الســـيرك وطـــلاب معهد الرقصـــ والفنون المعاصرة بالربـــاط ومعهد الرقص في سلا، حيث قدمـــت عروض هـــذا المهرجان أمام حصـــون المدينة القديمة، وقلعتها التاريخية التـــي تطل على البحر، بهـــدف تقديم هذه الأماكن التي شكلت إلى عهد طويل الذاكرة التاريخية لسكان هذه المدينة.(٦)

نظم البريد في العالم الإسلامي:

أصدر مشـــروع «كلمـــة» للترجمة التابع لهيئـــة (أبوظبـــي) للثقافـــة والـــتراث كتاباً بعنوان «النظـــم البريدية في العالم الإسلامي قبل العصر الحديث» لآدم ج. سيلفرشتاين.

ويقـــدم الكتاب وصفا لأساليب الاتصال الرسميـــة التـــي وظفت في الشـــرق الأدنى منذ عصور ما قبـــل الإسلام وحتى العصر المملوكي، ويوضح كيف وضع الحكام النظم البريدية ليبقوا سيطرتهم على أصقاع واسعة من الأرض، وكيف مكنت هذه النظم - التي ظهرت قبل قرون من اختراع محركات البخار أو السيارات- تدويراً سريعاً وفاعلاً لبضائع مختلفة: فمـــن البشر والأحصنة إلى الفواكه الغريبـــة والثلج، إضافـــة للأخبار والرسائل بالطبع.

وتناول الكتاب دور تقنية الاتصالات في التاريـــخ الإسلامي وكيـــف ساهمت الثقافة

البدويــة في بنــاء إمبراطوريــة في الشــرق الأدنى، كما تعرضــ للطرق التي ميزت من خلالها الدولة الإسلامية الناشئة نفسها عن الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية اللتين سبقتاها.

جدير بالذكر أن الكتــاب يعد مساهمة لتاريــخ نظــم الاتصــالات في العصر قبل الحديث في عالم الشرق الأدنى طال انتظارها، ويعــد مؤلــف الكتــاب آدم ج. سلفرشتاين باحثا ومحاضرا في دراسات الشرق الأوسط والأدنــى وزميل كليــة «كويــن» في جامعة «أكسفــورد» وتعنــى اهتماماتــه البحثيــة بالثقافة والحضــارة في الشرق الأدنى منذ القدم وحتى العصــر الإسلامي قبل العصر الحديث، أما مترجــم الكتاب عزيز صبحي جابــر فهو مترجــم أردني يعمل محاضرا في قسم اللغــة الإنجليزية وآدابهــا في جامعة «اليرمــوك» الأردنيــة وحاصــل على درجة الماجستير في اللغويات من جامعة اليرموك.. وترجم عزيز صبحــي لمشروع «كلمة» التابع لهيئة (أبوظبــي) للثقافة والتراث عدة كتب منهــا كتاب «النقــد البيئــوي» لمؤلفه جرج جــرارد وكتــاب «البومة» لمؤلفــه ديزموند مورس.(٧)

التراث عبر الحدود:

شاركت هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث في المؤتمــر الــدولي الذي نظمتــه منظمة اليونسكــو في بانكــوك حــول /التراث عبر الحــدود/ بوفــد ترأســه الدكتــور ناصر علــي الحميري مديــر إدارة التراث المعنوي بالهيئة.

وشاركت في المؤتمر ٢٨ دولة من منطقة آسيا والمحيــط الهادي إضافة إلى خبراء في التراث من أفريقيا وأميركا اللاتينية وأوروبة فضــلاً عن مراقبين وأكاديميين من أوروبة، إلى جانب مجموعة من الأكاديميين وممثلين عن المنظمات غير الحكومية.

ويأتي تنظيم هــذا المؤتمر بهدف تعزيز أشــكال التعاون بين الدول ومنع الصراعات بينها وحثها ومساعدتها على تقديم ملفات مشتركة لتسجيــل عناصر تراثها المعنوي في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية في اليونسكو.

واستعرض الوفد الإماراتي خلال أعمال المؤتمر تجربة الإمــارات الرائدة ونجاحها في تقديم ملــف دولي غير مسبوق من حيث الجودة وعدد الدول المشاركة فيه.

وأوضــح الدكتــور ناصر الحمــيري أن هيئة (أبوظبي) للثقافــة والتراث وبالتعاون مع نادي صقــاري الإمارات وهيئة البيئة - (أبوظبــي) استطاعت حشد الطاقات وحث ١٢ دولــة على المشاركــة في هذا الملف هي خمســ دول مــن أوروبة وخمســ دول من العــالم العربي ودولتان من آسيا، موضحاً أن إعــداد ملف دولي يعتبر عملية شاقة تتطلب الكثــير من الصبر والجهد وإجراء اتصالات

مع الدول المعنية، فضلاً عن مساعدة بعض الدول والتأكد مـن إعدادها لقوائم التراث لديها وإمكاناتها وخططها المستقبلية لصون تراثها المعنوي بشـكل عام والصقارة بشكل خاص، لافتـاً إلى المكاسب المتعـددة التي تحصـل عليها الـدول المشاركـة في الملف الدولي، وإلى التحديات التي تعترض عملية التسجيل الـدولي، وخاصة الملفات المشتركة الكبيرة.

وتمَّ أيضاً خـلال المسابقة تقديم ملفين آخريـن دوليـين لعرضـ المكاسـب الهامة مـن الملفات المشتركة وهمـا ملف «النيروز» الـذي شاركـت فيـه ٧ دول آسيوية، وملف التانغـو الذي شاركت فيه كل من الأرجنتين والأورغـواي، وأوضـح وفد الإمـارات في مداخلته أن أبرز المكاسب التي تحققت للدول المشاركة في الملـف المشترك هي احتفال كل دولـة بتسجيل العنصر التراثي في اليونسكو والذي يعد مكسبا ليس لها فحسب بل للعالم أيضـاً، مشيراً إلى أن إعـداد الملف الدولي يلعب دوراً هامـاً في تشجيع الحوار الثقافي بين الأمم.[٨]

مؤتمر دولي عن استخدام الإشارة:

احتضنـت مدينة فرانكفـورت الألمانية فعاليـات المؤتمر الدولي الـذي نظم تحت عنـوان استخدام الإشـارت في التعبير عن النفسـ بمشاركة نحو ٣٠٠ خبير من معظم أنحاء العالم في مسعى من الخبراء المشاركين في هـذا المؤتمـر إلى نقل نتائـج أبحاثهم للمجتمـع للاستفادة منهـا حيث تبين على سبيل المثال أن استخدام الإشارة في الحديث مع الأطفـال يساعدهم على فهـم الأشياء بشـكل أسرع، وأنـه من الممكـن أن يساهم التدريب على أيدي الخـبراء المختصين في مساعدة الأطباء على التفاهم مع مرضاهم بشـكل أفضل حسب رأي موللـر، الأستاذة في علـم اللغة التطبيقـي بجامعة فيادرينا، التي أشارت إلى أنها اكتشفت خلال الأعوام الماضيـة بمساعدة فريق من الباحثين تحت إشرافها أن هناك نوعين من الإشارات التي تستخـدم في التعبير عـن النفس وقالت إن اليدين تقلـدان شيئا ما، كحركة على سبيل المثال «وكأنه عرض حي لحدث».

وأكـدت موللـر أن الإنسـان يمكن أن يتدرب علـى القيام بإشـارات بعينها حيث باستطاعتـه التعرف علـى أي مذيع تدرب على القيام بحركـة بعينها، إذ يظهر للعيان أن يديه لا تتحركان بعفوية، بل بعد أن يكون قد نطق بالكلام الذي يريد تأكيده من خلال الإشارة».

وكانت موللر أجرت دراسة عن الأسبان والألمان فيما يتعلق باستعانتهم بالإشارات في الحديث فوجدت أن الأسبان أكثر إشارة أثناء الكلام من الألمان، يذكـر أن الأبحاث حول استخـدام الإشارات في التعبير بدأت بشكل منهجي منذ تسعينيات القرن الماضي.

وتعتبر مدينة فرانكفورت على نهر الأودر شرق ألمانيا مركز أبحاث الإشارات الجسدية التي تستخدم بتلقائية للتعبير عن النفس كوسيلة إضافية للسان. وتحتضن هذه المدينة أحد أكبر مراكز الأبحاث في هذا المجال على مستوى العالم.(٩)

روائي من أمريكا اللاتينية:

يعد كارلوس فوينتس واحداً من أشهر روائيي أمريكا اللاتينية، ولد عام ١٩٢٨ في بلدة «باناما» حيث كان والده يباشر عمله الدبلوماسي كمستشار ثقافي للمكسيك في الولايات المتحدة الأمريكية، وقضى طفولته وصباه في أماكن كثيرة من القارة الأمريكية: واشنطن، مكسيكو سيتي، مونتفيديو، بيونس أيرس، سانتياجو، وريديوجانيرو.

بعد حصوله على الإجازة في الحقوق انتقل فوينتس إلى جنيف لمتابعة دراساته في الدكتوراه، ثم شغل مناصب إدارية في بلده المكسيك، وعين سفيرا لبلاده في فرنسا من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٧، ثم استقال من منصبه احتجاجاً على تعيين الرئيس المكسيكي السابق دايات أوردات سفيرا للمكسيك في أسبانيا لمواقفه الفاشية ومجازره التي طالت أبناء المكسيك، واستقر في باريس فترة من الزمن ثم شغل منصب أستاذ في جامعتي برنستون وهارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية.

ويقول فوينتس في شهادة له عن كتاباته:

«بدأت في تشيلي بخربشة قصصي الأولى، تعلّمت بأن عليّ الكتابة باللغة الأسبانية، وعرفت إمكانات هذه اللغة لقد أوصلتني وللأبد إلى تلك الأرض الحزينة والرائعة، إنها تحيا في داخلي، وحولتني إلى رجل يعرف كيف يحلم، ويحب، ويحتقر، ويكتب باللغة المولع بها، بالأسبانية فقط، كما أنها تركتني منفتحا على علاقة متبادلة ومتواصلة مع الواقع».

وقد صدر لكارلوس فوينتس في بداياته وبواكيره الأولى مجموعة «الأيام المقنعّة» وهي عبارة عن مجموعة قصص سوريالية صدرت عام ١٩٥٤، أتبعها برواية «المنطقة الأكثر شفافية» عام ١٩٥٨، وقد صور فيها نموذجا حيا من سكان العاصمة مكسيكو سيتي وشخصياتها التي عاشت فيها منذ ثورة عام ١٩١٠، كما صدر له بعد ذلك رواية «الضمير الحي» عام ١٩٥٩، وفيها يغوص فوينتس في واقع خلفية لشخصية قروية من شخصيات روايته السابقة بأسلوب قصصي أكثر مباشرة وتوازنا مع الواقع.

وتعتبر روايته موت أرتيميو كروز، الصادرة عام ١٩٦٢، أهم إنجازاته الروائية، بعدها جاءت مجموعة نشيد العميان ١٩٦٤، ثم رواية منطقة مقدسة ١٩٦٧، وعيد ميلاد ١٩٦٩، ثم منزل ببابين ١٩٧٠، وأرضنا ١٩٧٥، وعائلة نائية ١٩٨٠، ثم تأتي رواية كرينكو العجوز ١٩٨٥، لتحقق لفوينتس مجدا آخر

في هــذا المجال، أتبعهــا برواية قصيرة هي روايــة أورا ١٩٨٦، ورواية كريستبال نوناطو ١٩٨٧، وكل القطط خلاسية١٩٩٠.

كما صدرت له روايــة باللغة الإنجليزية هي رواية المرأة المدفونة عام ١٩٩٤، وكتاب الحملــة على أمريــكا ١٩٩٤، ورواية الزمن المكسيكــي ١٩٩٥، ثــم مجموعــة قصصية تحت عنــوان شجرة البرتقــال، ودراسة في القصة المعاصرة في أمريكا اللاتينية ١٩٧٠، ثم كتاب سيرفانتيس وهــو عبارة عن كتاب في نقــد قــراءة سرفانتســ ورائعتــه «دون كيشوت».

وقد حصل كارلوس فوينتس على العديد من الجوائز أهمها: الجائزة الدولية للرواية من فنزويلا عــام ١٩٧٧، والجائزة الوطنية لــلأدب بالمكسيــك عــام ١٩٨٤، وجائــزة سرفانتيســ الأسبانية عام ١٩٨٧، وقد تردد اسمــه مــرارا كمرشح جديــر بجائزة نوبل للآداب.[١٠]

متحف لجان كوكتو قرب باريس:

بعــد أكثر من أربعة عقــود على رحيله، مازال الشاعر والفنان الفرنسي جان كوكتو يشغــل الفضاء الثقافي بفضل ما عرف عنه مــن مواهب متعــددة تراوحت بــين الرسم والتصميــم والكتابــة المسرحيــة والإخراج السينمائي، وبهــذه المناسبة احتفلت باريس بافتتاح متحف لتخليد ذكرى الرجل ضئيل.

وهــذا المتحف الذي تمّ افتتاحه في بلدة «ميلي لافوريــه» الواقعة علــى مسافة ٥٠ كيلومــترا إلى الجنوب مــن باريس، هو آخر بيــت أقام به كوكتــو ودفن فيــه وكان بناء مهدمــا، عندمــا اشتراه عــام ١٩٤٧، وقام بترميمه والإقامة فيه مع رفيقه الممثل جان ماريه، وكتب فيما بعد أن هذا البيت كان في انتظاره، وهو سيجعل منه ملجأه البعيد عن صخــب المدينة. وبعد انطفاء كوكتو، عرفت يــد الإهمال طريقها إلى المنزل، مجددا، إلى أن التفت إليه رجل الأعمال بيير بيرجيه، عام ٢٠٠٢، واشتراه بالتعــاون مع بلدية المنطقة لكي يجعل منه «متحفا وموطنا للذاكرة».

يقيــم في الطابق الأرضــي من المتحف، الصالــة التــي كان فيهــا كوكتــو يستقبل أصدقــاءه الكثيريــن. أما الطابــق العلوي ففيه مخدعــه ومكتبه، وقد جرى ترميمهما وإعادتهمــا إلى ما كانا عليــه قبل أكثر من نصف قرن من الزمــان. وتمت إزالة بعض الجدران لفتح مساحة أوسع لعرض الصور واللوحــات والتخطيطات التــي كان كوكتو حريصــاً علــى تحبيرهــا في كل لحظة من لحظات فراغه وتأملاته.

ومن بين حجرات القصر المؤلفة من ١٢ حجرة، خصص ووندرمان واحدة جعل منها صومعــة لإبداعات جان كوكتــو الذي كان يمثل، في نظر الكثيريــن، الريادة والابتكار، وفرش جدرانهــا وأرضيتها وسقفها بالمئات من تخطيطاته ورسومه.[١١]

معرض للمصورات النادرة:

أقامت المكتبة البريطانية في لندن معرضاً لخرائط الجدران، تضمن مجموعة من كنوز الخرائط النادرة التي تمتد من عام ٢٠٠ قبل الميلاد وحتى الزمن الحالي، وذلك من بين مجموعتها التي تضم ما يقرب من ٤,٥ مليون خريطة.

ويذكر أن تلك الخرائط كانت قبل عام ١٨٠٠ تعلق جنبا إلى جنب مع اللوحات وأعمال النحت على جدران القصور والمنازل الكبيرة، وقد جرى تقسيم الخرائط في المعرض طبقا لنوع المكان الذي كانت يوما تعرض فيه، وأقدم خريطة موجودة في المعرض هي لجزء من تخطيط لشارع روماني محفور في الرخام. وباعتبار الخريطة جزءا من لوحة عرضها ١٨ مترا كان الهدف منها هو تجسيد قوة روما والإيحاء بالمهابة.

ومن ضمن المعروضات صورة فوتوغرافية لأكبر خريطة عالم معروفة للعصور الوسطى بعد ترميمها والتي كانت دمرت اثر قصف لقوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، كما جرى أيضاً عرض «أطلس كلنكه» المدون في موسوعة جينيس للأرقام القياسية إذ يبلغ طوله ١,٧٥ متر وعرضه ١,٩ متر وهو أكبر أطلس في العالم، إضافة عرض ملصق لرئيس الوزراء البريطاني السابق ونستون تشرشل في صورة أخطبوط مدخن للسيجار يسعى إلى احتلال أفريقيا بأذرعه مما يوضح القوة البصرية للخرائط في الدعاية السياسية.(١٢)

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW. SANA. ORG.
٢- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM
٣- وكالة الأنباء الجزائرية WWW.APS.DZ
٤- وكالة أنباء الإمارات WWW. WAM. ORG. AE
٥- موقع العرب أونلاين WWW. ARABONLINE. CO.
٦- وكالة المغرب العربي للأنباء WWW. MAP. CO. MA.
٧- وكالة الأنباء الكويتية «كونا» WWW. KUNA. NET.
٨- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.
٩- موقع البوابة WWW. ALBAWABA. COM.
١٠- موقع نسيج WWW. NASEEJ. COM.
١١- موقع القناة WWW. ALQANAT. COM.
١٢- وكالة رويترز WWW. REUTERS. COM

كتاب الشهر



العلمانية في المشرق العربي

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن ❊

«العلمانيــة في المشرق العربي» كتاب حديث صادر عن «دار بترا» بدمشق. وهــو مجموعة من الأبحــاث ووجهات النظر، قدمهــا مجموعة من الباحثين والمفكريــن العرب المعاصرين في مشرق الوطــن العربي. وعلى اعتبار التباس مفهــوم العلمانية تاريخياً في البحث الفكري والمنهجي العربي والغربي في آن معاً. فإن دراسة هــذا المفهوم وتحديد مفاهيميته وآليات عمله من الضرورة بمكان لمن يرى في العلمانية المخرج لإحدى إشكاليات الفكر العربي المعاصر.

يرى الباحــث السوري «وائل سواح» أن العلمانيــة في المشرق العربي هي إمــا مفهــوم مستورد مــن الغرب، أو مطلب مــن مطالب الأقليــات الدينية

❊ باحث سوري.

والطائفية. ولكن هل ذلك مثلبة أو نقيصة. أليست مفاهيم العشرات ممن نتعايش معهم ونعايشهم هي من الغرب! هل علينا أن نرفضها جميعاً كما فعلت حركة طالبان، أم نقلبها ونتعايش معها تحت تسميات متعددة.. هل كون العلمانية مطلباً من مطالب الأقليات هو مثلبة، أم أن العلمانية هي مطلب كل باحث عن حقه في الوجود مقابل من يرى فيها تهديداً لوجوده؟

عشرة كتاب ومفكرين ومثقفين متميزين ورجال دين ساهموا في صياغة هذا الكتاب. قدموا تعريفات متكاملة للعلمانية، وناقشوا منشأها، وبحثوا في روّاد العلمانية المشرقية، وأن تكون العلمانية هي الحل للإشكاليات الطائفية والمذهبية والدينية في المشرق العربي.

تحت عنوان: العلمانية والدين في العالم وفي التاريخ، قدمت مداخلات ثلاث لكل من المفكرين: الشيخ جودت سعيد وهو مفكر إسلامي سوري، له الكثير من المؤلفات والكتب في الفقه الإسلامي، وهو من روّاد تيار اللاعنف. وجان داية، كاتب وباحث لبناني، له عدة أبحاث وكتب. وإبراهيم الموسوي، رئيس تحرير مجلة الاعتقاد اللبنانية. يتساءل جودت سعيد كيف نجعل الدين علماً؟ وكيف يصير الدين علماً؟ يمكن للدين أن يتطور كما تطورت معلومات الإنسان. ففيما مضى كان الإنسان يأكل لحم الإنسان يقدم القرابين البشرية.. والمسلمون يقولون بقتل المرتد.. وبحسب الكتب السماوية فإن الكون لم يتوقف خلقه بل لا يزال يُخلق ويزداد في خلقه. ولما خلق الله الكون في ستة أيام قال للناس أخضعوا وتسلطوا.. والكتب السماوية كتب مستقبلية. وعلى هذا فللإنسان فيها آخرتان: آخرة في هذه الدنيا، وهي في القدرة على معرفة الخير والشر، وتغلب الخير على الشر. والآخرة الثانية أكبر وهي ما بعد هذا الكون، وستكون في الجزاء بالعدل والإحسان.. والإنسان بقدرة الفهم كشف السنن في الوجود بل وصل إلى تقدير الزمن الذي بدأ فيه (الكون). وبقدرة الفهم نسخَ أي معرفة تبيّن له أنها خاطئة. ومن هنا كان لا إكراه في الدين. لذلك لك حرية الاعتقاد ولكن ليس لك حرية فرض اعتقادك بالخطأ وبالقوة.. إننا يجب أن نعود إلى عقلنا في تفسير الظواهر حولنا والحكم عليها، وعقلنا يجب أن نبنيه على مكتشفات العلوم ومنجزاتها وليس على السحر والخرافات.

«علمانيو بلاد الشام المسلمون في عصر النهضة» هو عنوان البحث الذي قدمه المفكر العربي «جان داية» يرى أن عصر النهضة في بلاد الشام قد وُلد في العام /١٨٤٦م/ بولادة باكورة الجمعيات الثقافية في عموم العالم العربي، والتي أطلق عليها مؤسسوها، ومنهم المعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي اسم «مجمع التهذيب». ويقسم الباحث هذه المرحلة التاريخية إلى أقسام

ثلاثة: الأول على امتـداد المرحلة العثمانية والثاني بُعيـد الاحتلال الإنكليزي لفلسطين والثالث منذ العهود الاستقلالية.

في المرحلـة العثمانية ظهرت شخصيات من مثـل «عبـد الرحمن الكواكبـي» الذي طالـب بفصـل الدين عـن الدولـة. وكان للعلمانيـة وعـورة في الطرح بـين المسلمين كمـا حصل في الحوار بين مسلم حر الأفكار والإمـام محمد رشيد رضا. وهذا المسلم حُرّ الأفـكار كان الإمام عبد الرحمن الكواكبي. الـذي كتب معظـم مقالاته وكتبـه بأسماء مستعارة. وظـل الكواكبي كذلك حتى حلول المستعمـر الأنكلـو فرنسي محـل العثماني، الذي رغـم سيئاته إلاّ أنّه أقـر مبدأ فصل الديـن عن الدولـة مع حمايتـه للعلمانيين المسلمـين. وسمح بإنشاء حـزب سياسي في بيروت باسم «الاتحـاد الديمقراطي» الذي جمع فيه المتنورين من المسلمين والمسيحيين وكثرت الأحزاب العلمانية في المشرق العربي وخاصة في سورية ولبنان.

تحـت عنـوان «العلمانيـة في الخطاب الإسلامي» يطرح الباحث «إبراهيم الموسوي» مداخلته التي يرى فيها وعورة تحديد مفهوم «العلمانيـة».. وقد طغى الموقف السلبي من العلمانية على مجمل الخطاب الإسلامي في القـرن العشرين والذي تمحـور في النقاط التالية: «العلمانية نتاج الحضارة الغربية، إن مصدر التشريع ومصـدر الحكم هو البشر، النمـوذج العلماني يخاطـب البعد المادي في



الإنسان، الحضـارة العلمانية المادية دموية ومأساوية، الغرب هو مكان نشأة العلمانية».. وقد قدم الباحث ثـلاث مداخلات معرفية هـي: الشيخ محمـد مهدي شمسـ الدين، والشيـخ راشـد الغنوشـي، والدكتور حسن الترابي.

ويختـم الباحـث بالقول: إننـا قادرون علـى التوصل إلى صيغة تقـوم على حيادية مؤسسـات الحكـم والإدارة كمـا يحلـو للمرحوم الشيخ شمس الدين تسميتها علمنة الدولة، برأيي أنها علمنة السلطة لا الدولة، مـع حفاظ المجتمع الأهلي على الخصائص المختلفة لمكوناته الدينية والثقافية.

❁ ❁ ❁

الملـف الثـاني جاء تحت عنـوان «جولة أفـق في العلمانيـة وشأن الحضـارة». وقد قدمت فيه ثلاث مداخـلات هي للباحثين:

عزيــز العظمة ومحمد حبشــ ومحمد كامل الخطيب.

تحت عنــوان «جولة أفــق في العلمانية وشأن الحضارة» قدم الباحث «عزيز العظمة» مداخلته بتأكيده على أهمية الزمن في الكشف عن التخلف الذي تعيشه الأمة العربية، وعن إمكانية تجــاوز ذلك، كما شــأن الكثير من الأمم الأخرى. على الرغــم من الصعوبات التي تقف في وجه هذا التقدم.. لقد اجتنينا الكثــير من سمــات التقدم علــى امتداد ما يزيــد على قرن. باتساعات وأعماق متفاوتة مؤكــداً على أمثلة: الفهم المؤسساتي والمدني للدولــة، وأن السياســة توافــق وصراع على المصالح البشريــة.. وأن الحرية الشخصية مكسب بالغ الأهميــة. إن كل ما قدم إن دل على شيء فهو يدل على ما يسمى بالعلمنة، التي تعني مدنيــة القانون، ومدنية السلطة، مرجعية المصلحة والعقــل في أمور المجتمع والدولة والسلوك، واعتمــاد العلم والتاريخ والجغرافيــا، واتخاذ المدارســ والجامعات بــدلاً عن حلقات المساجد والأديرة، إلى آخر ذلك مما يمكن أن يذكر.

الباحث الســوري محمد كامل الخطيب، قدم مداخلته تحــت عنوان «الوعي الشقي» بقولــه: إن الوقائــع والضــرورات الحياتية والتطور والتغير والشكل الحقيقي لمؤسسات الدولــة والمجتمع وممارساتهــا اليومية أكبر وأقوى من كل فكرة حتى لو تقنع هذا الفكر بألــف حجــاب وجلباب فوقائــع الحياة في جريانها أقوى حتى من أفكارنا ومعتقداتنا.. ثم ينتقل إلى تحديد المصطلحات التاريخية التالية:

– العقلانية: تفكــير فلسفي، والعلمانية تفكــير اجتماعــي، والديمقراطيــة تفكير سياسي، والمواطنة عقــد اجتماعي سياسي بين الأفراد لتشكيل المجتمع.

– لقد بدئ بالعمل في مفهوم الديمقراطية منــذ عشرينيات القــرن الماضي في مقالات لأمين البستاني وعلي عبد الرازق.

– أمــا مصطلــح العقلانية فهــو يعود إلى بدايــة عودة التفكــير الفلسفي إلى هذا المجتمع في القرن العشرين وظهر في وضعية زكي نجيب محمــود وعقلانية فــؤاد زكريا وماركسية سمير أمين وصادق العظم ومهدي عامل والعروي، ووجودية عبد الرحمن بدوي ورينيه حبشي.

– أول إشارة للعلمانية جرت في منشورات الصراع الطائفي بين الكاثوليك والبروتستانت عام /١٨٢٤/ وكان من دعاتها: شبلي شميل وفــرح أنطــون والكواكبي وعبــد الرحمن الشهبندر وغيرهم.

– أما مفهوم المواطنة فقد جرى تحديده منــذ الطهطاوي، عندما حــدد المواطن كما يلــي: ابن الوطن المتأصل به أو المنتجع الذي توطن به واتخذه وطناً ينسب إليه.

الباحث الإسلامي «محمــد حبش» يرى في بحثــه «العلمانية في بلاد الشام الشريف» اتجاه الخطاب التنويــري في العقل العربي

اليوم اتجاهاً متفاوتاً، وتبدو الديمقراطية كلمة فصل، وأصبح الإقرار بالديمقراطية محل اتفاق نسبي بين العلمانيين ودعاة الأصولية.. وبغض النظر عن اشتقاق الكلمة فإنه من الممكن القول بأن الديمقراطية خيار أممي.

❀ ❀ ❀

الجلسة الثالثة وقعت تحت عنوان: «العلمانية بين سلطة الدولة وسلطة الدين». وقدمت فيها ثلاث دراسات للباحثين: عاطف عيطة، والمطران يوحنا إبراهيم، ومدير المعهد الدانمركي بدمشق J. Neilsen.

يرى الباحث «عاطف عيطة» في بحثه «العلمانية بين سلطة الدولة وسلطة الدين». العلمانية بمعناها الشامل، أو إذا شئت الدينوية، هي موقف نظري واضح ومحدد من طبيعة الدين، ومن طبيعة القيم والإنسان وعلاقته بالله. وهو صاحب موقف مبدئي ضد أي جماعة تؤمن أن التعاليم الدينية تشكل المرجع الأخير لكل ما له علاقة بالشؤون الدينية والزمنية بصرف النظر عن أي دين أو جماعة، وبصرف النظر عن وجود رجال دين أو عدم وجودهم.

أما في مسألة تشكل مفهوم السلطة، فما لا شك فيه أن الطبيعة البشرية والسلطة متلازمتان، ولا وجود لمجتمع إنساني من دون سلطة، والسلطة في طبيعتها سابقة على وجود الدولة وهي لذلك قوة إرادة لحكم جماعة من الناس.

إن منشأ السلطة في المجتمع ضروري ضرورة المجتمع الإنساني. والدولة بما أنها شأن سياسي وثقافة هي أيضاً شأن اجتماعي، بمعنى أن لا وجود للسياسة من دون الاجتماع، ولا وجود للدولة إلا في المجتمع.

الإسلام «دين ودنيا» هذا ما آمن به المسلمون وهذا ما أقره الدارسون عرباً وغير عرب.

الانتقال الهادئ من التحالف بين السلطتين الدينية والسياسية إلى الاستقلال يعطي للسياسة الانفتاح الكامل لكل مايتعلق بشؤون الدنيا دون تجاهل الأمور الأخلاقية والروحية.

«المطران يوحنا إبراهيم» في مداخلته «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». يقول: المسيحية غربية كانت أو شرقية ناقشت موضوع فصل الدين عن الدولة منذ أيام السيد المسيح « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». فقيصر مسؤول عن حفظ الأمن والنظام والسلام والسهر على مصالح الناس وحماية مملكته من الأعداء.

إذا كان الهدف هو أن نبني دولة ديمقراطية تتناغم فيها تطلعات كل الشرائح والأطياف والتيارات، يجب أن يكون هناك احترام متبادل بين السلطتين السياسية والدينية، لأن غاية السلطتين السياسية والدينية في النتيجة هي الإنسان وكيف نستطيع أن ندخله في دائرة السعادة.

الباحث «برغن نسلن» مدير المعهد الدنمركي بدمشق يرى في مداخلته «العلمانية والتحديات الجديدة». أنه في عصر المماليك كان لقب الظاهر بيبرس «ركن الدين والدنيا». وهذا يعني التفريق بين الطرفين معرفياً. أما في أوروبة فقد جرى ممارسة هذا التفريق من خلال سيطرة الكنيسة على الدولة وبالتالي المجتمع أو بالعكس.. وفي الدساتير الأوروبية فإن كلمة الدولة تعني العلمانية.

❁ ❁ ❁

الجلسة الرابعة كانت تحت عنوان: «العلمانية كإشكالية إسلامية- إسلامية» وقدِّمت فيها مداخلتان الأولى للمفكر العربي جورج طرابيشي والثانية للباحثة الدانماركية «M. Crone».

يرى الباحث والمفكر العربي «جورج طرابيشي» في بحثه «العلمانية كإشكالية- إسلامية- إسلامية». اتفاق خصوم العلمانية في الساحة الثقافية العربية المعاصرة على اعتبار العلمانية نموذجاً لإشكالية مستوردة. وهذا ما أشار إليه الباحث «برهان غليون» في كتابه «المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات» عندما يقول: «العلمانية إشكالية مصطنعة ومنقولة عن الغرب». كما أنها مسألة أقليات وطوائف. وقد لا نماري إذا قلنا إن العلمانية في وجه من وجوهها تمثل مطلباً للأقليات في إطار المساواة أمام القانون. وهي قضية إسلامية ضمن إطار الطوائف الإسلامية وتمثلها في الدولة والمجتمع. وأن قراءة مطولة في التاريخ العربي- الإسلامي تؤكد خطورة وجود هذه الإثنيات والطوائف والأقليات.. وإننا إن نقول بالعلمانية والديموقراطية كحل فإننا نقول بثورة عقلية مرافقة. وهذا مسار مستقبلي يفرض نفسه بمزيد من الإلحاح في زمن الارتداد.

الباحثة «ماني كروني» ترى في بحثها «العلمانية الدينية» أن فكرة أن تكون العلمانية حلاً للنزاع الطائفي مقتبسة من التاريخ الأوروبي. ولكن على الجميع أن يقرأ الجميع حتى نتمكن من رؤية جديدة للعلمانية تكون نقطة بداية جيدة للتعايش السلمي بين المذاهب والطوئف. ويمكن قراءة التجربة التركية «كمال أتاتورك» كنموذج لعلمانية شرق أوسطية. إن المجتمع العربي الإسلامي اليوم أدى إلى ظهور حركات دينية وسياسية في الفضاء الشعبي، نحو نظام علماني يستطيع أن يدخل الدين في تجربته السياسية، ضمن إطار فهم تعددي للأنساق المعرفية.

❁ ❁ ❁

حاولنا في عرضنا هذا، الوقوف على أهم النقاط المعرفية التي احتواها الكتاب، والتي تتضمن اختلافات بينة في وجهات النظر، ولكنها مهمة لفهم جذور المشكلة العلمانية في المشرق العربي، والرؤية المعاصرة لروادها، والطرح المنهجي والأبستيمولوجي المعرفي الذي تقدمه.



الأغنية العربية لا حسد

رئيس التحرير

سقى الله أيام زمان.. حين كانت الأغنية العربية فناً، يشكّل نسيجاً جميلاً راقياً، متكاملاً، بين كلمة معبرة، وصوت مدروس، ولحن أصيل متقن.. لقد تغيّر حال الأغنية كثيراً في هذه الأيام، فقد أصبحت تتنازعها أهواء ومشارب وأحوال عدة متناقضة.. كل منها أسوأ من الأخرى.

في الماضي كان آباؤنا يشتكون من سطوة الغناء الرسمي الذي لا يكفّ عن سكب الدموع على فراق الحبيب وخصامه وهجرانه، ورؤية خياله وأطيافه في المنام (محلاه يا وعدي).. لكن حتى هذا الشكل الرتيب الذي

نفر منه وكرهه آباؤنا، صرنا نحن (جيل الوسط) نشعر بالحنين تجاهه، كونه صار عنصراً من عناصر التراث الغنائي العربي، الذي نفتقده هذه الأيام!! وإذا كان هذا هو حال آبائنا مع الأغنية التي لا يستطيع أن يجد أحد منها فكاكاً.. فما هو حال أجيالنا؟!.

بكل أسف، صرنا نستمع لمطربين، لا حصر لهم، تفرض علينا أصواتهم وأشكالهم وحركاتهم وصرعاتهم في الإذاعات والقنوات الفضائية.. بل صارت بعض القنوات الفضائية، تفرد لهم بمناسبة ومن غير مناسبة، الساعات الطوال للحديث مع الجمهور مباشرة على الهواء، فيما يتساءل المرء بحيرة وتعجّب من هؤلاء، ومتى ظهروا؟ وصاروا نجوماً في عالم الفن والغناء.

هذا المطرب يقول: سأعمل ثورة في عالم الغناء، وهذه المطربة تقول: أنا الوحيدة التي جدّدت في شكل الأغنية العاطفية الرومانسية، وهذا آخر يقول: أنا من انطلق بالأغنية العربية إلى العالمية، وعند العودة إلى كل ما يقدّم وينتج ويبث من «أغنيات» وأشرطة «فيديو كليب» لا نجد سوى الصاجات وهي تردح على أنغام ركيكة متكررة بشكل يبعث على الملل إلى جانب كلمات مبتذلة لا معنى لها في أحسن الأحوال.

السؤال الذي يطرح نفسه: كيف يقف المرء على حقيقة هذا المشهد المثقل بالمئات من المطربين والمطربات، الذين صار الكثير منهم يقبض من وراء إحياء حفلة واحدة في ليلة واحدة مبلغاً يعادل ما يتقاضاه طبيب أو محام أو مهندس في عشرين سنة (اللهم لا حسد)؟!..

المهتمون بالشأن الغنائي يقولون: إن النزعة الشبابية كانت وراء تراجع مستوى الأغنية العربية المعاصرة، ولكنهم في الوقت ذاته يقولون: لا تظلموا الأغنية الشبابية فقد غنّاها عمالقة مثل: محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وأم كلثوم ومحمد فوزي وغيرهم، وما زالت أغنياتهم الشبابية ترددها الجماهير انطلاقاً من كلماتها الجيدة، كما أنهم يرجعون سبب تراجع الأغنية الشبابية إلى عدم وجود رسالة واضحة في مضمونها، ومع ذلك فإنهم متفائلون

بتقدم الأغنية المعاصرة بخطى كبيرة في الفترة الحالية انطلاقاً من أن المستمعين بدؤوا يعودون بقوة إلى الطرب الأصيل الذي يغنيه مطربون حقيقيون في بعض البلدان العربية، اعتماداً على لغة عربية فصيحة، وألحان جيدة وشبابية في الوقت ذاته، بعيداً عن الرقص بالصاجات.

من خلال مقارنة بسيطة، كيف كانت الموسيقا العربية قبل (٣٠ أو ٤٠) سنة، وكيف أصبحت الآن.. ندرك جيداً إلى أي مدى من الإفقار وصلت إليه.. في المرحلة السابقة، كان للموسيقا العربية أشكال موسيقية عديدة، كان عندنا الموال والمونولوج والقصيدة والطقطوقة المتطورة جداً التي تستطيع أن تحمل كل الأبعاد الموسيقية والفكرية والإنسانية والرومانسية والوجدانية.. وكلما كان الفنان يمتلك موهبة حقيقة كبيرة ساعده هذا القالب أكثر وأبدع بطريقته.

في وقتنا الراهن لا يوجد غير الطقطوقة.. وهذا إفقار من ناحية الشكل الموسيقي، والمضمون.. ترى ماذا تقدم هذه الطقطوقة، وما هو مستواها؟ ببساطة فإن الطقطوقة هي شكل موسيقي، عبارة عن «كوبليهات» بين كل «كوبليه» والآخر يأتي المذهب الذي يتكرر.. والآن نجد كل هذه «الكوبليهات» تنتج على لحن واحد.. متى كانت الطقطوقة العربية على لحن واحد..؟ كانت كذلك قبل عام ١٩٣١، يعني عادوا بنا باسم التطور، ثمانين سنة إلى الوراء، يقولون هذا هو (رتم) العصر، ولكن أين المادة الموسيقية؟! لقد ذهبت في خبر كان، وهنيئاً لنا هذا الواقع الذي لا نحسد عليه، وماذا في مقدورنا أن نفعل أمام فضائيات تلتهم كل شيء يومياً، ولا تميّز بين الغث والثمين.